عَبْدُاللّٰهِ القَصِيمِي

الإنسَانُ يَعصِي ..
لهَذا يَصنع الحضارات

انه لولا أفراد عباقرة عصاة قليلون يجيئون كولادة الشيء من غير أبويه أو كولادة الشيء بلا أبوين أو كولادة الشيء نقيضا لابويه ، ليهبوا الحياة جميع قفزاتها الجديدة المتتابعة ، ولكي يكونوا فيها العصاة الهدامين الاتقياء ، لما كان الانسان فقط أردأ الكائنات حظا بل ولكان أكثر الكائنات بلادة وهوانا وتعاسة ..

١٩٧٢

إذا انتصر النبي هزمت نبوته

« .. ان انتصار النبي هزيمة لنبوته . ان نبوته حينئذ لا بد ان تتحول من نبوة مسالمة الى نبوة محاربة ، ومن نبوة واعظة ومتسامحة وغافرة الى نبوة باطشة لاعنة معاقبة . ان النبي اذا انتصر فلا بد أن ينتقل من نبي حزين باك مصل من اجل الخطايا والآلام والصغائر والتفاهات التي يعيشها جميع الناس وجميع الاشياء الى نبي زعيم او الى نبي حاكم باطش غاضب فظ معير بالخطايا والاخطاء والآلام والصغائر بل وبالجوع والعجز . ان المهزوم المهان المولود في الهزيمة والهوان لا بد ان يصبح اقسى الجبارين اذا انتصر .. ان الحيوان الضعيف المقهور الخائف لا بد ان يتحول الى اقسى الوحوش وحشية لو انه تحول الى حيوان قوي غالب ، لو ان اظفارا وانيابا قوية نبتت في جسمه .. ان تغير الذات والوضع تغير في المذهب والتدين والاخلاق والفكر .

« .. انك اذا قلت الحقيقة وهي ليست في حساباتك او ضد حساباتك فلا بد أنك تنوي شيئا آخر . لعلك حينئذ تنوي نفيها وهزيمتها ومقاتلها بقولها وبالثناء عليها . انك قد تجعل اعلانك عن الحقيقة التي لا تريدها سلاحا او سبا او كيدا تطعن او تخيف او تهدد به انسانا او قوما . ان الناس ليقاومون الحقيقة بالحقيقة والصدق بالصدق بقدر ما يقاومون الحقيقة والصدق بالباطل والكذب .. »

★ ★ ★

مواقفنا المذهبية والاجتماعية والاخلاقية والفكرية والانسانية والدينية ليست مواقف دينية ولا مذهبية ولا فكرية ولا اخلاقية ولا روحية ولا اجتماعية ولا انسانية .

انها مواقف قبلية وعائلية ومنزلية وجسدية . انها مواقف قتال

ومتاجرة ومخاصمة ومنافسة ومعاداة . انها هي اللغة العالمية التاريخية الابدية التي يتكلمها كل انسان وكل مجتمع ليعبر بها عن هموم او آلام او احتياجات او طموح او صفات او مشاكل او ظروف قبيلته او اسرته او جسده او شهوته او تاريخه او مخاوفه . ان قبيلتك او اسرتك لتكيف وتصوغ مذهبك وتقواك والهك ونبيك ومنطقك وتعاليمك .

ان تاريخ جسدك وما فيه من علامات سعيدة او اليمة ، قوية او ضعيفة ليتدخل لصياغة مذهبك او دينك او تفكيرك او اخلاقك ، ولصياغة صفات وصور الهك وانبيائك ، وصياغة شهواتهم واهوائهم وتعاليمهم ، ولصياغة تفاسيرك لهم .

ان اخلاق جدران وابواب البيوت التي نسكن ، واخلاق شوارع وميادين الحي الذي نقيم فيه او نمر به او نواجه ، واخلاق وجوه وطعام وثياب وصحة وجمال او دمامة اطفالنا او اطفال جيراننا ، وان صور آبائنا واجدادنا الحزينة الهزيلة الشاحبة البائسة الناظرة برعب ويأس ،المعلقة بلا اتقان او اهتمام فوق فرشنا المسكونة بالحشرات وبالهموم وبالادران وبالتاريخ الحزين .

— نعم ، ان كل ذلك ليصوغ مذاهبنا واديانا وافكارنا وارباننا وانبياءنا وزعماءنا . انه ليصوغ جميع نماذجنا الفكرية والسلوكية والدينية والروحية والنفسية والاجتماعية ، بل انه ليصوغ نماذج واخلاق وتفاسير آلهتنا ومعلمينا ، بل يصوغ نياتهم ولغاتهم ومثلهم واحاسيسهم وقوتهم وضعفهم ومستوياتهم الجمالية والذاتية والنفسية والتاريخية والابداعية.

ان صفات وجودنا هي التي تفسر هؤلاء وتهبهم قيمهم وعبقرياتهم ، لا صفات وجودهم او ذواتهم هم ..

ان الفقير المحروم والضعيف المقهور قد يجدان للفقر والحرمان والضعف والقهر مزايا دينية او مذهبية او انسانية او روحية . انهما قد يجدان كل المزايا والمجد والخير والتقوى والنظافة والبراءة وحب الآلهة ورضاها في ذلك ، اي في ان يكون المرء ضعيفا مقهورا وفقيرا محروما .

انهما قد يذهبان حينئذ يلعنان ويكرهان ويشتمان الاقوياء والسعداء والاذكياء والمتفوقين والمنتصرين ، بل والمبدعين الخلاقين . انهما قد

يذهبان يتدينان ويمتدحان نفسيهما بالتحدث عن رذائل وفسوق الذكاء والقوة والتفوق والسعادة والانتصارات . ثم يذهبان يتصوران ويعلنان ويريان ان النماذج الانسانية العظيمة والخالدة كانوا جميعا ضعفاء وبؤساء ومغلوبين مقهورين محرومين .

نعم ، انهما هكذا سوف يعتقدان ويعلنان ويفخران ويفسران .

لقد كان جميع الانبياء والقديسين والقادة الانسانيين وجميع المؤمنين الاتقياء — لقد كانوا جميعا من المحرومين او المعذبين او المشوهين او المحزونين او المظلومين او المقهورين او المعتدى عليهم او الضعفاء ، او من الذين لا يملكون اي تفوق عقلي او فني او ذاتي . ان التفوق العقلي والذاتي قد ظل في كل التاريخ يحسب ذنبا او زندقة . لقد ظل هذا التفوق يحسب كفرا بالارباب وبالانبياء وبالزعماء وبالمعلمين وبالمذاهب والاديان .

اننا جميعا انبياء وقديسون وانسانيون وفدائيون ونماذج للتقوى والحب والتواضع والتسامح والحرية والايمان ، اي حينما نكون فوق الارض مع الانسان المقهور المعذب المهان المحروم المعتدى عليه .

اننا حينما نكون فوق الارض لا بد أن نكون سماويين في تعاليمنا او في دعاوانا او في نياتنا او في امانينا او في حبنا وتواضعنا وتحايقاتنا ..

... اما حينما نقفز فوق الارض وفوق سكانها ، ونرتفع فوق جاذبيتها ونصبح سادة وقادة وسعداء واقوياء وانبياء يتخاطبون مع السماء وبلغة سكان السماء ، فان كل شيء فينا حينئذ لا بد ان يصاب بالتغير العظيم .

ان جميع الاشياء لا بد حينئذ ان تصاب في رؤانا وحساباتنا بالمرض الملائم ...

ان لغاتنا ونياتنا وشهواتنا وتفاسيرنا وافكارنا وتصوراتنا ونبواتنا ، بل وعيوننا وخفقات قلوبنا ، بل وصور الاشياء والناس في عيوننا ، بل وقدرة عيونناعلى الرؤية ، بل واخلاق ومواهب عيوننا وآذاننا — نعم ، ان كل ذلك حينئذ لا بد ان يصاب بالتغير الكبير . ان اخلاق ومرائي ولغات وافكار واديان ومذاهب جميع الاشياء حينئذ لا بد أن تتغير في حواسنا واحاسيسنا وفي تقوانا .

اننا حينئذ لا بد أن نصبح في كل معانينا من أعنف السادة واقسى الطغاة الجبارين . اننا حينئذ لا بد ان نكفر عن كينوناتنا وآلامنا واوضاعنا القديمة . اننا لا بد أن نعاقبها ونكفر عنها . وان اسلوب العقاب لهـا والتكفير عنها لن يكون الا بالانتقال الى النقيض ، بأقسى وافظع اساليب الانتقال ، وأيضا بأقسى وافظع مستويات هذا النقيض .

اننا حينئذ لا بد ان ننحاز الى مواكب الارباب الجديدة العاتية الشابة البازغة بجبروت ودوي وتدليل باهظ على بزوغها وعلى انحيازنا الى هذه المواكب .

اننا حينئذ لا بد أن ننحاز الى اخلاق وافكار ومشاعر الصاعدين الجبارين الجائعين جدا الى الصعود والجبروت . اننا لا بد ان ننحاز الى ذلك بلا تدبير كما ينحاز المنطلق من جاذبية الارض الى جاذبية الكوكب او الكون الذي يهبط اليه او يصعد اليه . اليس محتوما ان تتغير اخلاق وافكار واحتياجات ونيات واحاسيس وحواس من يصعد الى القمر ويسكن فيه لاختلاف كل شيء هناك ؟

أن اقبح واوقح انواع الكبرياء والجبروت هما كبرياء وجبروت القادرين الذين ينهضون من التراب ليصبحوا تيجانا باهظة فوق هامات جميع الهامات ، وليتنظروا بحقد وغضب وذعر وتهديد واحتقار الى التراب الذي نهضوا منه ، وليتحولوا الى اقسى جلادين ومعاقبين للتراب الذي كان سماءهم والذي نهضوا منه . ما اقبح التراب في احاسيس من خلقوا منه ثم ارتفعوا فوقه .

أليس اكثر الناس خوفا من الشقاء والالم ورفضا ومقاومة لهما هم الذين كانوا يقاسونهما ثم انفصلوا عنهما ؟

ما افظع اخلاق التراب حينما يتحول الى تيجان ، حينما يتحول اي التراب الى قادة وابطال وانبياء . ايها التراب ، اني لا ارهب شيئا مثلما ارهبك حينما تتحول الى قادة وابطال وانبياء لتتحدث بلغة السماء من فوق هامات النجوم .

اننا حينما نكون ضعفاء ومغلوبين ومعتدى علينا ومتألمين نؤمن بالاحتجاج والنقد والرفض وبالحرية الشاملة او العادلة او المطلقة . ونؤمن كذلك بالبكاء وبالشكاوى تألما واشمئزازا من الدمامات والتفاهات ومن كل الوان المنكرات . وايضا نؤمن بالغضب الضاج على المظالم والاخطاء والالام ، وعلى المذاهب والزعماء والقادة والناس ، وعلى الالهة والكون احيانا ، تطلعا

الى الافضل او الى الاتقى او الى الاذكى .

اننا حينئذ نؤمن بأن للانسان كل الحرية في ان يبكي ويتألم ويغضب وفي ان يتحدث عن بكائه وغضبه وآلامه ، ويشير اليها .

ولكن اذا تغير الموقف واصبحنا نحن الاقوياء والمنتصرين والسادة القاهرين والصانعين للضعف والالم والهزيمة للاخرين ، وصرنا نحن المشكو منهم والمطالبين والمنقودين والمالكين للحرية ، لكل الحرية ، تغيرت اخلاق ومشاعر الانبياء والقديسين والانسانيين الساكنين في ذواتنا ، واصبحنا اشد شراسة ومقاومة لما كنا ندعو اليه ونؤمن به من جميع الطغاة المولودين طغاة من آباء طغاة . اننا حينئذ لا بد ان نجد في البكاء ، في مجرد البكاء كل معاني الزندقة والعصيان والتمرد علينا . ان الحيوان الوديع المظلوم المهزوم المعتدى عليه الخائف الضعيف في كل تاريخ آبائه لو انه تحول الى ذئب وملك كل ادوات وقوة وموقف الذئاب لكان المنتظر ان يصبح اقسى ذئبية من جميع الذئاب الوارثة للذئبية من كل تاريخ آبائها الموروث . ان الحيوان الضعيف المقهور لا بد ان يصبح اقسى الوحوش وحشية لو انه تحول من موقف الاضعف الى موقف الاقوى .

ان اي نبي لا بد ان تهزم نبوته اذا انتصر . ان نبوته حينئذ لا بد ان تتحول من نبوة مسالمة الى نبوة محاربة ، ومن نبوة واعظة ومتسامحة وغافرة الى نبوة باطشة ومعاقبة . انه لا يوجد من يقاوم النبوة ويقسو عليها في مقاومته ومن يخاف منها مثل النبي اذا انتصر . انه لا احد يقتل الانبياء او يقتل معاني الانبياء مثلما يقتلهم ويقتلها النبي اذا حكم . ان النبي الحاكم هو اكبر قاتل لذاته . ان النبي ، أي نبي ، اذا انتصر فلا بد ان ينتقل من نبي حزين وباك ومصل من اجل الخطايا والآلام والصغائر التي يعيشها الناس وتعيشها جميع الاشياء الى زعيم او الى نبي حاكم باطش سفاك معير بالخطايا والاخطاء وبالآلام والصغائر .

ان اخلاق ومشاعر ووداعة كل نبي لا بد أن تموت اذا انتصر . انها لا بد أن تتحول الى النقيض ، الى النقيض العنيف جدا . انه لا بد أن يكون حينئذ اقسى من كل القساة ليكفر ويعوض عن وداعته القديمة ، او لينساها ويتخطاها ، او ليحاسبها ويعاقبها ، او ليطالبها بتسديد الحساب القديم .

ان المهزوم المهان لا بد ان يصبح اقسى الجبارين جبروتا اذا انتصر .

★ ★ ★

ماذا تقول التجربة الطويلة ؟ ما اقسى ما تقول التجربة . مـا اقسى تفاسير الاشياء . ان من الرفق بنفسك الا تفسر الاشياء والا تستمـع الى من يفسرونها ، الا اذا كانوا مزورين .

ماذا فعل واصبح جميع الضعفاء المقهورين المهانين الذين انطلقوا من مفارات الخمول والهوان ليصبحوا دويا وقمما ؟ ـ ليصبحوا نشيدا عالميا في افواه الآلام والاحزان ، ليصبحوا صواغ آلام واحزان وهوان ؟

لقد جاءوا اناشيد ملائكية ، وابتهالات واحزانا نبويـة ، وبعـد ان سطعوا وصعدوا وانتصروا اصبحوا ماذا ؟

نعم ، ماذا اصبحوا بعد ان كانوا ؟ كيف اصبحوا بعد ان هربوا مـن خمولهم وهوانهم وحضيضهم ؟

لقد جاءوا احزانا ودموعا في عيونهم وقلوبهم ، ثم تحولوا الى احزان ودموع في عيون وقلوب من جاءوا لهم ومن اجلهم .

لقد تحولوا الى احزان ودموع في عيون وقلوب الزهور والحقول ، في اعصاب الظلام والنور ..

لقد تنكروا بأقوى مشاعر الجراة لاحزانهم ودموعهم وابتهالاتهم . لقد خرجوا على جميع ادعاءاتهم الانسانية المتواضعة التي انتصروا بها او التي انتصروا وهم يهتفون باسمها . لقد غدروا بدموعهم واحزانهم وتضرعاتهم .

وهل في البشر من لم يغدروا بدموعهم واحزانهم ؟ هل فيهم من لم يتحولوا الى تكذيب لدموعهم واحزانهم وصلواتهم ؟

لقد راحوا يعاقبون ويقاومون الضعفاء والمغلوبين والمتالمين والباحثين عن الصدق والعدل والنور والحرية والتقوى وعن الالتزام بالمذهب او الدين الذي كان هو نبوة مجيئهم أو حجة مجيئهم . لقد راحوا يعاقبون ويقاومون هؤلاء اكثر واعنف مما يفعله اشرس واقسى الحكام والملوك الذين يجيئون الى هذا العالم في مواكب من التاريخ ، يحرسها ويهتف لهـا كل مـا في الدنيا من منابر ومحاريب وقيم ومذاهب واديان وكتب مقدسة ، ومـن مباهج وقوة وضعف وخوف وحب ، ومن طغيان واكاذيب وآلهـة واقـلام وقرطـاس .

ما افتك الاظفار والانياب التي لا تلدها اظفار وانياب بل التي تلدها الدموع والاحزان والصلوات المقهورة ؟

ان المجد المستحدث او المكسوب بالاغتصاب او بالانقضاض لا بد أن يصبح هو اشد وحوش المجد فتكا ووحشية وبذاءة وخوفا وجنوناوعدوانا. انه لا بد ان يجيء بلا اي مستوى من الاخلاق او التقاليد او الوقار او التهذيب او الحب . انه لا بد ان يكون اظفارا وانيابا فقط . ان جميع الفضائل حينئذ هي فضائل الاظفار والانياب . انه لن يمارس من الاخلاق او المزايا سوى مزايا واخلاق الاظفار والانياب التي لا تقاليد ولا مجد ولا تاريخ لها ، وهل توجد وحشية مثل وحشية الاظفار والانياب التي لا تقاليد ولا تاريخ ولا مجد ولا آباء لها ؟

ان من انتصروا بالاظفار والانياب لن يحترموا سواها ، او يتعاملوا او يؤمنوا بسواها ، او يعترفوا لسواها . انهم يتحولون الى قديسين في وفائهم لاظفارهم وانيابهم . انه لا مثيل لوفاء اصحاب الاظفار والانياب في تعاملهم مع انيابهم واظفارهم .

ان اكثر الناس اذلالا واحتقارا للطبقات المغلوبة هم ابناؤها اذا ارتفعوا فوقها وانفصلوا بانتصارهم وقوتهم عنها .

انه لا احد يقسو على الطبقة المقهورة مثل ابنائها اذا خرجوا منها بان اصبحوا قادرين .

انهم حينئذ لا بد أن يبالغوا في الفتك بالطبقة التي ولدوا فيها وهربوا منها . انهم بذلك كأنما يحاولون ان يعاقبوا ويرهبوا ماضيهم الذي قد كان لئلا يفكر في العودة ، ولئلا يفكر فيهم ، او ينظر اليهم ، او يتحدث عنهم ، او يتذكرهم او يكتب اليهم اية رسالة تشرح ماكان ، او تشير اليه ، او تذكر به .

انهم بفتكهم بالطبقة التي خرجوا منها كأنما يحاولون ان يقنعوا انفسهم بأنهم قد انتصروا وتفوقوا عليها ، وبأنهم قد اصبحوا كائنات أخرى لا علاقة لها بما كان ، بل لا شيء قد كان غير ما هو كائن الان . انهم اذن لن يعودوا اليها ولن تعود اليهم . انهم يرفضون ويقاتلون العودة حتى ولو بالذكرى او الحديث .

وكأنهم ايضا يريدون بفتكهم هذا الا تبقى بينهم وبين طبقتهم السابقة

اية علاقة طيبة بل اية علاقة من اي نوع سوى علاقة الافتراس والفتك ، سوى علاقة القوة بالضعف ، او سوى علاقة الغضب والرفض والعداء والتهديد والتخويف والقهر .

انهم هاربون من تاريخهم ، وانهم يريدون توكيد هربهم هذا بالقسوة والتوحش والمعاداة . انهم لمحتاجون الى التدليل على انهم قد اصبحوا اقوياء وقساة ليؤكدوا فراقهم الابدي لما كان . انه لا بد من نسيان ماكان. وان وسيلة النسيان هي الوحشية البذيئة . اذن لا بد من الفتك والقسوة والجنون .

انهم محتاجون الى ان يدللوا على انهم لم يكونوا الا ما هم كائنونالآن.

ان رذائل الحكام الوارثين للحكم لم تولد معهم ، وانما تعودوها واكتسبوها من ظروفهم ومواجهاتهم ومعاناتهم . وان اقدر الظروف على خلق الرذائل وتعليمها هي ظروف من صعدوا منالحضيض الى القمة ، ومن الصمت والخمول الى الدوي والانتشار والبريق الخاطف للعيون بقفزة من القفزات المنقضة .

انه لاكثر الاماني والظنون استحالة ان ينتصر من ارتفع من اعماق الحضيض الى اعالي القمم باحدى الضربات ــ ان ينتصر على الظروفالتي لا بد أن تصنع منه وحشا ووغدا ونذلا وآثما فاجرا كبيرا .

انه لتوقع للمستحيل ان نتوقع من اي انسان قد اصبح فجأة قيصرا وبضربة منقضة ان يجيء انسانا غير قاتل او غير وحش او غير عدواني النفس والتفكير والتدبير والسلوك ، لانه في يوم من الايام القريبة والبعيدة قد تخلق من مشاعر التراب ومن تواضع الارض وعذابها ، ولانه كان قد نادى بالحب والرحمة والحرية والتسامح والتواضع وبالانسانية المحرمة لحمل السلاح ضد اي انسان حينما كان انسانا مهزوما . ولانه كان يوما ما نبيا تنزل عليه الآيات والتعاليم من السماء ويصلي ويبكي في المحاريب رثاء وحزنا وحبا للانسان ...

ان مثل هذا الحاكم القيصر لا بعد ان يصبح بعد تذوقه للشهوات الجديدة المحرمة ، وبعد صعود قدميه بعيدا ، بعيدا فوق التراب والارض،وفي السموات المثيرة المملوءة بالاملاءات والاغراءات وبالانفعالات الخائفةوالراضية الحزينة والبهيجة ، الآمرة والناهية .

ـ نعم ، أن مثل هذا الحاكم القيصر لا بد أن يتفوق في وحشيته على جميع الوحوش التاريخية ، على جميع الوحوش بالميلاد او حتى بالموهبة.

ان اكثر الانياب والاسلحة والهموم والامجاد والانتصارات فتكا وعدوانية هي احدث الانياب والاسلحة والهموم والامجاد والانتصارات ، واكثرها خوفا وتوترا ، واحدثها انطلاقا من الضعف والهوان والحضيض ، واقواها علاقة وتاريخا بالضعف والهوان والحضيض .

ان مثل هذا الانسان الذي اصبح فجأة وبضربة منقضة قيصرا لا بد أن يكون حادا بلا قياس او نموذج في خشيته التلفت والارتداد الى الوراء والتذكر له .

ان الصاعد من اعماق المنخفضات الى اعالي القمم لا بد ان يكره ويخاف ويقاوم الهبوط والمنخفضات ومسبباتها والتذكير بها بوحشية وجنون لا يفعل بمثلهما من ولدوا فوق القمة .

لقد قاست البشرية في كل تاريخها من الآلهة والطغاة المحدثين اضعاف ماقاست من الطغاة والالهة بمولدهم . ان الاله بالمولد قد يكون بلا اظفار ولا انياب ، اما الاله بالانقضاض فلا بد ان يكون متفوق الاظفار والانياب.

اني لاخاف الاله الذي ولده انسان ضعيف مهان متواضع اضعاف خوفي من اله قد ولده اقوى واقدم اله . ان الآلهة ابناء الالهة لن يكونوا في وحشيتهم مثل الالهة ابناء البشر او ابناء الانسان .

ان الآلهة بالمولد قد تكون هي اجهل الالهة باخلاق الارباب ،واعجزها عن ممارسة هذه الاخلاق . ان افضل الارباب هي اجهلها باخلاق الارباب واعجزها عنها .

انه اذا كانت الآلهة هي دائما طاغية ومعادية للانسان فان اكثرها طغيانا ومعاداة للانسان هي الالهة التي ولدت في الارض ، وليست التي ولدت في السماء . ان الولادة في السماء تعلم التواضع والتسامح والرفق والاحساس بالامان اكثر مما تعلم ذلك الولادة في الارض . ان الارض لتصنع الآلهة المتوحشة الحاقدة اكثر مما تصنعهم السماء .

ان الذين يولدون في السماء لا يمكن ان يعيشوا او يعرفوا او يجربوا احقاد ومخاوف وهموم وبغضاء وبذاءات وانياب ومجاعات وسفاهات

من يولدون فوق الارض أو تحت الارض .

ان كل تذالات البشر لا تعني الا انهم يخافون ويتألمون ويريدون ويجوعون .

ان اقسى القساة او الطغاة او الوحوش هم الذين اخترعوا وتصوروا بخيالهم وتعاليمهم الجحيم واهواله . ان هؤلاء هم الذين تحدثوا عن مثل هذا الجحيم وعن اهواله ، وتوعدوا به وصدقوا انه اي الجحيم موجود بكل أهواله الموصوفة ، وتقبلوا ان يكون موجودا ، وان يكون جزاء ومكانا للبشر .

ان اقسى القساة او الطغاة او الوحوش هم الذين تقبلت ضمائرهم واخلاقهم وعقولهم وتعاليمهم كل ذلك ، وتصورته وتحدثت عنه وعامته ، ثم استطاعوا ان يظلوا احياء ، او ان يمارسوا اي لون من الوان الحياة او يسعدوا به .

كيف استطاعوا ان يظلوا احياء او ان يسعدوا بأي شيء وهم يتصورون ان انسانا واحدا، ان انسانا واحدا فقط قد يعاقب بجحيمهم هذا ؟ كيف امكن ان يعيش في خيالهم مثل هذا الجحيم ؟ كيف يستطيعون الابتسام ؟

ان تصورنا للعقاب وتشريعنا له لن يكونا الا تعبيرا ما عن مستوياتنا النفسية والعقلية والاخلاقية والتاريخية . ان متصور الجحيم ومشرعه عقابا للبشر لا يمكن الهبوط الى حضيض مستوياته النفسية والعقلية والاخلاقية .

اذن فان اقسى القساة هم الانبياء الذين استطاعوا ان يخترعوا بخيالهم هذا الجحيم ، والذين تصوروه وشرعوه عقابا للانسان ، والذين استطاعت عقولهم واخلاقهم وضمائرهم تقبله جزاء وعدلا وخلقا ومنطقا للاله . والذين جرؤوا على التحدث عنه والانذار به ، والذين جرؤوا على ان يحولوا التحدث عنه والتوعد به الى تعاليم خالدة تتلى من فوق جميع المنابر ويصلى بها في جميع المحاريب . فتاة صغيرة رقيقة تقتلها هبات النسائم ، وشيخة كبيرة فانية تقتلها قبضة اليد المشيرة اليها من بعيد بالتهديد — هاتان الفتاة والشيخة سوف تخلدان في جحيمك لانهما ولدتا في مكان غير مكانك فلم تؤمنا بتعاليمك . انت اذن نبي رحيم كريم بعثت رحمة للعالمين ..

اعتذارا الى رحمتك وحنانك ايتها الوحوش الطيبة . اغفري للبشر وحشيتهم ايتها الوحوش .. اغفري لانبيائهم وحشيتهم التي لا تتصورين مثلها .

... انهم يعتذرون من وحشيتهم اليك . ان انبياءهم الكبار جدا يرون أن الجحيم الذي تصوروه وتحدثوا عنه جزاء عادل ورحيم ومعقول للانسان الذي لم يستطع ان يكون اكبر او اعظم او انظف او اذكى او اقوى مما اراده وخلقه الاله ، أو الذي لم يستطع ان يكون اقوى او اتقى او اذكى من الاله ، او الذي أطاع ونفذ في نفسه وفي سلوكه ونياته ارادة الاله ونياته وشهواته وتقديره .

ان البشر يعتذرون الى رحمتك وحنانك ايتها الوحوش من قسوة انبيائهم الرحماء جدا . انهم يعتذرون اليك . ان قسوة انبيائهم ستصدم حنانك .

ان انبياءهم يعتقدون ان الخلود في الجحيم الموصوف جزاء عادل بل ورحيم للانسان الذيلم يستطع ان يكون غير ما اراد الله له .

لقد جاءالانبياء قساة هكذا — لقد جاءوا قساة على مستوى قسوة الجحيم لانهم قد ولدوا وخلقوا وخرجوا من آلام واحزان الارض وعاشوا في جحيمها . لقد عاشوا الاهوال فحولوها الى تعاليم والى عطايا ومواهب آلهة لا مثيل لها في العدل والحب والرحمة . هل كان يمكن ان يوجد الجحيم في تصورات وتعاليم الانبياء لو انهم لم يكونوا يقاسون من الهوان والظلم والهزائم واساليب العذاب الاخرى ؟

اذن هل يصنع القسوة والبغضاء او يتصورهما مثل الذين ينبتون في الشقاء والضعف والهوان ؟ هل يوقع العذاب بالآخرين مثل الذينقاسوا من العذاب او مثل الذين خرجوا من اصلاب العذاب ؟

★ ★ ★

ايتها الارض . اني ارتجف من طغاتك الذين يتفجرون علي وتحت اقدامي من قاعك اكثر مما ارتجف من الطغاة الذين يهبطون علي من فوق هامات النجوم .

يا طغاة السماء . اني لا اخافكم مجتمعين مثلما اخاف طاغية واحدا من طغاة الارض .

يا طغاة الارض ، يا أقسى الطغاة . يا من حول طغيانكم كل طغيان الى محبة وصداقة وتواضع ورحمة وصلاة . يا من تحول طغيانهم الى اعتذار عن كل طغيان ، والى ثناء على كل طغيان . يا من انسى وغفر طغيانهم كل طغيان .

يا طغاة الارض ، ياشر الطغاة .

ايها الانبياء .

يا انبياء المحبة والرحمة والتعاليم ضد الطغيان والوحشية والبغضاء

ايها الاصدقاء ، ايها الرحماء . أنتم اكثر واشد الاعداء حقدا وبغضا. أنتم أقسى الطغاة اذلالا وتحقيرا وارهابا وتحطيما للمغلوبين والضعفاء اذا انتصرتم .. أنتم قتلة كل محبة ورحمة وتسامح اذا انتصرتم .

اذن فلا تنتصروا ايها الانبياء . انا نضرع اليكم الا تنتصروا ..

يا انبياء المحبة والرحمة والانسانية والتعاليم النبيلة ..

لا تنتصروا ، لا تنتصروا .. انا نتضرع اليكم ألا تنتصروا .

لا تنتصروا يا من تصوروا الجحيم للانسان وارادوه له لانهم يحبونه، يا من طالبوا الاله بان يعد الجحيم للانسان .

* *

التقوى والنظافة في لسان الواعظ وظيفة واستعطاء ، وفي لسان الضعيف عزاء وأنين ، وفي لسان الفاجر ذكرى وهجاء ، وفي لسان التقي امنية واعتذار . اما في لسان النبي فموهبة وعظية ولغوية وتاريخية ،واما في لسان الطاغية فسخرية وتهديد ، وأما في لسان الشيطان فتذكير للاله وللانسان بهزيمتهما وضياعهما ، وبمن هو اقوى واذكى واكبر مجدا وانظف اغراضا ونيات منهما . اي تذكير لهما بنفسه .

ان التقوى والنظافة هما دائما بلا وعاء ، اي بلا تطبيق ، اي بلا انسان . ان جميع الناس مهما تفاوتوا وتفاوتت اساليبهم يفعلون التقوى والنظافة على مستوى ما وبتعبير ما ، ولكن كما يفعلون الفجور والتلوث ، اي يفعلونهما بلا اخلاق او تدين ، اي كما يشترون الطعام ويجدون لذة

أو راحة في ابتلاعه ومضغه ، وكما يتجنبون مهالك الطريق ويشتهون النساء ، وكما يصابون بالخفقان حين رؤيتهن وبلا رؤية لهن . وكما يتفاوتون في ممارساتهم لهذه كذلك يختلفون ويتفاوتون في ممارساتهم لما يزعمونه تقوى ونظافة .

ان فاعل التقوى والنظافة ليس متدينا ولا فاضلا الا بقدر ما تكون الاصابة بالخفقان ، او اجتناب مهالك الطريق ، او الارتجاف لرؤية المراة تدينا أو تطهرا او استقامة او مزيدا من الالتزام بالمذهب او بالاخلاق .

* *

اننا جميعا ننكر على الآخرين اخطاءهم او كثيرا من مواقفهم وشهواتهم ، ولكننا اذا كنا في مثل ظروفهم فعلنا جميع الاشياء التي ننكرها عليهم بنفس الشهوات والنيات والتفاسير والمنطق ، بل وبنفس الاعلان والجراة والافتضاح . اننا تحت الظروف التي يكشفون تحتها اعضاءهم المحرمة لا بد أن نفعل نفس فعلهم بنفس الحماس والوقاحة والتدين . وتحت نفس الظروف التي نذهب تحتها نهتف للطغاة ونصلي للالهة ونمجدها لانها خلقت لنا الصراصير والفئران يذهبون هم يفعلون نفس الشيء بنفس الحماس والمنطق .

ولكن الظروف ليست جميعا خارجية . انها ايضا ذاتية ونفسية وفكرية وثقافية وتعليمية وتاريخية بل وجسدية . انه اذا تساوت جميع هذه الظروف بين انسان وانسان اصبح الاختلاف بينهما في الموقف او في المنطق او في التفسير او حتى في الرؤية للاشياء مستحيلا ، ان الاختلاف بينهما حينئذ يصبح كالاختلاف في الوزن بين كتلتين من المادة تساوتا في النوع والحجم وفي قوة الجاذبية التي تخضعان لها . ان الاختلاف بينك وبين اي انسان آخر في رؤية كل منكما لجمال الهه او لصدق مذهبه او لصدق دينه يساوي الاختلاف بينكما في هذه الظروف ...

ان الاختلاف بينك وبين اي انسان آخر ليس له الا سبب واحد هو اختلافكما في الظروف الذاتية والخارجية . انه ليس له اي سبب او تفسير من اسباب او تفاسير التقوى او النظافة او السمو الانساني .

انه ليس انسان اتقى او اسمى من انسان الا بقدر ما حجر او نبتة اتقى او اسمى من حجر او من نبتة اخرى .

انك لو فعلت الصواب تحت الظروف ، اي الذاتية والخارجية التي يفعل تحتها غيرك الخطأ لكنت انسانا غير معقول بل انسانا مخطئا ومذنبا ، بل لما كنت انسانا ، بل لكنت انسانا لم يوجد ولا يمكن أن يوجد . ان الخطأ تحت ظروفه هو الصواب والواجب . وان الصواب تحت ظروف الخطأ هو الخطأ . انه لن يوجد من يؤمن تحت الظروف التي يكفر تحتها الاخرون . ولو وجد من يؤمن تحت مثل هذه الظروف لكان مخطئا ومذنبا وغير مفهوم .

انه لا يمكن تغيير الناس من خبثاء الى فضلاء واتقياء ولا العكس ، وانما يمكن تغيير ظروفهم أي الخارجية والذاتية ، وتغيير تعبيراتهم واساليبهم ، اي تغيير أزيائهم ولغاتهم واساليب وصيغ وادوات مواصلاتهم وممارساتهم ومعاملاتهم . ان الفرق بين النبي وداعية المذهب وبين نقيضيهما يساوي الفرق بين معنى واحد يعبر عنه بلغتين او جسد واحد يظهر في زيين مختلفين .

ان الفرق بين النبي وقاتليه هو فرق مستويات او ظروف ذاتية أو نفسية او اجتماعية او تاريخية او عقلية ، لا فرق اخلاق او تقوى او طهارة ، ولا فرق محبة او بغضاء للظلام . ان عيني النبي ليستا اكثر صداقة للنور والجمال ولا اقدر على رؤية الاله او رؤية جماله او جمال مخلوقاته من عيون قاتلي النبي . ان النبي لم ير اكثر او افضل من قاتليه ولكنه احس واراد وقال مخالفا لقاتليه لاختلاف الظروف .

ان الفرق بين النبي وقاتليه ليس فرقا بين من يخاف على عيون الاطفال ان تصاب بالظلام او برؤية العذاب والاهوال ، وبين من يتمنون لها ذلك . انه ليس فرقا بين من يخافون على العيون الجميلة والبريئة من ان تحترق في الجحيم أو تتشوه بالمرض والموت وبين من يريدون لهذه العيون كل ذلك ..

ان النبي لم يخص بعيون خارقة أو غير معقولة لتستطيع ان ترى في الدمامات والعاهات والآلام والمظالم من جمال الاله ورحمته وعدله وحبه وذكائه ، ومن الخير والنفع للمصابين بذلك اكثر او اعمق مما تستطيع ان ترى عيون قاتليه .

.. انه اي النبي لم يفهم ان الاله محتاج لكي يكون حكيما ومنطقيا وعبقريا الى ان يخلق الدمامات والعاهات والمظالم والآلام اكثر او اصدق

مما فهم ذلك قاتلوه . انه لم يوهب عبقرية هذا الفهم لمنطق الاله حينما اراد ان يمجد الوهيته واخلاقه بخلقه لهذه الآفات الرهيبة .

ان النبي لا يملك تحديقات اقدر على رؤية الاله البعيد الخفي جدا اكثر مما يملك مثل هذه التحديقات قاتلوه . انه ليس عليما باللغات اكثر من اعدائه وقاتليه لكي يستطيع ان يعرف لغة الاله المتحدثة بواسطة الاشياء والاحداث اكثر مما يستطيع ان يعرفها قاتلوه وأعداؤه . انه لم يتعلم هذه اللغة في معهد لم يتعلم فيه اعداؤه ورافضوه .

ان قلب النبي ليس اشد او اعمق عطفا من قلوب خصومه ومخالفيه على احزان الاله وعلى شهواته وعلى جوعه غير المعقول وغير الوقور الى ان يكون معبودا وممدوحا ومهتوفا باسمه ، ومنشدا القصائد والصلوات والضراعات ، والى ان يكون مخوفا مخيفا ، معلنا الاعتراف به .

انه اي النبي ليس اكثر من خصومه والخارجين عليه حماية لعيني الاله من ان تريا ما قد يعذب ضميره اي ضمير الاله ، او يهين مشاعر الكبرياء والكرامة فيه . انه لا يوجد توافق بين شهوات النبي وشهوات الاله اكثر من التوافق بين شهوات الاله وشهوات اعدائه .

ان الفرق بين النبي واعدائه كالفرق بين ذاته وذواتهم او صحته وصحتهم او مولده ومولدهم او تاريخه وتاريخهم . انه كالفرق بين الصخرة والصخرة او بين النبتة والنبتة . انه فرق وجود وكينونة لا فرق حب او تقوى أو ذكاء او طهارة او شموخ .

* *

اذا كنت قويا هابك الناس ولعنوك ، واذا كنت ضعيفا احتقروك وباركوك بل وامتدحوك ، قاصدين ان يذلوك وان يعلنوا عن ضعفك وعن الشماتة بك وعن تفوقهم عليك ، وقاصدين ايضا ان يدافعوا عن ضعفهم بضعفك . ان ضعفك وضآلتك يتحولان الى كرم والى تمجيد لجيرانك واعدائك . انهما يتحولان الى ثناء سخي على جيرانك ومنافسيك . واذا كنت نافعا للناس حمدوك ولم يحبوك . اما اذا كنت فاضلا او تقيا او نظيفا فقط فانهم لن يهابوك ولن يحمدوك ، وايضا لن يحبوك ، وايضا لن يعاملوك ، وايضا لن يجدوك أو يلتمسوك .

واذا كنت شريرا وظالما ذموك وحسدوك ، ولكنهم لن يحتقروك . واذا

كنت نبيا أو قديسا آمنوا بك ومجدوك دون أن يطيعوك او يتبعوك ، أو لأنهم لن يطيعوك ولن يتبعوك ، أو لانهم يريدون أن يخالفوك ويعصوك .

ما اعظم مجد الانبياء . ان كل مجدهم ان يمدحوا وان يعصوا ، وان يزعموا كل القادة دون ان يوجدوا او حتى يستشاروا في اي موقف من المواقف . انه لا يوجد ممدوح مهزوم منبوذ مثل النبي .

واذا كنت عظيما قراوا عنك وفسروك دون ان يفهموك ، واحيانا خافوك فصلبوك . أوه . انهم لن يصلبوك لو لم تكن عظيما او رديئا ، او لو لم يخافوك او يحسدوك ، او لو لم يحبوك او يكرهوك .

واذا كنت غير موجود فانهم لن يحاولوا ان يوجدوك او يجدوك او يبكوك ، وانهم ايضا سوف يتفقون على الا يمدحوك او يذموك . وانك ايضا لن تعذبهم حينئذ ، اي لن تعذب الآخرين حينئذ بالخوف منك او بالحقد عليك او بالاشمئزاز منك ، او بالتناقض والتنافس معك ، او بالتحديق في تفاهاتك وغباواتك وعاهاتك ، وبذنوبك ، وبسخافاتك ، وبهمومك وآلامك ، وبكل احتمالاتك وممارساتك الاخرى . او بالتحديق في قوتك وعبقريتك وتفوتك ، وفي مزاياك الاخرى . وانهم ايضا لن يعذبوك . ان التحديق في الآخرين عدوان عليهم ، وايضا عدوان منهم .

انك اذا حدقت في انسان فقد اعتديت عليه واعتدى عليك بتحديقك فيه .

اجل ، ان وجودك عدوان على الآخرين او على بعض الآخرين حتى ولو كنت انت صانع سفنهم للنزول بهم فوق القمر .

وان وجود الآخرين ايضا عدوان عليك .

ان وجودك مهما كان عبقريا لا بد ان يكون عدوانا على احد او على شيء ما .

ان الوجود العبقري قد يكون هو اكثر الاشياء عدوانا على الناس وعلى الاشياء .

وانك ايضا ، اي اذا كنت غير موجود لن تغضب الالهة او ترضيها ، لن تصنع لها السرور والابتسام بايمانك وصلواتك ، وان تصنع لها الاحزان والبكاء بجحودك وعصيانك وذنوبك — او لن تصنع لها هذا او هذا بآلامك ومسراتك . أليس الذي يصنع للالهة السرور والابتسام

يهجوها ويحقرها اكثر من الذي يصنع لها الدموع والاحزان ؟ وهل يحقر الآلهة او يهجوها مثل ان تكون مسرورة نشوى ؟

وانك ايضا ، اي حينما تكون غير موجود لن تجعل السماء بأجهزة مخابراتها ومباحثها وبموظفيها ومسئوليها تقاسي وتتعذب بمراقبتك وبالاحصاء عليك ، وبتعديد ذنوبك ، وبالتحديق في آثامك وفضائحك .

نعم ، ان كونك غير موجود يعني اراحة السماء واراحة اجهزتها من الاحصاء عليك ومن الاشتغال بك .

اجل ، ان وجودك يتحول الى تعذيب وتكليف باهظ للسماء ولجميع اجهزة مخابراتها ومباحثها واجهزة الاحصاء فيها ، ولجميع موظفيها ومسئوليها . ان وجودك في كل حالاته وصيغه ان يكون الا عقابا للسماء وخسرانا لها .

انك كيفما كنت عدوان على السماء وارهاق لها .

انك حينئذ اي حين تكون غير موجود لن تصنع مجدا ولا عارا للالهة الواقفة على بابك باهفة وتضرع ، تنتظر منك وترجوك ببكاء أن تصنع لها المجد وبألا تصنع لها العار . وهل عار الآلهة شيء اقبح من مجدها ؟وهل مجد الآلهة شيء افضل من عارها ؟

اذن فهل الافضل لك او للناس او للحياة او للالهة او لأجهزةالسماء المختلفة ولموظفي هذه الاجهزة والمسؤلين عنها ، ان تكون موجردا ام الا تكون ؟ اليس وجودك هو اقسى فسوق بعيون الآلهة وبعيون جميع الاشياء ؟

اذن هل كان وجودك او ايجادك محسوب الخسائر والارباح بذكاء وصدق وامانة ؟ لمن انت ربح ؟ وكيف يمكن ان تكون له ربحا ؟

ما اقساك ايها المؤمن حينما تصنع الاطفال .. ما اشد قسوتك على الآلهة . كيف لا تخشى على الالهة من الاطفال الذين تصنعهم ؟ كيف لا تخشى عليها من زندقتهم وفسوقهم ؟ كيف لا تخشى عليها من احتمالات ذلك ؟

هل يوجد طفل واحد يحمل الامان من ان يكون زنديقا او فسوقا ؟

ما اقساك ايها المؤمن على اجهزة السماء وعلى موظفيها وعلىالمسئولين

فيها . ما افتك قسوتك على عيونهم التي لا بد أن تراك محدقة مشتومة مذعورة محقرة مسخورا منها وبها . هل عيون السماء مزية لها وجمال فيها ام تعذيب وتشويه ؟

اليس من الرحمة بالسماء الا تكون لها عيون ؟

هل قدرت انك بالاطفال الذين تصنعهم قد تصنع غضبا او حزنا للاله الذي تؤمن به ؟ ان كنت قدرت ذلك ولو احتمالا صغيرا فهل يحتمل ان تكون مؤمنا أو محترما للاله ؟ وان كنت لم تقدر او تفكر في ذلك فما اعظم ذكاءك واعظم اهتمامك بالهك . انك حينما تصنع طفلا فأنت حتما اما غير مؤمن بالاله لهذا لا تحتاط له ولا تخاف عليه ، او انك غير مبال به ولا بأن يصيبه ما يصيبه من تحقير وغيظ ومن خروج وعدوان عليه .

ما اقساك ايها الانسان الذي ليس مؤمنا حينما تصنع الاطفال . ما اقساك على الحياة وعلى الآخرين . كيف لا تخشى على الحياة وعلى الاخرين وعلى المذاهب والاخلاق والتعاليم والنظم وعلى الصدق والعدل والذكاء والنظافة من الاطفال الذين تصنعهم ؟ اليسوا تهديدا لكل ذلك ؟ هل يمكن ان يجيء اي طفل دون ان يتحول الى عدوان على الآخرين او على المذاهب او الاخلاق او التعاليم او النظم او على الصدق او الذكاء او النظافة او العدل ؟

اذن ما اقساك ايها المؤمن .. وما اقساك ايها الانسان الذي ليس مؤمنا .

* *

اذا انت قلت الحقيقة او ما تحسبه الحقيقة وهي في غير حساباتك أو وهي أخذ منك او محاكمة لك فلا بد أنك تريد وتنوي شيئا آخر غير الحقيقة التي قلت . او لا بد انك بقولك لها تكيد لها ، او انك تعرض نفسك عرضا مزورا او مرضيا ، او انك تحاول ان تخفف من قسوة التناقض بينك وبينها ، او انك تحاول اخفاء هذا التناقض ، او انك تحاول بثمن رخيص وسهل ان تكفر وتعوض عن رفضك لها وخروجك عليها في مواقفك وممارساتك . او لانك تعلم ان قولك لها وثناءك عليها وحديثك المجد عنها لن يسرع بها ، ولن يهبها قوة او انتصارا . او لان فيك شخصين ، شخصا يمدح بالقول وشخصا يرفض ويعادي بالنية

والشهوة والسلوك . وهل يوجد انسان واحد ليس فيه الا شخص واحد ؟ هل يوجد انسان واحد ليس فيه اشخاص عديدون مناقضون له ،وايضا متناقضون ؟ او انك تكايد او تفاضب بذلك شخصا آخر او اشخاصا آخرين . ان الانسان ليقاتل بقول الحقيقة التي لا يحترمها كما يقاتل بالسلاح وبقول الباطل الذي يحترمه او الذي لا يحترمه .

انك قد تجعل اعلانك عن الحقيقة التي لا تنويها او تلتزم بها سلاحا او سبابا او كيدا تطعن او تخيف او تهدد به انسانا او قوما .

ان البشر ليقاتلون الحقيقة بالحقيقة والصدق بالصدق ، بقدر ما يقاتلونهما اي الحقيقة والصدق بالباطل والكذب .

اننا قد نقول الحقيقة جدا لاننا نرفضها جدا . اننا قد نقول الحقيقة والصدق بكل الاعلان والجسارة لاننا نرفضهما ونخرج عليهما بكل الاعلان والجسارة .

أيها الملاك .. أنت أبشع جلاد

« .. اني لست واهب اجوبة . اني احول كل جواب الى حشود من الاسئلة التي لا جواب عن واحد منها . اني احول كل جواب قد صاغته وعاشته وبصمت عليه كل الآلهة والمعلمين وكل المذاهب والمذهبيين الى اعصى الاسئلة التي يموت كل اله ومعلم ومذهب دون ان يجد عن واحد منها جوابا ..

« .. اني لست نبيا او واعظا او زعيما مذهبيا يضع امام كل سؤال اعدادا هائلة من الاجوبة ، يكون الموت والاتهام بالزندقة او بالخيانة او بالتآمر بعض جزاء وصفات من يشك في واحد منها ، او من لا يصاب بكل تعبيرات ومعاني الجنون حماسا للاقتناع بها كلها ودعوة اليها كلها ودفاعا عنها كلها .

« .. اني لست نبيا او واعظا او زعيما مذهبيا يضع فوق كل تساؤل عن اية دمامة او تفاهة او عبث او غباوة او قسوة او ظلم او بذاءة او الم او جنون او طغيان في الكون او في المجتمعات او في النظم والقوانين ، اعددا تكبر على الاحصاء من الاجوبة التي تحرسها وتعلنها وتفسرها وتوقعها وتباركها وتقاتل دونها ، اشرس الآلهة واغباها ، او اشرس المذاهب واغباها ، او اشرس المخاوف واغباها ، او اقوى واشرس الجيوش واغباها ..

اني لست نبيا او واعظا او معلما او زعيما مذهبيا يسكت او يرهب او يقتل كل شجاعات كل العقول وكل تساؤلاتها بسطوة الآلهة ، او بسطوة المذاهب ، او بسطوة التعاليم والتاريخ ، او بسطوة الجيوش . ما اوقح واقبح سطوة الجيوش .. ما اوقح واقبح الجيوش حينما تذهب تعلم العقول ذكاءها وايمانها .. حينما تذهب تعلم العقول الاقتناع بالاله او بالمذهب او بالنظام او بالزعيم او بالمعلم .. وحينما تذهب تفسر مزايا الاله او المذهب او النظام او المعلم او الزعيم ، وتدلل على صدقه .. وهل يوجد جيش لا يعلم ذلك ؟ وهل وجد او يوجد جيش لايتحول الى معلم ومفسر للالهة وللاديان وللمذاهب وللعقول وللنبوات وللانبياء ؟

« ... اني لست نبيا او واعظا او معلما او زعيما مذهبيا يسكت ويرهب ويميت كل ما في العقول والنفوس من احتمالات البسالة والذكاء. ولكني انسان يحول كل الاشياء الى اسئلة تتصاغر امام اصغرها كل قوى وذكاء وطغيان كل الآلهة والمذاهب والزعماء والمعلمين .. انني لا افسر الالام والعاهات والاحزان والمظالم والتفاهات والعبث تفاسير تتحول الى صلوت للالهة والطبيعة ، والى تكريم للانسان . ولكنني افسر المسرات واللذات تفاسير تتحول الى افتضاح للالهة والطبيعة والى عدوان على الانسان انني لا اضع التفاسير ولكني ابطل ما وضع منها ... انني لا اشيد الهياكل ولكني اهدم ما شيد منها .. انني هادم هياكل .. انني محرض لكل المعتقلين في كل الهياكل : أن انطلقوا ، انطلقوا ... »

* *

اي صديقي .. شكرا لك ...

ما اصبر البشر على استعمالهم لانفسهم ، وعلى استعمالهم للعلاقات بينهم ، وعلى استعمالهم للغاتهم ولمخاطباتهم ولمذاهبهم ، وعلى استعمالهم لآلهتهم . ما افظع استعمال البشر لآلهتهم .

ما افظع تعامل البشر بانفسهم وبالاشياء ، او ما اصبرهم على هذا التعامل ، وما اغفرهم لدماماته .

ما اصبر البشر ، او ما اتفههم واعجبهم وابلدهم واكذبهم ، او ما اكثرهم جمودا في ممارستهم لكل ذلك ، اي في ممارستهم لكل معاملاتهم هذه مع انفسهم ومع الآخرين ، ومع اربابهم ومذاهبهم ولغاتهم ، او مع احلامهم وفراغهم وضياعهم واحزانهم ، او مع محاولاتهم الضائعة لكي يجدوا لوجودهم تفسيرا او تسويغا او منطقا ، او لكي يتحولوا الى اعتذار والى دفاع عما لا يمكن الدفاع ولا الاعتذار عنه .

ما اكثر ما يقول البشر ما لا يعنون او يريدون او يفهمون ، او ما لا يعني شيئا ولا يراد به شيء ولا يفهم منه اي شيء . ما اكثر ما يستمعون الى قول من لا يريد أن يقول شيئا او ان يسمع شيئا ، او ان يشير الى شيء ، او ان يثبت شيئا او ان ينفي شيئا ، او ان ينصر شيئا ، او ان يهزم شيئا .. ما اكثر ما ينادون الها لا يعرفونه ولا يعرفون وجوده ولا يعرفون اخلاقه أو مذهبه ، ولا يعرفون انه يسمع منهم او انه يستجيب لهم ، بل وهم لا يتوقعون منه شيئا ، ولا يعتبون عليه أو يغضبون عليه أو يهجرونه اذا لم يفعل شيئا واذا لم يتوقعوا منه ان يفعل شيئا .

ما اكثر ما يتخاطبون مع اله لا يعرفون لغته ولا يعرفون انهيعرفلغة، ولا يعرفون انه يعرف لغتهم . وهل يعرف الاله اية لغة ؟

ما اكثر ما يتعامل البشر بما لا يفهمون ، وبما لا يريدون ، وبما لا يصدقون ، بل بما ينكرون ويرفضون ويكذبون . ما اكثر ما يبدون وكأنهم لغة لا يمكن فهمها ولا تفسيرها ـ كأنهم لغة لا يفهمها او يفسرها احد ، حتى ولا الذين يتكلمونها . حتى كأنهم لغة تنطق فقط دون انتفهم او تفسر ، ودون ان يريد احد ان يكون لها تفسير او معنى .. حتى الذين يتكلمونها ويتعلمونها ويستمعون اليها لا يفترضون او يفكرون او يريدون او يطالبون انيكون لها معنى او تفسير . ما اكثر ما يتكلم البشر دون ان يكون في حسابهم ان يتخاطبوا او يتعاملوا او يسمع بعضهم لبعض أو يسمع بعضهم بعضا . ما اكثر ما يتكلمون دون ان ينووا الكلام .

حينما قلت ايها الصديق في اول هذهالرسالة : « شكرا لك » هل اردت انا بذلك شيئاً ؟ هل اردت حقا ان اهبك شيئا او ان اتقدم اليك بشيء ، هذا الشيء هو الشكر ؟ هل اردت ان أعلمك شيئا او آمرك بشيء او انهاك عن شيء او اخبرك بشيء حينما قلت : « شكرا لك » .

وهل فهمت انت اني اعني شيئا من ذلك بهذه الكلمة المهانة المسحوقة الشرف والكرامة ؟ وهل تأثرت اذن بقولتي هذه ؟ هل ارتجفت ، هل تهيأت لفهمها أو للاستجابة لها او للتعامل بها وبما تعني ؟ هل تقبلت ،هل رفضت ، هل رضيت ، هل غضبت ، هل حدثت لك اية مشاعر جديدة ؟ هل تغيرت عواطفك او اهواؤك او علاقاتك بي استجابة لهذه الكلمة ، لاني وهبتك شكري ، ولانك انت قد فهمت وقومت ما وهبت لك وما قبلت انت ان أهب لك ؟

أليس قولي لك شكرا لا تعني الا : انت تذلني او تخيفني او تحقرني او تجعلني اخجل او احرج أو اكذب وانافق أو اقول مالا معنى له أو مالا يعني شيئا او يعنى به شيء ؟

نعم ، ما معنى الشكر ؟ هل فهمته انت آخذا متقبلا له ؟ هل فهمته انا واهبا له ؟ هل فهم احدنا ما اعطى ، وفهم الآخر ما اخذ ؟ وهلاردت انا ان اخدعك بأني قد اعطيتك شيئا لآخذ ثمنه ، او لاخذ ثمن هذه الخديعة والانخداع ؟

هل اردت انت انتخدعني بأن تأخذ مني شيئا ، او بانك قد تقبلت

مشكورا متفضلا خديعتي لك ، او باقناعي بانك قد اقتنعت باني بارع في صناعة وصياغة الخداع ـ بانك قد اقتنعت باني قادر على ان اخدع الآخرين، قادر على ان اكون خادعا ، او على ان اهب شيئا حتى ولو خديعة الاصدقاء، حتى ولو جعلهم يقتنعون بالانخداع او بخديعتي لهم ؟

اليس الاقناع ـ حتى ولو خداعا وانخداعا ـ عطاء ما ؟ اليس الخادع معطيا ؟ اليس المخدوع معطى وآخذا ؟ ماهو العطاء ؟ اليس الذي يعطينا خديعة افضل او اقل ايذاء لنا ـ ولو احيانا ـ من الذي يعطينا حقيقة ؟ اليست الخديعة او الانخداع انبل ـ ولو احيانا ـ من الحقيقة ؟

نعم ، اليس الخداع عطاء والانخداع اخذا ؟ اليسا ولو احيانا هما افضل ما يعطى وافضل ما يؤخذ ؟

اليس الخيال احيانا افضل واذكى وانظف واشرف من الرؤية ؟ اليس الاحتلام اكثر انسانية وتقوى وبرا بنا من اليقظة ؟ اليست معايشتنا للاحلام خيرا لنا من ممارستنا للواقع ؟ اليس اعطاؤنا الجنة كذبا افضل من اعطائنا النار صدقا ؟ اليس اعطاؤنا النار وعدا افضل من اعطائنا النار تنفيذا ؟ بل اليس اعطاؤنا الجنة وعدا افضل من اعطائنا الجنة تنفيذا ؟ اليس الذي يحدثنا بلا نية ولا تفسير افضل من الذي يحدثنا بنية وبتفسير؟

هل تقبلت شكري الذي وهبته لك او استقبلته لانك تريد ان تستغلني باخذك مني شيئا هو شكري ، لانك تريد ان تسرق مني شيئا ، او لانك تريد أن ترضيني وتجاملني بتقبلك لما وهبتك وهو شكري ؟ هل في مثل هذا الموقف أو في مثل هذه المخاطبات شيء من ذلك ؟

هل نحن ـ انت وانا ـ نتعامل بهذه الكلمة ـ الشكر ـ باي اسلوب أو بأية نية من أساليب أو من نيات التعامل ؟ اذن لماذا نصر على انفاق انفسنا بمثل هذه الاساليب والوسائل العابثة ؟ لماذا ننفق انفسنا دون ان نقصد معنى الانفاق ، ودون أن يكون هناك موضوع او شيء ننفق عليه أو فيه ؟ لماذا ننفق انفسنا دون ان نتعامل بانفاقها، ودون ان ننوي التعامل بهذا الانفاق لانفسنا ؟

لماذا نصر على استعمالنا لانفسنا ولغاتنا وعلاقات بعضنا ببعض هكذا بلا قصد ولا تفسير ؟ هل نحن عابثون بهذه القسوة ؟ هل نحن موجودون لكي يفرض علينا ان نبدد انفسنا ووجودنا وطاقاتنا فقط كأن هذا التبديد هو المنطق العظيم الذي وجدنا من أجله ؟ كأن هناك الها لا يمكن فهمه ،

يحتاج الى ان يعبد ، دون ان يوجد اي أسلوب لعبادته سوى أن يبدد الموجود وجوده بين يديه هكذا ؟

وهل لعبادة اي اله من تفسير غير ان يبدد الموجود وجوده بلا تفسير؟ اليست كل مزايا الاله انه جهاز تبديد ؟

هل منطق وجودنا هو فقط ان نبدد وجودنا ؟ وهل التبديد منطق ؟ هل ارادة التبديد خطة ؟

ولكن هل يوجد اي منطق لاي شيء غير منطق التبديد ؟ هل لاي شيء تفسير او معنى او خطة او وظيفة غير أن يبدد وجوده ، أن يبدد ذاته ، بأي اسلوب ، وبكل اسلوب ، وبلا اسلوب ، وخروجا على كل اسلوب ، وبأردأ واغبى اسلوب ؟ أليس كل اسلوب وعمل هو تبديدا لان كل وجود ، كل اسلوب وجود هو تبديد ؟

اليست النجوم ، اليست الشمس ، اليست كل الطبيعة بلا منطق ولا تفسير ولا معنى ولا خطة غير أن تبدد وجودها وذواتها بأغبى واقبح اسلوب ، بل بلا اي اسلوب ؟

هل في الكون ما ليس تبديدا او ما يستطيع أن يكون غير تبديد ؟ هل في الكون ماكان خطة او ما كان تنفيذا لخطة او استجابة لاحتياج أو لمنطق؟ اذن هل في الوجود ما يستطيع ان يكون غير تبديد ؟

ان اقسى نموذج واضخم نموذج لهذه القضية هو الاله . ان الاله هو اقسى واكبر نموذج للموجود الذي لا منطق ولا تفسير ولا خطة ولا وظيفة لوجوده سوى تبديد وجوده ، سوى تبديد ذاته وطاقاته بكل اسلوب، بلا اي اسلوب ، بأبلد واردأ اسلوب ، بأكثر الاساليب وحشية ، بكل اساليب اقصى اساليب الوحشية ، بكل الاساليب التي هي اكثر وحشية من كل اساليب الوحشية .

ايها الاله . قف ، ماذا تصنع ، ماذا تصنع هنا ؟ لماذا هذا ايها الاله ؟ لماذا تمارس نفسك بهذا الاسلوب ؟ لماذا تبدد طاقاتك هكذا ؟ الا تجد اسلوبا آخر ؟ الا تستطيع الصمت عن العمل ، عن هذا التبديد لذاتك وطاقاتك بمثل هذه الوحشية ، بهذا التفوق على كل وحشية؟

ايها الاله قف وسائل نفسك ، قف وجرب مساءلتك لنفسك قف لنسائلك ايها الاله . ان رغبتنا في مساءلتك تفترسنا . قف لماذا خلقت هذا

الكون ، لماذا خلقتنا ، لماذا خلقت الحشرات؟ ولماذا تقتل هذا الكون وتقتلنا وتقتل الحشرات ؟ لماذا تقتل ما خلقت ، لماذا تخلق لتقتل ؟ لماذا تهــــدم ما بنيت ، لماذا تبني ثم تهدم ؟

قف أيها الاله . هل رأيت نفسك ؟ هل فكرت فيها ؟ هل رضيت عنها ؟ قف واسأل من رأوك ايها الاله .

لماذا تخلق ، لماذا تبني ، لماذا تصنع شيئا حتى ولو لم تقتل وتهدم وتفسد ؟ لمــاذا ؟

هل لك خطة او منطق أو هدف أو حاجة أو رسالة فيما تمــارس وتعاني ؟ هل أنت تخدم أحدا او تطيع أحدا ؟

هل يوجد عبث مثل عبثك أو في قسوة عبثك ايها الاله العظيم ؟

أنت تبدد ذاتك ووجودك وطاقاتك . أنت فقط تمارس التبديد حينما تخلق وتبني وتعمل حتى ولو لم تقتل وتهدم وتنقض . ان عملك لا يكون الا تبديدا حتى ولو لم تناقض نفســـك ، ان وجودك لا يكون الا اقسى اساليب التبديد حتى ولو قضيت كل وقتك في الصلاة لنفسك وفي الثناء على نفســك .

أنت تبدد ذاتك وطاقاتك ووجودك ضدنا وضد الحشرات وضــــد الطبيعة . ألا تستطيع أن تصمت وتكف عن التبديد ؟ ان صمت الالهــة لــن يكون الا اسلوبا شاملا من أساليب الصمت عن التبديد .هل انت مسخر أو موظف أو محكوم عليك بان تكون ضد الذكاء وضــد المنطق وضــد الحكمة والوقار والاحترام للنفس ؟

ألا تستطيع أن تبدد نفسك ــ اذا لم يكن بد من التبديد ــ باسلوب آخر ، باسلوب لا يتحول الى معاناة أو تعذيب او تشويه انا أو للكون أو للحشرات أو الى هجاء لنفسك وتشويه وتعذيب لها بلا ثمن ؟ هل يوجد افضل من أن تتوقف أيها الاله عن التبديد لنفسك ، أي عن ان تعمل اي شيء ؟ ما انبل صمتك عن العمل ..

قف أيها الاله . ماذا تصنع ؟ لماذا تصنع ؟ لماذا تصنع بهذا الاسلوب؟ لماذا تصنع ضدنا ، ضد الآخرين ؟ جرب ان تصمت ايها الاله ، جــرب ان تصمت عن العمل ، عن تبديد ذاتك . جرب الوقار ايها الاله . ما اجمل ان يصمت الاله .. أن يصمت عن العمل وعن العطاء وعن الرحمة وعــن

التفكير والحب والذكاء ...

ولكن لا تجرب . انت معذور ومغفور لك ايها الاله . انت تبدد وجودك ، تبدده ضدنا وضد الآخرين . ولكننا نفهمك ونعذرك ونغفر لك لاننا نحن ايضا نبدد وجودنا ، نبدده ايضا ضد الاخرين ..

اننا نحن وانت متشابهون ـ اننا لسنا افضل منك ، انك لست افضل منا . اننا مستوى واحد وصيغة واحدة .

لهذا نفهمك ونعذرك ونغفر لك ايها الاله . ولكن لا . هل يمكن الغفران للاله ؟

اننا نعذرك ـ ونغفر لك اكثر مما نفعل لغيرك او لانفسنا . انك اكبر ، ان الشيء بقدر ما يكون كبيرا يكون اكثر احتياجا الى تبديد وجوده، ويكون اكبر وابهظ تبديدا . ان الشمس أحوج الى تبديد وجودها واكثر تبديدا لوجودها من شمعة المعبد . لهذا انت أيها الاله أحوج من كل شيء ومنا الى تبديد ذاتك ، واكثر منا ومن كل شيء تبديدا لذاتك .ان العبقري احوج الى تبديد ذاته واعلى تبديدا لها من الانسان الصغير . ان العبقري يبدد ذاته ليتحول الى اجهزة تبديد يبدد بها الاخرون ذواتهم .

اننا لهذا نعذرك ونغفر لك ايها الاله اكثر مما نعذر انفسنا أو نغفر لها ، أكثر مما نعذر اي شيء أو نغفر لاي شيء . اننا نعذرك ونغفر لك اكثر مما نعذر العبقري ونغفر له حينما يبدد ذاته ليتحول الى اجهزة تبديد يبدد بها الآخرون ذواتهم .

ايها الاله افعل ما شئت ، بدد ذاتك بكل اسلوب ، حول تبديدك لذاتك الى أقسى تشويه وتعذيب ومعاناة لنا وللطبيعة وللحشرات البريئة. افعل ما شئت ايها الاله فقد غفرنا لك لاننا لا نستطيع ان نقاومك أو نحاكمك أو نعاقبك أو نعاتبك باكثر من الغفران لك والاعتذار عنك .ان اردأ ما فيك ايها الاله انه لا يمكن محاسبتك او محاكمتك او معاقبتك او معاتبتك بأقسى أو باقصى من الغفران لك او من النسيان لك أو من التخطي لك او من العجز عن القبض عليك .

ما اقساك ايها الغافر ، ايها الغافر لالهه . ما اعظم ذنبك ، ما اعظم واكبر ذنبك ايها الاله ، ايها الاله المغفور له ، ايها الاله المحتاج الى الغفران الاشد احتياجا الى الغفران من كل المحتاجين الى الغفران . هل انت مسرور

أيها الاله بالغفران لك ؟ انه لغفران أقسى منه العقاب . انه غفران من لم يجدوك لكي يحاكموك ويحاسبوك ويعاقبوك . انه اذن ليس غفرانا .

* *

وحينما نقول للاله : « شكر لك ايها الاله » هل نريد حقا ان نهبه شكرنا ، ان نصنع لقلبه السعادة والابتهاج والرضا بشكرنا ؟ هل في حسابنا ان نحسن الى الاله ، أن نرفع اليه شيئا يسره ؟

وهل في حسابنا ان الاله محتاج الى مجاملات لفظية او عاطفية لاعطائه مستويات وظروفا نفسية اكثر ابتهاجا وغناء ؟

وهل فهمنا معنى الشكر الذي وهبناه للاله ؟ وهل فكرنا في معناه ، او حاولنا ان نفكر ؟ وهل اردنا معناه ، كل معناه ؟ وهل في حسابنا ان معنى الشكر للاله هو فقط ان نقول له : شكرا ام ان له معنى اخر اكبر وأثقل جدا ، يؤدى بوسائل اكبر واثقل جدا ؟ وهل في حسابنا اننا سوف نؤدي له ذلك المعنى الاخر بتلك الوسائل الاخرى ؟ وهل فكرنا في معنى هذا الالتزام للاله او قدرنا حساباته ، او حاسبناه بمحاسبتنا لقدرتنا عليه ؟ هل وثقنا بان قدرتنا متكافئة مع هذا الالتزام ؟

وهل اقتنعنا بان الاله يريد منا ان نشكره ، او ان شكرنا له يفيده او يرضيه او يسره ، او حتى يسمعه او يدري به ؟ هل اقتنعنا بأن الاله مثلنا يعجبه ان يشكر ، ان يشكره الصادقون والكاذبون ، الاذكياء والاقوياء والمتطهرون ، وايضا الاغبياء والضعفاء والعاجزون عن التطهر ؟ هل اقتنعنا بأن الاله مثلنا يعجبه ان يشكر ، ان يشكره حتى الذين لا يجدون اي سبب من اسباب الشكر ، حتى الذين يجدون كل اسباب السخط والغضب والانكار ، حتى الذين يتحول شكرهم الى اعنف اساليب الاستهزاء والهجاء لانهم يشكرون حيث يجب ان يرفضوا ويتهموا ويحاكموا من يشكرون .

حتى الذين تنطلق كلمات الشكر من افواههم وكأنها افتك الاسلحة واقدرها على القتل ، مسددة الى اخلاق وضمائر ونيات اولئك الذين يتلقون منهم الشكر ويستمعون اليه باعجاب وكبرياء وبداوة اخلاق وجلافة نفس ؟

هل اقتنعنا بان الاله سوف يصدق ويفرح حينما يسمع ممن اوقع به كل الالام والاحزان والعاهات يقول شكرا لك ايها الاله الطيب وهل عرفنا او وجدنا في الشكر معطى ومقبولا معنى نبيلا او كريما او ذكيا ؟ اليس الشكر دموعا او احزانا او هزيمة او ضعفا او احتجاجا او تورطا او استعطاء

او خداعاً أو سباباً بلغة أخرى ؟

اليس احيانا فراغا وضيقا وتقليدا وبلادة ومطاردة وسخفا ؟

اليس الارتياح الى الشكر والترحيب به والاستزادة منه والتقبل له والجزاء عليه تفاهة وضآلة وبداوة وطفولة وقسوة واذلالا وصلفا ؟

اليس احيانا اصغر واقل من ذلك ؟ اليس احيانا هو اكبر من كل هجاء وخسة ؟

وهل عرفنا واقتنعنا بالاسلوب الذي يجب ان نصوغ وان نقدم به شكرنا الى الاله ، والذي لا بد ان يقبله وان يرضى عنه اسلوبا لشكره او أفضل الاساليب لشكره ؟

وهل عرفنا باسلوب جيد ان شكرنا له لن يغيظه او يغضبه أو يحرجه او يخجله أو يورطه أو يسيء اليه ، الى سمعته أو الى أخلاقه أو الى ذكائه أو الى وقاره واتزانه ، او انه لن يلزمه بشيء لا يريده أو لا يستطيعه أو لا يجرؤ عليه ؟

اليس الشكر احيانا الزاما بشيء او مطالبة بشيء ؟ أليس احيانا احراجا ؟ اليس من يشكرنا ــ كمن يعجب بنا ، او يصلي لنا ، أو يعتمد علينا ــ أليس يسطو على مشاعرنا ويدقها ، ــ أليس يطارد مشاعرنا ويسقط عليها ؟ بل اليس يهددها بالعقاب والرفض والهجاء ؟ اليس الشكر هو دائما أسلوبا من اساليب الهجوم ؟ اليس الشاكر هو دائما محاربا ؟ اليس الشاكر هو دائما مهددا للمشكور ؟

لقد شكرنا بشروط ، بشروطه هو ، اذن يجب الخضوع لهذه الشروط والا فانه سيعاقبنا ويرفضنا ويكفر بنا . لقد شكرنا او اعجب بنا او صلى لنا أو اعتمد علينا . اذن فقد يفعل بنا النقيض اذا لم نخضع لشروطه او اذا لم نكن عند ظنه ، او اذا لم نكن حيث تتجه اهواؤه . ان الشاكر ليس الا شروطا مهددة ، انه شروط يفرضها ويكتبها جانب واحد.

وهل عرفنا ان الاله يعرف كل لغاتنا التي نكلمه بها والتي نخاطبه بها حينما نصلي له وحينما نشكره على ما فعل بنا او على ما فعل ضدنا أو على ما فعل دون ان يكون لنا أو ضدنا ــ وايضا حينما نصلي له ونشكره على مالم يفعل وعلى مالا يمكن ان يفعل ، وعلى ما نحاكم ونعاقب به غيره لو فعله ؟

هل عرفنا انـه يعرف كل هـذه اللغات التي نصلي ونشكـر بهـا ؟ هل عرفنا ذلك ؟ هل عرفناه ؟

لماذا لا توجد في حساباتنا احتمالات اخرى ؟ لماذا لا يوجد في حساباتنا ان للاله لغة اخرى لا يعرف غيرها او لا يريد ان يخاطب بغيرها او ان يسمع غيرهـا ؟

هل عرفنا انه يعرف اية لغة من اللغات ؟ لعله لا يعرف اية لغة . أليست اللغة تعددا ومجتمعا ؟ هل يمكن أن تصنع الوحدانية اية لغـة ؟ هل الوحدانية خالقة لاية لغة ؟ هل الذي يكون وحده ويعيش وحده يحتاج الى اللغات والى تعلمها ؟ أليس تعلم اللغات معاناة ؟ هل الـذي لا يحتاج الى المعاناة يحتاج الى تعلم اية لغة ؟ أليس الذي يخاطب الاله بأية لغـة يهجوه كالذي يحاول او يريد أن يعلمه اية لغة ؟

أليست اللغات تساؤلا وبحثا عن الفهم ومحاولة من محاولات الحياة في الآخرين ومع الاخرين ومن محاولات الفرار اليهم ومضاربتهم ومشاتمتهم، ومن محاولات الفرار من الذات ومن الوحدة ؟

اذن كيف يمكن ان يكون الاله محتاجا الى اية لغة ؟ ان احتياجه الى اية لغة والى ممارسة اية لغة هجاء أليم له . ان معرفة اللغات والتكلم بها والاستماع اليها وقراءتها ليست اخلاق او مستويات اله .

ان كل الناس في جميع العصور كانوا يصلون للاله ويدعونه بكل لهفة وضراعة واخلاص وايمان ، ويلقون اليه بكل احتياجاتهم وآمالهم وهمومهم بكل اللغات ، وعلى جميع مستويات الصدق والحب والاقتناع والشـوق والنظافة والتطلع ، لقد كانوا يهبونه كل ثقتهم بلا حدود ، محولين هـذه الثقة الى ضراعات والى مطالب لاهثة متلهفة ، مسقطة عن نفسها كل كرامة وكبرياء وشجاعة واباء .

لقد كان كل الناس في جميع العصور وفي جميع المجتمعات وتحت كل الظروف وفي كل المعابد ، اتباعا ورعايا لكل الانبياء والدعاة ، لكل الكتـب المقدسة – لقد كانوا يهتفون ويضرعون ويبكون متقدمين بكل طلباتهـم واحتياجاتهم ومناشداتهم واحزانهم وآمالهم واقتناعهم وحبهم وخوفهـم وصدقهم ، الى الاله بكل اللغات ، باساليب ومذلات ترق لها الصخور ، وترق لها الابالسة وتخجل منها وتخجل لها الابالسة . ولكنه – سبحانه

وتعالى ـ لم يكن يستجيب لاحد ، او يرق لاحد ، أو يخجل لاحـد ، أو يخجل من أحد . لقد كانت جميع دعوات البشر ومطالبهم الضارعةالباكية تسقط تحت قدميه ، ودون اذنيه وبعيدا عن أذنيه ، لا تجرحهما ، ولا تقلقهما . لقد كانت جميع تضرعات البشر ودعواتهم ومطالباتهم تموتتحت قدمي الاله وصمته دون رثاء .

لقد كان محتوما ان تموت الوحوش وتتفتت الصخور حزنا ورثاء لدعوات ومطالب البشر ولضراعاتهم وصلواتهم المتهاوية تحت اقدام الالـه وبعيدا عن أذنيه ، مهزومة ذليلة مرفوضة ،لو كانت الوحوش والصخور تعرف اللغات التي كان البشر يدعون ويتضرعون ويصلون بها الى الههـم الذي لا يستجيب ولا يطالبهم ان يكفوا ولا يقنعهم بأن يكفوا . انه لم يكـن يستجيب لتضرعاتهم . اذن لماذا لم يفهمهم ذلك ، ويطالبهم او يقنعهـم بالا يدعوا ويتضرعوا ؟

ان اساليبالقسوة وصور الدمامة في هذا الكون لا ضبط لهـا ولا رحمة فيها . ولكن اليس اقسى هذه الاساليب قسوة واكثر هـذه الصور الدميمة دمامة هي العلاقات بين البشر المؤمنين والاله .. هـذه الدعوات والتضرعات والصلوات والمناشدات الهاتفة المنادية الباكية أبدا ، والمؤملة أبدا ، والمكررة المؤمنة المنتظرة ابدا ، والمرفوضة أبدا .

هذه الدعوات والتضرعات التي لا تجد من يرثي لها او يخجل لهـا ولا تكره نفسها ، ولا تخجل من نفسها ، ولا تغضب لنفسها من كثرةوطول الابتذال والتكرار والرفض .

هذه الدعوات ولتضرعات لتي لا تجد من يرثي لها او يخجل لهـا او يغضب لها أو ينتصر لها .

وهذا الاله الصامت أبدا ، والرافض أبدا ، والغائب أبدا ، والمشغول بنفسه أبدا ، والقاسي أبدا ، والمعرض أبدا ـ هذا الاله الذي لا يمـل أن يصمت ، ويرفض ويعرض ويقسو ويهزأ .

هل توجد قسوة او دمامة أكبر من ذلك ، اكبر أو ابشع من هـذه العلاقات بين هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ويتضرعون ويصلون ويظلون أبدا مرفوضين ، يلحون ويؤملون وينتظرون ويؤمنون ، وبين هـذا الالـه الصامت الرافض الغائب المتلهي القاسي المعرض أبدا ، أبدا ؟

هل توجد وحشية أو دمامة أفظع من هذه العلاقات بين الالهوالمؤمنين،

من انتظارهم واخلافه ، ومن صراخهم وصمته ، ومن ايمانهم ورفضه ، ومن حضورهم ومغيبه ، ومن انهيارهم الدائم وصلابته الدائمة ، من دموعهم الدائمة ومن قدرته الهائلة على القسوة في مواجهة هذه الدموع ؟

لماذا هذا ؟ لماذا لا يرق الاله او يسمع أو يستجيب لهذه الدعوات والتضرعات ؟ لماذا لا يفعل شيئا من ذلك ؟ لماذا لا يرق ويستجيب ولو لبعض هذه الدعوات والطلبات ولو حياء أو تهذبا أو فرارا من قسوة المناشدة وديمومتها ومضايقاتها ؟ لماذا لا يسمع ؟ لماذا لا يتعذب سمعه ؟

هل توجد مناشدة منتظرة مثابرة كمناشدة المؤمنين ، وهل يوجد رفض مثابر مقنط كرفض الآله ؟

هل يمكن ان يوجد اي احتمال لموقف الاله هذا سوى احتمال واحد ، سوى احتمال واحد فيه كل الدفاع عنه والتكريم له ، فيه تنزيهه والارتفاع به عن الاحتمالات الاخرى الفظيعة ؟

هل يمكن أن يكون لهذا أي تفسير او منطق غير الافتراض بل الاقتناع بان الاله لا يعرف أية لغة من اللغات . انه لا يدري بالطلبات الضارعة الدائمة التي تقدم اليه . ان المؤمنين يخاطبونه بلغة لا يعرفها . وهل يوجد تفسير للدفاع عن الاله مثل هذا التفسير ؟ بل هل يوجد تفسير غير هذا التفسير للدفاع عن صمت الاله امام مواكب البشر الراكعين تحت قدميه يدعون ويؤملون دون ان يقول ولو مرة واحدة لواحد منهم : انهض فقد قبلت دعوتك .

... والمشكلة الدائمة ان المؤمنين لن يعرفوا هذه الحقيقة ولن يحولوها ولو الى شك . انهم سيظلون ابدا يعتقدون بأنه يعرف كل لغاتهم ، حتى لغاتهم التي يجب ان يتنزه ويتقدس عن معرفتها وعن الاستماع اليها وعن مخاطبته بها . وهل يمكن ان يفهم المؤمنون ــ ولو احيانا ــ انه ليس شرفا أو مجدا للاله دائما ان يعرف لغاتهم ، وانه ليس نقصانا فيه ولا الما له الا يعرف لغاتهم أو كثيرا من لغاتهم ؟

والمشكلة الدائمة الاخرى انهم اي المؤمنين لو عرفوا هذه الحقيقة ، لو عرفوا ان الاله لا يعرف اية لغة من لغاتهم لما وجدوا او عرفوا وسيلة أخرى يخاطبونه ويرفعون اليه طلباتهم ومناشداتهم بها . وحينئذ قد

يصمتون البتة عن مناشدة الاله والتضرع اليه ومطالبته بأي شيء . وهذا قد تكون فيه راحة ووقار لهم ، أي ان فعلوه أو لو فعلوه .

وفي احتمال اخر قد يحاولون ان يخترعوا لغة جديدة ، ثم يحاولون ان يحولوها الى لغة عالمية يتكلمها كل البشر ، ثم يصنعون وسيلة ما ، لكي يعلموا الاله هذه اللغة التي يتكلمونها جميعا ، لكي يخاطبوه ويتقدموا بطلباتهم وضراعاتهم اليه بها .

وقد يكون في القضية احتمالات اخرى قد تكون افضل ، او أقل بشاعة وارهاقا وسخفا . وهل يوجد في جميع الاحتمالات الرديئة والمخيفة احتمال اكثر قبحا وقسوة وبلادة مما هو حادث ؟ هل يوجد في جميع الاحتمالات اكثر سوءا من ان يظل المؤمنون يدعون ويتضرعون وينتظرون ، بينما يظل الاله صامتا رافضا اما لانه لا يعرف ما يقولون لانه لا يعرف اللغات ، واما لانه لا يريد أن يستجيب ولا ان يبالي بما يقولون ؟ ايهما افظع : ان يكون الاله لا يعرف اللغات التي يخاطب بها أو لا يريد أن يجيب او لا يستطيع ان يجيب ؟ اليس كل اله لا بد أن يكون مصابا باحدى الآفات الثلاث : لا يعرف اللغات أو لا يريد ان يستجيب او لا يستطيع ذلك ؟

* * *

وحينما دعوتك « بصديقي » هل كنت انا مقتنعا حقا بانك صديقي؟ وهل أردت ذلك ، وأردت اعلانه والاعتراف به ؟ هل أردت تقرير هذه الصداقة وتثبيت معانيها وقوتها وديمومتها ؟

هل فهمت تفاسير الصداقة وقررت الالتزام بهذه التفاسير سلوكا واعتقادا مهما كانت تكاليفها وهمومها وذنوبها وتوريطاتها ؟

وماذا قصدت أو أردت من اعلانها اي من اعلان الصداقة ؟ ولماذا اخبرتك ؟ هل أردت ان اؤدي رسالة كونية او انسانية ؟ وهل عرفت انك تقبل ان تكون صديقي أو ان اكون انا صديقك ، وان اعلن عن ذلك ؟ أو هل عرفت انك قد صدقتني حينما زعمتك ودعوتك صديقي ؟

وكيف جرؤت على ان اجعلك صديقي بلا تعاقد .. دون موافقتك بل دون استئذانك او سماع رايك ؟

اليست الصداقة عقدا أو تعاملا بين اثنين أو اكثر ؟ اليس محتوما او مطلوبا ان يرضى الطرفان بهذا العقد والتعامل به ، ويوافقا عليه . والا كان اسلوبا من أساليب العدوان أو المطاردة او الاضطهاد أو السخف أو

النذالة ؟ الا يمكن ان يكون في الصداقة ولو احيانا كل معاني وتفاسير واساليب وحوافز ونيات المعتدي والمطارد والمضطهد والسخيف والنذل ؟

واذا لم يكن الصديق هو كل هذه الصفات والمعاني أو بعضها فما هو اذن ؟ ان الصداقة ليست بحثا عن آله يراد منه الا يكون موجودا .

كيف تفرض على انسان صداقتك دون استئذانه ورضاهوموافقته ، ودون أن تعلم بملاءمة صداقتك له ؟ أليس مثل هذه الصداقة اسلوبا فظيعا من اساليب السقوط على الآخرين ؟

اليس في الصداقة ، في كثير من الصداقات كل معاني السقوط على مشاعر الاخرين وعلى اخلاقهم وافكارهم وعيونهم ، بل على ذواتهم وعلى مثلهم وقيمهم وعلى حدودهم الاجتماعية والتاريخية والانسانية ؟ ولكن اليس سقوط الشيء على الشيء معنى من معاني الوجود ؟ اليس سقوط الانسان على الانسان احتياجا في الساقط والمسقوط عليه ؟ اليس تداويا من تفاهة وجودهما وتسويغا لما لا يمكن تسويغه ؟

وحينما دعوتك بصديقي هل عرفت انا انك تعرف معاني الصداقة ، أو انك قد تستجيب لها أو تلتزم بها ، او انك قد تراها ـ أي قد ترى الصداقة ـ عقدا رابحا في حساباتك ، أو عقدا ملائما لك ؟ الا يحتمل ان يكون في هذا فرض للصداقة من جانب واحد ؟ اليس مثل هذا الفرض ظلما وعدوانا وسخفا ووقاحة وبلادة ومخاطرة ؟

ولكن اليست الحياة بدون هذا الظلم والسخف والعدوان والوقاحة والبلادة والمخاطرة شيئا اكثر قبحا وعدوانا وسوءا ؟

وهل عرفنا انت وانا اننا متشابهان او متكافئان أو متلائمان او قادران على ان نكونا صديقين ، وان نسعد بهذه الكينونة او ان نرضى عنها؟ هل عرفنا ان خصائصنا او امزجتنا أو مستوياتنا أو اخلاقنا لا ترفض ذلك ، أو انها تأذن به وتباركه ، وتجعل منه شيئا طيبا أو مفيدا أو حتى مقبولا ؟ اليس التلاؤم والتوافق ، أو حتى التقارب والتشابه بين الصديقين أو الاصدقاء في المستويات والاهواء والاخلاق والخصائص والظروف والذكاء مطلوبا ان لم يكن مفروضا ومشروطا ؟

ولكن اليس التنافر والتفاوت والتناقض والتصادم ايضا شيئـا مطلوبا ومريحا ان لم يكن مطلوبا ومريحا اكثر ؟

* * *

اذن ما اصبر البشر ، او ما اعجبهم ، او ما اشد تفاهتهم وغباءهم واكثر اكاذيبهم ، او ما اجمد جمودهم في ممارساتهم لانفسهم وللغاتهم ولمخاطبات بعضهم لبعض ولعلاقات بعضهم ببعض ، ولممارساتهم لاربابهم ومذاهبهم وافكارهم ونظرياتهم وعواطفهم ولجميع مواقفهم المماثلة ، بل ولممارساتهم لاعضائهم ولاحزانهم ولمسراتهم .

ما اصبر البشر وما اعجبهم واتفههم واكذبهم واضيعهم وابلدهم واكثرهم جمودا وسخفا وضياعا وتبددا وتبديدا لوجودهم . ولكن هل يكونون اكثر سعادة وذكاء ومجدا لو لم يكونوا كذلك ؟ وهل يكون حينئذ اعجاب الشمس بهم وحبها لهم ، او اعجاب الاله بهم وحبه لهم اعظم او انبل ؟

ما افظع هذا . اني انقد وارفض ، ثم افعل باصرار وحماس واعلان وشهوة كل هذا الذي انقده وارفضه . ما افظع هذا ، ما افظع ممارسة الانسان لنفسه ، لوجوده . ما افظع ممارسة كل موجود لوجوده . اننا لا نرى هذه الفظاعة لانها هي التي تصوغ عيوننا ، وهي التي تصنع مشاعرنا بها ونحوها . انها هي الناقدة لنفسها والمحابية لها المدافعةعنها . اننا نحن المرآة ونحن الوجه . ما اسخف هذا . ولكن اليست اصدق مرآة يرى بها اي وجه وجهه هي نفس ذلك الوجه ؟ اليست مرآة كل شيء هي وجهه ؟

هل يوجد من يرى وجهه بغير وجهه ؟ هل يوجد من يستطيع ان يرى المرآة الا بوجهه ؟

* *

لقد اردت ايها الصديق ان تبالغ في مجاملتي وفي الثناء علي ، رثاء لآلامي وتعويضا عليها ، فوصفتني بما ظننته كل التمجيد والتعزيةوالتعويض والعطف على احزاني العقلية والعاطفية والتاريخية والذاتية .

لقد وصفتني ايها الصديق بالملاك . وحتما قد وضعت في خيالك وحساباتك

ـحينما القيت علي بهذا الوصف ـ كل ما في خيالك وحساباتك عن السماء من نظافة ومجد وارتفاع وتقوى . انك حينما تفضلت بوصفي بالملاك كنت حتما ترثي لي اشفاقا علي من هول شموخي وتقواي ونظافتي وامجادي التي تعيش في السماء والتي تعيش كل فضائل والتزامات السماء لانك تعرف حتما ان معاناة اخلاق السماء ومعاناة مستوياتها تعذيب وليس مزية . ان كونك شمسا أرهاق لك لا تفضيل .

ولكن هل عرفت حقا انك قد جاملتني او انك قد اثنيت علي حينما وهبتني هذا الثناء أو هذا الهجاء ؟ ألا يقع في تصورك احتمال آخر ؟ الا يقع في تصورك ـ ولو احتمالا ـ انك قد بالغت جدا في تحقيري وذمي حينما اطلقت علي كلمة « الملاك » ؟ انت حتما كنت في نيتك تمجدني جدا بهذا الوصف كما كنت حتما ترحمني من قسوة فضائلي علي لانها فضائل ملاك . وهل يوجد من هو احق بالرحمة ممن يعيش فضائل الملاك ؟

هل استأذنتني في اطلاق هذه الكلمة علي قبل اطلاقها ؟ هل عرفت انها امتداح، هل عرفت انها ليست اقسى اساليب الهجاء ؟ هل عرفت ان ذلك سوف يرضيني ؟ لماذا لم تقدر النقيض ؟ لماذا ؟ هل اردت هجائي ؟ لماذا ؟ لا اظن انك قد اردت ذلك . اذن لماذا فعلت ؟

نعم ، ان هذا الثناء ثناء تاريخي . لقد مضى كل الناس في كل التاريخ يثنون على من يريدون المبالغة في الثناء عليه بأن يصفوه بالملائكية . لقد مضى الناس يقلد بعضهم بعضا في هذا الثناء ، وقد كانت ضمائر كثيرين منهم تعتذر الى الملائكة . لقد كان اصحاب هذه الضمائر يعتقدون انهم يحقرون الملائكة ويصنعون لهم الغضب والشعور بالحقارة والمرارة حينما يمتدحون احدا بأنه شبيه لهم في شيء من مزاياهم .

ان احدا لم يعتقد انه يحقر من يجعلهم اشباها للملائكة . لقد كان الملائكة نماذج خرافية لتصورات طفولتنا وانهزام آذاننا .

لقد مضى الناس ـ رافضين لاحتجاج ضمائرهم ـ يقلد بعضهم بعضا في امتداحهم لمن يريدون ان يبالغوا في امتداحه بأن يصفوه بالملاك ، دون ان تجعلهم ضمائرهم المحتجة يهابون هذا التحقير المبالغ فيه جدا للملائكة . ان الرغبة في التصورات الضخمة تنتصر دائما على وقار الانسان وعلى ذكائه وعلي تقواه وضميره . ان التصورات الضخمة نوع من التعويض عن

الفقدان الضخم الاليم وعن كل انواع العجز .

حتى الاديان والكتب المقدسة لقد فعلت ذلك ـ لقد قلدت في هذا الثناء . لعل الاديان والكتب المقدسة هي دائما تقليد واتباع مهما بدت او ظنت ابتكارا وتجديدا .

ولكن هل الاديان والكتب المنزلة تقلد ؟ لعلها هي المقلدة . لعلها هي التي صنعت هذا التقليد ، او هذا الثناء الذي تحول الى تقليد ؟ لعل الاديان والكتب المقدسة هي البادئة بتصور الملائكية ثناء ومجدا .

ولكن هل يحتمل ان يكون ذلك افتراضا مقبولا ؟ هل يحتمل ان الاديان والكتب المنزلة هي التي تبتكر للناس تقاليدهم وتعاليمهم بل او اخلاقهم او مشاعرهم او لغاتهم ، أو حتى تقواهم وصفات اربابهم ؟

هل النبي أو الدين أو الكتاب المنزل يبتكر نفسه أو يصوغها او يجدها داخل ذاته ؟ هل يجدها موضوعة تنتظره داخل المغارات والكهوف المهجورة ، أو يقرؤها مكتوبة على النجوم في تطلعاته اليها ؟

هل النبي أو الدين او الكتاب المنزل يخلق نفسه ام يجدها في السوق ـ هل يجد نفسه في السوق ، في السنة ونيات واماني وجوع واحلام الجماهير الضعيفة المتخلفة البدوية جدا ، ام يجدها فوق المجرات ؟

هل الانبياء والاديان والكتب المقدسة تعطي المجتمعات ام تأخذ منها ، هل تعلمها ام تتعلم منها ؟

هل تتعلم منها وتعلمها ومن يعلم المعلم ؟ وكيف يتعلم ،وكيف يصبح معلما ؟ واذا كانت الاديان والانبياء والكتب المقدسة تعطي المجتمعات وتعلمها فهل تعطيها وتعلمها عطايا وتعاليم مستوردة من السماء ومصنوعة في السماء وعلى مقاسات السماء ، ام تعطيها وتعلمها ما اخذت وما تعلمت منها ؟

هل تعطيها وتعلمها كبرياء وذكاء وضخامة السماء ، أم تعطيها وتعلمها اتضاع السوق وتلوثها وأوهامها وغباءها وبذاءاتها وحماقاتها وصغائرها الاليمة ؟

هل الانبياء قوم يقدمون من السماء ليعلموا منطق من يعيشون في السماء ام يخرجون من الارض ليعلموا منطق من يعيشون الام وضعف الارض ؟

هل الانبياء معلمون ام متعلمون ؟ هل هم انبياء ام اتباع ؟ هل الانبياء قادة أم رعايا قد تحولوا الى قادة لانهم اكثر الرعايا تعبيرا عن مستويات واخلاق الرعايا ؟ لانهم اكثر الرعايا استيعابا لمعاني ومنطق الرعايا ؟ هل الانبياء يعلمون الجماهير نبواتهم ام الجماهير تعلم الانبياء مستوياتها وسذاجاتها واخلاقها ؟

هل الانبياء قوم يعلمون السوق المنطق ام هم قوم يتعلمون من السوق الخروج على المنطق وضعف المنطق ؟

ايهم الانبياء ، وأيهم الجماهير ؟ هل الانبياء هم انبياء الجماهير ، ام الجماهير هي انبياء الانبياء ؟ هل الانبياء اكبر من الجماهير او فوق الجماهير ؟ هل هم اذكى ام اعلى صراخا ؟

هل الانبياء والاديان والكتب المنزلة ابتداع من الفراغ ، ام هي تجميع وتركيز وتوكيد وتكرار والحاح وطرق دائم عنيف على الباب القديم الذي كان موجودا بالايدي القديمة التي كانت موجودة ؟

هل الاديان والنبوات والكتب المقدسة الا قراءة للناس على انفسهم ، والا تعليمهم مافي انفسهم وتعليمهم لانفسهم ؟ اليست هي ماكان ، مزعوما بصراخ انه ما لم يكن ؟ اليس النبي هو الذي يعلم الناس ببكاء وعذاب وتطلع الى النجوم ما تعلم منهم ؟ اليس الفرق بين النبي وجماهيره فرقا في الاسلوب لا في المستوى ؟ اليس مستوى النبي هو مستوى السوق قد جاء صارخا وباكيا وحزينا وضارعا وملحا ومتجمعا ومتكررا ؟

اليس النبي هو الذي يحدث الناس عن احزانهم وتفاهاتهم واحتلاماتهم التي سمعهم يتحدثون عنها ، والتي تعلمتها ذاته واعضاؤه من اعضاء الناس ومن ذواتهم ، لان ذاته واعضاءه ليست الا ابتكار ذواتهم واعضائهم ، ولان احزانه وتفاهاته واحتلاماته ليست الا تلقين وتوزيع احزانهم وتفاهاتهم واحتلاماتهم ؟ اليس النبي انسانا تتجمع فيه الجماهير باسلوب عنيف : تتجمع فيه اخلاق الجماهير وعواطفها وضياعها وحيرتها وصراخها ولغاتها النفسية والفكرية والتعبيرية ؟ اليس هو الجماهير باسلوب اشمل واعنف ؟

ان كان النبي هو الذي يعلم الناس فمن يعلمه هو ، وان كان يتعلم من الناس فمن يعلم الناس ؟ اليس معلم النبي ومعلم الناس هو معلما واحدا ؟ اليس معلم الحشرات ، معلم قادتها واتباعها او صغارها وكبارها معلما واحدا ؟ اليس معلمنا الصلاة والحب هو معلمنا السباب والبغض ؟

ولكن هل النبوة تعليم ام جوع ؟ اليست جوعا قد تحول الى تعليم والى تعاليم ، قد تحول الى نبوة ؟ هل النبي يعرف تعاليم اكثر ام يعاني آلاما واحاسيس وظروفا اقسى ، ويعبر باسلوب اكثر بكاء واذلالا للذكاء والكبرياء ؟

هل الانبياء هم الذين يعرفون اكثر ام هم الذين يعيشون في السوق ويطاردونها ويصرخون فيها اكثر واقوى ؟

* *

هل عرفت او تصورت ايها الصديق ما هي اخلاق الملائكة التي أردت ان تمجدني بها ؟ هل فكرت فيها ؟ هل قرات عنها ؟ هل جربتها ، هل رايتها ؟ هل رايت من رآها او من جربها ؟ هل عرفت اخلاقهم ، وبأية وسيلة عرفتها ؟ هل حدثك عنها المحدثون ؟ هل حدثوك عنها بعد ان جربوها ، بعد ان زاروا الملائكة او زارتهم الملائكة ، وبعد ان تعاملوا معهم كل اساليب المعاملات وتحت كل الظروف التي تمتحن الاخلاق والتي تقاسي منها الاخلاق ؟

ما عمل الملائكة وما اخلاقهم وما نياتهم ؟ هل هم انسانيون ، هل هم اتقياء ، هل هم اصدقاء ؟

هل هم ديمقراطيون ، هل هم ثوار وفدائيون ضد الطغاة والطغيان ؟ هل هم اعوان للطغاة ومستشارون جيدون جدا لهم ؟ هل لهم ضمائر واحاسيس ترفض او تغضب او تقاوم ؟ هل هم منطق او تفكير يحاسب وينقد ويحتج ام هم آلات وادوات كالاعاصير والزلازل والاوبئة والموت والخراب والقحط؟

هل الادوات والآلات — في قبضة الطغيان وتحكمه — ذات اخلاق وتقوى ؟ هل الزلازل والبراكين والاوبئة والقحط والموت والخراب نماذج للفضيلة والامتداح والتدين ؟

اليس الملائكة زلازل وبراكين وخرابا وموتا وقحطا وأوبئة ؟ اليسوا كائنات تنفذ الاوامر الاليمة الرهيبة في هذا الكون وفي الحياة وفي الناس — تنفذ الاوامر الشريرة بطاعة وتدين واخلاص وحماس ضد الكون والحياة والناس ، دون ان تعصي او تقاوم او تراجع او تتألم او تحزن او تبكي او تغضب او تتخاطب مع ضمائرها او مع اخلاقها ؟

أليست اخلاق الملائكة وضمائرها هي ان تطيع الاوامر الكئيبة العدوانية : اوامر القتل والتعذيب والتشويه والتدمير والانتقام بلا ذنوب؟

... ان تطيع هذه الاوامر الموجهة اليها من اطغى وحشية في هذا الكون ؟

هل طاعة الاوامر المتوحشة وانفاذها فضيلة او تقوى ؟ اذن ماهي الرذيلة والفسوق والفجور ؟

أليست كل تقوى الملائكة وصلواتهم وفضيلتهم وايمانهم ان يشكروا الاله ويقدسوه وينزهوه كلما قتل أو فتك او عذب أو اهان او افقر ، أو فعل شيئا رهيبا أليما ؟

... كلما عذب او شوه أو امرض او اذل أو امات شيخا أو طفلا او حيوانا بريئا او حشرة مؤمنة تمضي كل وقتها في تسبيح الاله والصلاة له وفي الثناء عليه وفي التحدث عن مجده وحبه ورحمته ؟

أليس كل عمل الملائكة ان يقتلوا هذا ، او يمرضوا هذا ، او يفقروا هذا ، او يشوهوا هذا ، او يهزموا هذا ، او يذلوا هذا ، او يفرقوا هذا ، او يصيبوا هذا او هذا ، او كل هؤلاء بالآفات والعاهات والتشوهات وبكل المظالم والاحزان والثكل واليتم والفقد ؟

أليس كل عملهم ان يضلوا ، ويفسدوا ، ويكيدوا ، وان ينفذوا الى العقول والضمائر والرغبات والشهوات والى الاعضاء والنياتليضعوا فيها ويحببوا اليها كل الوان وجنسيات الفساد والغواية والشرور ؟

أليس كل عملهم ان يعدوا الجحيم وكل ادوات التعذيب والانتقام والعقاب للبشر البائسين ، وان يضربوا الحراسة عليهم في الجحيم لئلا يهربوا او يخرجوا منها ، وان يضربوا الحراسة على الجحيم لئلا تنطفىء او تسرق أو تهدم او تزال بقرار دولي او بقرار صحي أو بثورة عالمية ؟ أليس افضل واتقى اعمالهم اي اعمال الملائكة ان يحموا الجحيم من كل القرارات أو الثورات العالمية او الكونية التي قد تغلقه أو تهدمه او تحوله الى شيء افضل ؟

أليس الملائكة هم صناع النار ومسعريها وسدنتها وحراسها وبوابيها وحجابها وجامعي الوقود لها ؟ أليس الملائكة كائنات نارية : يشيدون النار ،

ويوقّدونها ، ويحرسونها ، ويدلون عليها ، ويدخلون فيها ، ويتحدثون عنها ، ويحرضون عليها ، ويعيشونها باخلاقهم ومشاعرهم ومنطقهم ومكانهم . دون ان يقاوموها او يستفظعوها ويرفضوها أو يرفضوا العمل فيها او يتهيبوا النظر الى وجه من يعاقب بها ؟

أليس عمل الملائكة ان يحرسوا ضمير الاله واخلاقه وعقله وعواطفه ودموعه لئلا تصاب بالرقة او بالرحمة أو بالعطف ـ لئلا تستجيب أو تضعف أو تنهار امام الالام والويلات التي يعاني منها البشر في دار العقاب والانتقام التي اعدها واعد كل ما فيها من فنون الشر والتشويه والغضب الملائكة أنفسهم ؟ لقد كان اعظم ثناء صاغه الكتاب المنزل للملائكة قوله : « عليها ـ اي على النار ـ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » . وهل يوجد هجاء اقسى من هذا الثناء ؟ انهم غلاظ شداد في طاعتهم لطاغيتهم .

أليس كل عمل الملائكة ان يحرضوا قسوة الاله وغضبه وعذابه وقوته الباطشة على البشر المقهورين ؟ انهم هم قسوة الاله وغضبه وعذابه وبطشه . انهم هم الة ذلك واجهزته وادواته .

هل الف الملائكة وفودا او مجالس او مظاهرات او اضرابات او اية تجمعات او تحركات ليطالبوا الاله بان يكون ارحم او اعظم نخوة او نبلا أو عفوا او تسامحا أو ديمقراطية او نقدا للذات أو مراجعة للذات ؟ هل خالفوا الاوامر ؟ هل طالبوا بابطالها او بتعديلها او بتصحيحها ؟

هل هربوا ، هل مرضوا ، هل انتحروا استفظاعا أو رفضا أو اشمئزازا مما يؤمرون ويمارسون ويشاهدون ويعلمون ؟ هل بكوا ، هل صرخوا ، هل تفجرت عيونهم ، هل هابوا الرؤية هل عافوها ؟

أليس الملائكة هم ابشع واشهر جلادين لاشهر وابشع طغيان في الكون ؟

أليس الملائكة هم وحدهم القائمين على اجهزة المباحث والمخابرات والجاسوسية لهذا الطغيان الذي هو ابشع وأشهر طغيان في الكون ـ الذي هو طغيان اشهر وابشع طاغية في الكون ؟

بل أليس قيام الملائكة على هذه الاجهزة للمخابرات والمباحث والجاسوسية هو كل عملهم ، وكل قيامهم وصيامهم وكل تقواهم وايمانهم؟

هل توجد عيون أو قلوب في قسوة عيون وقلوب الملائكة ؟ هل توجد ممارسات في وحشية ممارسات الملائكة ؟

ما هي الفروق بين اعوان الطغاة من البشر وبين الملائكة الذين هم اعوان أشهر وابشع طغيان في الكون ؟ هل يقبل اعوان أي طغيان في التاريخ ان يسأل عن الفروق بينهم وبين الملائكة الذين هم اعوان اشهر وابشع طغيان في هذا الكون ؟ هل من العدل ان تقام مقارنة بين الملائكة وبين اعوان اي طغيان ؟

ان اعوان طغاة البشر يأخذون الثمن ، ويحولون الثمن الذي يأخذونه الى اساليب مختلفة من الاستمتاع واللذات والمسرات والاشياء الاخرى الكثيرة القوية الاغراء والاغواء والتحريض ، الكثيرة العشاق والمريدين . انهم يأخذون ثمنا قد يغري وقد يلهب الشهية والرغبة ، وقد يرى انه اكبر مما يعطون ، وقد يرى انه متكافىء مع ما يعطون ، او انه دونه قليلا . انه مهما كان التقدير ثمن ، انه ثمن يختلف عليه المختلفون ، ويقبل التساوم عليه المساومون ، ويسقط تحت اغرائه واغوائه الكثيرون ، بل الكثيرون من الاقوياء والشامخين ، ويصيح الاخرون الناجون — وهم ينظرون اليه ويتلمسون مواقعه وضرباته داخل حدود ضمائرهم واخلاقهم : اللهم لا تدخلنا في تجربة مع ضمائرنا واخلاقنا .. اللهم لا تدخلنا في مثل هذه التجربة . اللهم لا تجعل ضمائرنا او اخلاقنا تجرب نفسها على نفسها ..

... اللهم لا تضعنا في خيار بين ان نكون هذا او هذا — بين ان نكون اعوانا للطغيان الرهيب لنأخذ الثمن والامان منه ، وبين ان نعصي هذا الطغيان لنتلقى اخطاره وغضبه .

... اللهم احمنا بالعجز لا بالفضيلة ، اللهم اعصمنا بقبضتك لا بخشيتك أو محبتك .

.. اللهم اجعلنا رافضين لاننا عاجزون ، لا لاننا عاصون ، لا لاننا رافضون .

.. اللهم احمنا مما لا تريد بجيوشك لا بانبيائك ، بقوة جيوشك لا بتعاليم انبيائك .

... اللهم لا تجعلنا نجرب ضمائرنا او اخلاقنا على ضمائرنا واخلاقنا .

ان افضل الاخلاق والضمائر هي التي لم توضع في مثل هذه التجربة

ـ هي التي لم توضع في خيار بين أن تكون هذا أو نقيضه . ان افضل الضمائر والاخلاق هي التي لم تجد نفسها في موقف المساومة معالشيء ونقيضه . ان مواقف المساومة وظروفها هي دائما هزيمة للضميروالاخلاق ، او تعذيب واحراج للضمير والاخلاق . ان الاله الذي يضع عباده واعوانه في ظروف ومواقف المساومة والخيار هو اله يدعو الى ان يكون معصيا .

هل كان محتوما ان تكون الشمس هي الشمس ، او الزهرة هي الزهرة لو كانت مخيرة بين ان تكون هي ذاتها وبين الا تكون .ان مواقفنا مثل كينوناتنا ، انها ليست خيارا بين الشيء ونقيضه .

ان اي موقف واي شيء لم يكن كما كان تحت الخيار بين الشيء ونقيضه . حتى الاله لم يكن ذاته كما كانها بالخيار .

ولكن ما هو الثمن او الاجر الذي يأخذه الملائكة لكونهم اعوانا لاشهر وابشع طغيان في هذا الكون ؟ هل يأخذون ثمنا او اجرا ؟ أليس الثمن هو الثمن ؟ اليس الاجر الذي يأخذه الملائكة هو نفس العمل ، هو انيستمروا في العمل الذي اجره هو العمل ، هو الاستمرار في العمل ؟

اليس الملائكة يمارسون التنفيذ للطغيان والوحشية ليكون كل اجرهم الاستمرار في تنفيذ المزيد من الوحشية والطغيان ؟

هل يوجد عمل اجره ليس شيئا سوى تكراره والاستمرار فيه ؟ هل يوجد من يعملون ليكون اجرهم ان يستمروا يعملون ؟ اليس هؤلاء هم الملائكة وحدهم ؟

هل يوجد من يعملون اعوانا للطغيان دون ثمن ؟ هل يوجد منيشتهون معاونة الطغيان اشتهاء لا ثمن له سوى الاشتهاء ؟

اليس كل الثمن الذي يقبضه الملائكة اجرا لكونهم اعوانا لاشهر وابشع طغيان في الكون هو أن يستمروا يعملون اعوانا لهذا الطغيان الذي هو طغيان اشهر وابشع طاغية في هذا الكون ؟ لعل بعض اعوان الطغاة يبكون او يرثون او يقاسون من عملهم . اما الملائكة فيمارسون عملهم بشهوة ونشوة وتسبيح وهتاف .

انهم يمارسون عملهم الفظيع هذا بلا اغراء او تعويض ، انهم يمارسون الفظاعة لنفس الفظاعة . انهم يقتلون ويشوهون ويمرضون ويعذبون لكي يستمروا يقتلون ويشوهون ويمرضون ويعذبون . ان الملائكة يمارسون وظيفة

الجلادين لانهم عاشقون لا لانهم خائفون أو مدفوع لهم الاجر ، أنهم عاشقون لا انانيون .

اذن هل يوجد في اعوان الطغاة من يشبههم ؟ هل يقبل اعوان اي طغيان ان يكونوا ملائكة ، ان يكونوا اشباها للملائكة او ان تكون مستوياتهم الاخلاقية او النفسية او الفكرية ، او حظوظهم مثل مستويات الملائكة أو مثل حظوظهم ؟ هل يوجد أتعس عملا وحظوظا من الملائكة ؟

هل تقبل ان تكون ملاكا لو انك حدقت في اعمال الملائكة وفي اخلاقهم وفي حظوظهم ؟

كم هو شيء فظيع ان يؤدي الكائن الحي الشاعر المفكر الذي يملك احساسا ورؤية ، والذي يأمر وينهي ويطيع – كم هو شيء فظيع ان يؤدي هذا الكائن عمله بالاسلوب الذي تؤدي به البراكين والزلازل والاوبئة والقحط والعاهات والموت والآفات عملها ؟

اليس الملائكة هم الكائنات الحية الشاعرة التي تملك الرؤية والاحساس والتفكير والعقل ، والتي تؤمر وتنهي وتطيع ، ومع هذا تمارس اعمالها بالاسلوب الذي تمارس به البراكين والزلازل والقحط والموت والامراض والآفات والعاهات اعمالها ؟ بل أليست هذه هي الاعمال الرسمية والدينية للملائكة بل وللالهة ؟ اليست هذه الاعمال والممارسات هي اتقى صلوات الملائكة واذكى تخطيطات الالهة ؟

اذن هل يوجد اردأ وجودا او اخلاقا أو حظوظا من الملائكة ؟ واذن هل يوجد من يقبلون ان يكونوا ملائكة أو ان يكونوا في مستويات الملائكة ، او ان تكون لهم اخلاقهم او حظوظهم ؟

اذن هل الملائكة كائنات تستحق الغضب والعقاب والكره ، أم هم كائنات تستحق الرثاء والاشفاق والتعزية ؟ انه لاعزاء للملائكة في حظوظهم وفي بشاعة ممارساتهم الا الالهة ، وانه لا عزاء للالهة في حظوظها وفي بشاعة ممارساتها الا الملائكة . ان الالهة والملائكة ليتنافسون في رداءة الحظوظ والاعمال والاخلاق .

... ما هو الشيء الطيب او الجميل او الذكي او الحر او الاخلاقي أو الشجاع او السعيد في حياة الملائكة أو في عواطفهم أو في قلوبهم او في

عقولهم أو في سلوكهم او في ضمائرهم أو في تاريخهم ، أو حتى في عيونهم ونظـراتهم ؟

ان اقسى وافجر جلاد لاقسى وافجر طاغية لهو اكثر « ملائكية » من الملائكة ، وانه لاقل ابليسية او شيطانية من الملائكة . ان الملائكة يصنعون الالام والشرور ويوقعونها بالانسان ، اما الشيطان فانه يدعوه ـ اي يدعو الانسان ـ فقط الى ذلك دون ان يوقعه به . ولعل هذا الفرق هو الـذي جعل الملائكة اقرب الى الله من الشيطان .

.. اي خلق في الملائكة ، او اي موقف لهم يمكن ان يتمناه اي كائن لنفسه ، او يمكن ان يسعد او يفخر اي كائن بأنه خلقه او موقفه ؟ ايشيء فيهم يمكن ان تتمناه انت لنفسك او اتمناه انا لنفسي ؟ أي شيء فيهـم لا ترفض انت ان تكونه او يكونك ، او لا ارفض انا ان اكونه او يكونني ؟

اي شيء ، اي شيء في الملائكة ؟ أي شيء فيهم يمكن ان يصبح امتداحا او مجدا او أمنية لاي كائن ؟ أي شيء فيهم لا يعد اقسى واقصى اساليب ومستويات العار والوحشية والدمامة ؟ اي طاغية لا يتمنى ان يكون لـه اعوان ومنفذون مثل الملائكة ؟ بل اي طاغية يتحمل طغيانه ان يكون لـه منفذون واعوان مثلهم ؟

ان اردأ كائن لن يقبل ان يكون رديئا كأنبل ملاك .

ان التاريخ في كل مستوياته لم يعرف طاغية كان له اعوان يملكون من الرداءة ومن القدرة على تنفيذها مثل الملائكة .

.. انه ليس في الكون ولا في العالم من يحابي القوة والقسوة ويطيعهما للبطش بالضعفاء والمظلومين مثل الملائكة . انه ليس في العالم او الكون عميل للقوة والقسوة الباطشتين المتوحشتين ، او منفذ لهما ، او مبارك لهمـا ، او معين عليهما ، او مشاهد لهما ، او شهيد عليهما ، أو متبلد أمامهما ، كالملائكة . انه لن يوجد في البشر من يستطيع ان يتعلم من الملائكـة كل قدرتهم على الاخلاص والطاعة والولاء والحب في تنفيذهم لاوامر وشهوات القوة والقسوة ضد الضعفاء والمقهورين المظلومين .

حتما انت لم تقصد هجائي او الاساءة الي حينما وصفتني بالملاك . لهذا أنا عاذر بل واحيانا شاكر . ولكن عذري وشكري لن يمنعاني مـن

محاولة التفسير لهذه القضية بهذا الصدق الصادم الاليم ، وبهذه الجساره التي قد تعد اسلوبا غير مألوف من الوقاحة او من الجنون .

كيف اجمع البشر كل البشر في كل تاريخهم على هذه الغفلة الكبرى ، على الاقتناع بان الملائكة هم كل التفاسير وكل النماذج لكل الاخلاق العظيمة والمعلمة والمطلوبة والمطموح اليها ؟

ان احدا في كل التاريخ ـ تاريخ الالهة والملائكة والسماء والمؤمنين ـ لم يفطن الى هذا الوهم العجيب في تصور اخلاق الملائكـة ، وفي افتراض اخلاقهم هي النموذج الاسمى لاسمى الكائنات اخلاقا . ان البشر قــد يعجزون عن رؤية اكثر الاشياء تجريحا للعيون .

انه لا مثيل للانسان في العجز عن الرؤية وفي القدرة على الرؤية ، في التقبل وفي الرفض .

لقد ظل البشر يحابون الملائكة في تصورهم لمزاياهم بالاسلوب الـذي ظلوا به يحابون الالهة . لقد ظل البشر عاجزين عن امتلاك اي مستوى من مستويات النقد لسكان السماء ، لكل سكان السماء . لقد كان سكـان السماء دائما عدوانا باهظا على ذكاء الانسان وتفكيره وتصوره ، بقدر مـا كانوا عدوانا على وجوده وحياته واخلاقه ، وعلى جسده ايضا .

وهل يوجد او وجد مثل سكان السماء في عدوانيتهم وفي براءاتهم ؟ هل عرف مثلهم معتدين على الانسان وحامين له من العدوان ؟ هل جاءمثلهم مهاجمين ومدافعين ، موجودين ومفقودين ؟

والآن هل تقبل ان تكون رديئا او وحشا او جلادا او عميلا للطغيان الرهيب كالملائكة ؟

هل تستطيع ان تمارس من البذاءة والذم والهجاء الظالم ما يجعلـك تجرؤ على ان تصف اي كائن بأنه ملاك مهما كان رديئا او وحشا او جـلادا او عميلا للطغيان والقبح ؟

.. الآن هل تقبل او تجرؤ على ذلك ؟

.. الآن ، هل يقبل اي انسان مهما كانت رداءته وذنوبه ان يمدح بأنه ملاك ، او بأن يهجى ؟

.. الآن هل يجرؤ الاله على ان يبقي على الملائكـــة اعوانــا وجنودا ومستشارين له ؟

* *

ثم ماذا ايها الصديق ؟ لقد اخذتني الى رحلة بعيدة ، الى رحلة قــد اصبحت بعيدة جدا في تاريخي وفي خطواتي مهما ظلت قوية ، قوية في ذكرياتي وفي احاسيسي . لقد رجعت بي الى ماض بعيد بعيد جدا . انه بعيد ، بعيد مهما ظل قريبا ، قريبا .

لقد اخذتني الى رحلة كنتُ اظن انك تحسبني قد اصبحت مبتوتا عنها ومفارقا لها بلا عزاء او ذكرى او معاودة . لقد رجعت بي الى تاريخ قديم ، قديم ، كان قويا ، قويا جدا في حياتي . لقد رجعت بي الى ذكرى كانــت حياة ، كانت حياة زاخرة بالانفعالات الزاخرة بالرهبة والرهبانية وبالضياع الرهيب . اجل ، لقد رجعت بي دون ان تسأل او تستأذن ، وحتى ترفق..

لقد رجعت بي ايها الصديق الى عالم لم يكن له مثيل في رهبته وفي قوته ، ولم يكن له كذلك مثيل في احتراقه وفي جنونه وفي عذابه وفي كبريائه، كما لم يكن له مثيل في تفاهته ولا في ضياعه ولا في عقمه . الى عالم لم يكن له مثيل له في صدقه ولا مثيل له في كذبه ، ولا مثيل له في حبه ولا مثيل له في عدوانه .. الى عالم كان هو كل شيء ، وكان ليس شيئا ، كان يهبني كل شيء دون ان يملك هو شيئا .

الى عالم كان يعلمني كل شيء بكل صدق وحماس وتعذيب وروعــة دون ان يجعلني اعرف شيئا ودون ان يعرف هو شيئا ... الى عالم كان يفترسني بكل ادوات واساليب الافتراس والعدوان ، وكان يتراءى لي كأجمل واضخم الامال التي تغفر كل افتراس وعدوان ، بل التي تحول كل افتراس وعدوان الى ابتسامات توزعها علي وتحييني بهــا كل ادوات واساليـــب الافتراس والعدوان ــ يوزعها علي ويحييني بها كل شيء حتى كل ادوات الافتراس والعدوان ، حتى كل اساليبهما كانت تحييني بهذه الابتسامـــات وكانت توزعها علي ، اواه . هل كان ذلك الماضي سعيدا او كان شقيا ؟ هل كان شقيا سعيدا وسعيدا شقيا ؟

ولكن ما هي الحدود بين الشقاء والسعادة ؟ وهل توجد حدود بينهما ؟ من وضعها ، ومن يعرفها ؟

لقد رجعت بي بلا شوق او نشوة ولكن بانبهار . لقد رجعت بي الى تاريخ كان عاصفا ، عاصفا ، ولكنه لم يكن مجيدا او عظيما او عزيزا . لقد كان تاريخا فيه كل المعاناة دون ان يكون فيه شيء من الابداع . كان تاريخا فيه كل معاني الرهبة دون ان يكون فيه شيء من معاني الروعة .

لقد رجعت بي ايها الصديق الى تاريخ كنت اعيشه هناك ، بعيدا ، بعيدا . كنت أعيشه مع الالهة ، في السماء ، في مجاهل وغابات السماء ، مع الانبياء ، مع الايات والاحاديث ، مع تفاسير الايات والاحاديث ، بين تهاويل واهوال الجنة والجحيم ، بين صورهما وتصوراتهما واوصافهما ، بين من يعيشون فيهما . وهل جربت أن تعيش هناك ، هل جربت ؟ اني اشفق عليك ان تكون قد جربت ذلك .

لقد رجعت بي الى تاريخ كنت أعيشه هناك هناك . بعيدا ، بعيدا بكل الاهوال والتهاويل كنت اعيشه بكل الصدق والتقوى . وهل جربت اهوال الصدق والتقوى ؟ هل جربت عذاب الايمان الصادق ؟

هل كنت تعني شيئا اذ فعلت بي ذلك ، هل كنت تدبر ؟ هل كنت تنوي تعذيبي ؟ هل كنت تنوي ان تثير في معنى من معاني السرور ؟ هل كنت تقسو ام تأسو ام تمزح ام تمارس نفسك بلا تدبير أو تفسير او منطق ؟ هل كنت تعرف ماتصنع بي حينما ارتحلت بي هذه الرحلة في اعماق العذاب الرهيب المهيب ، بين كآبة الآلهة وكآبة الانبياء والقديسين ، وبين شتائم وتهديدات الآيات والاحاديث ، وبين اهوال وتهاويل الجنة والجحيم ؟ هل كنت تعرف ماذا تصنع او تنويه ؟

انك تسألني عن تفسير قصة دينية ، عن تفسير لقصة قد قصها الكتاب المقدس .

تقول ان القرآن قد حكى في سورة الكهف ان نبي الله موسى قد اصطحب في رحلة دينية روحية غيبية عجيبة غامضة جدا اصطحب رجلا غامضا غيبيا قد امتدحه امتداحا قويا . وقد انطلقا موسى وذلك الرجل الغامض الغيبي في رحلتهما الدينية الغيبية الروحية العجيبة الغامضة بعد ان اخذ ذلك الرجل على موسى شروطا مسكتة لحرية عقله وتفكيره ولسانه حتى الانبياء يقبلون ان تفرض شروط على حرياتهم ، على حريات تفكيرهم ومشاعرهم وعلى حريات الكلمة فيهم . حتى الانبياء يقبلون ان يفقدوا كل حرية ويفاوضون على فقدها . وفي بعض اشواط رحلتهما هذه وجدا سفينة

تعمل في البحر . ولم يذكر أي بحر هذا البحر . فاحدث ذلك الرجل الغيبي في السفينة خرقا . ولم يذكر بأية وسيلة او آلة احدث ذلك الخرق ، ولا ماذا صنع اصحاب السفينة حينما فعل ذلك بسفينتهم . وهل رأوه . وهل دبر ما فعل بالاتفاق معهم .

وقد ركبا السفينة بعد ذلك . وقد كان استغراب موسى واستنكاره اقوى من الشروط التي قد وافق عليها ووقعها باملاء ذلك الرجل الغامض الذي اصطحب وكانت هذه الشروط او كان منها الا يسأل عن اي شيء يصنعه ذلك الرجل مهما كان قبحه او ظلمه او جنونه او سخفه .حتى الانبياء يوقعون على فقد حرياتهم .

لقد قال موسى للرجل ــ ناسيا او رافضا الشروط المأخوذة عليه ــ كيف فعلت ؟ لقد فعلت شيئا منكرا . أنك تريد اغراق السفينة واهلها لقد قصدت ذلك . انك كائن لا يمكن فهمه ولا تفسيره ولا الاطمئنان اليه .

فذهب ذلك الرجل يفسر لموسى ما حدث . وكأنه كان يريد ان يظهر تفوقه ومواهبه واسراره الخارقة الرهيبة . كأنه كان يريد ان يثبت استعلاءه وانتصاره على موسى . كأنه كان يقصد أن يمجد نفسه لا أن يعلم موسى ما لم يعلم . ولكن كيف ينكر النبي موسى على ذلك الرجل ان يفعل ما فعل وهو اي موسى لا ينكر على الاله ان يفعل شيئا مما يفعل ؟ اليس من يغفر للاله افعاله لا بد أن يغفر لكل احد كل شيء ؟ أنه لا مثيل لغباء من يغفر للاله ولا يغفر للانسان .

قال ان السفينة لقوم من المساكين يعملون في البحر ، وان وراءهم او امامهم ملكا ظالما لصا طاغية ، وانه يغتصب كل سفينة حتى مثل هذه السفينة التي يملكها ويعمل عليها مثل هؤلاء المساكين بمثل هذا الاسلوب المتواضع من العمل . وقد دبرت لحماية هذه السفينة من الاغتصاب الذي كان ينتظرها ، فكان هذا التدبير أن احدثت فيها خرقا . لقد خرقتها لانقذها

ولم يذكر هنا ما هي العقدة الفنية أو الفكرية او السلوكية العجيبة التي تجعل احداث خرق في السفينة يتحول الى حماية لها من اغتصاب ملك لص يغتصب كل السفن . ان كان خرق السفينة يعني اعدامها او اغراقها او

تعجيزها عن العمل فهل في هذا اي اسلوب من اساليب الانقاذ للسفينة او لاصحابها المساكين الذين كان يراد انقاذهم ؟ اليس هذا يساوي اغـــراق السفينة خوفا عليها من الفرق ، او اعدام المال او الاثاث خوفا عليــه مــن اللصوص ، او قتل المريض خوفا عليه من الموت ؟

اما اذا لم يكن خرق السفينة يعني هذا ، اذا لم يكن يعني غرقها ولا موتها ولا عجزها عن العمل فكيف يكون في خرقها انقاذ لها من الملك المغتصب؟ فأية عقدة روحية سماوية دينية في هذه القضية ؟ وهل يمكن ان تفهم العقد الفنية او الفكرية او السلوكية في تفكير الالهة او في تأليفها او في تصرفها ، او في تأليف او تفكير او في تصرف الرجال الغيبيين ؟

ثم استمرا اي النبي موسى وذلك الرجل الغامض منطلقين في رحلتهما الدينية الروحية العجيبة الغامضة ، فوجدا في طريقهما غلاما يلعب مــع غلمان في مثل سنه ، فهوى عليه ذلك الرجل الغيبي فقتله . فكان ذعــر موسى واشمئزازه وتعجبه بلا حدود . انه لن يستطيع ان يسكت او ان يلتزم بالشروط التي وقعها على نفسه ، اي التي وقعها على عقله ومشاعره واخلاقه وعلى عينيه ، بألا يرى ما يحدثه ، وبألا يفكر فيه ، وبألا يشمئز منه او ان ينكره ، بل او ان يتعجب منه .

حتى الانبياء يفاوضون على فقد حرياتهم ويوقعون على فقدها وعلى شروط فقدها .. حتى الانبياء يفقدون حرياتهم . لقد رأى موسى جريمة قتل متعمدة لا يمكن الدفاع او الاعتذار عنها ، ولا يمكن تفسيرها بغير القتل المتوحش المتعمد . بل انه اكثر اساليب القتل المتعمد وحشية ونذالة وجنونا انه قتل بدون اي حافز او سبب من حوافز او اسباب القتل . انه لــو لم يقبل ان يوجد من يقتل بدون ان تحركه حوافز واهداف القتل . ولكنه يعلم ان الله يقتل ويقتل دائما ويقتل كل الاحياء دون ان يكون محكوما بأي حافز او هدف او سبب من حوافز او اسباب او اهداف القتل . انه لـو وجد كل من يقتلون مسوغا لان يقتلوا لبقي قاتل واحد لا يجد هذا المسوغ للقتل ولكان هذا الواحد هو الله .

ان كل الناس يغفرون للاله ما لا يغفرون لانفسهم او لاي كائن غيره ، حتى الانبياء ، انهم يغفرون للاله ويتقبلون منه ويفسرون له ما لا يستطيعون ان يغفروه او يتقبلوه او يفسروه لاحد سواه .

لقد عجز النبي موسى ان يغفر قتلة واحدة لذلك الرجل الغيبي الغامض الذي وقع عليه الشروط مع انه اي النبي موسى يغفر للاله ان يقتل كل احد وان يفعل كل الالام والدمامات والذنوب المشهودة .

ان كل الناس حتى الانبياء يفرضون على انفسهم وعلى كل احد من الاخلاق والذكاء والوقار والعدل والاحترام للنفس ما لا يفرضون على الاله . انهم يغفرون للالهة ويعقلون منها ما لا يغفرون او يعقلون من سواها . انهم بهذا يقصدون تمجيد الالهة والارتفاع بمستوياتها الاخلاقية والمنطقية والنفسية . ان تمجيد الالهة لا يكون الا بأن تكون معفاة من جميع الشروط والالتزامات الفكرية والاخلاقية والفنية . ان الثناء عليها لا يكون الا باعتقادها بلا اي مستوى . لقد رفض موسى ان يغفر لذلك الرجل قتله لذلك الغلام ، ورفض الالتزام بشروط الصمت والتسليم التي وقعها على منطقه وعلى اخلاقه وعلى عواطفه وعلى عينيه . لقد انكر عليه ان يقتل هذه النفس البريئة . عجبا ! كيف لم يقل له ذلك الرجل القاتل : أتنكر علي ان اقتل نفسا واحدة وتتقبل ان يقتل الاله كل النفوس البريئة حتى نفسك ونفسي حتى نفوس جميع الانبياء والقديسين ؟

ولكن ذلك الرجل الغامض القاتل راح يدافع عن جريمته ويفسرها لموسى . قال في دفاعه وتفسيره : ان ذلك الغلام ابن لابوين مؤمنين ، وقد خشينا ان يرهقهما بطغيانه وكفره . لقد قتلته لذلك ، واني اريد ان يبدل الله ابويه به خيرا منه وازكى .

ثم تقول ايها الصديق انك لم تستطع ان تفهم ، كما انك لم تستطع ان تصمت .

تقول ان اصابة السفينة خيفة ان يأخذها ذلك الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبا تشبه ان يكون هناك وجه جميل لامراة جميلة ، وان يكون هناك رجل وحشي يريد اغتصابها والاعتداء عليها — او ان يكون هناك رجل قوي يغتصب كل امراة جميلة ليعتدي عليها ، فيكون العلاج ان يشوه وجه تلك المراة او وجه كل امراة جميلة ، لكي يحميها تشويهها من الاعتداء عليها . وقد يكون في منطق الانسان او في منطق الطبيعة ان الجمال هو المعتدي على من يعتدي عليه ، وقد يرى هذا المنطق ان يعاقب الجمال لانه جمال — او ان يكون هناك رجل عبقري ، وان يكون هناك حاسدون واعداء له يريدون قتله ، او

يحتمل ان يقتلوه حسدا ، او ان يكون هناك من يحسدون ويعادون كل عبقري ، فيكون العلاج لهذا الموقف ان يصاب ذلك العبقري ، او ان يصاب كل عبقري بما يجعله فاقدا عبقريته ، لكيلا يعتدي عليه حساده واعداؤه او حساد واعداء كل عبقري . وقد تكون العبقرية هي المسئولة عن العدوان الذي يصيبها ، قد تكون العبقرية هي المعتدية على من يعتدون عليها ، قد تكون هي صانعة العدوان الذي يقع عليها .

ومع هذا هل يمكن ان يوجد من يعالج هذا او هذا بمثل هذا الاسلوب ؟ هل يمكن ان يصاب احد بجنون يجعله يرى او يتقبل او يمارس مثل هذا العلاج في مثل هذه الحالات ؟ هل يمكن ان تجن السماء لتبعث برجالها الروحانيين الغيبيين ليعالجوا الشرور والالام بمثل هذا الذكاء ؟ اليست الارض حينئذ خليقة بان تعلم السماء الذكاء وعبقرية السلوك ؟ اليس حينئذ تعلم السماء من الارض غباءها لتعيش وتضبط به سلوكها واخلاقها ، ليكون ذلك افضل لها — اي للسماء — من ان تعيش وتمارس سلوكها واخلاقها بذكائها هي ، أو بذكاء الالهة المقيمين فيها ؟

نعم ، اليس هذا هو الذي يحدث دائما اي ان السماء هي التي تتعلم من الارض كل ذكائها وكل اخلاقها ؟

اليس العلاج الذي يجب ان تتعلمه السماء وسكانها من الارض ومن أهلها — نعم ، أليس العلاج في الحالة الاولى ان يقتل ذلك الرجل الذي يعتدي على النساء الجميلات او يعتقل او يعاقب او يصاب بعاهة تجعلهعاجزا او يمنع من عدوانه بأية وسيلة من وسائل المنع ولو بالاسلوب الخارق الغيبي الذي يتصرف به ذلك الرجل القادر الغامض المرسل من السماء ؟ أليس تشويه من يريد أن يعتدي ليكون عاجزا عن الاعتداء اذكى منطقا واعدل سلوكا من تشويه من يراد الاعتداء عليه لئلا يكون معتدى عليه؟ ولكن أليس في سلوك الانسان والطبيعة — ولو أحيانا — ان يشوها الوجه الجميل بدل ان يعاقبا او اكثر مما يعاقبان العدوان الذي يقع عليه ؟

اليس العلاج في الحالة الثانية ان يعاقب او يمنع او يعجز اولئكالحساد والاعداء الذين يحتمل ان يقتلوا ذلك العبقري او ان يقتلوا كل عبقري بأي اسلوب من اساليب المنع والعقاب والتعجيز ، او ان يجعلوا غير راغبين في جريمتهم — لا أن يجعل ذلك العبقري او كل عبقري يفقد عبقريته ؟ ولكن

اليس قتل العبقرية او تعجيزها او عقابها او ارهابها او محاولة جعلهـــــا مفقودة او كالمفقودة اسلوبا تمارسه الطبيعة ولو احيانا ، ويمارسه البشر اكثر ، يمارسونه كثيرا بدل ان يفعلوا ذلك بمن يعتدون عليها ؟ اليس البشر احيانا او دائما يعاقبون العبقرية اكثر مما يعاقبون اعداءها او بدل معاقبتهم؟

اليس هذا هو العلاج البسيط القريب الذي لا يحتاج الى ذكاء السماء ولا الى خوارق واسرار ومعجزات رجالها الغيبيين الروحانيين ؟

اليس هذا هو العلاج الذي يجب ان تتعلمه السماء ويتعلمه سكـــان السماء الاذكياء ، ان يتعلموه من الارض ومن اهل الارض الاغبياء جدا مهما علموا اي سكان الارض نقيض ذلك احيانا .. ان ذلك الرجل الغيبي قادر ان يقتل او يعاقب او يمنع او يهدد او ينذر ذلك الملك السارق المغتصب ليجعله عاجزا او غير راغب فيما يمارس ان ذلك الرجل كائن غيبي يتصرف باسلوب غيبي ، انه كائن خارق مرسل من السماء ليفعل باسلوب خارق . انه يستطيع ان يمنع ذلك الملك بالاسلوب الخارق الذي يؤدي به اعمالـــه . انه يستطيع ان يفعل ذلك بكل الاساليب المعروفة وغير المعروفة ..

فلماذا عاقب السفينة واصحابها المساكين بدل ان يعاقب ذلك الظالم؟ لماذا اساء الى من قد يظلم بدل ان يحميه ، وبدل ان يؤدب او يمنع الظالم؟ هل العدل والذكاء ان يحبس المظلوم او من يراد ظلمه او من يمكن ظلمه ، ام العدل والذكاء ان يحبس الظالم او من يريد ان يكون ظالما او من يمكن ان يصبح ظالما ؟ لماذا لا تتعلم السماء واهلها هذا الذكاء البسيط او هذا السلوك البسيط من الارض ومن اهلها ؟ ان هذا هو ذكاء الارض مهما كان سلوكها . ان اقل ما تطالب به السماء ان تتعلم من الارض ذكاءها . ان السماء لـــم تستطع ان تكون ذكية السلوك ، ان اقل الاشياء اذن ان تكون ذكية الذكاء او ذكية المنطق .

لماذا لم يطلب هذا الرجل الغيبي السماوي من اصحاب السفينة الا يسافروا الى البلد الذي يحكمه ذلك الملك السارق ؟ لماذا لم يخبرهم بقصة هذا الملك ؟ او لماذا لم يصب السفينة بشيء من سحره واسراره ليجعلها غير مرئية او غير مرغوب فيها بدل ان يصيبها بالعيب ؟ كيف يحصنها بعاهة وهو يستطيع تحصينها بلا عاهة ، بسر روحاني يمنحها البركة والتقوى والجمال والحماية والحظ الجيد ؟

ثم تقول ايها الصديق : كيف ؟ ان خرق السفينة لن يجعل ذلك الملك الذي يأخذ كل سفينة اغتصابا يكف عن اخذها . انه يأخذها لانها سفينة تعمل لا لانها سفينة غير مخروقة . وهل الذين يغتصبون السفن والاشياء يكفون عن اغتصابها اذا كان فيها عيب او خرق ؟ هل الاشياء او الحياة تمارس بهذا الاسلوب او تفهم بهذا الاسلوب ؟ هل الناس مشترطون او متأنقون او متطهرون او متكبرون في امتلاكهم او في ممارساتهم الى هذا المدى الجيد الذي يرفض ما اصابه خرق او عيب ؟

ان الذين يعفون عن اخذ السفينة او يتكبرون على اخذها لو كان فيها ثقب لم يكونوا لصوصا ، ان مثل هؤلاء لن يأخذوا شيئا . ان في كل الاشياء كما في كل الناس عيوبا وخروقا . ان من يرفض ما فيه او من فيه خرق او عيب فان يقبل شيئا ولا احدا . ان من يرفض الاشياء المخروقة لم يوجد ولن يوجد . انه لم يوجد ولن يوجد من لا يصابون بالخروق ومن لا يعيش الخروق وبالاشياء المصابة بالخروق .

ان العيوب والعاهات والتشوهات والذنوب في السفن وفي الاشياء وفي الحياة والناس اعظم جدا واكبر جدا واكثر جدا من الاصابة بالخروق والثقوب ، فاذا كان اقل ما في الاشياء والسفن والحياة والناس — وهو الاصابة بالخرق — يجعل المصاب بذلك مرفوضا ومردودا ، لا يغتصب ولا يراد ولا يقتنى ولا يمارس فلن تجد من يقبل شيئا او من يسرق شيئا او من يمارس شيئا او من يقتني شيئا .

ان اشتراط البراءة في الاشياء من كل العيوب والذنوب والخروق لم يوجد ولن يوجد .

ان جميع الناس المعاصرين لذلك الملك اللص العاجز جدا سوف يعرفون حينئذ بالتجربة ان لصهم هذا الطيب المتعفف جدا يكف عن اغتصاب الاشياء التي فيها عيب ، اي عيب ، حتى ولو كان هذا العيب خرقا في السفينة، حتى ولو كان العيب خرقا في السفينة لا يمنعها من ان تعمل . انهم حينئذ سيجعلون لصهم هذا عاجزا وراغبا عن اخذ اي شيء ، انهم حينئذ سيجعلون منه ملكا عفيفا نظيفا تقيا ، لا يأخذ اي شيء ولا يهم بأخذ شيء . انهم حينئذ لا بد أن يحدثوا في كل اشيائهم وسفنهم العيوب والعاهات والخروق

والذنوب لتكون معصومة من الاخذ ، من ذلك الملك اللص البليد الشاذ المغفل جدا ، أو المشترط لنفسه ولاشيائه شروطا لا يشترطها كائن سواه .

ما اروعها قصة . قصة ملك لص يأخذ كل السفن غصبا حتى سفينة هؤلاء المساكين ولكنه يعف عن اخذ السفينة التي بها خرق ولو مدبرا . وتقول ايها الصديق : ان عقلك قد رفض ان يتقبل او ان يفهم او ان يغفر هـذا الذكاء السماوي وقد جاءت لهجتك وكأن فيها شيئا غير قليل مـن ارادة التهكم بذكاء السماء .

ثم تقول ايها الصديق عن الحادثة الاخرى : انه اذا كان جائزا او واجبا قتل الغلام لاحتمال ان يجيء شريرا او كافرا او عاقا او صانعا لـلاذى او الفجور فان الواجب او الجائز حينئذ قتل جميع الغلمان ، بل قتل جميـع الكائنات وتدمير جميع الاشياء ، حتى المصانع والبيوت والمدن وكل شيء . لان كل الاشياء وكل الناس يحملون في وجودهم احتمالات مضادة ، احتمالات رديئة أو مؤذية او غير سارة ، احتمالات احيانا قاتلة .

ان ذلك الرجل الروحاني الغامض القادم من السماء ليعلم اهل الارض الغاز السماء وفنون عبقرياتها يقول انه قتل ذلك الغلام لانه خشي على ابويه من كفره وطغيانه . انه يقتل غلاما بريئا لانه فيما يقول يخشى ان يكون مؤذيا او رديئا أو كافرا . انه يقتل بالخشية ، وان الخشية من الكفر او الضلال او الفجور او الطغيان توجب القتل او تجعله شيئا جائزا او طيبا او عملا صالحـا .

اسمع اذن . ان لك ان تقتل كل احد وان تدمر كل شيء لانك قدتخشى ان يكون كل احد كافرا او مؤذيا أو رديئا او طاغية ، ولانك قد تخشى ان يكون كل شيء ضارا او متعبا او غير ملائم او غير عادل . اسمع: ان لك اذن ان تقتل كل احد وان تدمر كل شيء كلما خشيت منه الضرر والفساد .

ان لكل احد ان يقتلك لانه قد يخشى ان تكون كافرا او فاسـدا او طاغية او رديئا . ان لكل انسان ان يقتل كل انسان ، ان يقتل اي انسان، لان كل انسان قد يظن او يخشى ان اي انسان آخر ، او ان كل انسـان آخر قد يكفر او يفسد او يطغى او يكون اي شيء رديء .

ان لكل الناس اذن ان يقتلوا كل الناس لان كل الناس قد يخشون من

كل الناس ، اويخشون على كل الناس ان يكفروا او يضلوا او يطغــوا ، او يكونوا اي اسلوب من اساليب الفساد . اذن فليكن كل احد قاتلا او مقتولا قاتلا :

لقد قتل ذلك الرجل الغامض الغلام لانه خشي منه اذن لقد كان لذلك الغلام ان يقتل ذلك الرجل بنفس المنطق والتفسير . . . اسمع . انك حينما تخشى ان يصبح اي غلام كافرا او ضالا او ظالما او منحرفا او مؤذيا لابويه او للناس فان لك او فان واجبا عليك ان تقتله . اذن ما اقواك وأتقاك . انك تقتــل بالخشية . ما اقوى اذن خشيتك ، ما اتقاها واغلاها .

اذن كم انت مخيف لنا ولغلماننا ، وكم نحن مخيفون لك ولغلمانك ، متى تشعر او نشعر باننا يجب أن نقتل ؟

اسمع . ان هذه هي اوامر وارادة السماء التي يبلغها وينفذها جنودها القادمون ليعلموا الانبياء ذكاء السماء ــ التي يبلغها وينفذها جنود السماء الذين يجيئون لكي يصبحوا انبياء للانبياء . لقد كان ذلك الرجل الغامض نبيا للانبياء . وايهم اذكى او اتقى او اقوى تعاليم ونبوات : الانبياء ام انبياء الانبياء ؟ اجل ، ان للانبياء انبياء . اجل ، ان لكل نبي عديدا من الانبياء .

ثم تقول ايها الصديق : ان كان هذا الرجل الغامض انما يطيع اوامر الله ومشيئته في قتله لهذا الغلام ــ وهذا هو المفروض والمسلم به ــ فالتفسير اذن لهذا ان الله يأمر بقتل الغلام ويريد موته لانه اي الغلام سيكون بالقدر شريرا وهو يرفض ان يعيش الاشرار .

اذن لماذا خلقه الله ؟ لماذا اذن يدبر خلقه ان كان ذلك كذلك ؟

ان كان الله يدبر ويريد قتل من سيكون كافرا ويأمر بقتله ويرفض ان يحيا فلماذا اذن خلقه ودبر خلقه ؟

ان الله يعلم ان الغلام سيكون شرا على ابويه وعلى الله نفسه لانــــه سيكون كافرا طاغيا ، والله يرفض له ان يعيش لانه لو عاش لصنع هـــذا الشر والكفر ، والله يرفض ان يعيش من يصنعون الشر والكفر ، لهذا كان محتوما قتله ، كان محتوما او مطلوبا ان يدبر الله له وان يكلف من يقتله .

اذن اليس الاسلوب الاذكى والافضل والاكثر رحمة ونخوة وشهامة الا يخلقه؟ كيف لم تفطن السماء بكل ما فيها ومن فيها من ذكاء ورحمة وعلم وسكان وآلهة وملائكة ان هذا الاسلوب اي الا يخلق هو الاسلوب الاذكى والافضل والانبل والاعقل والاقل تكاليف ونفقات ومخاطر ؟ انه ليس ذكاء ولا سلوكا لاي عاقل بل ولا لاي كائن غير عاقل ان يشيد مصنعا وهو يعلم انه لا بد ان يتهدم بالناس وعلى الناس ، ثم يذهب يهدمه قبل العمل فيه لانه لا يريد له ان يتهدم بالناس او على الناس .

ان المنطق ، ان كل منطق حينئذ الا يشيد ذلك المصنع لئلا يحتاج الى هدمه والى تحمل ما في هدمه من انفاقات ومعاناة وسفه اليم . ان المنطق الا يقيم ذلك المصنع ، او ان يجعله قويا سويا لا يتهدم على الناس . اما ان يقيمه معدا للانهدام على الناس ثم يهدمه قبل ان ينهدم او لئلا ينهدم فهذا منطق انبياء الانبياء وحدهم .

اذا كانت ارادة الله ان يؤدي ذلك الغلام دوره فلماذا قتل ؟ واذا كانت ارادته الا يؤدي دوره لانه دور شرير فلماذا خلق ؟ اذا كانت الارادة ان يعمل ذلك المصنع فلماذا هدم ؟ واذا كانت الارادة الا يعمل فلماذا أقيم ؟ يقيم المصنع الذي يعلم انه لا بد ان يتهدم على من يعملون فيه قبل ان يعملوا ثم يهدمه بعد اقامته قبل ان يتهدم عليهم لانه لا يريد ذلك . اهذا منطق اله وانبياء وانبياء الانبياء ؟

انه سؤال يسد على المنطق كل الطرق . انه سؤال يجعل المنطق عاجزا عن اي اسلوب من اساليب التفسير او التسويغ او الدفاع . انه سؤال يسقط كل احتمالات المقاومة والهرب على المنطق .

ثم تقول : اذا كانت مشيئة الله واوامره المنفذة ان يقتل جميع الغلمان الذين سوف يصبحون كفرا او طغيانا فان المحتوم والواجب حينئذ الا يعيش اي وليد محكوم عليه او مقدر عليه ان يكون كفرا او شرا . ان المعنى حينئذ لهذا الا يوجد في الحياة او في التاريخ او في الغيب المقبل انسان واحد شرير او كافر او ضال او طاغية ، لان مشيئة الله واوامره المنفذة ان يقتل جميع من يحملون في ذواتهم واقدارهم احتمالات الكفر والشر والضلال والطغيان كما قتل ذلك الغلام .

وهل يمكن ان يكون هناك اي منطق او حكمة او تفسير لقتل هذا الغلام وحده اتقاء لاحتمالاته الشريرة دون جميع الغلمان الذين تعيش فيهم كل الاحتمالات المماثلة لاحتمالات ذلك الغلام ، بل الذين تعيش فيهم احتمالات هي اخبث واقسى واشد هولا ونذالة وجنونا ؟

ان التاريخ والحياة يعرفان بارتياع وبكل مشاعر الافتضاح والعار والاذلال اطول واضخم مواكب الطغاة والكفرة والفاسدين والقتلة واللصوص والمجانين العالميين الذين صنعوا ابشع الحروب والحماقات والخراب والموت والطغيان والزندقات العالمية . ان تعاقب هؤلاء على اخلاق وضمير الحياة والتاريخ ، وانتصارهم الخالد عليهما لم يبق لهما اي مستوى من الكرامة او الشرف او الشجاعة او التقوى ، بل او الايمان . ان تعاقب وتزاحم هؤلاء على ضمير التاريخ والحياة وعلى اخلاقهما يجعل التحدث بأي صوت او لغة عن التقوى او الايمان او عن الشجاعة او عن الرفض او عن الشرف او عن الكرامة اسلوبا مخيفا ومرهقا من اساليب الوقاحة . انه لم يوجد في اي وقت اي حارس للتاريخ او للحياة او للانسان من اي عار او فجور او نذالة او زندقة لقد كان الانسان في كل تاريخه وحياته بلا اية حراسة .

فلماذا لم يوجد ، او لماذا لا يوجد اله طيب غيور رحيم يغتال هؤلاء او يبعث لهم من يغتالونهم وهم غلمان كما فعل هذا الاله الطيب الغيور الرحيم بهذا الغلام ؟ لقد كان هؤلاء يوما ما غلمانا ، كانوا يوما ما احتمالات، احتمالات شريرة ، فلماذا لم يقتلوا حينما كانوا احتمالات ، حينما كانوا غلمانا للاسباب التي قتل لها هذا الغلام ؟ لماذا لم يكن الله طيبا ورحيما وغيورا الا في تعامله مع هذا الغلام او ضد هذا الغلام ؟ لماذا لم يكن قاتلا لانه رحيم وغيور وطيب بهذا الاسلوب الا لهذا الغلام ؟ لماذا هذا الغلام وحده قد صنع للاله منطقا جديدا وسلوكا جديدا واخلاقا جديدة وصيغة جديدة ووقارا جديدا ؟ لماذا خلق له مذهبا جديدا يعامل به نفسه ويعامل به الاشياء حوله ؟

لماذا كان الله غيورا وتقيا وحارسا للايمان والاخلاق والتقوى في معاملته لهذا الغلام وحده ؟

ما هي العلاقات النفسية الخاصة بين الاله وبين هذا الغلام ؟ لقد عامل الله هذا الغلام معاملة لم يعامل احدا بمثلها ، وحاسبه على احتمالاته المقبلة محاسبة لم يحاسب احدا على احتمالاته المقبلة مثلها . فلماذا ؟ انه

لا بد ان تكون هنالك علاقات خاصة غير مستعملة من قبل بين الله وبين هذا الغلام . فما هذه العلاقات، ولماذاهي؟ او لا بد ان تكون هناك علاقات ممتازة وغير مجربة بين الاله وبين والدي هذا الغلام . فما هذه العلاقات ، ولماذا ؟

كم هم المؤمنون جدا في التاريخ ، بل كم هم الانبياء والقديسون في التاريخ ، الذين ترك لهم ابناؤهم او آباؤهم او ازواجهم او اقاربهم الاشرار والطغاة والزنادقة والفجرة جدا ، ليرهقوهم ويشقوهم بالطغيان والفجور والزندقة والعقوق وبكل الوان الفساد والضلال ، دون اية محاولة لانقاذ هؤلاء الانبياء والقديسين والمؤمنين جدا من هؤلاء الاقارب الاشرار بقتلهم بالنية وبالاسلوب اللذين قتل بهما ذلك الغلام ، بل دون اي رثاء لهؤلاء الانبياء والقديسين والمؤمنين جدا . لماذا لم يرق قلب الاله لهؤلاء الانبياء والقديسين كما رق قلبه لوالدي هذا الغلام ؟ كيف تحول الاله الى قاتل بل الى مغتال ليحمي والدي هذا الغلام ولم يتحول الى مثل ذلك ليحمي الانبياء والقديسين؟

لماذا خصت اخلاق الاله هذين الابوين بحمايتهما من ابنهما الشرير ، من احتمالات ابنهما هذا ؟ او لماذا خصت غيرة الله هذا الابن وحده دون جميع الابناء المماثلين بالغضب والعقاب والقتل ؟ هل في هذه القضية محاباة لوالدي هذا الغلام وحدهما ، ام فيها غيرة وغضب واخلاقية وبغض اكثر واشد من المعروف عن غيرة الاله وغضبه واخلاقيته وبغضه ضد هذا الغلام ؟

هل في هذه القضية حب خرج بالاله عن وقاره ، ام فيها حقد افقد الاله اتزانه ؟ ان هذه القضية قد خرجت بالاله عن كل تاريخه . هل الاله هنا محاب ام متحامل ؟ هل هو محاب لهذين الوالدين ، ام هو متحامل على ابنهما ، ام هو محاب ومتحامل ؟ هل في القضية تفسير اخر لا تمكن معرفته ؟ هل نحن عاجزين ان نفهم ام ان الذين يجيئون الينا ليعلمونا ذكاء السماء لا يقولون او يفعلون شيئا يمكن ان يفهم ؟ وهل في الاشياء ما يفهم وما لا يفهم ؟ اليست كلها منطقا واحدا ؟ ان الكتب المقدسة تذكر انبياء عظاما قد اشقاهم ابناؤهم او آباؤهم او زوجاتهم او آخرون من اقاربهم بخياناتهم او بعصيانهم او بكفرهم العظيم . ان هؤلاء الابناء والاباء والازواج والاقارب لم يقتلوا وهم غلمان حماية لابنائهم او لابائهم او لازواجهم او لاقاربهم .

نعم ، حتى الانبياء والقديسون لم يحموا هذه الحماية التي خص بها هذان الوالدان لهذا الغلام . فلماذا هذان الوالدان المؤمنان فقط دون كل

العالم من المؤمنين، دون كل الانبياء وكل القديسين ؟ او لماذا هذا الولد الشرير وحده دون كل الاشرار في كل العالم وفي كل التاريخ ؟

لماذا لم يمارس الاله نبله ورحمته الا من اجل هذين الابوين ؟ او لماذا لم يمارس غضبه وغيرته وحمايته وانتقامه الا مع هذا الغلام ؟

لماذا هذان الابوان فقط ؟ او لماذا هذا الغلام الابن فقط ؟ او لماذا هذان الابوان لهذا الابن فقط ؟ هل يمكن ان يوجد اي تفسير للاله هنا او اي دفاع عنـه ؟

بل هل يمكن ان يوجد اي تفسير للاله او اي دفاع عنه في اي موقف من مواقفه او في اي خلق من أخلاقه ؟

لماذا ايها الاله ، ايها القدر ، ايها الرجال الاتون من السماء ، من عند الالهة لتعلمونا ذكاء واخلاق السماء والالهة ؟ لماذا لم توجد الحماية الا لهذين الوالدين ؟ لماذا لم تطلب الحماية الا من هذا الغلام ؟ لماذا ايها الاله، ايها القدر ، ايها الرجال الاتون من فوق السماء ؟

لماذا ايها المفكرون عن السماء ، ايها المبلغون للارض ذكاء السماء ؟

لماذا ايها المفكرون عن السماء تفضحون السماء ، تفضحون ذكاء السماء ، بكل هذه القسوة ؟

لماذا ايها المبلغون عن السماء لا ترتفعون في ذكائكم الى مستويات السماء ؟

لماذا لا ترتفع السماء في ذكائها واخلاقها الى مستويات الارض في ذكائها واخلاقها ؟

لماذا تظل الارض دائما افضل ذكاء واخلاقا من السماء ، وتظل الواضعة لاخلاق وذكاء السماء والمقياس لذكائها واخلاقها والكاشفة عن اخطائها ؟ ايها المفكرون عن السماء ، ايها المبلغون عنها . لقد علمتمونا ان الاله قد منح الشيطان الخلود لكي يستطيع ان يفسد وان يغوي وان يشوه وان يهدي الى الزندقة والضلال كل البشر في كل التاريخ .

لقد علمتمونا ايها المبلغون المفكرون عن السماء ان الله قد وهب الشيطان الخلود ووهبه كل احتمالات ومزايا القدرة على جعل الناس جميعا ، في كل اجيالهم زنادقة وفساقا وطغاة ولصوصا وملوثين .

لقد علمتمونا ايها المعلمون ان الشيطان لم يوهب الخلود الا لكي يظل قدرة دائمة على ان يعلم الزندقة والفسوق والتلوث والطغيان والعقوق وارهاق الآباء والابناء والأزواج وكل الاقارب وكل الناس بكل الاحزان والآثام والشرور الكبرى العالمية الدائمة . لقد علمتمونا انه قد اريد للشيطان ان يكون اضخم عبقرية في قدرته على ان يفسد ويغوي بلا حدود. لقد وضع الله كل عبقريته في عبقرية الشيطان ليكون اغواؤه بلا حدود

لقد علمتمونا ان الحكمة في تخليد الشيطان في منطق الآله وارادته هي محاولة تخليد الكفر والضلال والاثام وكل الرذائل والذنوب والعدوان على الآباء والابناء والازواج والاقارب وعلى كل البشر .

لقد علمتمونا ان الشيطان ليس الا موظفا عبقريا كبيرا جدا ، جدا عند الاله لكي يعلم الكفر والضلال والالام والخبث تعليما عالميا ابديا ، ولقد علمتمونا انه اكبر موظف عند الله ، انه اكبر من الملائكة والانبياء وكل القديسين ، وان وظيفته تلك هي اعظم واكبر واقوى الوظائف في الارض وفي السماء .

لقد علمتمونا ايها المفكرون المبلغون عن السماء كل هذا ، فكيف تجيئون لتعلمونا قصة هذا الغلام ؟ كيف تعلموننا قصة الشيطان وان الله قد خلده لانه يستطيع ان يحول كل البشر الى كفرة وفساق وطغاة وملوثين ، وان الله قد وظفه لذلك ، ثم تعلموننا ان الله قد بعث برجاله الروحانيين الغيبيين الى هذا الغلام ليغتالوه لانه يحمل احتمالات شريرة واليمة لوالديه وللآخرين ؟

ان سلوك الله مع الشيطان وتوظيفه له في وظيفته المعروفة والمنقولة المروية لنا كان معناهما ان يفرح الله أقوى الفرح بوجود مثل هذا الغلام ذي الاحتمالات الاثيمة ، وان يبعث اليه حرسا سماويا ليحميه ويحافظ على حياته ويبارك وجوده واحتمالاته الشريرة . ان وجوده حينئذ مساعدة للشيطان ، انه قوة في وظيفة الشيطان التي هي اكبر وانبل واعلى وظيفة عند الله . ان وجود مثل هذا الغلام الشرير لا بد ان يكون حينئذ مجاملة ضخمة واستجابة ضخمة لحكمة الاله ولمنطقه اللذين بهما خلق الشيطان ووهبه الخلود والمواهب القوية المنتصرة على كل شيء حتى على الله نفسه وعلى انبيائه وعلى كل ما عانى من تعاليم ومواعظ وكتب مقدسة . ان

تخليد الشيطان ليفسد البشر ، وان تركيب الشهوات والضعف والغباء فيهم ووضع كل اسباب الغواية امامهم لادلة على ان الله محارب للانسان ومعاد له ، وليس مساعدا مهما بعث اليه بالتعاليم والنبوات المقهورة . ان الله يعلم ان الانبياء والمعلمين الذين يبعث بهم مهزومون امام الشيطان. فارسالهم استهزاء بالانسان لا مساعدة له . ايها المفكرون عن السماء ، المبلغون عنها ، لماذا تفضحون اخلاق وذكاء سكان السماء بكل هذه القسوة؟

وفي ختام رسالتك المأوءة بالتساؤل والحيرة والحماس النفسي والفكري ، تطلب مني ايها الصديق التفسير والهداية . لقد كانت تساؤلاتك تساؤلات حادة وصادقة ومحاصرة ومعاقبة للفكر بقسوة وشمول . لقد كانت اسئلة فيها كل معاني وطاقات الافتراس .

ولكني امرؤ لا يفاجأ بالتساؤلات ولا يهدى اليه جديد منها . ان كل التساؤلات وكل المتسائلين يعيشون داخلي ، انهم بعضي ، بعض وجودي وبعض تساؤلاتي الباهظة الآلام والأحزان . ان كل التساؤلات وكل المتسائلين يعيشون في ذاتي ، في عقلي ومشاعري وتحديقاتي وفي اعصابي واخلاقي وكلماتي وفي كل آفاقي واتجاهاتي وفي كل تفاسيري وقراءاتي .

انني لست انسانا يسأل او انسانا مريضا بالسؤال، ولكني سؤال يسكن انسانا ويعذب انسانا . اني لست سؤالا عالميا او كونيا ، اني اكثر من ذلك ، اكثر معاناة وعذابا من ذلك . انه ليس العالم او الكون هو وحده الذي يتحول الى اسئلة لتعاقبني وتعيش بوحشية في كل وجودي ، في كل افكاري وتحديقاتي وآمالي واحلامي واخلاقي وفي كل الامي .

انه ليس الوجود وحده هو الذي يعتدي علي متحولا الى اسئلة عدوانية مقاتلة لمنطقي واخلاقي ونماذجي واماني .

ان غير الوجود ايضا ، ان غير العالم وغير الكون يتحول في وجودي الى اسئلة فيها كل معاني القتال وأدواته الضاربة ، الضاربة بكل عنف . ان غير الموجود يتحول الى اسلحة تقاتلني ، انه يتحول الى اسئلة فيها كل معاني وجنون وقسوة الاسلحة . انه لعذاب فوق الاحتمال ان تواجه الموجود ، متحولا الى اسئلة ، فكيف تواجه الموجود وغير الموجود متحولين الى اسئلة ؟ ان غير الموجود يتحول مثل الموجود الى اسئلة

مقاتلة . ان ذاتي جهاز هائل لصناعة الاسئلة ولصياغتها ولاغرائها بالتجمع فيها ولدعوتها اليها وللترحيب بها وللبحث عنها ولاطلاقها على كل الاتجاهات والاشياء ، وبكل الاساليب وعلى جميع المستويات . اني امارس ذاتا هي اعظم مصنع في الكون للاسئلة ، واكبر مكان تتجمع فيه الاسئلة ، واكبر جهاز لاطلاق الاسئلة . انها اعجب جهاز لتحويل كل شيء لى عذاب ، الى تصادم ومناقضة باهظة التعذيب .

ان كل شيء ، وان اي شيء ، وان ما ليس شيئا ايضا ليتحول الى سؤال ، الى كل صيغ واساليب الاسئلة . انه لا شيء الا ولا بد ان يتحول الى اسئلة ، الى اعداد هائلة من الاسئلة تتقاتل في ذاتي . ان كل ما ليس شيئا يتحول في ذاتي الى اسئلة مقاتلة — حتى ما ليس شيئا .

حتى التساؤل ، انه يتحول في وجودي الى تساؤل . اني اسأل واحول كل شيء بل وكل ما ليس شيئا الى اسئلة ، ثم احول الاسئلة والتساؤلات الى اسئلة وتساؤلات . اني اسأل ثم اسأل :

لماذا اسأل ، من فرض علي ان اسأل ، من يلقي داخل ذاتي الاسئلة، ولماذا ، وماذا اريد حين اسأل . وهل انا اسأل ، وماذا يعني ان اسأل وماذا يعني ان يكون الانسان سائلا ، وماذا يعني ان تكون الاشياء مسئولة او مسؤولا عنها ، ولماذا تجيء كذلك . لماذا لا تجيء صامتة مصموتا عنها . لماذا انا سائل والاخرون صامتون .

وهكذا بلا توقف ولا راحة ولا اقتناع ولا جواب . ان الجواب ، ان اي جواب يتحول هو نفسه الى مسيرة لا نهاية لها من الاسئلة . ان اطول مسيرة واطول طريق في حياة الانسان هما تساؤلاته . ان التساؤل طريق لم توضع له نهايات .

ان التفسير يحتاج الى تفسير ، وان الاقتناع يحتاج الى اقتناع ، وان رؤية الشيء تحتاج الى اقناع لماذا هو ذاته ، ولماذا ذاته هي ذاته ، ولماذا هذا الشيء ، ولماذا اي شيء . وان رؤية الله لتتحول الى اسئلة اكثر واصعب واحد من اسئلة : اين هو الله ، كيف اقتنع بالله .

أن رؤية الله تصبح سؤالا أضخم واعصى من العجز عن رؤيته . أن رؤية الله تطلق الاسئلة ولا تسكتها .

ان اصطدامي بالله حين اواجهه ـ لو واجهته ـ اقسى واقوى من اصطدامي به وانا لا اراه ولا اواجهه ولا اقتنع به . انه لا شيء يريح من عذاب السؤال حتى ولا اصدق واقوى جواب .

ان الشمس تظل سؤالا حزينا ضائعا ، طالعة وغائبة ، متعالية ومتهاوية .

ان هذا هو العذاب ، فهل هو عذاب نبيل أم عذاب رديء ، هل هو عذاب لذيذ أم عذاب اليم ؟

هل هو عذاب أم هو محاولة للتخلص من العذاب ، او للفرار من العذاب أو لتخفيف العذاب ام لخداع العذاب ؟

هل هو عذاب أم تدأو من العذاب دون امل في الشفاء ؟

هل السؤال موهبة ام تعليم ؟ هل موهبة التساؤل مزية ام تشويه ؟

لماذا نجيء متسائلين او عاجزين عن اي تساؤل مع ان مواجهاتنا واحدة وعيوننا متشابهة ؟

ان التساؤل اسلوب من اساليب مقاومة العدوان ، وانه ايضا اسلوب من اساليب العدوان . الست حينما تتساءل انما انت انسان يقاوم العدوان او يوقع العدوان ؟ انت حينما تتساءل انما تحاول ان ترفض او ترد عدوانا قد وقع عليك ، او تحاول ان توقع عدوانا بأحد او بشيء ما .

هل يمكن ان تسأل لو لم تكن تريد ان ترفض عدوانا او تصنع عدوانا ؟ هل يسأل من لم يرد عدوانا أو يواجه عدوانا ؟

لقد اعتدى عليك الكون والطبيعة والحياة والاخرون والحشرات والمعلمون والمذاهب والنظم . لقد اعتدوا على عينيك وعلى اخلاقك وعلى تفكيرك وامانيك ونماذجك واحلامك وعواطفك وعلى احتياجاتك ووجودك بكل اساليب ومستويات العدوان وبكل تعبيراته . لقد اعتدوا عليك حتما ، انهم دائما عدوان عليك ، لانهم دائما تناقض معك ورفض

لك واصطدام بك وتحد بل واذلال وقهر لك . ان هذا هو الذي يحدث دائما ، ويمارسه دائما كل شيء وكل احد حتى انبل واتقى واعدل الناس ، حتى الانبياء والقديسون . ان هذا هو الذي يحدث دائما ويمارسه كل احد وكل شيء دائما وان كان ذلك بلا تدبير او قصد بل او علم .

ان اي شيء وان اي انسان لن يستطيع ان يكون غير معتدى عليه. ان الوجود عدوان معطى وعدوان مأخوذ .

ونحن في الاكثر لا نرى هذا العدوان ولا نفطن له ولا نقف ضده باسلوب المقاومة المعلنة المباشرة لكونه عدوانا شاملا ودائما ، لكونه عدوانا عالميا كونيا ابديا ازليا ، ولكونه احيانا يبدو كالاحتياج والضرورة والحماية والتدين .

اذن فانت حينما تسأل عن الكون او عن الحياة او عن الناس والمذاهب او عن اي شيء : لماذا ، او ما هذا ، او من اين ، او الى اين ، او متى ، او كيف .. انما تحاول ــ باسلوب غير مقروء ــ ان تقاوم العدوان الذي يوقعه بك الكون والحياة والناس والمذاهب والنظم والانبياء والمعلمون ــ الذي يوقعونه بعينيك وتفكيرك وباخلاقك وبأمانيك ونماذجك وباحتياجاتك وبكل حياتك ووجودك .

ان منطقك واخلاقك وتحديقاتك ونماذجك ومثلك واحتياجاتك وحتى آلهتك واقعة دائما تحت كل اساليب العدوان .. ان سؤالك عن الشيء يعني في نفسك ان ذلك الشيء الذي تسأل عنه شيء غير معقول او غير ملائم او غير عادل ، او انه بلا هدف او معنى او منطق . اي انه شيء تستنكره ، وترفضه وتخطئه وتعاني منه اخلاقك ونظراتك . انك اذن تقاومه باسلوب ما من اساليب المقاومة . انها مقاومة فكرية واخلاقية ونفسية ، انها قتال بلا سلاح . ان القتال بلا سلاح هو اشمل اساليب القتال .

ان كل العلاقات والمواجهات والنظرات اساليب قتالية مختلفة ولكنها لم تحسب قتالا لانها كانت قتالا بلا سلاح .

هل يوجد انسان لا يقاتل هذا القتال ؟ هل يوجد انسان واحد ــ مهما كان عدوا للحروب والقتال ، ومهما كان جبانا او ضعيفا ــ لا يقاتل

هذا القتال الذي هو قتال بلا سلاح ، وبلا احداث جراح ؟

بل هل يوجد شيء ما لا يقاتل هذا القتال بكل اساليب القتال وبكل غضبه وحماسه وشهواته ؟

هل يوجد انسان واحد لا يقاتل الكون او الحياة او الناس او الحشرات او الآلهة بأخلاقه او بتحديقاته او بافكاره او باشمئزازه او بغثيانه او بأي اسلوب من مشاعره ؟

هل يوجد انسان واحد لا يعبر عن قتاله هذا بتساؤلاته ، بأي مستوى من مستويات تساؤلاته ؟ وهل يمكن ان يوجد من يسائل دون ان يكون مقاتلا ؟

او هل يمكن ان يقاتل من لا يسائل ؟ اليس السلاح هو اعنف اساليب التساؤل والمساءلة ؟

ان القديس او النبي الذي يهتف بكل قوة الايمان والتقوى والخشوع قائلا : يا الهي ، ما حكمتك ، ما اسرارك في كل ما ارى وتفعل – ما حكمتك البارعة البالغة في تعذيب هذا الحيوان الاعجم ، او في تشويه هذا الطفل البريء ؟.. انني لم افهم يا الهي ما حكمتك ولا ما اسرارك فيما تفعل وارى .

هبني يا الهي العظيم القدرة على الفهم ، على فهم اسرارك وحكمتك . هبني القدرة على الفهم يا الهي الذي اسأله ولا أجادله او احاسبه ، والذي أعجز عن فهمه دون أن اعجز عن الايمان به او عن الاقتناع بحكمته ، والذي ابكي من ضرباته دون ان اشك في عدله او في جماله او في رحمته ، والذي ارفض افعاله دون ان ارفض اي شيء من تدبيره او من ذكائه او من منطقه ، والذي اخافه واخاف مفاجآته ونزواته دون ان اكرهه – والذي اكرهه دون ان اعتقد اني اكرهه .

نعم ، ان القديس او النبي الذي يهتف هذا الهتاف انما يعني ان يقول :

انت يا الهي معتد علي ، انت معتد على رؤاي وعلى منطقي وعلى اخلاقي وعلى احتياجاتي ، وعلى كل نماذجي وآمالي وصوري النفسية ، وعلى كل مشاعري الانسانية . وانا لهذا اقاومك ، واقاومك ، واقاتلك ،

اقاومك وقاتلك دون ان احمل عليك سلاحا — اقاومك واقاتلك بتساؤلاتي .

اني اتساءل ، اني اذن اقاتل ، اقاتل ، قتالا شاملا ولكن دون ان احمل سلاحا .. والقتال بدون سلاح هو اقسى واشمل وادوم اساليب القتال . أن القتال بالسلاح هو بعض هذا القتال .

وهل تعلم الآلهة ان الذين يتساءلون عنها أو عن حكمتها واسرارها او يسألونها الفهم والرؤية انما هم قوم يقاتلونها وينكرونها ؟ او هل تعلم ان الذين يحزنون أو يئنون او يتألمون او يشكون مما يعانون او يرون او يجدون أو يعرفون انما هم قوم يحتجون عليها وينقذونها بصراخ واعلان .. يحتجون على تدبيرها ومنطقها وعلى اخلاقها ، وينقدون كل ذلك منها ؟

هل تعلم الآلهة ان الاشياء والبشر لا يقاتلون شيئا مثلما يقاتلون الآلهة ؟ هل تعلم ان الصلاة لها من اقوى اساليب مقاتلتها ؟

انك اذن حينما تسأل انما تحاول ان تقاوم عدوانا قد اصابك .

وكذلك انت حينما تسأل انما تصنع عدوانا تصيب به احدا أو شيئا .

لهذا فان جميع الآلهة والطغاة والانبياء والمعلمين يحرمون عليك ان تكون سائلا او متسائلا .. انك اذا تساءلت عن شيء او عن احد ، او ساءلته فلا بد انك قد حدقت فيه ، او انكرته ، او فكرت او شعرت ضده ، او تناقضت معه ، او كرهته ، أو عجزت عن فهمه وعن تسويغه، او اشمأززت منه ، او حسدته ، او نافسته . انك اذن قد اعتديت عليه بأسلوب ما من اساليب العدوان . انك حينما تحدق بنظراتك انما انت محدق بنفسك ، والتحديق النفسي هو اشمل اساليب العدوان . ان اطلاق السلاح ليس الا بعض التعبير عن التحديق النفسي . ان السلاح بعض ممارسة النفس لتحديقاتها .

ان تحديقاتك في الآخرين ، وان افكارك ومشاعرك المسددة اليهم ، المطلقة عليهم ، وان تساؤلاتك عنهم ، وان مشاعرك بالتناقض معهم وبالاشمئزاز منهم وبالحسد لهم وبالعجز عن فهمهم وتسويغهم — ان ذلك كله ليس الا اسلحة قتالية تطلقها على قلوب الاخرين وعقولهم ، وعلى مشاعرهم ونظراتهم ، بل وعلى خطاهم وايديهم ، وعلى توازنهم ووقارهم ، وعلى كل وجودهم ، دون ان تشعر بالذنب ، بل ودون ان تعلم انك

فعلت ذلك ، ودون ان تريد فعله .

انك سلاح مطلق دائما على الاشياء وعلى الآخرين ، وان الاشياء والآخرين لاسلحة مطلقة دائما عليك . وان التساؤلات عنك وفيك ومنك واليك لهي اسلوب الاطلاق لهذه الاسلحة ، وجهاز الاطلاق ، ولغة الاطلاق .

انك لن تتساءل دون ان تحدق او ترفض او تنكر او تناقض او تشمئز او تبغض او تعجز عن الفهم او التسويغ او الاحتمال او التقبل ، او دون ان تخاف او تشك او تغضب . وهل يمكن ان تكون كل هذا او بعضه دون ان تكون ممارسا لكل أساليب العدوان او لبعض اساليبه ؟

اذن فأنت اذا كنت هذا او بعضه فانت معتد . وحينما تكون معتديا فهناك حتما معتدى عليه . اذن فالتساؤل ليس الا عدوانا تمارسه ضد الاشياء وضد الاخرين ، او عدوانا يمارسه الآخرون ضدك او ضد الاشياء . اذن هل يوجد من ليس معتديا ومعتدى عليه ؟

هل يمكن ان يوجد اي تشريع او اية حماية ضد هذا الاعتداء مأخوذا ومعطى ؟

★ ★

ايها الصديق . لقد كنت عنيفا ، انه لم يكن فيك شيء من الرفق . لقد اطلقت في احتشادا تاريخيا اليما . فهل دبرت لهذه القسوة على من لا يحتاج الى اي مزيد من القسوة ؟

ولكن دعني أتساءل عما تساءلت عنه . غير ان عليك الا تنتظر مني اي جواب . انك قد اخطأت خطأ غير معذور ان كنت قد قدرت ان تتلقى اي جواب .

اني ايها الصديق لست واهب اجوبة . انني إحول كل جواب قد بصمت عليه كل الالهة وكل المعلمين وكل المذاهب والمذهبيين الى اعصى الاسئلة التي لا جواب عن واحد منها .

اني لست نبيا او معلما يضع امام كل سؤال جوابا يكون الموت والاتهام بالزندقة او الخيانة هما بعض جزاء من يشك فيه او من لا يجن للاقتناع به والدعوة اليه .

ان الاقتناع بالاجوبة المصنوعة اسلوب تاريخي عالمي من اساليب

البحث عن السلامة والامن .

اني ايها الصديق لست نبيا او معلما يضع على كل تساؤل عن اية دمامة او غباء او عبث او تفاهة او قسوة او ظلم او قـــذارة او الـم او جنون في الكون او في المجتمع اعدادا هائلة من الاجوبة ، تحرسها وتغسرها وتوقــع عليهــا وتقاتــل دونها اشرس الآلهــة واغباها او اشرس المذاهب واغباها ، او اشرس المخاوف واغباها ، او اقــوى الجيوش واغباها ، او اشرس التاريخ واغباه . انني لا احرس الاجوبة المحروسة ولكنــي احــاول ان ارفع الحراسة عنها وان القي بها الى اعنف المعارك .

انني لست نبيــا ولا معلمــا يسكتان كل التساؤلات بسطوة الآلهـــة والمذاهب ، ولكنني انسان يحول كل شيء الــى تساؤلات تتصاغر امـــام اصغرها اشرس الآلهة والمذاهب . انني لست نبيا ولا معلما يسكتان كــل تساؤل بسطوة الآلهة والمذاهب وبسطوة السلاح ..

انني لا افسر الآلام والاحزان تفاسير تحولها الى صلوات للآلهـــة والطبيعة والى محاباة للانسان ، ولكننــي افسر المسرات والملذات تفاسير تحولها الى افتضاح للالهة وللطبيعة والى عدوان على الانسان واذلال له .

انني لا اضع التفاسير ، ولكنني ابطل ما وضع منها .

انني لا اشيد الهياكل ولكنني اهدم ما شيد منها .

انني لست حارسا ولكنــي مقاوم لجميع الحراسات . انــي لست حارسا للآلهة او للنبوات او لزعامات او للمقدسات او للتعاليم او للتاريـخ من العقل او من الانسان او من غضبه وتمرده ولكني حارس للانسان من كـــل حراسة .

انني لا اصلي لمن وهبني الظــلام شكرا له لانــه واهب ، اي لانه قــد وهبني شيئا هــو الظــلام .

وكم هم الذين يصلون لمــن وهبهم الظلام لانــه في حسابهم واهب . والواهب ولــو الظلام تجب له الصلاة .

ولكنني احاسب من وهبني الشمس لانه واهب عابث ، لانــه قــد وهبني الظلام والعبث . أليس مــن وهبك الشمس فقــد وهبك حتمــا الظـــلام والعبــث ؟

اليس من وهبك الحياة فقد وهبك حتما الموت والامراض والشيخوخة والاحزان والتلوثات ؟

انني لا اشكر من أوجدني ، لانه لم يوجدني لانه يحبني ، او لانه يختار لي ، او لانه يستجيب لما أريد . ولكنه اوجدني لانه يتعزى ويتداوى من آلآمه وفراغه بايجادي .

انه لم يوجدني بحثا عني او عن احتياجاتي لقد كان ايجاده لي هجوما علي . انه لم يوجدني وانما اوجد نفسه .

انني لا اشكر من اوجدني ، لانه لم يوجدني بالتدبير ، وانما اوجدني لانه لا يستطيع ان يصمت عن ايجادي ، لانه لا يستطيع ان يصمت بوقار عن صناعة العبث .

انه يوجدني لانه عابث ، ولانه مدفوع من داخله ، لانه هارب الى ايجادي ، وهارب بي والي . انه لا يوجدني لانه طيب . لانه يصنع السرور او المجد لاحد او لشيء .

انه يوجدني كما يعبث المتعب بلحيته او كما يقضم اظافره ، ولا يوجدني كما يضع المهندس خطوطه وارقامه . انه يوجدني بالمنطق وبالنيات وبالاخلاق التي بها يمرضني ويشوهني ويقتلني .

انه لا يوجدني كما اريد او كما ينبغي . آنه لا يختار لي ، ولكنه يوجدني بالاسلوب وبالحافز اللذين بهما يصنع لي الدموع والاحزان والالام والعار والدمامة دون ان يبكي او يخاصمه ضميره . هل شكر البشر كائنا يستحق كل غضبهم ورفضهم مثلما شكروا من اوجدهم او من حسبوا انه قد اوجدهم ؟

يكذبون لكي يروا الإله جميلاً

« .. الست حينما تقول : الكون جميل او رحيم او صديق او معقول او اخلاقي انما تدافع عن الاله وتغفر وتستغفر له وتستر عليه ، اذا كنت تؤمن به ـ او تدافع عن الطبيعة وتغفر وتستغفر لها وتستر عليها ، اذا كنت تؤمن بها ؟ أليس في الكذب كل معاني المحاباة للاله كما ان في الصدق كل معاني الهجوم والقسوة عليه ؟ أليست هذه المحاباة للاله مثل المحاباة للأبناء حينما يوصفون او يمدحون بنقيض ما فيهم ؟ أليست مثل المحاباة للسلطان الرديء او للوجه الدميم حينما يقالى لهما او فيهما ما يريدان او ما يجب أن يكوناه لا ما يوجد فيهما ؟ هل يمكن ان يطاق الاله او ان يغفر له لو عومل بالصدق او فسر أو فهم بالصدق ؟ هل يمكن ان يطاق اي شيء او يغفر له لولا الكذب ـ لولا الكذب المنطقي والنفسي والديني والمذهبي والتعليمي والاخلاقي ؟ أليس الكذب هو اذكى وانفع اختراعات الانسان في مواجهته للطبيعة ولنفسه وللآخرين ولاربابه وانبيائه وزعمائه ـ في معاملته لواقع لا يمكن غفرانه أو فهمه أو تفسيره او تسويفه ، كما لا يمكن الفرار منه ؟

« .. اننا لمحتاجون الى ان نكون مكذوبا علينا مثل احتياجنا أو اكثر من احتياجنا الى ان نكون كاذبين ..

« .. ايهما الكاذب او المذنب : الوجه الدميم ام الذي يقول عن مثل هذا الوجه : انه جميل ، رحمة او حبا او تهذيبا أو مجاملة او تحرجا او تمنيا ؟ .. وهل فيهما كاذب او مذنب ؟ . »

★ ★

يجيء الانسان ليظل يواجه ويعايش ويمارس كونا رهيبا من التصادم والتناقض والمخالفة والمقاومة والرفض . انه يجيء ليجد كل

شيء يصادم ويناقض ويخالف ويقاوم كل شيء فيه ــ ليجد كل شيء فيه يصادم ويناقض ويخالف ويرفض ويستنكر كل شيء يجده ويواجهه ويتعامل به او معه .

انه لا يجد شيئا كما يريده او يتمناه او مسالما لمنطقه او لاخلاقه او لاحتياجاته .

انه يجيء ليظل يتصادم بكل شيء حتى بذاته ، وليظل كل شيء يتصادم به حتى ذاته . حتى ذاته لتظل تتصادم به ، لتظل ذاته تتصادم بذاته .

ان الانسان يجيء ليظل يمارس حربا دائمة ، مختلفة المستويات والاساليب والمعاني والجبهات والأعداء .

ان منطقه واخلاقه وامانيه واحتياجاته وتوقعاته وضميره وحبه وبغضه وتعاليمه واديانه ومذاهبه وتجاربه ورؤاه ــ ان كل ذلك فيه ليتناقض ويتصادم بكل شيء ، وان كل شيء ليتناقض ويتصادم بكل ذلك فيه . انه لتناقض وتصادم يتحولان الى حروب وعداوات ، بكل معاني الحروب والعداوات ، وبكل اسبابها وشمولها ونياتها واحقادها ومخاوفها ، وبكل اسلحتها .

بل ان كل ذلك ليتناقض ويتصادم به هو ، وانه هو ليتناقض ويتصادم بكل ذلك . حتى آلهته وانبياؤه وقديسوه ومعلموه ، انهم ليناقضونه ويصدمونه . انهم ليصدمون عينيه واخلاقه وذكاءه وايمانه وامانيه وجميع معانيه وتطلعاته . ان اربابه وانبياءه ومعلميه ليناقضونه ويصدمونه اكثر مما يناقضه ويصدمه اقوى اعدائه ، او شر اعدائه . ان معابد الانسان وكتبه المقدسة لتناقضه وتتصادم به اكثر مما تناقضه وتتصادم به ملاهيه وآثامه بل وخصومه واعداؤه .

هل يناقض منطق الانسان واخلاقه ، او يصدمه في منطقه وفي اخلاقه مثلما يفعل له ذلك اربابه ؟ هل يصدم ايمان الانسان شيء مثلما تصدمه اربابه ؟

انه لا شيء يصدم ايماننا مثلما يصدمه ما نؤمن به ، وانه لا شيء يجرح عيوننا كالذي تريد التطلع اليه عيوننا .. ان الانسان ليجيء ليعيش في عالم موحش مخيف من الاعداء والاضداد ، ومن الخارجين عليه ،

ومن الرافضين والمخيفين والغائظين له ، ومن الشاتمين لمنطقه ولاخلاقه ولعينيه ، ولكل معاني الانسان فيه . اما عيناه فوااسفاه اهما . انه لا شيء يواجه من العدوان عليه ومن الاساحة المقاتلة له النافذة فيه مثل عيني الانسان . ان عيني الانسان هما اشهر معتدي عليه . ان كل شيء خروج عليه ، خروج على منطقه وعلى اخلاقه وامانيه وتفاسيره واحتياجاته ، وعلى ارادته وفهمه وسروره ، وعلى حبه وصداقته ، وعلى مثله ونماذجه ، وعلى اديانه ومذاهبه ، وعلى جميع مقاييسه المادية والادبية والروحية والانسانية . ان كل شيء يواجهه ويراه ويعلمه ويعامله خروج على ايمانه وعلى كل شيء طيب وجميل فيه ، بل وعلى كل شيء رديء ودميم فيه : ان كل شيء يتحول الى خصم له وعدوان عليه .

اجل ، حتى عيناه .. أواه .. ما اقسى ما تصنع به وتعامله وتشاتمه وتناقضه عيناه . ان عينيه لاضخم جهاز تفجير واشعال حرائق دائمة باهظة داخل ذاته ، وداخل تفكيره . ان عينيه لاقسى ظالم له ، ان كل شيء لظالم له وظالم لعينيه . ان شيئا لم يظلم الانسان مثلما ظلمته عيناه ، وان شيئا لم يظلم مثلما ظلمت عينا الانسان . انه مظلوم بعينيه ومظلومة عيناه .

ان الواقع او الموجود هو دائما اقل او اضيق او اردأ او اغبى مما يريده ويتوقعه ويتمناه ويحتاج اليه الكائن الحي المعايش له والعائش فيه . ان الكائن الحي يجد الواقع او الموجود الذي فرضت عليه معايشته والعيش فيه ــ انه ليجد الواقع او ليجد الموجود كل ذلك ، أي كل هذه المناقضة والمخالفة والعجز عن التكافؤ والملاءمة .

انه لا يجد شيئا واحدا فقط جاء او يجيء مساويا او مشابها او مقاربا ومجاملا لشيء من مثله او من نماذجه المختلفة ــ النفسية او الفكرية او الاخلاقية او الدينية او المذهبية او الذاتية . ان كل شيء يتحول الى مشاتمة والى مهاجاة له . انه لا شيء يجيء مساويا لاحتياجاته او لامانيه او لمثله ، تحت اي ظرف ولا باي تفسير ولا بأي مقياس او منطق .

انه لتوجد دائما فجوة او مسافة او خصومة واسعة وحادة بيننا وبين ما نجد ــ بين كينونتنا ومنطقتا وكينونة ومنطق جميع الاشياء

وجميع الكائنات التي فرضت علينا مواجهتها ومعايشتها ومصادقتها ، بل التي فرض علينا الخضوع لها والتعامل معها والتحديق فيها والدفاع عنها والتعري أمامها ، وتعريها أمامنا . انه ليوجد دائما بيننا وبين جميع الاشياء والكائنات خلاف وغضب وعداء وعجز عن التفاهم والتوافق والثقة والحب والاحترام ، وعن التشابه في الاهواء او في الاشواق او في النيات او في الاحتياجات او في الالام والمصير ، او في المنطق او في التفاسير، او في الاحزان والمسرات . إننا دائما غرباء ، نواجه ونعايش غرباء ، بل لا نعايش او نواجه الا غرباء .

ان هذا يعني ان الانسان لابد ان يكون باسلوب ما وعلى مستوى ما بل لا بد ان يكون بكل الاساليب وعلى كل المستويات ، خارجا على نفسه ونقيضا لها بل وخصما ، وخارجا على ظروفه ، ومناقضا مخاصما لها ، وخارجا على الاخرين ومخاصما مناقضا لهم . انه لا يستطيع ان يتعامل بكل ذاته ومعانيه مع الاشياء والكائنات التي حوله او مع الاخرين تعاملا حرا ومتلائما وصادقا ، أو تعامل اصدقاء او متوافقين .

اذن كيف يواجه هذا الموقف ؟ او كيف تغطى او تملأ هذه الفجوة او هذه المسافة ، او تعالج هذه الخصومة او المناقضة ؟ كيف يكون العلاج او كيف ينبغي ان يكون ؟ ان هذه هي القضية الصعبة . انه لا بد من العلاج ولو علاجا كاذبا او زائفا . انه لا بد من محاولة العلاج . ان الانسان لا يستطيع ان يواجه ما لا يقبل او يريد بدون محاولة ما ليبدو وكأنه قد انتصر .. ان الناس احيانا يحاولون ان يواجهوا هذه الحالة المحتومة الصعبة بالقوة وبالمقاومة وبأن يفعلوا شيئا . وقد يستطيعون ان يفعلوا،او يظلون يحاولون . وقد يواجهونها ايضا بالصدق والنقد والرفض المنطقي والأخلاقي والنفسي . أي انهم قد يعرفون هذه الحقيقة ويعلنون اعترافهم بها ، ويرفضونها رفضا فكريا وتعليميا ونفسيا ، ولا يذهبون في مواجهتهم لها الى الكذب ليخفوها ، وليحولوا الكذب بها ولها الى تعاليم واديان ومذاهب والى مستويات انسانية .

وانهم اي الناس ليذهبون احيانا ليواجهوا ويعالجوا هذه الحالة باسلوب آخر ، بأسلوب مناقض . انهم احيانا اخرى ليذهبون يواجهون ويعالجون هذه الحالة بالفرار والانخداع والخداع . ولكن هذا أيضا اسلوب من اساليب المقاومة . اليس الفرار من الموقف او من الرؤية او من الفهم او من المقاومة اسلوبا من اساليب المقاومة النفسية او الفكرية او الاخلاقية ؟

انهم احيانا ليذهبون يكذبون ويبحثون عمن يكذبون لهم ويكذبون عليهم ليواجهوا ويعالجوا هذا الموقف الأليم المتصادم بـين الانسان وبين وجوده ، وبينه وبين ظروفه ، وبينه وبين الاخرين . انهم حينئذ ليذهبون ويشترون الكذب ويشترون انبياء الكذب ومعلميه بكل شيء ، دون وقـار او ذكـاء او تأثم من دفع اي ثمن ، لكي يغطوا او يخفوا هذا التناقض والتصادم . لقـد وجدوا في الكذب جهاز اخفاء وتغطية جيدا . ان الكذب هنا ليس هو اخفاء الواقع بل الاقتناع ضده وكذا التعليم ضده . انه الكذب العقلي . وليس في الناس من يمارسون احد الاسلوبين فقط ودائما دون النقيض . انهم جميعا يمارسون هذا وهذا على مستويات متفاوتة . حتى الأقوياء والاذكياء جدا لا بد وان يمارسوا ولو احيانا اسلوب الفرار والانخـداع والخداع مهما مارسوا اسلوب القوة والمقاومة . كما ان الضعفاء والاغبياء لابد ان يمارسوا ولـو احيانا قليلة اسلوب المقاومة والقوة . انهم لا يستطيعون ان يختاروا دائمـا الفرار والانخداع والخداع . ان القوي لا يستطيع ان يكون دائمـا مقاومـا وقويا ، وان الضعيف لا يستطيع ان يكون دائما هاربا ورافضا للمقاومة

اننا لا نستطيع دائما ان نكون جبناء وهاربين . ان الجبن احيانا ، وكذا الفرار يصبح امنية صعبة ، لا يستطيع الظفر بها كـل فارس مقـدام . ان الجبن ليصبح احيانا بطولة لا يستطيعها احد ممن صناعتهم البطولات . انه اي الجبن قد يصبح شجاعة لا يجرؤ على اقتحامها اشجـع الشجعان . ان الجبن قد يصبح مستوى او اسلوبا من اساليب الشجاعة والكبرياء التي لا يستطيع الاقدام عليها او الالتزام بها احد . نعم ، ان احـدا لا يستطيع ان يكون دائما جبانا وهاربا .

لقد كان محتوما ان يصبح البارعون في الكـذب الاجرياء عليه زعمـاء وقادة وانبياء ومعلمين ، كما كان محتوما ان يصبح الزعماء والانبياء والقادة والمعلمون كذبة باسلوب ما وعلى مستوى ما ، او كذبة بكل الاساليب وعلـى كل المستويات . ان البارعين في الكذب والاجرياء عليه ، اي الكاذبين جـدا يصبحون اكبر الزعماء والقادة والانبياء والمعلمين ، كمـا ان اكبـر الزعمـاء والأنبياء والقادة والمعلمين لا بد ان يصبحوا اكبر الكذابين ولا بـد أن تصبـح اكاذيبهم هي اكبر الاكاذيب . لقدكان مستحيلا ان يكون هؤلاء بلا اكاذيـب كبيرة بقدر ما يستحيل الا يتناقض الانسان مع وجوده ومع عقله وأخلاقـه وآلهته .

أن هؤلاء يجيئون كالاعتذار عن هذا التناقض او التصادم بين الانسان وبين مواجهاته وممارساته ، او كالتغطية او التستر او الاخفاء لهذا التناقض والتصادم . انهم يجيئون كالعلاج الكاذب المخفف ، او كالعلاج الزائف المقبول المريح . انهم يجيئون كالطبيب الذي يعالج بالسحر وبالتحدث الى النجوم والى الأرقام والاسماء التي لا تمارس الحياة ولا تمارسها الحياة . بل انهم ليجيئون اعتذارا وعلاجا ، لا كالاعتذار وكالعلاج فقط ، واطباء لا كالأطباء فقط .

ان الطبيب هو اصعب الكاذبين على الاكتشاف . انه لا احد يصعب اكتشاف زيفه وكذبه وجهله اكثر من الطبيب او مثل الطبيب . انه لا يوجد جاهل او كذاب او زائف يوثق به ويؤتمن زيفه وجهله وكذبه على اعظم الاشياء واغلى الاشياء قيمة ، كالطبيب . ان الآلهة مع ضخامة المحاباة التي يهبها اياها اعتقاد المؤمنين بها لتذهب تحسد الاطباء على ضخامة المحاباة التي يهبهم اياها ضعف الناس واحتياجهم وعجزهم وجهلهم .

انه لا يوجد جاهل عاجز كاذب يظن به العلم والقدرة والصدق ويطلب منه المستحيل ويرجى منه المستحيل ، مثل الطبيب . انه لا يوجد من نحتاج الى الاقتناع به والى ان ننتظر منه ان يصنع لنا ما لا يستطيع كالطبيب. ان الطبيب هو النبي الذي لا يحتاج الى اية معجزة .

ان جميع الزعماء والانبياء والقادة والمعلمين والوعاظ ، في جميع العصور والمجتمعات لا يساوون اكثر من المسافة التي تفصل بين ما يريده الانسان وما يجده ، او لا يساوون اكثر من التناقض او التصادم بين الانسان وبين وجوده ، او بين احتياجاته وأمانيه وتطلعاته وبين واقعه . وان الكذب تحت جميع ظروفه ، ومفسرا بجميع اسبابه وتفاسيره لا يساوي او لا يعني اكثر من هذه المسافة الفاصلة بين ما يريده الانسان وبين ما يجده ، او من هذا التناقض والتصادم بين منطق الانسان وجوعه واشواقه وضروراته ، وبين ظروفه وما يستطيعه .

هل يمكن ان نؤمن بأي زعيم او نبي او واعظ او بأي اله او باي دين او مذهب لولا التصادم والتناقض والتعادي بيننا وبين مواجهاتنا واحتياجاتنا ومعايشاتنا اي بيننا وبين ما نريد ونشاهد ونعامل ونجد ؟ انه لهذا لا بد ان يصبح اكذب الزعماء والدعاة والقادة والانبياء هم أعظمهم حظوظا واعلاهم صوتا ومكانة وقوة وسلطانا وسحرا وتأثيرا على ذكاء السوق وفي حسابات

السوق . أن أي زعيم أو واعظ نبي ، لو دخل اية سوق بلا اية اكاذيب ، لما وجد من يشتريه بأي ثمن .

ان الكذب الذي تطالب به السوق وتريده وتحتاج اليه من هؤلاء ، ومن جميع المتعاملين معها وعليها ، ليس هو فقط الكذب الاخلاقي ، وليس كذلك هو فقط الكذب الفكري والنفسي والتعليمي ، بل هو كل ذلك . ان البشر لمحتاجون الى ان يعيشوا كل انواع الكذب والى ان يتعاملوا بكل انواعه ويعلموا كل انواعه . انه الكذب الفكري والنفسي والتعليمي والاخلاقي .

وانه لهذا لا بد ان يصبح الصادقون من الزعماء والانبياء والدعاة والقادة ، وكذا المحتاطون والمشترطون والمتوقرون والمتورعون في كذبهم ، اي لو وجدوا ، ان هؤلاء لو امكن ان يوجدوا لا بد ان يصبحوا شذوذا وقلقا وتعذيبا وتشويها في السوق وللسوق . انهم لن يصبحوا أنبياء ولا زعماء في حسابات السوق او التاريخ .. انهم لو وجدوا فلن يجدوا منبرا ولا محرابا ولا انسانا يصعدون فوقه او يتوجهون اليه او يتخاطبون ويتفاهمون معه . انهم حينئذ لن يجدوا عيونا او آذانا او عقولا او ارواحا يسقطون فيها ليفسدوا قدرتها على الرؤية والسماع وعلى الفهم والتقبل والرفض ، أو ليفجروا فيها صدقهم . ان من يصدقون ومن يحتاطون او يتورعون او يتوقرون في كذبهم ، ان هؤلاء لو امكن ان يوجدوا لا بد ان يوصموا بأنهم من المفسدين والمعوقين ، بل من الخونة والمرجفين ودعاة الهزيمة والتشاؤم ، بل من المتآمرين والاعداء ، بل من الهدامين الضالين المشوهين لجمال الآلهة ولجمال الطبيعة والاشياء ، ولمزايا المذاهب والايمان والاتباع ، ولعبقريات الزعماء والقادة والمعلمين والانبياء .

ان كل عبقرية الالهة والانبياء والزعماء وكل نظافتهم لا تساوي اكثر من الكذب لهم ، ومن كذبهم لانفسهم ، ومن الكذب باسمهم . ان هؤلاء — لو وجدوا — لا بد أن يتهموا بانهم من أعداء القيم الثابتة ، ومن المخربين للثقة بالنفس وبالتاريخ وبالآباء وبما هو موجود ، ومن الملقين بكل ذلك تحت انياب الشكوك المفترسة . انهم هدامون معادون لمجتمعات . انهم اسلوب من أساليب الوباء . انهم صانعون لوباء ومعبرون عن وباء وحاملون لوباء .

ان من يشكون محسوبون دائما من اخطر المخربين والمتآمرين

والأعداء . ان الشك كيفما كانت اسبابه وموضوعاته لا بد ان تحاسبه المجتمعات والمسيطرون عليها اي على المجتمعات مثل قوة معادية او مخربة أو متآمرة او كل ذلك او أكثر من كل ذلك .

ان الصادقين لا بد ان يعدوا في كل الاسواق والمجتمعات وفي كل التاريخ مخربين واعداء .

★ ★

أيتها الآلهة والنبوات والزعامات والمذاهب والعقائد والتعاليم .. أيتها الاشياء والكائنات ـ كل الاشياء وكل الكائنات .. ما اقل جمالك واردا حظوظك لولا الاكاذيب التي تهبك كل جمالك وكل حظوظك ـ لولا الأكاذيب العقلية والتعليمية والنفسية والاخلاقية . لولا الاكاذيب التي تهبينها والاكاذيب التي توهبينها . لولا الاكاذيب التي تتحدثين بها وعنها والتي تتحدث عنك وبك . ان هذه الأكاذيب هي غطاؤك العالمي الرهيب التأثير . ان تعليم التفاؤل هو احد أكاذيبك ، او هو احد الاكاذيب التي هي كل غطائك . انه احد الاكاذيب لك بقدر ما هو احد اكاذيبك . انه كذب منك وكذب لك وكذب بك .

ان التفاؤل ليس الا سلاحا يحمله الاقوياء والاذكياء والقناصة والمقاتلون والذين يجدون ويملكون ويمكرون ـ يحمله كل هؤلاء ليطلقوه كسلاح ورصاص على الأغبياء والضعفاء والمهزومين ، وعلى الذين لا يجدون ولا يملكون ، ويراد لهم الا يجدوا والا يملكوا . ان هؤلاء لمحتاجون الى أن يقاتلوا هؤلاء بالتفاؤل بقدر ما هم محتاجون الى مقاتلتهم بالسلاح والسجون والمعتقلات وبكل اساليب الارهاب .

ان الكذب والتفاؤل ليسا منطقا ، ليسا ذكاء او غباء او حبا او اخلاقا ، ولكنهما ابدا سلاح ، سلاح للضرب والقتال لا للزينة او الاستعراض .

ان السلاح قد يكون اساوب زينة او استعراض . اما التفاؤل والكذب فهما ابدا اساليب قتالية ان الذي يحمل السلاح فوق المنبر ليس حتما مقاتلا ، اما الذي يقول الكذب والتفاؤل فوق المنبر فهو حتما مقاتل .

★ ★

ان الصدق لا بد ان يقتل ، او ان يكلف ما لا يطاق ، او ما يرهق ، او ما لا يرضي، او ما لا يريح ، او ما لا يصنع لنا التفاؤل ، او ما لا

يحولنا الى اعجاب وروعة وكمـال في عيـون الآخـرين وتقديراتهم ، وفي معاملاتهم لنا واحساسهم بنا . ان الصدق لن يكـون جمالا نحيـا به ولا جمالا نرى به . انه لن يكون جمـالا في تفاسيرنا ولا جمـالا في ذواتنا او كينوناتنـا .

ان الصدق يشوه صورنا ونماذجنا المعروضـة في الاسواق والتـي نريد عرضها فيها . انه يفسد رضا السوق عنا ويفسد رؤيتها لنا .

ان الصدق عدوان على آلهتنا وعلى ابطالنا وعلى اوهامنا وتفاهاتنـا الجميلة . انه عدوان على رؤيتنا وعلى تفاسيرنا لآلهتنا ولابطالنا ولاوهامنا. انه عدوان على آبائنا . عدوان على رواياتنا عنهم وعلى تصوراتنا لهـم وعلى اعجابنا بهم وعلى انتمائنا اليهم . ان الصدق الحاد وزندقة وفسوق عقلي واخلاقي وعاطفي ولغـوي بالآلهة وبالابطـال وبالمعلمين وبالقديسين وبالاباء ، بل وبالتاريخ وبالطبيعة وبجميع الاشياء .

ان الصدق بذاءة ودمامة وقسوة وعدوان على الآخرين وعلى جميع الاشياء . حتى الشمس . ان الصدق عدوان وبذاءة وقسوة عليها . انـه يحولها الى دمامة ، الى دمامة عقلية واخلاقية ودينية ونفسية وذاتية .

ان الصدق همجية كهمجيـة الطبيعة . انـه تعبير عن همجيـة الطبيعة ، وتحدث عنها ، وابراز لها ، وتذكير بها . ان الصدق هو رؤيـة الطبيعة والتحدث عنها كما هي بكل ذنوبهـا وبشاعاتها . وهـل توجـد همجية اقسى من ذلك او مثل ذلك ؟ هل يوجد من يستطيع رؤية الطبيعة والاشياء والتحدث عنها كما هي ؟ ان الصادق يتحول الى طبيعة همجية بذيئة ، ولكنه يتفوق عليها بالتعبير . ان الفرق بينهما ان الطبيعة تفعـل وتمارس همجيتها وبـذاءاتها دون تحديث او تعبـير عنها باللغة والتفكير والمنطـق ، اما الصادق فانه يتحول الى تعبـير والى حديث عن هـذه الهمجية وهذه البذاءات ، والى تذكير بها ، باللغة والمنطق والتفكير ، بـل وبالرؤية وبالتعليـم ، ان الصـادق لا يعيش ويواجـه فقـط الدمامـات والبذاءات ، بل انه يعلن عن ذلك ويشير اليـه بقسوة وضجيج وباسلوب كأنـه التعبـد ..

ايها الصادق .. انك لتستحق الرثاء والمجاملة لما تعاني مـن بذاءة وهمجية كم انت معذب ومزعج ومشوه ومخيف وشاذ وغير معقول .. كم

أنت كائن غريب وفريد .. كم أنت ايها الصادق كذلك لانك ترى الاشياء وتفهمها وتتحدث عنها كما هي . انك تستطيع ان تراها وتفهمها وتعبر عنها كما هي . انك لتجرؤ على ذلك وعلى ممارسته . انه لأشد الهول لعقلك ولعينيك ولاخلاقك ، بل ولتقواك وايمانك ان ترى الاشياء وتفهمها وتفسرها وتتعامل بها كما هي بكل الصدق والحقيقة .

اذن كم انت بذيء وهمجي وعدواني ومتوحش ايها الصادق ؟ انت ايها الصادق عدوان وخطر وتشويه وهجاء للآلهة وللانبياء والآباء وللزعماء وللقديسين . انت تكذيب لهم وتهديد لمجدهم ولسلطانهم . انت ايها الصادق العدو الدائم والعالمي لكل الاشياء ولكل الناس ولكل الآلهة ولكل الجمال والتفاؤل .

اما انت ايها الكذب .. ايها الصديق ، ايها المهذب ، ايها الفادي لنا ولدماماتنا وتفاهاتنا ولآلامنا ، ودفاعا عن آلهتنا وتجميلا لدماماتها واخطائها ، ولعبثها ولضياعها وغبائها وعن آبائنا الصغار جدا وعن تاريخهم الكبير والعظيم جدا .

ـ أما انت ايها الكذب ، ايها الكاذب ، فما اجملك وارحمك وانبلك. ما اسمى واتقى اخلاقك وروحك . انك لا تكلفنا شيئا ، ولا تهددنا بشيء، ولا تعيرنا بشيء ، ولا تفسد علينا شيئا . انه لا يوجد عميل او صديق او رحيم مثلك . ان اي شيء واي انسان واي كائن لا يستطيع ان يستغني عن صداقتك او عن رحمتك ايها الكذب .

انك ايها الكذب ، ايها الصديق النبيل ، لا تفرض علينا ان نكون شيئا ، ولا أن نعمل شيئا ، ولا ان نترك شيئا ، ولا ان نتنازل عن شيء من ذنوبنا او من اخطائنا او من قبحنا وصغائرنا ، او من اكاذيبنا وبلاداتنا ، او ان نفقد او نخفي شيئا من تزويرنا وتلويثنا لانفسنا ومن اساطيرنا عن آبائنا الصغار الملوثين جدا .. والكبار المتطهرين جدا .. الغزاة القهارين .. والمغزوين المقهورين

ـ نعم ، انك ايها الكذب النبيل لا تفرض علينا شيئا من ذلك لكي ترضى عنا وتعجب بنا ، ولكي تعلن عن رضاك عنا وعن اعجابك بنا ، بل ولكي تعلمنا الاعجاب بانفسنا والرضا عنها ، وتعلمنا أن نعلن عن اعجابنا

وعن رضانا بل وان نحول اعجابنا ورضانا الى مذاهب واديان .

انك لا تشترط علينا اي شرط لكي تهبنا كل ما نريد وكل ما لا نريد ، وكل ما لا نستحق . وهل لنا واهب سواك ايها الكذب ؟ هل لاي شيء واهب سواك ؟ ان كل ما نعده ونراه ونجده جمالا او مزية او ذكاء او منطقا لم يصبح او نجده كذلك الا بك .

انك لا تطالبنا بأن ندفن الجثة المخيفة البشاعة والدمامة ، ولا ان نحرقها ، بل ولا ان نلقي بها بعيدا عن بيوتنا او عن معابدنا او عن انفسنا.

بل انك لا تطالبنا حتى ولا باخفاء هذه الجثة . ولكنك تطالبنا فقط بانكارها ، بانكار وجودها ، او بانكار انها جثة ، او بانكار انها دميمة . انك لا تطالبنا بان نفقأ عيوننا ، بل انك لتطالبنا بأن نفترض عيوننا غير موجودة .

انك لا تكلفنا بان ننظف ملابسنا من الاتساخ ، بل ان نلبسها من الداخل ، بل ان نلبسها بكل اتساخها من الخارج ، ولكن مع تعليق بطاقة فوقها تتحدث عن روعتها ورعة نظافتها . انك لا تشترط علينا شيئا من النظافة او حتى اخفاء القذارة لكي تتحدث عن نظافتنا . انك لا تترك الحديث عن نظافتنا حتى حينما نرفض اخفاء قذارتنا او نعجز عن اخفائها . حتى الصمت ، انت لا تصمت عن الثناء علينا بما لا تجد الا نقيضه . ولعل كل تعليم للنفس بان تكون فاضلة ونظيفة لا يعني الا لبس الملابس المتسخة من الداخل ، او لبسها من الخارج مع وضع رقعة فوقها تشيد بنظافتها ، او منقولة وساختها من وجهها الخارجي الى وجهها الداخلي . لعل كل التقوى لا تعني الا ان تكون مطيعا بحركاتك وصلواتك، عاصيا بنياتك وشهواتك واحتياجاتك .

انك ايها الكذب لانت افضل وانبل خالق ، لانك تحاول أن تخلق ما ينبغي وما يراد ، ولست تخلق فقط كما تفعل الآلهة والطبيعة . انك تحاول ان تكمل وتجمل ما خلقته الطبيعة او الالهة ناقصا او دميما . لهذا انت ايها الكذب افضل وارحم خالق .

ما اقبح واقسى وانذل كل الاشياء لولاك ايها الكذب .. ايها المناضل لتستر عار الآلهة ودماماتها ، ولتستر عار الطبيعة ودماماتها ، ولتستر عار الانسان وضآلاته وفضائحه وآلامه .

انك ايها الكذب لاضخم محاولة عالمية للتكفير وللاعتذار عن ذنوب الاشياء واخطائها وعاهاتها ، واليها من ذنوبها واخطائها ودماماتها .

انك لست فقط اعتذارا عن عيوب الاشياء بل واعتذار الى الاشياء من عيوبها .

انك ايها الكذب لانت اعظم مجاملة عالمية يجامل بها العالم نفسه . اذن لماذا يشتمك كل العالم ايها الصديق لكل العالم ، ايها الكذب ؟ لقد كان شتم العالم لك اسلوبا جيدا من اساليب التحية لك بل من اساليب المبايعة لك انك اعظم صديق عالمي للآلهة وللناس والطبيعة ولجميع الاشياء . انك اعتذار الى كل شيء عن دماماته وتفاهاته . انك محاولة اعتذار عن كل شيء والى كل شيء . انه لم توجد وسيلة يعتذر بها كل شيء الى كل شيء مثل الكذب او غير الكذب . انه لا يوجد شيء يغفر لكل شيء اخطاءه وعيوبه بكرم ونبل مثلك او غيرك ايها الكذب .

ان كل ذلك هو بعض مزاياك ايها الكذب انك لا تطالب بشيء ولا تكلف او تشترط شيئا ، ولا تحتاج الى شيء ولا تحوج الى شيء .

انك لا تطالب لنفسك باي شرط لكي تمارس كل نفسك ضد نفسك لمصلحة الارباب والزعماء والمعلمين بل ولمصلحة الانسان

انك ايها الكذب تحتاج فقط الى جمهور شديد الغباء وشديد الرغبة في الايمان والاتباع . بل انك احيانا تحتاج الى جمهور شديد الذكاء . ان شدة الذكاء قد تعني شدة الرغبة في التصديق والاتباع ، او قد تقترن شدة الذكاء بشدة الرغبة في التصديق ، او انه ليس محتوما ان تنافي احداهما الاخرى .

ان موهبة الذكاء لا تستطيع ان تعصم من احتياجات الغباء او من ممارساته او من ضعفه او من اخلاقه .

ان الاذكياء والاغبياء يتساوون او يشتركون في تصديق الاكاذيب ، بل قد يتفوق الاذكياء في هذا التصديق ، لان سلوكهم الذهني يكون اكثر واقوى حماسا واستقبالا وتلمسا ، واكثر حركة ، واقدر على الحركة . وتصديق الاكاذيب المعروضة قد يكون تعبيرا عن قوة الحماس والاستقبال والتلمس ، وعن سرعة الاستجابة والحركة ، وعن قوتهما ، وعن القدرة على ممارستهما . ان الاذكى قد يكون هو الاسرع الى الوقوع في الغباء وفي الاكاذيب الغبية . انه قد يكون هو الاجرأ على ذلك والاكثر وقوعا في

طريقــه .

ان تصديق الكذب ليس مستوى من مستويات الذكــاء او الغباء او من مستويات التقوى او الفجور . ولكنه اي تصديق الكذب مستوى مــن مستويات الانسان ، او تعبير من تعبيراته . ان الانسان يصدق ويخـدع ويتقبل لانه انسان لا لانه ذكي او غبي ، لا لانه طيــب او شرير . انــه يصدق ويخدع ويتقبل بالاسلوب الذي به يجوع ويخاف ويموت ويمرض .

ولعله اي تصديق الاكاذيب ليس مستوى مــن مستويات الانسان ، وانما هو تعبير من تعبيرات رفضه واحتجاجه وغضبه واشمئزازه ، ومــن تعبيرات تناقضه وتصادمه بتفكيــره وبرؤاه ، وبأمانيــه واحتياجاتــه ، وبتطلعه الدائم الحاد المصدوم المسدود دائما . لعل تصديق الاكاذيب هــو اقسى واتقى اساليب الاحتجاج والغضب على كل ما هو كائن وعلى كــل ما يمكن ان يكون . على منطق كل شيء وعلى اخــلاق كل شيء وعلــى احتمالات كل شيء .

ان الكذب الديني او الوطني او القومي او المذهبي او التعليمي لاعظم واسخى وانفع هدية يهديها الانبياء والزعماء والقــادة الكاذبون المــاكرون القتلةلجماهيرهم ومجتمعاتهم . ان هــذا الكذب يهب هــذه الجماهيــر والمجتمعات التفاؤل والراحة والاستقرار والتفاسير الذكيــة لحقائــق البليدة . انه احيانا يخلصها من المعاناة الشاقة ، ومن الرؤى الاليمــــة الشديدة الدمامة ، ومن الرفض والاشمئزاز الواهبين كل العذاب ، ومــن التفكير ضد كل شيء ، وخروجا على كل شيء . اننــا لا بــد ان نكــون خارجين على كل شيء لولا هذا الكذب الدينــي او الوطنــي او القومــــي والمذهبي او التعليمي . اننا بدون هذا الايمان لا بد ان نخرج على كــل شيء احد اساليب الخروج .

ان الزعيم او القائد اوالنبي او المعلم الــذي يذهب يتحــدث بكــل الصراخ والافتضاح عن انتصاراته العسكرية او السياسية او المذهبيــة ، او الدينية او الاخلاقية او الدعائية التي لا يتسع لها الكون ولا منطـــق الكون او ضميره او اخلاقه ، بل التي لا يتسع لها او يقدر عليها ذكـــاء الآلهة او قدرتها او دهاؤها

ــ نعم ، ان ذلك الزعيم او القائد او النبي الذي يذهــب يتحــدث كذلك او يكذب بهذا الاسلوب على جماهيره الصابرة الطيبة المطيعـــــة

الشديدة الاخلاص والغباء والولاء ، منتزعا لها هذه الانتصارات المتفوقة على ذكاء الالهة وعلى كرمها ورحمتها وقدرتها وعلى كل تاريخها .

ـ نعم ، انه بذلك يهب جماهيره ويصنع لها أعظم الأشياء ، وانها لتباركه بكل مواهب الطاعة والاستسلام والايمان والشكر والحب والاعتراف فيها . انها لتذهب تهبه وتشكره وتباركه وتصدقه بلا حساب. ان الجماهير لا تصدق او تشكر او تحب بقدر ما يصنع لها او بقدر ما ترى ، بل في الاكثر بقدر ما يقال لها ويكذب عليها .

انه لممكن دائما اخفاء الاكاذيب ، او التقبل او الغفران لها مهما كان افتضاحها وتعريها . أن الناس قد يعجزون عن رؤية الاكاذيب مهما كانت ضخامتها ، او عن استقباحها مهما كانت دمامتها ، او عن رفضها مهما كانت بلادتها ، او عن محاكمتها او محاسبتها مهما كانت ذنوبها ، او عن الاشمئزاز منها مهما كانت وقاحتها . ان الكذب شيء لا يمكن كما لا يراد اكتشافه . واذا اكتشف أو بدا انه قد اكتشف فالامر لا يمكن ان يكون كذلك . ان الذي اكتشف هو ان ارادتنا لا تريد هذا الكذب الذي اكتشف ، او الذي بدا انه قد اكتشف ، ولا تتلاءم معه ، وانما تريد كذبا آخر وتتلاءم مع هذا الكذب الاخر الذي ذهب يطارد ويرفض وينافس ذلك الكذب الذي بدا وكأنه قد اكتشف . ودائما الاكاذيب تتنافى وتتنافس وتتشاتم وتتقاتل ويقتل او يهزم او يطرد بعضها بعضا . لقد كانت كل المجتمعات في كل التاريخ ولا بد ان تستمر تخوض كل المعارك باكاذيبها لمقاتلة الاكاذيب الاخرى .

أن القضية دائما هي ان كذبا يطارد ويهزم كذبا . وليست القضية ان كذبا ما قد اكتشف او انه قد يكتشف ، او انه قد يراد اكتشافه او يستطاع اكتشافه ، او يحاول اكتشافه ، او ان الكذب يكتشف الكذب .

ان الكذب قد يقتل الكذب او ينتصر عليه ولكنه لا يكتشفه كما تقتل الحشرة الحشرة دون ان تكتشفها .

ان ترك اي شيء أو تخطيه ليس اكتشافا له ، او ليس اكتشافا لكذبه ، ولكنه استبدال به ، او قدرة على الاستبدال به ، او ارادة لهذا الاستبدال . ان ترك اله او زعيم او دين او مذهب للانتقال الي آخر ليس اكتشافا بل استبدال والتقال .

انه لا توجد لغة او علامات او شعارات او اخلاق خاصة بالكـــذب واخرى خاصة بالصدق ، كما لا يوجد آلهة او انبياء او زعمـاء او قـادة للصدق واخرون للكذب . انه لا يمكن فهـم هؤلاء او تمييزهم من هؤلاء ، اي لو انهم كانوا موجودين ، اي لو انه كان الصدق آلهة وانبياء وزعمـاء وقادة ، وكان للكذب مثلهم اي نقيضهم مـن الالهة والانبيـاء والقـادة والزعماء . ان الهة وانبياء وزعماء اي مذهـب او ديـن يستطيعـون ان يكونوا الهة وانبياء وزعمـاء الديـن او للمذهب المناقض تحـت الظروف الاخـرى .

اننا مهما عشنا الكذب او عانينا منه فقد نظل نظنه اصدق الصدق. لقد عاشت البشرية اضخم الاكاذيب وكل الاكاذيب ، اطول الدهور وكـل الدهور ، ولا زالت تفعـل ذلك ، دون ان ترفض نفسها أو تنكرهـا أو تنقدها او تكتشفها . ان معاناة الكذب لا تتحول الى نقد له او الى غضب عليه . ولكن هل نكذب او نتقبل الكذب لو تحول الى معاناة ؟ السنا نتقبل الكذب ونكذب هربا من المعاناة ؟

ان كل شيء يكذب هذه الاكاذيب السماوية الخالدة ، ويسخر منها، ويفضح ضعفها ، ويعري بكل قسوة سخفها واستحالتها .

ان اضخم الاكاذيب واكثرها بشاعة وافتضاحا قد تكون هي اقـوى الاكاذيب في كل اسواق التاريخ . لان اضخمها هي اكثرها اغـراء للسوق واستجابة لاحتياجاتها وتوافقا مع اخلاقها وشهواتها .

ان البشر عاجزون عن ان يجدوا او يبصروا حدودا بين ما هو صدق وحقيقة وما هو كذب وباطل . انهم عاجزون عن ان يفهموا الفرق بين لغـة هذا وشعاراته ومذاهبه وزعمائه وانبيائه ، ولغة نقيضه وشعاراته ومذاهبه وزعمائه وانبيائه . ان البشر لم يجتمعوا او يتوقفوا في اي وقت ليسألوا عن الحدود والفروق بين النبي الصادق والنبي الكاذب .

ان هذه الحدود والفروق غير موجودة او غير مفهومة . انها حتمـا غير معروفة وغير مستطاع ان تكون معروفة . ولكن هل هـي موجودة ؟ انها مخاطرة عقلية واخلاقية وانسانية الزعم بأنها موجودة .

ان المعلم او النبي او الزعيم الذي يقتنع بوجود هـذه الفـروق او بمعرفتها ليستحق كل الرثاء .

ولعل حياة الانسان غير محتاجة الى معرفة هذه الحدود والفروق، بل لعل حياته غير محتاجة الى ان تكون هذه الحدود والفروق موجودة .

ولعل منطقه واخلاقه غير محتاجة كذلك الى شيء من ذلك .

لعل مذاهب الانسان واخلاقه وافكاره ونبواتـه غير محتاجة الـى وجود هذه الحدود والفروق ، او الى معرفتها الا بقـدر احتياج غـدده الجنسية الـى ذلك .

لعـل أي شيء في الانســان ليس محتاجا الى وجود هذه الحـدود والفروق والى معرفتها الا بقدر احتياج منطق الحشرات وحياتها واخلاقها ورضاها عن نفسها وعن شرفها وذكائها الى ذلك .

ان الصدق هو واقع الطبيعة ، وان الكذب هو واقع الانسان ــ انه واقعه النفسي والفكري والمثالي والنموذجي والديني والمذهبي والاخلاقي. اي حينما نفترض ان الصدق والكذب شيئان ، او حينما نفترض انه يوجد صدق على اي معنى من معانيه .

اذن فالصدق والكذب كلاهما واقع ، اي حـين افتراضهما شيئين او نقيضين . وحينئذ أليس الانسان احوج الى واقعه من احتياجه الـى واقع الطبيعة ؟ اي أليس الانسان أحوج الى ان يكون انسانا مـن ان يكون طبيعة ، اي أحوج الى أن يكذب والى ان يعيش الكذب ويتعامل به ويتعامه من ان يصدق ويعيش الصدق ويتعامل به ويتعلمـه ؟ ان الانسان يكـون انسانا اي يكون شيئا غير الطبيعة او فوقها او اكثر منها بقدر ما يكذب : بقدر ما يكذب كذبا مذهبيا ودينيا وتعليميا واخلاقيا .

ان الزعيم او القائد او النبي او المعلم الذي يريـد ان يكـون صادقا ويستطيع ان يكون صادقا ويصدق ــ ان مثل هذا الزعيم او القائـد او النبي او المعلم ــ لو وجد ، لو كان ممكنا ان يوجـد ــ لا بـد ان يخسر كل صدقه واغرائه وكل قدرته على الاقناع . انه يصبـح كائنا كريهـــا وثقيلا ودميما وذميما وجلفا وقحا مرفوضا . انه لا بـد ان يحرض على نفسه كره الجماهير ورفضها ومشاعرها الجبانة الانانية بلا ذكاء او وقار . انه لا بد ان يحرض ضد نفسه احتياجات الجماهيـر وتفاؤلها البليـــد الكسول ــ هذه الجماهير التي لا تستطيع ان تعرف الصدق او تحترمه او تريده او تبحث عنه ، او يكون شوقا او املا من اشواقها او آمالها .

ولماذا تريد الجماهير الصدق او تحترمه ؟ ولماذا يصبح احد آمالها او اشواقها او همومها ؟

انه اي الصدق لا يمكن ان ينفع الجماهير او يصلحها او يتلاءم معها او يرضيها عن نفسها ، او عن اربابها وانبيائها وزعمائها وقادتها ، او عن ماضيها او مستقبلها ، او عن آبائها وابنائها ، او عما في مجيئها وبقائها وذهابها من منطق وكبرياء ومجد واهداف عظمى ، ومن تدبير بعيد الاعماق والذكاء والاخلاقية .

انه للعذاب الشامل والقبح الشامل والتشويه الشامل ان تعجز الجماهير عن تصديق الاكاذيب او عن قبول التفاسير الكاذبة لمعنى وجودها . كيف تريد الجماهير الصدق ؟ ولماذا تريده ؟ وماذا يعني الصدق عندها ؟ ماذا يساوي ؟ ولماذا يساوي ؟ وهل يساوي ؟ اعني لو كان ممكنا ان تعرفه او تجده ان الجماهير حينما تقبل الصدق وتقتنع به او لو قبلته واقتنعت به ، لا تفعل ذلك لانه صدق بل لانه يتلاءم معها او لانها لم تجد سواه . ان الصدق لن يكون الا تحريضا للجماهير ضد رضاها عن نفسها وعن آلهتها وعن تاريخها وعن مستقبلها وعن اسلافها وعن انبيائها ومعليمها ، وعن اي شيء من واقعها واحتمالاتها وآمالها وتطلعاتها . ان الصدق يحولها الى حرب ضد كل ذلك . انه يصدمها في تفاؤلها وايمانها وتقبلها واعجابها .. انه يصدمها بنذالة ووحشية . ان التفاؤل أعظم وأنفع في حياة الجماهير ولحياتهم من كل شيء ، من كل الحقائق والمواهب الاخرى.

ان الصدق يرى الجماهير نفسها كما يريها الاشياء بوقاحة وفظاظة وجلافة .

ان الصدق كائن كالح متوقح بذيء عدواني . ان في الصدق كل منطق الهمجية واخلاقها . ان البشر لم يكونوا اغبياء أو مخطئين أو ظالمين او انذالا حينما اجمعوا في كل عصورهم ومجتمعاتهم على مقاومة الصدق وعلى رفض التعامل به او معه .

ان اضعف الزعماء والقادة والمعلمين اخلاقا ، واقساهم ضمائر ونيات، واكثرهم سخفا وبلادة ، واقلهم شهامة وحبا وذكاء ، هم اكثرهم صدقا . ان هؤلاء – اي اكثر الزعماء والقادة والمعلمين صدقا – يتحولون الى اكثر الوحوش والاعداء والاجلاف وحشية وعداوة وجلافة . ان الوحوش والاعداء والاجلاف هم الزعماء والقادة والمعلمون الذين يصدقون او

يريدون الصدق لانفسهم او للاخرين .

ولكن هل وجد في كل تاريخ الانسانية واحد من هؤلاء الوحوش والاعداء والاجلاف ؟ لقد كان هؤلاء يوجدون دائما في كل التاريخ والمجتمعات بالتفاسير الاخرى الكثيرة . ولكن واحدا منهم لم يوجد بهذا التفسير . اي لم يوجد واحد ، واحد فقط يصدق او يريد الصدق لنفسه او للاخرين . لقد كان الزعماء والانبياء والقادة يرفضون دائما ان يكونوا اجلافا او اعداء او وحوشا بهذا التفسير . لقد كانوا عاجزين عن ان يكونوا اجلافا ، او وحوشا او اعداء على هذا المستوى ، لهذا كانوا ابدا عاجزين عن ان يكونوا صادقين .

ان الجماهير لا بد ان تأخذ او ان تؤمل، بل انها لا بد أن تؤمل مهما اخذت . ان التأميل في الجماهير ليس بديل الاخذ او تعويضا عنه . ان التأميل فيها حاجة .

ان التأميل في الجماعات حالة من حالات الجوع . انه سفر روحي. انه شعر وغناء وفن من فنونها . ان الانسان مهما كان بلا اسفار او عاجزا عن الاسفار او ممنوعا منها فلا بد ان يظل مسافرا سفرا واحدا . لا بد ان يظل مسافرا بروحه . لا بد ان يتجاوز بروحه وامانيه .

ان الجماهير لو اسرت الاله وحولته بكل قوته وعبقريته الى مصمم وصانع ومنتج لاحتياجاتها وشهواتها ولجميع شروطها ومطالبها ، لظلت ايضا مؤملة . ان التأميل في حياتها ليس الا اسلوبا من اساليب الهرب من كينونتها والرفض لها مهما كانت صيغها اي صيغ كينونتها .

انها لهذا ابدا مؤملة . انها لا تكون الا كذلك مهما اخذت او أعطيت ، حتى ولو اخذت او أعطيت الاله ليكون اسيرا ومملوكا يصنع لها ما تشاء. ان كل أخذ وعطاء لن يكون شفاء من التأميل .

ان الآمال حتى ولو كانت كاذبة او مستحيلة او شريرة وعدوانية هي انبل وافضل واصدق واشمل واخلد انبياء الانسان . انه لمستحيل ان يعرف بالعلم او بالتفكير او بالاخلاق الفرق بين الآمال الطيبة والمعقولة والآمال الاخرى المضادة .

ان الآمال لا تساوي صدقهـا وكذبها بل تساوي قدرتها على أن تهب الحماس والروعة والنشوة وعجزها عن ذلك .

ان موهبة التأميل هذه في البشر لتصنع وتهيىء دائما افضل واقوى الاحتمالات والفرص لكي توجد وتعيش وتنتصر ابشع واضخم الاكاذيب والبلادات ، واغبى واكذب الزعماء والقادة والمعلمين وسائر المتحدثين عما لا يرى او يوجد . لقد كانت هذه الموهبة هي دائما الدليل او المعجـزة الخارقة الدالة على صدق بنوة الزعماء والانبياء والمعلمين وجميع المدعين، وعلى صدق زعاماتهم وتعاليمهم .

واذا كان من المشكوك فيه ان ترضى الجماهير عمن يعطونها فانـه لمحتوم ولو احيانا ان ترضى عمن يغنون ويخطبون لها بالآمـال الضالة التي لن تصبح عطاء ولا وجودا . نعم ، ولعل الآمال التي لا تصدق ولا تعطي هي اروع الآمال مذاقا وسحرا واطولها بقاء .

ما أجملك واروعك أيتها الآمال الضالة . ما اقسى واتفه الحيـاة والوجود وجميع الاشياء لولاك أيتها الآمال الضالة . الست اقوى وافضل الامال أيتها الامال الضالة ؟ هل يوجد من يستطيعون ان يواجهوا الاشياء او الحياة او انفسهم بدونك ؟ حتى الالهة ، لقد عاشت ومارست نفسها ووجودها تحت رحمتك وفضلك وعزائك وخداعك واغرائك أيتها الآمال الضالة .

لقد عاشت الالهة الآمال الضالة وتعاملت بها اكثر مما عاشها الانسان وأكثر مما تعامل بها .

هل استطاعت الالهة ان تتعزى او تسعد او ان تتحمل كينونتهـا الرهيبة الحزينة الا مؤملة ان يكون الانسان لها وحدها ، بل ان يكون كل المجد والامر والقوة والصلاة لها دون اي ند او منافس آخر ؟ ماذا يبقى للالهة من عزاء او من ثمن او من تعـويض او من اسباب السرور لـولا آمالها الضالة في ان يكون لها وحدها كل الانسان بلا تقسيم ؟

ان ضلالك أيتها الآمال لشدة اغراء فيك . انه اي ضلالك الشديد لمستوى جمال توهبينـه وتهبينه . ان ضـلال الآمال هو اقوى واعظـم

مواهبها ومزاياها . ان ضـلال الآمال لم يكن في اي يوم ضعفا او عيبا أو او عارا فيها او هزيمة لها .

ان الزعماء والقادة والانبياء والمعلمين الاغبياء والمرفوضين والذيـن لا يشتهيهم أحد ليسوا هم الذين لا يهبون الجماهير احتياجاتها أو لا يقودونها اليها ، بل هم الذين لا يغرقونها في الامال الضالة ـ هم الذين لا يستطيعون ان يحولوا احتياجاتهم الى اناشيد واديان ومذاهب وصلوات ونبوات والى كتب مقدسة ، دون ان تستطيع التحول الى واقـع . ماذا يكـون لـو ان الحياة لم تبتكر الامال الضالة ، لو انها لم تهب سوى الامال الصادقة ؟ هـل تستطيع الامال الصـادقة ان تغطي او تخفف قبـح التشوهات او التفاهات التي تغطيها او تخفف قبحها الامال الكاذبة ؟ ان الامال حينمـا تتحول الى واقع تصبح شيئا رديئا أو دميما او صغيرا او شيئا لا سحر ولا اغراء ولا اعجاز ولا جمال ولا اقناع فيه.ان تحول الآمال الى واقع نوع من الهزيمة والفضح والتشويه والهجاء لها.ان صدق الآمال عدوان عليها وتشويه لجمالها.اذن فالامال الضالة الكاذبة التي لا تصدق هي اضخم واشهر هدية يقدمها الانسان الى نفسه .. ان الواعدين الكاذبين ليبدون احيانـا اكثر عزاء وعطاء ومجاملة للجماهير من الواهبين لها ، او مـن الصادقين الفاعلين ، أو من المحولين لامالها المطلقة الضالة الى واقع متحدد متقيـد مفتضح بكونه قد أصبح واقعا ، أو من الذين يهبونها ويحددون ويضيقون أو يضعفون امالها الضالة المنطلقة بلا ناه او زاجر او مروض ، او يحولونهـا الى ارتياب في هذه الامال الضالة المتمردة على جميع حدود وقيود الذكـاء والوقار والترويض . ان اروع وانبل ما في الامال الضالة الكاذبة انها بـلا قيود من الذكاء أو الوقار .. ان الفردوس الذي نوعد به ولا نجده أو قبل ان نجده لا بد أن يكون اكثر سحرا وجمالا من الفردوس الذي نوعد بـه ونجده او بعد أن نجده .ان دخولك الجنة التي يعدك بها انبياؤك ومعلموك لهو اعظم عدوان عليك وعليها . ما اعظم الهك الذي لن تراه ونبيك الذي لم تستمع اليه أو تلقـه .

ان الجماهير قد تحس في اوقات جوعها وعجزها وبتجاربها الحزينة الاليمة ان الواقع الموجود او المنتظر بكل حدوده ومستوياته واحتمالاتـه الطبيعية ـ أي قد تدرك ان الصدق بكل اشواطه وطاقاته عذاب لا يطاق ،

ودمامة لا يستطاع التحديق فيها ، وتفاهة لا تحمل شيئا مـن الاثارة أو العزاء ، وضآلة لا تتراكض فيها الامال . وحينئذ لا بد ان تفزع الى الكذب والى الكاذبين لتنجو من عـذاب الصدق ودمامته وتفاهته وضآلته ومن بروده وخموده وخموله ومن كل فنون الكآبات فيه .

ما أبشع كآبات الصدق وضآلاته ودمامته. ما أقبح طلعته ان لم يستتر بالزور ، بالاكاذيب الضخمة المنوعة .

ان الجماهير حينئذ لا بد ان تفزع الى الكذابين الذين يخدعونها بلا اي قيد او اشتراط او اية وصاية من الذكاء او الحيـاء او الاخـلاق او التقوى او المحاسبة او الاحترام للنفس او الخوف من التجهيل او التأثيم. نعم ، ان هؤلاء الكذابين يجيئون كنجـدة واغاثـة مهمـا جاءوا كاعـداء وكعدوان ولصوص .

انها حينئذ قد تجد كل عزائهـا في هؤلاء الذيـن يجيئون متعاقبـين عليها ، بل متواصين عليها ، ليعاموها الاكاذيب الدينية والمذهبية والقومية والتاريخية والوطنية والاخلاقية والاكاذيب من كل نوع وتحت أي اسـم . وانها حينئذ لن تتسامح في تشريد او صلب كل من قد يجيئون ليصححوا لها كذابيهـا هؤلاء او ليضعفوا من الحمـاس لاكاذيبهم . هـل تعـادي المجتمعات احدا مثل معاداتها لمن يحاولون ان يصححوا او يفسروا لهـا بصدق انبياءها ومعليمها الخالدين ؟

ان الناس لا يكذبون او يريدون الكذب لانهم أغبياء او اشرار يريدون ايذاء الاخـرين ، او افساد ذكائهم ، أو خـديعتهم ، أو يريدون تهديـم العلاقات الطيبة بين الشيطان وصديقه الانسان ، او بين الاله وانبيائه او بين السلطان ورعاياه . ولكنهم يفعلون ذلك او يريدون ذلـك او يتقبلونـه لانهم يحاولون الهرب من شيء ، او امتـلاك او بلـوغ شـيء ، او لانهـم يكرهون شيئا او يخافون شيئا .

هل يمكن ان يكذب من لا يكون محكوما بشـيء من ذلك . ان الكذب ليس موهبة او شهوة ذاتية بل تعبير عن تصادم .

ان الكذب ليس هو الاخبار بغير الواقع كما يقول الانبياء والمعلمـون والمدرسون والواعظون . ان هـذا هو الكذب في منطـق الحشرة وسلوكها واحاسيسها . ان هذا هو الكذب في اخلاق الطبيعة واخلاق الاشياء .

لقد كان هؤلاء يعرفون الكذب ويفسرونه بمنطق ليس منطق الإنسان وباخلاق ليست اخلاقه ..

ولكن الكذب هو الاخبار عن الواقع او عما في النفس تحت ظروف غير ملائمة . ان الكذب هو الاخبار عن الواقع باسلوب محتج ناقد رافض.

ان الكذب ليس هو الاخبار بغير الواقع كما تقول التعاليم ، وانما الكذب في جميع تفاسيره هو الرفض للواقع ، والاحتجاج عليه ، والنقد له، والخجل او الاشمئزاز منه . ان الكذب هو الاسلوب الاليم الحزين لرفض الواقع وللاحتجاج عليه وللخجل والاشمئزاز والهرب والغضب منه .

ان الاخبار بغير الواقع لا يعني أو لا يساوي الا الرفض او الاحتجاج او النقد او الخجل والاشمئزاز من ذلك الواقع او من ذلك الواقع ومن كل واقع آخر . ان الاخبار بغير الواقع ليس اخبارا بغير الواقع وانما هو اعلان التناقض مع ذلك الواقع .

ان الكاذب مهما حكمنا عليه وضده يستحق منا الرثاء ، واحيانا يستحق الاعجاب ، اكثر مما يستحق ذلك الصادق . ان الكاذب ليس الا انسانا يقول : انا لا اطيق هذا الواقع ، لا اطيق رؤيته ولا الصبر عليه بل ولا التصديق بوجوده بل ولا الحديث عنه كما هو ، كما اراه واعلمه .

ان الملوم ان كان يوجد من يستحق الملام ليس هو الكاذب ، بل هو الكون ، بل هو الكون الذي جاء ويجيء مناقضا صادما للانسان ، خارجا بلا اي قدر من التهذيب او الشهامة على جميع نماذجه ومستوياته الفكرية والنفسية والاخلاقية والمذهبية والدينية . انه حينما يكذب ليس الا مدافعا عن نماذجه ومستوياته هذه . انه ليس الا غاضبا لها ، رافضا الخروج عليها ، او رافضا الخروج عليها دون بكاء او مقاومة ، أو معلنا أن خروجه عليها ليس الا خروجا مكرها عليه محكوما به من الخارج .

ان الكذب ليس الا اسلوبا من اساليب البكاء والانين والتمزق والصراخ من هول المشاهدة والممارسة والافتضاح . انه نوع من اعلان التمرد والعصيان باسلوب ما .

ولكن الكون نفسه اليس أيضا يستحق الرثاء لانه قد جاء ويجيء دائما مناقضا ومصادما لنفسه وللانسان ولجميع الكائنات التي تعيش

فيه وتتعامل معه ، ولانه قد جاء ويجيء محكوما عليه كما جاء وكما يجيء دون ان يستشار او يختار — لانه قد جاء ويجيء محكوما عليه بمجيئه وبمصيره وبجميع نماذجه ومستوياته واخلاقه ؟ اليست الحشرة التي تجوع فتأكل الحشرة الاخرى تستحق ارثاء الذي تستحقه الحشرة المأكولة ؟ اليس الحجر الساقط محكوما بسقوطه مثلما الحجر الآخر محكوم بالسقوط عليه ؟

ان جميع التعاليم والفنون والاداب والاخلاق في جميع مستوياتها وتحت جميع ظروفها واسبابها وتفاسيرها ليست الا اساليب والوانا مختلفة من اساليب والوان الكذب ، لانها جميعا ليست سوى تعبيرات عن الانسان وعن همومه وآلامه واحتياجاته تحت ظروف غير ملائمة . انها ليست سوى الانسان واقعا تحت ظروف مناقضة له ، معبرا عن هذه الظروف باسلوب ما .

ان هذا هو الكذب في كل معانيه وتفاسيره واساليبه .

هل يمكن ان يكذب الانسان ،او هل محتوم ان يكذب لو كان وحده بلا آخرين ؟

ان المفروض ان الجواب لا بد ان يكون : كلا ، انه لن يكذب حينئذ. ولكني اظنه قد يكذب او لا بد ان يكذب باسلوب ما ، على نفسه او تحت حافز ما او ضرورة ما . انه حينئذ قد يتوهم وجود كائن آخر لكي يكذب به او يكذب عليه او يتعامل معه بالكذب .

ان الكذب — كما قد فسر — ليس سببه فقط هو التناقض مع الاخرين ، او الاستفظاع والرفض لما يعانون ويواجهون ويمارسون . ان السبب الاكبر والأقوى للكذب هو التناقض والتصادم مع الكون وبه ، والاستنكار والاستقباح لاخلاقه ومنطقه وتفاسيره . ان سبب الكذب هو التناقض والاستقباح . وهل يمكن ان يكذب الانسان لو جاء متناقضا متصادما دون ان يكون مستقبحا مستنكرا رافضا ؟

وهل التناقض والتصادم بالاخرين الا تعبير عن التناقض والتصادم بالكون ؟ حتى التناقض او التصادم الفكري او الاخلاقي بالاخرين هل يكون لولا التناقض والتصادم بالكون ؟

اليست كل اخطاء الانسان وآلامه ونقائصه هي التعبير الحاد او

التعبير الانساني عن اخطاء الكون وعن آلامه ونقائصه ، او عن عنف املاء الكون على الانسان ؟ هل يمكن ان يكون الكذب الا تعبيرا عن املاء ما ؟ وهل يوجد أي املاء خارج املاء الكون ؟ وهل يوجد اي كائن الا وهو بكل نماذجه واخلاقه أحد صيغ الاملاء الكوني ؟

لقد احتاج الناس مجتمعين الى ان يكذبوا على انفسهم ، او لانفسهم ، أو ضد انفسهم وكأنهم كائن واحد يكذب لنفسه أو على نفسه او ضد نفسه امام الاخرين او في تعامله مع الاخرين او لخداع الاخرين او لارضائهم .

لقد كانوا يفعلون ذلك لانهم كانوا يواجهون جميعا الكون متناقضين معه . انهم لم يكذبوا دائما كأفراد متناقضين او متنافسين او متحاربين، بل لقد كذبوا أيضا كفرد واحد يناقض أو ينافس او يقاتل كائنات اخرى او كائنا آخر .

ان البشر يقاتل ويخاف بعضهم بعضا ، ويقاتلون ويخافون ايضا مجتمعين . وبنفس الاسلوبين ايضا يكذبون .

انه لا يكذب بعضهم على بعض فقط ، بل ويكذبون مجتمعين على انفسهم في مواجهتهم للكون المواجه لهم بتحد وعدوان ووقاحة وعجز دائم وكامل عن التفاهم والتوافق بل حتى عن التهادن معه . ان البشر اذن يواجهون ويمارسون نوعين من الكذب : كذب بعضهم على بعض ، وكذبهم مجتمعين على أنفسهم او لانفسهم في مواجهتهم للكون المتحدي المناقض لهم . انه اذن لو وجد انسان واحد بدون أي آخرين او احتمال آخرين لجاء هذا الانسان الواحد ، ولظل ايضا متناقضا مع الكون كل اساليب ومستويات وتعبيرات التناقض . ولكان محتوما حينئذ ان يحتاج الى الكذب على نفسه ، لكي يقاوم او يخفف او يغطي او يغالط او ينافق هذا التناقض بينه وبين الطبيعة التي تناقضه وتخاصمه وتخرج عليه وتسخر منه وتقاتله اقوى وافظع واكثر لؤما مما يفعل جميع الاخرين ، بل جميع الأعداء . لعله حينئذ يذهب يتصور آخرين حوله ليكذب عليهم ويكذبوا عليه ويكذب معهم ويكذب بهم .

نعم ، ان كذب هذا الانسان الواحد سيكون حينئذ بلا لغة او بلغة اخرى . ان الكذب ليس لغة ولكن اللغة هي احدى صيغ الاعلان عنه .

أن اللغة هي آخر وأضعف أساليب الاعلان عن الكذب . بل أن الكذب باللغة قد يكون اسلوبا من اساليب مقاومة الكذب وابطاله . لان الكذب باللغة اسلوب من اساليب الفضح للكذب ، والتشويه له ، والدعاية ضده، والاخبار عنه .

ان الكذب باللغة اسلوب من اساليب التحدث عن الخطة الشريرة المدبرة . ان الكاذبين جدا لا يكذبون باللغة ، وان الكاذبين باللغة ليسوا كاذبين جدا .

ان من كذب باللغة فقد طعن كذبه بالخطة او بالتدبير او بالنية او بالواقع .

ان الذي يكذب باللغة هو انسان يقاوم كذبه باسلوب من اساليب المقاومة وان لم يكن يدري او يريد .

ان الطبيعة بلا لغة هي اكذب الكاذبين ، بل هي كل الكاذبين ، وصانعة جميع الكاذبين ، ومعلمتهم جميعا ، بل وآمرتهم وملزمتهم . ان الطبيعة تصنع في الناس ولهم الكذب بالاسلوب والالزام اللذين تصنع بهما لهم وفيهم المخاوف والهموم والمجاعات والرؤية والسمع والمرض والموت والشيخوخة .. ان اضعف واسذج واطيب الكاذبين هم الكاذبون باللغة . ان هؤلاء في التفسير للاشياء ، وفي منطق ونيات الاشياء ، ليسوا كاذبين ، ولكنهم مقاومون للكذب ، او رافضون له ، أو محتجون عليه ، او واقعون في قبضته ، محكومون به .

ان هؤلاء مكذوب بهم انهم مجعولون كذبا وموقع بهم الكذب . انهم توقيع الكذب لا موقعوه .

ومع ان الطبيعة عاجزة عن ان تكذب كذبا دينيا او مذهبيا او اخلاقيا او قوميا او وطنيا او سياسيا كما يكذب الزعماء والانبياء والمعلمون والسياسيون وكل البشر فانها اي الطبيعة هي كل الكذب ، وكل من يعلمه ويحرض عليه ويأمر به ويجعله التزاما ، بل يجعله منطقا عالميا ، بل اخلاقا عالمية .

ان كل الفنون والاداب والتعاليم والاديان والنظريات هي دائما بحث بوسيلة ما عن حالة او عن مستوى ما من مستويات الجمال او الكمال

او التلاؤم المفقود المطلوب مع اشياء لا يمكن التلاؤم معهـا ، ولا يمكـن أن تكون جميلة او كاملة . والكذب ايضا هو بحث عـن ذلـك ، هو بحـث باسلوب ما عن تلاؤم او عن جمال او كمال لا وجود له . أليس الكذب في كل حالاته رفضا لما وجد ، وبحثا عما لم يوجـد ، او ادعـاء لذلـك ، او تظاهرا به او تمنيا له ، او تحويله الى امنية ؟ اليس الكذب هو دائمـا محاولة فرار مما لا يراد او ينبغي او يطاق ؟ انه لهذا قد يكون اكـذب الناس هو اكثرهم واقواهم بحثا عن هذه الحالة او عن هـذا المستوى من حالات او من مستويات الجمال او الكمال او التلاؤم المفقـود المطلـوب ، واكثرهم واقواهم احتياجا الى ذلك واحساسا به وبفقده . كما قد يكـون أي اكذب الناس هو اقواهم واكثرهم استقباحا ورفضا للنقائض والتنافر والدمامات ، واحتجاجا عليهـا ، واشمئزازا منهـا واحساسا بقبحهـا ووقاحتها وبتحديها له ولكل نماذجه ومستوياته وتطلعاته .

اذن قد يكون اكذب الناس هو اتقى الناس وانبلهم نفسا ومنطقا ونية وشوقا ورفضا للدمامات .

ان الكاذب هو كائن يريد ثم لا يستطيع ، ويرى ما يرفض او ينكر ، ثم لا يستطيع ان يزيل او يقاوم او يغير ويبدل . وحينئذ ماذا يصنع ؟ انه لا يستطيع ان يتقبل او يغفـر او ينسى او يعمـى عن الرؤيـة ، كمـا لا يستطيع ان يقهر . انها ورطة . فكيف يواجهها ؟

الصدق وقاحة وعدوان وتشويه ويأس وجحيـم وقيد وعبوديـة وتحديد . اما الكذب فأدب وتهذيب ورحمـة وشعـر واحتلام وخيـال واطلاق وانطلاق وحرية وجمال واختيار .. وان لم يكن الكذب كذلـك فانه على كل حال فرار او محاولة فرار من الوقاحة والقسوة والتشويه والجحيم والقيد والعبودية والبذاءة ولو بالكلام والتعبير .

أليس محتوما ، او أليس الأفضل حينئذ أن يكون كاذبا لا صادقا ؟ اذن أليس الذي يحاول ان يكذب هـو انسان يحاول ان يكـون متحضرا وطيبـا ، وان الذي يحـاول ان يصـدق هـو انسان يحـاول ان يكـون همجيا شريـرا ؟

ان الكاذب كالمخترع او المكتشف او العالم كلاهما يرفض ويتجاوز ولكن باسلوبين مختلفين .

ان الكاذب هو انسان يتحدث عما يريد ويتمنى ويحب وعما يشترط للاشياء وعلى الاشياء ولنفسه وعلى نفسه .. انه لا يتحدث عما يجد او يرى او يعلم او يكون . ان الكاذب يتحدث عما في نفسه اي عن واقع في نفسه او عن واقع نفسه . انه حينما يقول : هذا الشيء موجود، وهو غير موجود ، او يقول : هذا الشيء جميل ، وهو دميم ، فانه يريد في الحالتين أن يقول : اتمنى ان يكون ذلك الشيء كذلك ، او اشتهي او اريد أن التحدث عنه بانه كذلك . انه حينما يتحدث عن نفسه لا عن الواقع الذي يراه او يعلمه او يجده . انك حينما تكذب لانسان او على انسان لا يمكن ان تكون معزولا عما في نفسه . اذن فهل انت كاذب؟ حتى سامعك ، انه يعرف انك تتحدث عما في نفسك لا عن واقع خارجها . ان اي انسان لا يستطيع ان يتحدث عن غير واقع وعن غير حالة نفسية ان اي حديث لا بد ان يكون تعبيرا عن واقع ما بأسلوب ما ، او ان يكون تعبيرا ما عن حالة ما نفسية باسلوب ما . ان كل حديث لا بد أن يكون عن واقع ما اما داخل النفس وخارجها ، واما داخلها فقط . اذن كيف يمكن ان يكون اي حديث كذبا ؟

ان الكاذب اذن ليس كاذبا مهما كان ما يتحدث عنه غير واقع في الخارج ، لانه حتما لا بد ان يكون حينئذ واقعا في الداخل اي في داخل النفس . ان من قال للدمامة او مشيرا الى الدمامة : هذا جمال فهو حتما يعني انفي نفسه شيئا اي رفضا او احتجاجا او استبشاعا او خوفا او تمنيا او محاولة ما .

ايها الكاذب .. كم انت خليق بالرثاء والاحترام . كم يستحق موقفك ونياتك من التمجيد والعطف الصادق . انك اسلوب فداء وعزاء . انك صيغة مثيرة من صيغ الطموح . انك انسان يعشق نجما عاليا . انك تعشق نجما لا تستطيع الصعود اليه ، وحينئذ تحاول الصعود اليه بالمغازلة والتمني ، وبالنظر وبالاعجاب .

ان الكذب مغازلة للاشياء البعيدة او غير الموجودة بالاماني والتحديق وبالحب المتلهف المصدوم .

انك ايها الكاذب كائن يضع شروطا للاشياء ولنفسه ، وعلى الاشياء وعلى نفسه . انك لا تتقبل الاشياء أو تتقبل نفسك كما هي بل بشروط . وانت لا تجد هذه الشروط . وحينئذ لا بد تصبح الكائن الذي ندعوه

كاذبا لانك تحاول ان تفترض او ان تدعي او ان تجد شروطا لما لا شـروط فيه أو له .

ان من لا يشترط اية شروط لنفسه او للاشياء او للاخرين لا يمكن ان يكذب او ان يحتاج الى الكذب .

انك تحاول ان ترضى عن نفسك وعن الاشياء وعـن الاخرين ، وان ترضـي نفسك وترضي الاشياء وترضي الآخرين . فـلا تجد هنا الـذي تحاول او تريد .. لا تجد ما ترضاه او ما ترضي عنه او ما ترضي به من تريد ارضاءهم . وانك وهاب لا يجد ما يهبه ، ونبي لا يجـد الاله الـذي يرضى عنه ليقدمه الى السوق .

انك حينئذ تذهب تقول حيث لا تستطيع ان تفعل او ان تجد . انك حينئذ تذهب تتعذب لتجد هذا الرضا او هذا الارضاء بالتعذيب والمعاناة.

انك تتعذب عذابا نبيلا . انك تتعذب عذابا لا يتعذبه سوى الانسان. انه عذاب الانسان الاسمى .

انك تذهب تقول ما يرضي او ما يراد او ما يجب او ما هـو الافضل او الأتقى او الاذكى او الاعدل ، حيث لا تستطيع ان تفعـل ذلـك او ان تجـــده .

انك حينئذ تذهب تتحدث عن الشروط التي تتمناها لا عن الشروط التي تجدها او تحياها . انك الكائن الـذي يريد للاشياء وللنـاس مـن الشروط الجيدة ما لم ترد لهم او لها الالهة او الطبيعة ، ويرفض لهـم ولها من السوء ما لم ترفض لهم او لها الالهة او الطبيعة .

انك حينئذ انسان نصفه كامل بدل ان تكون انسانا كله رديء. انك حينئذ انسان لغته ونياته وتمنياته فاضلة ومهذبة وملائمة ، بينما حقيقته رديئة ، او بينما الحقيقة الموجـودة رديئة ، بدل ان تكون انسانا لغتـه ونياته وتمنياته غير مهذبة وغير فاضلة ولا ملائمة ، بينما حقيقته رديئـة ، او بينما الحقيقة الموجودة كذلك ايضا رديئة .

انك حينئذ كائن شروطه جيدة بينما واقعه وقدرته غير ذلك بـدل ان يكون واقعه وشروطه غير ذلك .

انك حينئذ تتحول الى اعتذار ، او الى استغفار ، او الـى تخفيف

من القبح الذي لا تستطيع ازالته ، او لا يستطيع احد ازالته . انك تحاول ان تكون ذلك . انك تحاول ان تكون كفارة عن ذنوب الالهة وعن ذنوب الطبيعة وعن ذنوب الانسان .

ان الشيء الرديء او الذميم او المنكر ليس هو الكذب او الكاذب ، بل هو الذي يجعل الكذب ضرورة او مزية او مجدا او انتصارا او تفوقا او نجاة — او يجعله زعامة او نبوة او دينا او أخلاقا وتقوى . ان الذنب ليس هو ان تنكر او تشمئز او تستقبح ، ولكن الذنب هو ان يوجد ما يصنع الانكار والاستقباح والاشمئزاز .

انك حينما تقول عن الدمامة او الظلم انهما جمال وعدل فالسوء او فالذنب في ذلك هو وجود الدمامة والظلم ، ووجود الظروف التي اوجدتهما ، وايضا وجود الظروف التي جعلتك تقول ذلك ، او حكمت عليك بقوله ، او جعلتك تستفيد من قوله ، او تستريح او تأمن به اي بقوله . ولا يمكن ان يكون السوء او الذنب في قوله . انك حينما تقول انا خائف اوجبان او منافق او ضعيف وانت كذلك فان ذنبك ان كان لك ذنب لن يكون في قولك بل في كونك كذلك او فيمن جعلك كذلك او في الظروف والطبيعة التي جعلتك كذلك .

ان الزعيم او النبي او المعلم الذي يكذب تحت الظروف التي جعلته يفعل ذلك نرثي له ونقاومه ، كما نرثي للحيوان المفترس وللحشرة السامة البذيئة مع مقاومتنا لهما — أعني لو كنا نقاوم او نرفض الكذب او الكاذب .

ان الزعيم او النبي او المعلم الذي يكذب تحت ظروف الكذب ليس الا كالذي يبكي تحت ظروف البكاء .

ان الظروف او الحوافز او الاسباب التي تجعل مصدق الكذب يصدقه ليست انبل او اتقى او اذكى من الظروف او الاسباب او الحوافز التي تجعل قائل الكذب يقوله .

ايهما الكاذب ، او ايهما اكثر كذبا : الذي يكذب ام الذي يصدقه .

ايهما اكثر خديعة للاخر وعدوانا عليه ؟ ايهما اكثر فجورا وجريرة ؟
ايهما الكاذب او المذنب : الوجه الدميم ام الذي يقول عن هذا الوجه : انه جميل ، رحمة او مجاملة او تحرجا او تمنيا ؟ وهل اذنب او

كذب واحـد منهما ؟

ايهما الخاسر او المتعذب او المتشوه اكثر : النبي او الزعيم الـذي يكذب للمجتمع وعليه ام المجتمع الذي يستقبل ذلك ويرحب به ويهتف له، بل ويحتاج اليه ويحيا به ؟

أيهمـا اكثر برا بالاخر واحسانا اليه واعطاء لـه ؟ أيهما اكثر دعـوة للاخر ؟ ايهما النبي او الزعيم ؟ ايهما التابع ؟

ايهما الملقي للخطبة : الصاعد فوق المنبر يلهث ويعرق ويكذب ويهرج ويتشوه ام الجالسون تحته ، يوحون اليه بالمزيد من الكذب والتهريـج واللهاث والتشوه والغواية والسقوط والافتضاح .. يهتفون ويصـلون ويصرخون ويبكون ويطالبون ويجنون اعجابا وحبا وايمانا وشكرا وثناء ؟

أيهما اكثر افسادا للاخر : تعاليم النبي او الزعيم او الخطيب واكاذيبه ام ايمان الجماهير وهتافها وضعفها وبلادتها ؟ أليس المستمع الى القصيدة المنافقة والجازي عليها مشاركا في صنعها او هو صانعها ؟ أليس متقبل المديح هو الخالق لاخلاق المادح والمفسد له ؟

هل الجماهير ماكرة ام بليدة ؟ هل هي مخدوعة ام خادعة ؟ هـل آمنت واتبعت بلادة وانخداعا ام خبثا ونفعية ؟ هـل يوجد هنا خبـث او خداع او بلادة ؟

هل هي ضحية أم قاتلة ؟ هل هي صانعة الكذب ام واقعة فيه ؟

أيهما العاشق للاخر: السوط أم الظهر ؟ أيهما الداعـي وايهمـا المستجيب : الجسم ام المرض ؟

هل الكذب غواية ام ضرورة ؟ هل هو عدوان وذنب ودمامة وسقوط ام هو مقاومة او مواجهة للعدوان وللدمامات وللذنوب وللسقوط ؟

هل الكذب هجوم ام دفاع ؟ هل هو فجور ام تقوى ؟ هل هو تمجيد للاله او للسلطان ام هجاء له ؟

وهل يوجد صدق وكذب ، ام يوجد واقع لئيم كريه يشتبك معـه وضده المواجهون له والمحكوم عليهم به بكل اساليب الاشتباك المختلفـة المتناقضة ، وبكل الاسلحة التي قد يسمى بعضها صدقا وقد يسمـى بعضهـا كذبا ؟

أليس الاختلاف بين ما يدعى صدقا وما يدعى كذبا لا يساوي اكثر من الاختلاف بين سلاح وسلاح ، او بين اسلوب قتال واسلوب آخر في معركة واحدة او في معارك مختلفة ومتعددة ؟

أليس الصادق والكاذب ، او من يحسب صادقا ومن يحسب كاذبا — أليسا يقاتلان في معركة واحدة ، بنية واحدة ، ضد عدو واحد ، لاهداف واحدة ، بسلاحين مختلفين ، او يبدوان مختلفين ، او يظنان كذلك ؟ أليس الصادق والكاذب كلاهما صادق او كلاهما كاذب او كلاهما صادق وكاذب او كلاهما لا صادق ولا كاذب او صادق وكاذب ؟

★

اجل . ان في الكذب كل معاني الدفاع عن الاله بقدر ما فيه من معاني الدفاع عن السلطان او عن الوجه الدميم ، او فيه اي في الكذب كل نيات هذا الدفاع ، او محاولاته ، او صيغه واساليبه ونتائجه وتفاسيره ، وهل يوجد كائن يحتاج الى ان يدافع والى ان يعتذر عنه مثل الاله ؟ ولكن هل يمكن ان يجدي او يقبل اي دفاع او اعتذار عنه ؟

ان الكاذب قد يكون انسانا يحاول ان يغفر للاله ، او يستغفر له ، او ان يستر عليه ، او ان يرفق به . انه حينما يكذب قد يقصد ، او قد يعني ذلك دون أن يقصد التغطية على ما في منطق الاله وعلى ما في اخلاقه وفنونه وشهواته واعماله من ضعف واخطاء وعبث ودمامات وقسوة .

وهل الكاذب حينما يكذب لهذا الفرض يقصد ان يرحم الاله ويرفق به ام ان يرحم نفسه ويرفق بها بالقسوة على الاله ؟

وكم هي صعبة ، او كم هي مستحيلة الانتصار هذه المحاولة — محاولة التغطية على وجه الاله ، او على يديه ، او على ضميره ، او على اخلاقه ، أو على بصماته .. كم هي صعبة أو كم هي مستحيلة الاقناع هذه المحاولة ؟

لعل التفسير الكامل لقضية الكذب : ان الانسان قد رأى الله ، رآه في الأشياء ، فوجده شيئا لا يطاق رؤية او تفسيرا او اخلاقا او منطقا او موهبة . وجده شيئا لايطاق لجسامة وشمول ذنوبه وعاهاته ودماماته ، فذهب يكذب له . لقد ذهب يكذب للاله ليجعله شيئا يطاق . لقد ذهب يستغفر ويغفر للاله . ذهب يرفق به ويستر عليه ، بأن يدعى الجمال

والكمال والذكاء والرحمة والمنطق والضخامة والحب والصدق والتدبير والتفاؤل حيث لا شيء من ذلك . كما ذهب ينفي وجود النقيض حيث يوجد كل هذا النقيض . لقد ذهب يفعل ذلك لكي يستطيع ان يرى الاله جميلا لكي يستطيع ان يرى الآلام والتشوهات والمظالم التي يوقعها به جميلة بل رحيمة بل ذكية بل عبقرية .

الست حينما تقول : الكون جميل او منطقي او رحيم او صديق ، تدافع عن الاله ، وتغفر وتستغفر له وتستر عليه ، اذا كنت تؤمن به — او تدافع عن الطبيعة ، وتغفر وتستغفر لها وتستر عليها ، اذا كنت تؤمن بها ؟ لقد كان الانسان في كل التاريخ قصة دفاع شامل عن الارباب والسلاطين والآباء والأديان والمذاهب .. عن كل الدمامات والتشوهات والالام والنقائض ..

ان في الكذب اذن كل معاني المحاباة للاله ، كما ان في الصدق كل معاني الهجوم والقسوة عليه . انها كالمحاباة للابناء حينما يمدحون او يوصفون بنقيض ما فيهم . انها كالمحاباة للسلطان . وهل كان الاله بهذه المحاباة يحابى ام يحقر ويهان ويشوه ويظلم ؟ هل كان يحابى ام يحابى عليه ؟

هل يمكن ان يطاق الاله او ان يغفر له مع الصدق ؟

هل يمكن ان يطاق اي شيء او ان يغفر له لولا الكذب — لولا الكذب بكل انواعه ؟

وهل استطاع الكذب ان يصوغ اي جمال في وجوه الدمامات الشاملة ؟

كل هذا السلاح لقتل الشيطان

« .. ان المواهب الانسانية لا ترحم دموع الالهة . انها لا تتخلى عن تفجراتها وتحليقاتها اشفاقا على ضعف الالهة او رثاء لاحزانها او استجابة لمسراتها . ان دموع الالهة لا تجد من يرثى لها . انها اضيع دموع في هذا الكون . ان هزائم ومصارع الآلهة هي اعظم ما يهب العقول المتفجرة المتحدية المقاتلة النشوة والسرور والرغبة في المزيد من التفجر والتحدي والقتال . ان المواهب لا تحترم او تهاب شيئا غير قدرتها على ان تكون او لاتكون . انها فقط تستطيع او لا تستطيع . ان هذا هو كل تاريخها وكل اخلاقها ..

« .. ان المواهب الميتة هي ميتة وليست مقتولة . ان الآلهة لم تقتلها ولا تستطيع قتلها ، وان اي شيء لا يستطيع قتلها . ان المواهب الميتة هي مواهب لم توجد . انها لم تمت ولم تقتل بل لم توجد . ان المواهب اما موجودة واما غير موجودة . انها ليست مقتولة او غير مقتولة ، وليست مأذونا لها أو ممنوعة . ان الالهة هي أضعف أعداء الانسان . انها لم تستطع ان تصيبه في كل تاريخها وتاريخه بأي ضرر أو ألم . انها عاجزة عن ذلك . انها أعجز أعدائه . انها في كل تاريخه وتاريخها لم تستطع ان تفعل له أو به افضل أو اردأ من ان تتحول الى تفاسير وتسويغات وشعارات لما يريد ويستطيع ويكون أو لما لا يريد ولا يستطيع ولا يكون . انها لم تعطه ولم تأخذ منه غير ان فسر نفسه بها . ان كل احاديثه عن الالهة ورؤاه وتفاسيره لها ليست الا تفاسير لنفسه ، لما تريد أو لما ترفض .

« .. ان كل عبقرية الالهة ، كل ذنوبها وحسناتها ان تصبح متهمة .. ان تتحول الى تفاسير وتسويغات وشعارات دون ان تريد أو تدري ، ودون ان تقبل او ترفض ، أن تحزن او تسر ، ودون ان تقاتل لتهزم

الظلم والعدوان عليها والكذب باسمها والاتهام لها .. »

« .. ان الآلهة والاديان هي انبل اعداء الانسان لانها اضعف اعدائه .. »

★ ★

انه مستحيل ان نستعيد الماضي بكل رذائله ومزاياه ، او بكل قوته وضعفه ، او بكل آلهته وطغاته وابالسته ومعليمه ، او بكل غفلته واستقامته غير التقية او الذكية . بل انه لمستحيل ان نستعيد اي شيء من الماضي بكل صفاته ، او بكل حماسه ومعانيه ، او بكل قوته او بكل ضعفه ، او بكل ذكائه ، او بكل غبائه ، او بكل سحره وغواياته .

انه لمستحيل ان نستطيع ذلك مهما حاولنا واردنا ورغبنا واشتقنا وصدقنا واخلصنا .. ان ذلك ليستحيل مثلما يستحيل ان يستعيد الاله تفاؤله او وقاره او براءته او اخلاقه او قواه او اشواقه او مجده او انتصاراته القديمة ، او ان يستعيد شيئا من سلطانه الذي قد كان او الذي كان الحديث عنه ، دون ان يكون الحديث عنه جادا او صدقا .

— او مثلما يستحيل ان يستعيد الاله تصديقه القديم لمن يتحدثون عنه واليه وباسمه ، او يستعيد اعجابه وسروره بمن يصلون له ويقرؤون عليه وبين يديه كلماته وآياته ، او بمن يتعلمون ويحفظون اوامره ونواهيه وتحليله وتحريمه وتمنياته وشهواته واناشيده لاحزانه .

— او مثلما يستحيل ان تستعيد الطبيعة بداوتها وبراءتها القديمتين . او ان تتساوى حياتان اختلفت ظروفهما ، او ان يتساوى انسانان اختلفت ذاتاهما ، او ان تتساوى ذاتان مهما تساوت ظروفهما الخارجية ، او ان تتساوى ظروفهما مهما توحد زمانهما او تساوى ، او ان تتساوى عينان في تحديقهما الى الشمس او في رؤيتهما لما في ذاتها واخلاقها وذكائها من غباء ومن ذنوب وعاهات .

— أو مثلما يستحيل ان تكون مشاعرنا واستعداداتنا واستجاباتنا واهواؤنا وافكارنا وظروفنا الذاتية والخارجية ثابتة ومتساوية مع حركة

وتغير وتناقض وتبدل الكون والحياة والمجتمع الذي نحن اجزاء واشياء منه ومن صنعه ــ بل مع حركة وتغير وتناقض وتبدل ذواتنا وحياتنا ووجودنا . وهل يمكن ان يتبدل ويتناقض الكائن دون ان تتبدل كينوناته؟

ــ او مثلما يستحيل ان تتساوى آلهة الناس المختلفين ، او ان تتساوى اديانهم او مذاهبهم او افكارهم ، او ان تتساوى تفاسيرهم ورؤاهم لالهتهم ولمذاهبهم ولاديانهم ولمرئياتهم ، اي حينما نفترضهم هم مختلفين . او ان تتساوى احاسيس هؤلاء الناس المختلفين ، او ان تتساوى امانيهم او مخاوفهم او احقادهم او همومهم او ذنوبهم واخطاؤهم . هل يمكن ان تتساوى رؤى الأقوياء والضعفاء ؟

ــ او مثلما يستحيل ان يكون لالهك صورة واحدة او إرادة واحدة او اخلاق واحدة او شهوة واحدة او تفسير واحد في كل حياتك وحالاتك ومستوياتك وامانيك المختلفة المتناقضة المتفاوتة . هل يمكن ان ترى الله او اي شيء في حجم واحد وعلى بعد واحد في كل حياتك وتحديقاتك ؟

ان صور الهك واحجامه واخلاقه لتتبدل وتتغير وتتناقض بقدر ما يحدث من ذلك في ذاتك ولذاتك وحولك .

ــ او مثلما يستحيل ان يتكلم الاله الى كل شعوبه ورعاياه ، بل او الى ذاته واحلامه ، في كل حياته وظروفه وتحت كل انفعالاته وكل انتصاراته وهزائمه ــ ان يتكلم بلغة واحدة او باخلاق واحدة او بمستوى واحد ، او بنموذج واحد من الجهر او الغضب او الحب او البغض او الرفق او العنف . هل يمكن ان يرى الله دائما ذاته في صورة واحدة او ان يمارس دائما نفسه باسلوب واحد ؟

ان الله ليرى نفسه ويحسها ويريدها باشتات الصور والاحجام والاساليب والمستويات كما نفعل نحن .

ــ او مثلما يستحيل ان نتعصب لاهواء الاخرين ولمصالحهم ولاربابهم ومذاهبهم وتفاهاتهم وبلاهاتهم مثلما نتعصب لاهوائنا ولمصالحنا ولاربابنا ولمذاهبنا ولتفاهاتنا ولبلاهاتنا .

ــ او مثلما يستحيل ان نرى كل قبحنا ووقاحتنا حينما نتعصب

لأوثاننا ضد اوثان جيراننا ليفعل جيراننا مثل فعلنا .

ــ او مثلما يستحيل ان نعيش اربابنا ومذاهبنا واديانا وتعاليمنا ومزاعمنا لانفسنا وعن أنفسنا بكل قدرتنا واخلاصنا واهوائنا .

ــ أو مثلما يستحيل ان تكون ملتزما بالهك او بمذهبك او بدينك او بتعاليمك او بشرفك وكرامتك ثم تستطيع ان تكون انسانيا . حتى الشرف والكرامة . ان الالتزام بهما يجعلنا غير انسانيين

ــ او مثلما يستحيل ان يكون الهك او دينك او مذهبك او ضميرك او تفكيرك اخلاقيا .

ــ أو مثلما يستحيل ان يكون لوجود الاشياء كما وجدت وبالنموذج الذي به وجدت ، او لموتها بالاسلوب الذي به تموت ، او باي اسلوب اخر ، منطق او تفسير او حافز او هدف اخلاقي ، او اي هدف آخر ــ مثلما يستحيل ان يتقبل أي منطق وجود الاله لكي يذهب يقاسي في خلق الكون وفي ارادته وتدبيره وفي خلق الانسان لكي يذهب يقاسي ويقاسي في انتظار عبادته له وايمانه به .

ــ او مثلما يستحيل ان يكون مدبر هذا الكون وخالقه ومسيره ومالكه سعيدا او مسرورا او محظوظا او معجبا بعبقريته او باخلاقه ، او راضيا عن مستوياته او عن وجوده او عما فعل ــ بل مثلما يستحيل الا يكون خالق هذا الكون ومدبره ومالكه هو اردأ الكائنات حظا وسرورا وعبقرية وراضا عن نفسه .

ــ او مثلما يستحيل ان تكون زعيما او نبيا او قائدا او معلما ثم تكون نظيفا أو عفيفا او مهذبا او محبا او كبيرا في نياتك ، او في شهواتك، أو في اتجاهاتك ، او في لسانك ــ بل ثم لا تكون أقل الناس نظافة وعفة وشرفا وتهذيبا وحبا وشهامة وطهارة في النيات وفي الكلمات وفي الاتجاهات .

ــ او مثلما يستحيل ان تحب نبيك او زعيمك او مذهبك او وطنك، او ان تتعصب له ، او أن تغضب له بقدر ما تفعل كل ذلك من أجل اطفالك الاشقياء الاغبياء المشوهين المتوحشين ــ او ان تغفر لعدوك او لخصمك

ذنوبه وأخطاءه وبلاداته مثلما تغفر لنفسك او مثلما تريد أن يغفرها هو لك .

ــ او مثلما يستحيل ان يكون الهك او نبيك او زعيمك او كاهن مذهبك مثلما تتحدث وتحدث عنه ، او مثلما تتصوره او تتمناه او تفسره او تريد وتنتظر منه .

ــ او مثلما يستحيل ان تكون صادقا او شريفا او نظيفا او أبيا أو شجاعا او حرا حينما يكون النقيض هو النافع المنقذ المريح الملائم لك، وهو المطلوب المنتظر منك ، وهو كذلك الاعلان عن مجدك وصعودك ، وهو ايضا الواهب لك السرور والرضا عن النفس والانتصار على الانداد والاعداء

ــ او مثلما يستحيل ان تكون في كل حياتك أو في كل مواقفك نموذجا واحدا ، بل او حتى نماذج عديدة متقاربة ، من الشجاعة او النظافة او الشهامة او الصدق او الكرم او القوة او الرفض .. مثلما يستحيل ان تكون كما ينتظر منك او كما يراد منك او كما يجب عليك او كما ترى نفسك في المرآة او ان يكون وجهك كما تراه في المرآة ، او مثلما يستحيل أن يكون الهك او زعيمك او نبيك او دينك او مذهبك كما تراه او تعتقد فيه اوتريد منه أو تطلب منه أو تتحدث عنه ...

انه لمستحيل ان يستعيد اي شيء نفسه بكل حدوده وتفاسيره ، أو ان يظل نفسه ابدا . ان ذلك ليستحيل بقدر ما يستحيل ان يستعيد الكون احدى صيفه التي كانت ، او ان يظل أبدا صيغة واحدة ، او ان نظل نحن انفسنا أبدا .

ان اي نبي او معلم او زعيم من أولئك الانبياء او المعلمين او الزعماء الذين كانوا في التاريخ ومن الذين لا تزال قلوبنا ومحاريبنا وأفواهنا تعبدهم ــ لو عاد الى الحياة اليوم لكان مستحيلا ان يستعيد نفسه ، بل لكان محتوما ان يرفض نفسه ، بل لكان محتوما ان يخاف من نفسه وان يهرب ويخجل منها ، بل لكان محتوما ان يجد العار في ان يكون هو ذلك الذي قد كان . بل لكان محتوما ان يفعل كل شيء يستطيع فعله لينفي نفسه ، وليثبت انه لم يكن هو ذلك النبي او المعلم او الزعيم الذي قد كان ، والذي لا تزال تعبده القلوب والمحاريب والكلمات ، وتتمنى عودته .

أن أي نبي أو معلم لو عاد اليوم لكان مستحيلا أن يكون صيغة كاملة لوجوده القديم . انه لن يريد ذلك ولن يستطيعه .

انه مهما بدت قلوبنا او منابرنا او افكارنا او ادياننا او تعاليمنا او اغانينا وأشعارنا او امانينا او كتبنا المقدسة ـ اننا مهما عبدنا ماضياً ما بكل ذلك فاننا لن نستطيع ان نجعل ذلك الماضي يحيا او يعود او ممكنا ان يحيا او ان يعود . بل اننا مهما فعلنا ذلك فاننا لن نستطيع ان نتقبله او ان نغفر له لو عاد ، او ان نتهاون في مقاومته ومطاردته ، أي لو عاد .

نعم ، اننا نتقبل الماضي ونصلي له ونتمناه ونمجده ونقاتل من اجله ومن اجل عودته . ولكننا نفعل ذلك بشرط واحد لا يمكن ان نتراجع عنه أي عن هذا الشرط الواحد . هذا الشرط الواحد هو الا يعود ذلك الماضي الذي نقاتل ونعادي من أجله ومن أجل استعادته .

اننا لن نكون اقل رفضا لذلك الماضي الذي تصلي وتهتف كل اجهزتنا له ، أو أقل تناقضا معه او أكثر عفوا عنه ، من اشد خصومه ، أي لو عاد الينا . اننا لن نكون حينئذ أقل عجزا عن التوافق معه بسلوكنا او بشهواتنا او حتى بأفكارنا . كما اننا لن نكون اقدر على طاعته او على التسامح في مقاومته ، أي من اشد أعدائه . أجل ، ان شرطنا الدائم على الماضي الذي نطالب بعودته وننتظر عودته ونبكي شوقا الى عودته ـ ان شرطنا الدائم ان تكون مستحيلة عودته .

انه لو عاد الينا واحد من اولئك الانبياء لو عاد الينا من نراه اعظم واكبر اولئك الانبياء الذين لو جنت الشمس وبالغت في توقحها وزندقتها وجنونها فزعمت انها اسطع ضوءا او اكبر حجما او انظف جسدا او قلبا او أخلاقا من أقلهم واضألهم ضوءا وحجما وقلبا واخلاقا وجسدا ، لكان محتوما ان نفتي بقتلها أي بقتل الشمس مصلوبة لفحشها في كفرها .

ـ نعم ، انه لو عاد الينا من نعتقده اعظم واكبر وآخر اولئك الانبياء، ليفرض تعاليمه وأخلاقه ومنطقه وعصره وظروفه وكل فضائله وتقواه على حياتنا وأخلاقنا ونياتنا وشهواتنا وعلى عصرنا بالالزام الكامل بلا افلات او تسامح ، بجيش تقوده الملائكة او وحداته كلها من الملائكة ، لكانت ارفق وارق آرائنا فيه ، اي في ذلك النبي ان نصيح :

مجنون ، مجنون .. انه اكبر واسخف مجنون ..
او ان نصيح :

انه زنديق ، زنديق .. انه أفظع زنديق قد جاء الينا ، قد هجم علينا، ليحملنا على ان نكون زنادقة ، على ان نكفر بنبينا العظيم ، بنبينا الذي هو نفسه ، اي على ان نكفر به .

اني احذرك يا نبينا العظيم الطيب من الحضور الينا . من الانخداع بشوقنا اليك وبانتظارنا لمجيئك .

انه لمحتوم حينئذ ان نصيح ونصيح او استجبت لشوقنا وحضرت:

احذروا ، احذروا . لقد جاء اليكم هذا الزنديق ليدعوكم الى الزندقة، الى الكفر به .

انه لمحتوم حينئذ ان نصيح من جيمع المنابر وبكل الافواه :

ان نبينا هذا هو عدو نبينا هذا . انه كافر بنفسه ومشوه لتعاليمه ، وانه ليريد منكم ان تكفروا به وان تشوهوا تعاليمه .. لقد جاء ليكون ضد نفسه .

لقد جاء نبينا ليعلمنا الكفر بنبينا ، اي ليعمنا الكفر به .
اذن اقتلوه ، اقتلوه ..

ان جميع الناس قتلة انبياء ومعلمين . ان الانبياء والمعلمين لم يقتلهم قوم دون قوم او عصر دون عصر او تاريخ دون تاريخ ، او تفكير دون تفكير او طغيان دون طغيان . ان كل الطغيان وكل الناس وكل التاريخ وكل العصور والافكار قد قتلت كل الانبياء والمعلمين في كل العصور والمجتمعات . ان كل الناس لقاتلون لكل الانبياء ولكل المعلمين . انه ليس في الناس انسان واحد لم يقتل جميع الانبياء وجميع المعلمين .

ان جميع الناس قاتلون لانبيائهم ومعلميهم ، حتى المجانين جدا في ايمانهم وتقواهم واخلاصهم لمذاهبهم . انهم جميعا قاتلون لتعاليم انبيائهم ومعلميهم ، وقاتلون لشرائعهم ولكتبهم ولمذاهبهم . انهم قاتلون لها في حياتهم واهوائهم ونياتهم . انهم قاتلون لوجود انبيائهم من وجودهم .

انه لا يوجد من الانبياء او من المعلمين عند المؤمنين بهم او المتبعين لهم سوى مقابرهم وكلماتهم وذكرياتهم وسوى الاحاديث عنهم وباسمهم . ان جميع الانبياء والمعلمين مقتولون ومنفيون من جميع المجتمعات ، في جميع العصور . بل ان جميع الانبياء والمعلمين قاتلون ونافون لجميع الانبياء والمعلمين . انهم قاتلون لانفسهم ووجودهم ونافون لانفسهم ووجودهم . انهم لا يعيشون انفسهم ولا يوجدون فيها .

ان الانبياء لم يوجدوا في اي مجتمع . لقد كانت المجتمعات تؤمن بهم وتحتفل بقدومهم وتصنع الاستقبالات الضخمة لمجيئهم على شرط الا يجيئوا اليها ، بل على شرط الا يوجدوا . كما انهم أي الانبياء لم يوجدوا في وجودهم . لقد كان جميع الانبياء ضد وجودهم اي ضد وجودهم انبياء . ان نبيا واحدا لم يعش نفسه او نبوته .

لقد كان يوجد دائما وفي كل العصور من ينادون باستعادة الماضي ، بل من يهتفون لعودته وينتظرونها ويؤمنون باحتمال هذه العودة ، بل بكونها حتما احيانا .

والماضي المهتوف له والمنتظرة عودته قد يكون دينا ، وقد يكون اخلاقا ، وقد يكون نيات وطهارة نفسية مقروءة ومكتوبة ومتمناة . وقد يكون حبا انسانيا قد ضخمه التصور الجائع . كما قد يكون ذلك الماضي مذهبا من المذاهب ، او زعيما او نبيا او معلما .

ولكن لقد ظل كل الماضي ثابتا في مكانه ، لم يحاول ان يتقدم او ان يدنو ولو خطوة واحدة الى المناجين له ، الهاتفين به ، الضارعين اليه ليجيء ، والمغنين له كل أناشيد الشوق والحنين والبكاء ، والملحين عليه بكل الاساليب واللغات والضراعات ليسرع ويسرع في مجيئه .

وانه ليس في نيته ولن يكون في نيته ان يتحرك من مكانه ، ولا ان يخطو ولو خطوة واحدة ليكون ادنى الى من يوشكون ان يقتلهم الشوق والحنين اليه والانتظار له .

ولعله رفض المجيء خوفا ممن يضرعون اليه ليجيء . لعله قد عرف كيف سيستقبلونه ويعاملونه لو جاء ، لعل معرفته هذه زجرته من المجيء .

وهل يوجد اقسى من الماضي على الضارعين اليه والمؤمنين بهوالمطالبين له بالعودة ؟ هل يوجد اظلم منه لهم ؟ هل يوجد اكثر منه جفاء في معاملتهم وفي هجره حتى للاستماع الى ضراعاتهم وصلواتهم ؟

هل يوجد اقسى او اظلم من الانبياء والمعلمين الذين تهتف لهم كل هذه المنابر والحناجر والقلوب واللهفات ضارعة اليهم ان يجيئوا فلايجيئون بل ولا يفكرون في المجيء ، بل ولا يحولون مجيئهم او طلب مجيئهم الى قضية من قضاياهم تستحق اهتمامهم او تفكيرهم او تحرك أحزانهم او تتخاطب مع دموعهم ؟ وهل كانت هذه قسوة ام خوفا ام ذكاء وتهذيبا ورفقا بالمنادين الهاتفين وتفاهما معهم على الا يكون المجيء مهما كانت المطالبة به والاشواق اليه ؟ انهم مهما دعوا هذا الماضي طالبين اليه المجيء فانه لن يجيء بل ولن يدنو منهم ولا خطوة واحدة . اذن فهل يزداد عنهم ابتعادا ؟ بل ولاهذه. انه لا يزداد عنهم ابتعادا لانه لا يستطيع ان يكون اقرب ولا ابعد . ان بعده لا يقبل التغير، لا يقبل ان يكون اكثر قربا واكثر بعدا، لانه في موقف المحال ، والمحال لا يقبل ان يكون اقوى او اضعف . انه لا يقبل ان يكون اكثر او أقل استحالة . ان المحال ليس درجات . انه درجة واحدة وبعد واحد . ان التعدد والتفاوت لا يوجدان في المحال ، لا يوجدان فيما ليس موجودا.

انه لتعبير خاطيء ان تقول : هذا اكثر استحالة من هذا او من ذاك . ان هذا القول يساوي ان تقول : هذا فان او ميت او مفقود اكثر من ذاك.

انه ليس في الفناء او الموت او في الفقدان اي فقدان الوجود تفاوت ، ليس فيه اكثر او اقل ، ولا أضعف او أقوى . ان هذه التعبيرات اذن تعبيرات خاطئة الا اذا كانت الكلمات والالفاظ مرادا بها غير معناها الدقيق . نعم ، اليست الكلمات دائما او غالبا يراد بها غير معانيها الدقيقة؟

ان الماضي لا يعود ولا يستعاد ، وانه لا يقرب ولا يبعد من المؤمنين به او من المنادين له او من المحاولين الزحف اليه . انه ثابت في مكان واحد لا يتحرك منه او فيه .

بل ان الماضي ليس في مكان ، لهذا فهو ليس قريبا ولا بعيدا

ان الخطر او الضرر اذن ليس في اعادة الماضي ، فلا شيء يستطيع

ان يجمله يعود ، ولكن الخطر او الضرر في الشوق والحنين اليه وفي الانفاق عليه ، وفي ضخامة الاكاذيب والغوايات والمزاعم التي لا بـد ان تملأ وان تغطي كل السوق باسمه اي باسم الماضي وباسم الجهاد لاستعادتـه .

ما أعظم اذن الاحتمالات الشريرة تحت مزاعم النضال لاحياء الماضي. ما أعظم الاحتمالات الشريرة تحت مزاعم النضال لاعادة احد الانبياء او احد المعلمين أو احدى العقائد .

كم سرق الناس وضللوا وخدعوا وشغلوا وسرق ذكاؤهم وكرامتهم وحرياتهم وسرقت أشواقهم ولهفاتهم وتطلعاتهم تحت زعم من هذه المزاعم.

كم شغل الناس وصرفهم وأخذ منهم وخلب ذكاءهم واشواقهم وتطلعاتهم انبياؤهم ومعلموهم ووعاظهم وقادتهم الذين يزعمون لهم انهم يجاهدون لكي يستتيبوا الشيطان ويعلموه الصلاة والتدين والايمان ، ويعلموه العودة الى ماضيه ، الى الله ، والى سالف تقواه . ما أكثر الانبياء والمعلمين والوعاظ الذين يجيئون الى الناس لكي يحولوا كل دنياهم الى منابر، لكي يعلموا من فوقها الشيطان كيف يتوب ويستعيد تقواه القديمة .

كم كان الحديث عن الماضي والشوق اليه سارقا وخادعا وآخذا وشاغلا ومسوغا للطغيان والاكاذيب والاستغفال ، وصانعا للطغاة والمخادعين والمنافقين واللصوص وللقافزين على ذكاء الانسان وعلى مجده وعلى كرامته وعلى تاريخه .

كم كان الحديث عن اعادة الماضي عدوانا على الانسان . ما اكثر أعداء الانسان الذين يحاربونه اشرس وادوم واشمل الحروب بأسلوب الاعادة لماضيه ، بأسلوب الاحياء لالهته التي قد ماتت .

ان الاصدقاء جدا للماضي بأشواقهم وتمنياتهم وتطلعاتهم وتعاليمهم قد يكونون من أردأ الناس حظا ومن أسوئهم حالا واكثرهم تمزقا وضياعا - أعني ان كانوا صادقين في ايمانهم بالماضي وفي أشواقهم وحنينهم اليه . ذلك لانهم لا يستطيعون ان يبلغوا أشواقهم او ان يقربوا منها، ثم لا يستطيعون ان يتخلوا عنها ، او ان تموت او حتى تضعف لهفاتهم اليها اي الى اشواقهم. وانهم كذلك لا يستطيعون ان يتلاقوا هم وأشواقهم وأفكارهم وحياتهم

وضروراتهم في مكان. انهم اناس مقسمون ممزقون مفرقون. ان اشواقهم وتحديقاتهم في مكان وزمان ، وان حياتهم ووجودهم وأفكارهم وضروراتهم في زمان آخر ومكان آخر . وانه لا يمكن الالتقاء بين الزمان والزمان ، ولا بين المكان والمكان . انه مؤمن صادق الايمان . انه يتطلع الى الافق البعيد والغارب بلهفة وحنان . انه ينتظر عودة مسيحه الديني او المذهبي او الاخلاقي او الانساني . اذن ما اشد عذابه وتمزقه وضياعه .

ان بين حياة هؤلاء المفتونين بالماضي وبين اشواقهم وتطلعاتهم لمسافة تموت فيها كل الاشواط واللهفات والآهات ، وان بين حياتهم وضروراتهم وبين أشواقهم وتطلعاتهم لتناقضا لا ينتهي الى نصر ولا الى هزيمة ولا الى اتفاق او صلح .

وفي هذا التناقض وفي هذه المسافة يستطيع ان يتخلق ويتجمع ويتحرك ويعمل ويتألق ويصعد ابشع واخبث اللصوص والتافهين والادعياء والاغبياء ، يسرقون ويكذبون ويزعمون ويفسدون ويصيحون ويضللون ويستمرون . ما اقدر اللصوص والاغبياء والاعداء على التجمع في المسافة الممتدة بين اشواقنا وواقعنا ليقتلوا ويسرقوا ويكذبوا ويدعوا ويسودوا .

ما ابشع ما حدث وما يحدث وما سوف يستمر يحدث تحت شعارات الاستعادة للماضي . ما أبشع العدوان مسوغا باستعادة هذا المحال . ما اضخم الانفاق على هذا المستحيل .

ان كل هذا يعني انه ليس ابعاد الماضي عن صيغنا الرسمية او الحكومية او القانونية هو الذي يعصمنا من الخداع والعدوان والسرقة والطغيان باسمه . ولكن الذي يعصمنا من ذلك هو تحررنا الداخلي او الذاتي منه – أي تحرر أفكارنا وأشواقنا وامانينا وتطلعاتنا وانتظارنا منه .

انه اذا تحررت نفوسنا من عبودية الماضي ومن غبائه وسلطانه والتطلع اليه والانتظار له – اي اذا تحررت نفوس آحادنا – فانه لن يضيرنا او يأخذ منا شيئا ان تكون لنا حكومة او أجهزة تقدس ذلك الماضي وتنشد فيه أكثر الاناشيد تهيجا وسخفا ، وتقيم له أحفل الاعياد ، وتصوغ كل شعاراتها باسمه في ضجيج مصاب بكل أساليب ولفات ومعاني الغواية .

ولكن اليس في ذلك اخـذ منـا ايضـا على نحو ما او بأسلوب ، بل بأساليب عديدة ؟

أما اذا لم تتحرر افكارنا واشـواقنا وامانينا وانتظارنا من قبضـة ورهبة وسحر ذلك الماضي فانه لن ينفعنا اي نفع ، او لن ينفعنا كثيرا ، او نفعا كاملا ، ان تكون لنا حكومة او أجهزة محايدة بين الله والشيـطان ، او منحازة الى الشيطان ، او ملحدة ، او علمانية ، او اي شيء ـ ما لم تفعل اي تلك الحكومة أو الاجهزة شيئا لتحرير نفوسنا وأشواقناوتطالعاتنا.

ان البشر لا يعيشون حكوماتهم ولا احتفالاتها ولا اعيادها ولاشعاراتها ولا اجهزتها ، ولكنهم يعيشون اشواقهم ونياتهم وقدراتهم وجوعهم . انهم لا يعيشون حكوماتهم او دعايـة حكوماتهم او أجهزة حكوماتهم او أعيـاد حكوماتهمالا بأشواقهم ونياتهم ومشاعرهموقدراتهم.ان البشر لا يعيشونولا يطيعون الا ذواتهم مهما أطاعوا وعاشوا حكوماتهم.انهم لا يحترمونحكوماتهم او يخافونها الا من خلال احترامهم لذواتهم وخوفهم منها . ان البشـر يخافون حكوماتهم ويطيعون أوامرها بذواتهـم وبأخلاقذواتهم وبأوامـر ذواتهم لا بذوات حكوماتهم ولا بأوامرها .

ان البشر لا يفهمون اية لغة ولا اي منطق غير لغة ذواتهم وغيرمنطقها مهما تكلموا كل اللغات ، ومهما وضعوا كل الافكار وتحدثوا عن كل الافكار وقاتلوا باسم كل الافكار .

اذن ما أكبر خطأ أولئك الذين يقولون نريد مجتمعات متدينة وحكاما متدينين ، ولا نريد حكومات دينية . ان هذا يشبه ان يقولوا :

نريد مجتمعات متقدمة وذكية وحكاما اذكياء تقدميين ، ولا نريـد حكومة تقدمية او ذكية ـ او نريـد مجتمعات متعصبة جاهلة وحكامـا متعصبين جاهلين ، دون ان نريد حكومة متعصبة جاهلة . والحكم هنـا يختلف لاختلاف النظر الى الدين .

وهذا القول يشبه ايضا ان يقال نريد مجتمعات مذهبية وحكامـا مذهبيين ، ولا نريد حكما مذهبيا .

ان هذا القول يعني اقتناعا لم ينطق بأن التزام الدين بالاخلاق او بالتفكير أو بالسلوك او بالتعامل او بالاعتقاد او بالمشاعر شيء لا يستطيع أن يعيشه الانسان او المجتمع ، ولا ان تتحمله او تتقدم به الحياة — بل شيء لا ينبغي ان يحدث ، ان حدوثه لو كان ممكنا حدوثه شيء فاضح واليم كريه . وهذا الشيء الفاضح الاليم الكريه لن تكون بشاعتهواضراره في سلوك الافراد وفي حياتهم مثل بشاعته واضراره في سلوك وحياة الدولة او في سلوك وحياة الحكم . انه في سلوك وحياة الدولة والحكم اضخم واوسع في مستويات دمامته ووحشيته وتشويهه للاشياء وللانسان .

ولانهم هكذا يفهمون القضية قالوا بالمجتمع المتدين او بالآحادالمتدينين لا بالدولة الدينية . لقد نصحوا بالتزام اقل الاسلوبين أو اقل المستويين قبحا وسخافة وتخلفا وضررا .

حتى المجتمعات التي لا يوجد فيها من ينادون بذلك اي بالمجتمع المتدين لا بالدولة الدينيةهي تفعل وتحيا ما يعني هذه الفكرة التي لا تقولها ولا تنادي بها .

ذلك ان هذه المجتمعات تحشد وتطاق كل أجهزتها دعوة الى العقائد القديمة لتحويلها الى سلوك وحياة واقتناع لكل الناس بينما تتصرف وتفكر وتتعامل كدولة بأساليب أخرى بعيدة جدا عن الاستمساك بما تدعو اليه ، بل بعيدة عن الاحترام له او المبالاة به .

ان رفض الدولة الدينية يعني في معناه وتفسيره رفض المجتمع المتدين ورفض الحكام المتدينين . كما أن تأييد المجتمع المتدين او الحكام المتدينين يعني في منطقه تأييد الدولة المتدينة .

ان القضية حتما سوف تصوغ نفسها هكذا :

ان كانت المعتقدات القديمة او الدينية خيرا او نافعة او مصلحة للناس او صانعة للحب والسلام والنخوة والشهامة بينهم فلماذالا يريدونها للدولة او للحكم ؟ أما ان كانت غير ذلك او نقيضه فلماذا يريدونها للمجتمعات او للاحاد ؟ قد يكون المعنى المضمر : ان التدين او المعتقدات الدينية شيء رديء ومفسد للعلاقات بين البشر ولكن لا يصح منع الافراد من ذلك

لان حرية التعامل بالذات يجب الا يعتدى عليها .

ان الدولة التي ترفض او لا تستطيع او لا تجرؤ ان تكون دينية لواجب عليها الا تدعو جماهيرها الى ان تكون متدينة ، والا تريد لها ذلك، بل انه لواجب عليها اي على هذه الدولة ان ترفض وتقاوم تدين جماهيرها. ان عليها ان تقيم اضخم واقوى الاجهزة لمنع الناس من التدين ، اي لاقناع الناس بالتخلي عن التدين وبرفض المعتقدات الدينية لا لمنعهم بالقانون او بالقوة ....

ان مثل هذه الدولة حينما تكون سياستها تحريض مجتمعها على التدين وتسليط كل الاجهزة وكل اساليب الاغراء والاغواء والتخويف عليه ليكون متدينا ، ليكون متدينا بلا حدود وبلا وقار او اتزان فالمعنى هنا هو كالمعنى أو هو نفس المعنى حينما يريد حاكم ما ان تكون جماهيره ضعيفة ومهزومة ومقهورة ومستعبدة وبايدة ليكون هو نقيض كل ذلك . انه يدعو الى نقيض ما يفعل ونقيض ما يريد لنفسه . انه يختار لنفسه نقيض ما يختار لجماهيره . ان الحاكم حينئذ ليس داعية ، ولكنه معاد ومحارب باسلوب الداعية. نعم،ان جميع الحكام الذين يريدون من شعوبهم ان تتدين وان تؤمن بالعقائد ليسوا الا محاربين لها . انهم ليسوا دعاة في حوافزهم او نياتهم. ما أعظم وانبل ايثار الحكام والاقوياء في المجتمعات المتدينة . انهم يؤثرون على انفسهم بأسلوب هو فوق جميع نماذج الشهامة والورع والفداء والايثار .

ان أردأ ما في هذه القضية ان رعايا هؤلاء الحكام في هذه المجتمعات لا تفطن الى هذا الايثار والى معانيه الكبيرة .

ان الاقوياء والحكام في المجتمعات المتدينة يذهبون يتنازلون عن الله وعن الايمان به ، وعن التقوى ، وعن جميع الاخلاق والالتزامات الدينية – انهم يذهبون يتنازلون عن كل ذلك بكل أساليب ومستويات الكرم ، ليكون ذلك كله لرعاياهم وليكون لهم هم شيء آخر .

وهل يوجد سخاء في نبل سخاء من يتنازل عن الاله وعن امتلاكه ليكون اي الاله امتلاكا لانسان آخر ، ايثارا وشهامة ؟

ان هؤلاء الحكام والاقوياء لا يتنازلون عن شيء لرعاياهم بكل معاني الكرم وتفاسيره وصيفه مثل تنازلهم لهذه الرعايا عن الله وعن الخوف منه وعن التأميل فيما عنده ، وعن انتظار هذا الذي عنده ، وعن الاحترام له، وعن الاستماع اليه ، متحدثا عن احزانه وعن مشاكله وعن مطالبه الكبيرة الباهظة الدائمة . هل وهب الحكام والاقوياء في المجتمعات المتدينة مجتمعاتهم شيئا مثلما وهبوهم الله ؟ هل وهب شيء في العالم أكثر أو أرخص مما وهب الله ؟ هل تنازل الاقوياء للضعفاء عن شيء مثل تنازلهم لهم عن الله وعن الاستقامة ؟

كيف يريد مجتمع من المجتمعات ان يلتزم بمعتقداته وتعاليمه القديمة كاحاد ، ثم يرفض ذلك لنفسه كدولة او كحكم أو كحكومة ؟ اليس المطلوب من كل حكم او المفروض فيه ان يكون استجابة لاكبر ما يمكن من احتياجات الآحاد ومن آمالهم وجوعهم ومن نماذجهم الذهنية والنفسية والاخلاقية المختارة بأساوب جماعي الزامي ؟ اليس المطلوب من كل حكومة اوالمفروض في كل حكومة ان تكون نموذجا كبيرا ومثيرا وقويا لنماذج الآحادولمستوياتهم الفكرية والنفسية والاخلاقية،ولاحتياجاتهم وطموحهم، ولما يريدون ولما يراد منهم؟.اليس المطلوب والمفروض ان تكون كل حكومة تعبيرا قويا وشاملا عن كل ذلك ؟ هل يوجد من يحاول او يريد ان يكون الوجه جميلا ونظيفا ويكون باقي الجسم دميما قذرا ، وان يكون الجسم نظيفا وجميلا ويكون الوجه قذرا ودميما أي ان يكون أحدهما نقيضا للاخر في الجمال والدمامة والنظافة ؟

ان نظم واخلاق وأفكار وأماني حكمنا هي التعبير عن امانينا ورغباتنا وعن افكارنا واخلاقنا ومصالحنا ان كان الحكم صالحا وطيبا ، والا فهي التعبير عن مصالح وأهواء وحسابات طائفة أو فرد منا ان كان الحكم رديئا ومستبدا وظالما وجاهلا .

انه لا انفصال او لا تناقض بين سلوك ومنطق وطموح ونظم حكمنا وشرائعنا وبين امانينا او أماني طائفة منا .

اذن كيف نذهب نتمنى الشيء ثم نرفض تمنيه في حالة واحدة ؟

كيف نذهب نتمنى ان يعيش الله بكل جبروته وبكل ممارساته

لنفسه وللاشياء وللكون مع الحاكم في بيته بكل هذا الجبروت والرهبوت وبكل هذه الممارسات للنفس وللكون وللاشياء ، ثم نرفض ان يعيش الله معه أي مع الحاكم فوق عرشه ؟ كيف نذهب نتمنى ان يجلس الله فوق كـل كـرسي ليمـارس كل اراداتـه وشهواتـه ثم نرفض ان يجلس فـوق اضخم واعلى كرسي ؟

كيف نتمنى ان يوجد وان يعيش وان يجلس الله في كل مكان وفوق كل شيء ثم نرفض ان يوجد او ان يعيش او يجلس فوق العرش ؟ كيف نريد ان يكون الله في غرفنا ومتاجرنا واسواقنا ثم لا نريد ان يكون في دور ومكاتب حكمنا ؟ كيف يكون الله جمالا وتهذيبا في مكان وغير ذلك في مكان آخـر ؟

كيف يكون الله طيبا ومعقولا ومقبولا وخيرا مع كل انسان وداخل ذات كل انسان وفي فم كل انسان ، ثم يكون نقيض ذلك مع الحاكم وداخل ذاته وعلى لسانه ؟ اليس التعامل بالاله شيئا جيدا في كل الاوقات وتحت كل الظروف ومع كل الناس ، كل اصناف المعاملات ؟

اليس من افظع اساليب الهجاء للاله والدين الزعم بأنه يجب اخفاؤهما او ابعادهما حين التعامل مع الآخرين ، أو حين لقاء الاخرين ، او حـين التحدث الى الاخرين ؟

ماذا لوقيل نتمنى شعبا حرا مفكرا شجاعا ذكيا نظيفـا ، ونرفض حكومة لها هذه المزايا ، أو لها هذه الرذائل او نتمنى حكومة لها كل هذه المزايا او الرذائل وشعبا نقيض ذلك ؟ اليست القضية يجب ان تكون هكذا :

ان ما ينبغي او يطلب ان يفعله الانسان أو يكونه بمعنى الانسان فيه ينبغي ويطلب ان يفعله وان يكونه بمعنى الحاكم فيه ، وما لا ينبغي او يطلب ان يفعلـه أو يكونه بأحد معنييـه لا ينبغي ولا يطلب ان يفعله أو يكونه بمعناه الآخر ؟ ان الدعوة اذن الى الماضي ليست خيرا ولا شرا ، انها ليست شيئا ، لانها لا تصنع او تهب أي شيء . انها لا تصنع أي قدر من الخطر أو الضرر ، لانها لن تعيد أو حتى تقرب ذلك الماضي .

ان الدعوة الى استعادة الماضي ليست الا اسلوبا كبيرا شهيرا مثيرا

من اساليب العبث الذي لا جمال ولا فن فيه . ان هذه الدعوة مثل الدعوة الى كراهة الذات او الى حب الآخرين اكثر من حب النفس ، أو الى حب الموت شوقا الى رؤية الله ، والى دخول ملكوته الاعلى ، والى مصاحبة الانبياء والقديسين هناك . انها كالدعوة الى ان نخاف ونحافظ على عيون اطفال جيراننا واعدائنا لئلا تصاب بالبغض او بالحقد او بالوقاحة أكثر من خوفنا على عيون اطفالنا ومحافظتنا عليها لئلا تصاب بعاهة البذاءة او القسوة أو البلادة او بعاهة العدوان أو الهمجية . ان مرض العيون العقلي والاخلاقي لمن اقسى الامراض .

ان هذه الدعوات دعوات لا تعني شيئا . انها ليست الا عبثا ولغوا ولهوا ليس مسليا .

ولكن لا . انها ليست لغوا وعبثا فقط . انها أكثر واردا من ذلك .

ان في الدعوة الى الماضي والى استعادته سرقة للانسان . ان في ذلك سرقة للتاريخ ، سرقة لعيون التاريخ ، ولاذنيه ، ولاعصابه ، ولوقاره، ولتقواه ، ولحماسه ، ولاشواقه وحبه وصداقاته وتهذيبه ، ولمحاريبه ومنابره ، ولصلواته وفصاحاته ، ولانبيائه ومعلميه واذكيائه واغبيائه .
ان الدعوة الى استعادة الماضي والجهاد لاستعادته سرقة للحياة وللتاريخ . ولعل البشر لم يسرقوا سرقة اضخم او اشمل أو أشهر من هذه السرقة .

وان في هذه الدعوة لاخطارا واضرارا تصعب وتروع وتخجل حساباتها .

انها تمكين رائع وممتاز وشرير لكل اعداء الانسان ولصوصه لكي يوجدوا وينتصروا ويسودوا .

انها دعوة ملحة ومفتوحة لجميع الكاذبين والمخادعين والماكرين والتافهين والاغبياء والعاجزين والخاملين الكسالى ولكل اللصوص ولكل من لا يحملون او يعيشون او يعرفون اية مزية انسانية اخلاقية او عقلية او شعورية .

ــ انها دعوة ملحة وشاملة ومفتوحة موجهة الى كل هؤلاء لكي يخلقوا ويتكاثروا ويتقدموا ويتسلطوا ويتألقوا ويصعدوا ويكبروا ويعظموا ويعبدوا ويخلدوا ويأخذوا ويعبثوا ويتكبروا وينسخوا التاريخ ويكتبوه كيف شاءوا واستطاعوا ، بل ويبصقوا على التاريخ ، بل وعلى الحياة ، بل وعلى المنابر والمحاريب ، وليبصقوا فوق المنابر والمحاريب ..

ان الاغبياء والكاذبين والتافهين والقتلة ليكتبون التاريخ كما يكتبه العباقرة والقديسون والعظماء ، او أكثر وأشمل وأقسى .

انها دعوة لكل هؤلاء ليجيئوا وليكونوا كل ذلك ، ثم ليحسبوا انبياء وابطالا وشهداء وقديسين وفدائيين وقتلى في سبيل الله وفي سبيل الانسان ــ بل ثم ليصبحوا مغاسل وأنهارا كونية مقدسة ، تغتسل بها الشموس والنجوم والانهار والبحار من آثامها وادرانها وزندقاتها .

ان التاريخ ليتحرك ويتلمس طريقه بارتجاف وببطء وبتلفت وبضراعة فوق طوابير طويلة وهائلة من هؤلاء الانبياء الطغاة الكذبة الذين تفجروا فوقه واقتحموه وامتلكوه وأذلوه كشهداء وابطال قد حبلت بهم السماء ليصنعوا للانسان ماضيه العظيم ، او ليعيدوا له ذلك الماضي الذي قد اصبح عظيما ، ولكي يتوبوا الشيطان ويعيدوه الى تقواه القديمة .

لقد أصبح حظ الانسان والحياة من هؤلاء الانبياء الطغاة الكذبة الذين حبلت بهم وولدتهم السماء حظا عظيما . ما اقسى حظوظ الحياة وحظوظ الانسان بمن تحبل بهم السماء وبمن تلدهم السماء . ان كل حبل السماء وكل ولاداتها ليست الا تشويها للحياة وللانسان . انها حبل بالعاهات وولادة لها .

أن كثيرا من المجتمعات لتنفق على الدعوة لعودة هذا المحال الذي لن يعود ، وعلى اجهزة ووسائل التحدث عنه والتبشير به اكثر جدا مما يمكن ان تنفق على استضافة الاله وعلى اطعامه وعلى الاحتفال به ، وعلى تمجيده وتكريمه وحشد كل اسباب الراحة له ،وعلى اقامة الاستعراضات والمهرجانات له ولتحيته ولجمع كل معاني السرور والرضا في قلبه وعينيه، اي لو انه هبط الى الارض في أضخم واكبر مواكبه السماوية ، لينزل ضيفا عليها أي على هذه المجتمعات ــ لينزل ضيفا عليها هو وجميع

مستشاريه وأعوانه وجنوده من سكان السماء .

ــ لينزل ضيفا جائعا جوع اله ، حزينا حزن اله ، محتاجا الى التمجيد والتكريم والاستقبال والتحية والى الاحتفالات والاستعراضات والمواكب والدوي احتياج اله ، مستغيثا طالبا استغاثة وطلب اله ، بائسا بؤس اله ، مشترطا لنفسه ولمن معه اشتراط اله . ولكن أليس الاله ضيفا دائما جائعا ، تقام له أضخم الموائد والاحتفالات والمهرجانات في جميع المجتمعات المؤمنة المتدينة بأشمل وأغبى أساليب السرقة ؟

كم انفق الانسان ، وكم سرقت حياته ، وكم كذب على التاريخ وبيخر وشوه واهين وهزم واقتيد الى الفضائح والحماقات والتفاهات ، وكم قيدت خطواته وتحليقاته ، وكم ماتت وزاغت تحديقاته ، وفضح شرفه وذكاؤه .

ــ نعم ، كم حدث كل هذا ، او كم أريد كل هذا منفقة عليه ابهظ المحاولات واضخمها سرقة للانسان وللتاريخ وللحياة ــ كم حدث او كم اريد كل هذا تحت شعارات الاحياء للاله الذي لم ير قط في اي مكان ولا في اي عصر حيا ، او ممارسا لنفسه وشؤونه مثل حي ــ اوتحت شعارات الاستعادة لذات الله الى الارض التي قد هرب منها او التي قد طرد منها ، او التي لم يره قط احد فيها ، كما لا يريده ابدا احد فيها ــ او تحت شعارات الانقاذ لمجد الاله ولشرفه وسلطانه من قبضة الشيطان ومن سلطانه المتفوق القهار . ان نضال الانسان الطويل العاجز المهزوم لانقاذ مجد الاله من طغيان وتفوق الشيطان لهو اعجب نضال بائس حزين في هذا الكون . ان الكون لم يشهد مأساة مثلما شهد هزيمة الاله والانسان أمام جبروت الشيطان .

انه لقصة حزينة ومثيرة قد عاشت طويلا فوق هذه الارض ، ولا تزال تعيش بقوة وبدوي أحيانا فوقها . تلك هي قصة محاولات الانسان الدائبة البائسة بالتبشير وبالصراخ وبالتمني وبالانتظار وبالانفاق الباهظ المخيف لكي يجعل الاله الهارب المطرود من هذه الارض يعود اليها ــ لكي يجعل الاله يعود ويعيش في هذه الارض التي لم يجده احد قط فيها ، بل التي لم يعش يوما ما فيها .

– لكي يجعل الشيطان يموت أو يهرب او يهزم أو يعتقـل او يتوب .

– لكي يجعل الصدق والحب والنظافة والاستقامة والتقوى تستعيد مجدها القديم او تصنع لها مجدا جديدا ، او تحكم وحدها العالم او تعيش وحدها فوق هذه الارض – او ليزعم انه يريد ذلك ويجاهد له . ان جميع البشر اشتركوا في طـرد الاله من الارض بل في منعه من المجيء اليهـا . حتى المؤمنون جدا الذين ينفقون على استضافته اي على استضافة الالـه أضخم النفقات قد كانوا اول الطاردين له بل المانعين له من المجيء . انه المستحيل الذي لا يتحول الى مستحيل ، ولا يعرف انه مستحيل ، ولا يترك كما يترك المستحيل . انه المستحيل الذي لا يمل . انه المستحيل الذي يمارسه كل الناس ، كل الاذكياء وكل الاغبياء ، كل التقدميين والثوار والاحرار ، وكـل الرجعيين والمستعبدين والمحافظين ، بل وكل الاتقيـاء والصادقين المؤمنين وكل الفجار والكذبة والزنادقة . هل كل النـاس يمارسون المستحيل ؟ هل يوجد فرق بين الاذكياء والاغبياء في ممارسـة المستحيل ؟ هل الاذكياء والاقوياء اكثر ممارسة للمستحيل من الاغبيـاء والضعفاء ؟

انه المستحيل الذي يتحول الى أضخم السرقات والى اضخم اساليب التضليل والعبث البليد . انه العبث الذي يمارس ويعلن عنه ويمجد كأعظم وأقوى الجد .

انها الاكذوبة او الخديعة العالمية العظمى التي لم تستطع ان تموت، ولم تستطع كذلك ان تحيا ، بل ولن تستطيع .

انه الانفـاق الباهـظ على ما لا امل فيه . انه الانفاق بلا وقار او حدود على ما لا يراد ، على ما لا يراد ان يكون ، بل على ما يرفض ان يكون ، بل على ما يقاوم ويحارب لئلا يكون .

ان جميع الناس ليرفضون أن يكون هذا الذي ينفقون عليه كل شيء ليكون ، بل ان جميع الناس ليقاتلون لئلا يكون هذا الذي ينفقون عليـه كل هـذا الانفـاق لانهم يزعمون انهم يريدونه ان يكون . ان كل النـاس لمستعدون ان يقاتلوا بكل أسلحتهم وبكل دمائهم لئلا يجيء الالـه الذي

ينفقون على استضافته وعلى الاحتفال به وعلى الاعلان عنه والدعاية له كل هذه الانفاقات ..

انه التبديد . وهل الكون والحياة والناس وكل شيء الا تبديد ؟ اليس التبديد بلا تفسير هو التفسير الشامل لكل شيء ؟ اليس هذا التبديد هو العزاء لكل شيء ؟

اليس تبديد الوجود او تبديد الحياة او تبديد الذات هو العلاج لكل موجود ولكل كائن حي من ورطة وجوده او ورطة حياته ؟

اليس التبديد بلا تفسير هو التفسير الشامل لكل ممارسة ولكل نية ، بل ولكل تدبير وتفكير ؟ اليس التفكير والتدبير اسلوبين من اساليب التبديد ايضا ؟

اليس التفكير والتدبير اسلوبين من أساليب البحث عن صيغ وتسويغات للتبديد ؟ اليس كل ما يحدث وكل ما يصنع وكل ما يقال وينوى لا يعني الا التعبير الشامل عن التبديد الشامل ؟

اليست ممارسات المسرات والضحك واللذات أساليب مختلفة من عمليات التبديد مثل ممارسات الاحزان والبكاء والآلام ؟

انك لست الا مبددا لشيء ما حينما تمارس مسرة او لذة وحينما تستغرق ضاحكا . وانك لكذلك حينما تحزن وتبكي بتعبير ما ، وحينما تمارس ألما من آلامك باعلان وصراخ . ان البكاء بصراخ لاسلوب من اساليب التبديد كالصلاة ببكاء ، وكالتحدث بتوتر جاهر غاضب شاتم .

اواه .. ما اقسى العذاب لو أن البشر لم يعرفوا ويبتكروا كل اساليب التبديد لكل شيء حتى لعبقرياتهم ومسراتهم .

★

لقد كان دائما يوجد عبث كبير . لقد كان يوجد دائما عبث كان يغطي كل التاريخ . انه لعبث لا يزال حتى اليوم يغطي كل العالم كما كان يغطيه في كل التاريخ ، في كل المجتمعات ، تحت كل المعتقدات والنظريات والمذاهب والقيادات .

لقد كان كل من كان في العالم ، وانهم لا يزالون ، يتحدثون عن النيات الطيبة . انهم يريدون ، بل ويحاولون أن يعالجوا كل أخلاق الانسان ومشاكله وأخطائه وغواياته المذهبية والفكرية والاعتقادية ــ بل وان يعالجوا كل مشاكل الحياة وتعقيداتها وآلامها بالنيات النظيفة وبالارادة الطيبة المخلصة الصادقة . انهم ليريدون ويحاولون أن يعالجوا علاقات الانسان بالشمس والقمر وبكل الكون ، وعلاقاته بأعضائه أيضا ، بالنيات . وهم لم يعرفوا أو يسألوا من أين تجيء النيات ولا لماذا تجيء ولا من يصوغها ولا لماذا بهذا الاسلوب وبهذه الصيغة دون النقيض .

ان البشر في جميع عصورهم وتحت جميع مذاهبهم ومعتقداتهم ونظمهم ومستوياتهم الحضارية المختلفة يقسمون النيات الى صالحة ونظيفة وصادقة وانسانية والى نقيض ذلك . وانهم ليقسمون انفسهم الى ذوي نيات من هذا النوع والمستوى او من النقيض . انهم يختلفون في سلوكهم وتصرفاتهم للاختلاف في النيات بين الشيء ونقيضه فيما يرون ويزعمون ويعلمون ويتعلمون .

انهم ليحاولون ، او يبدون وكأنهم يريدون ان يعالجوا كل شيء بعلاج النيات ، انهم ليتصرفون وكأنهم يرون ان كل الالام والمشاكل والاخطاء والتناقضات وكل الشرور والعداوات والخصومات والحروب لا تعني الا رداءة النيات وتلوثها .

ان كل الناس يعبثون كما كان كل التاريخ يعبث .

ان العبث خلق عالمي . ان العبث مستوى انساني وليس مستوى حضاريا أو مذهبيا أو اخلاقيا او فكريا . انه مستوى الانسان وليس مستوى حضارته أو مذهبه او آلهته او اديانه .

ان العبث مستوى وخلق كونيان ، وليسا فقط مستوى وخلقا انسانيين .

ان الشمس ، وكذا الانهار والبحار والحقول والنجوم وكل الاشياء لتعبث اكثر واشمل مما يعبث أعبث انسان لا يمارس الا أعبث العبث .

انه لا شيء في الكون أو في الانسان لا يعبث . ان أصابع الانسان

وعينيه ومشاعره وشعرات جسده وكل أعضائه وغدده ووظائفها وممارستها، وكذا مسراته وأحزانه وابتساماته ودموعه ــ ان كل ذلك في الانسان ليعبث كما يعبث منطقه واخلاقه وعلاقاته ، كما تعبث اديانه ومذاهبه وكتبه وصلواته ، وكما تعبث محاريبه ومنابره وفصاحاته وتعاليمه ومواعظه .

* *

ولكن كيف ، هل يوجد جد وعبث ؟ اليس كل الاشياء عبثا ؟ أليست أكثر الاشياء جدا هي أكثر الاشياء عبثا ؟ أليس الجد في كل صيغه هو العبث في كل تفاسيره ؟ اليست الحياة اكثر عبثا من الموت ؟ اليس الموت بعض عبثها ؟ هل الانسان او الطبيعة أو الاشياء نيات وارادات ، أم وجود وضرورات وقوانين وقدرة وعجز ؟ هل تختلف نيات البشر ، او هل يختلفون في نياتهم ؟ هل الفروق بين البشر فروق نيات ؟ هل الفروق بين الحشرات او الوحوش او الاشياء او حتى بين الاعضاء هي فروق في النيات؟ هل الفرق بين كبد او غدد هذا وبين كبد وغدد ذاك فرق في النيات ؟

هل تختلف الاعضاء في أدائها لوظائفها لاختلافها في نياتها ؟ هل الانسان الا اعضاء جاءت بلغة انسان او بصيغة انسان او بمشاكل انسان ، او بتلوث انسان ؟ هل الانسان الا أعضاء جاء بأسلوب ما ؟ هل لبعض البشر نيات من مذهب أو من دين أو من طبيعة أو من مادة أو من جنسية او من مستويات اخلاقية وانسانية ، بينما للآخرين من البشر نيات من النقيض ؟ هل تختلف مذاهب أو اديان او طبائع او مواد او جنسيات او اخلاق النيات ــ او هل تختلف النيات اذا اختلفت مذاهبها او اديانها او جنسياتها او ظروفها او مواعظها وتعاليمها ــ هل تختلف الى نظيفة والى مصابة بكل الادران ؟ هل اختلاف النيات او الاهواء اختلاف في نظافتها وقذارتها ؟ هل الاختلاف بين الاعضاء في سلوكها اختلاف في نظافة نياتها؟

هل اختلاف البشر واختلاف سلوكهم وكينوناتهم ومستوياتهم يساوي اختلاف نياتهم واراداتهم ؟ هل اختلافهم في ذلك او في شيء آخر يساوي رداءة نياتهم وفضيلة نياتهم ؟

هل اختلاف مذاهبهم او ذكائهم وغبائهم او حضاراتهم او قوتهم وضعفهم او اتباعهم للشيطان او للاله يعني اختلاف نياتهم ؟ هل ذلك يعني انه توجد نيات نظيفة أو بريئة واخرى مذنبة وملوثة ؟ وما معنى نظافة

النيات وبراءتها ؟ ومـا معنى كونها مذنبة وملوثة ؟ وهـل الاحساس بالجوع ينقسم الى مذنب وبريء ؟ هل يمكن اصلاح الناس وتغييرهم ونقلهم مـــن كينونة ومستويات الى كينونات ومستويات اخرى باصلاح نياتهم وتغييرها ؟ وهل يمكن اصلاح نياتهم او تغييرها بوعظها وتعليمها ، أو بنقلهم الى مذهب او الى دين آخر او الى زعامة اخرى ؟

* *

ومرة اخرى : ما هي النيات ؟ أجـل ما هي ؟ هـل عرفنا او سألنـا ما هي ؟ ماذا تعني طيبة ورديئة ، مذنبة وبريئة ؟ هل نيـات الاله والنبي انظف او اتقى من نيات قاتلهما ؟ من يحكم ، وما المنطق الذي يحـكم بـه ؟ كيف تحدث او تجيء هذه او هذه ؟ وكيف ، او لماذا ، او متى يصـاب هذا الانسان او هذا المجتمع بالنيات او بالارادة الطيبة ؟ وكيف ، او لمـاذا ، او متى يصاب الانسان الآخر او المجتمع الاخر بالنقيض ؟ كيف تجيء النيـات المختلفة ، وكيف توزع على الناس ، أو كيف يختار هذا النـوع من النيـات هذا الفريق من الناس ليختار النوع الآخـر من النيـات الفريق الآخر من النـاس ؟

* *

ان كلمات طهارة النيات وخبثها ، او نظافة النفوس ودنسها كلمـات في اللغة لا في التفسير او التفكير . ان بين كل كلمة واخرى فروقا لغويـة دون ان تكون بينها فروق انسانية او طبيعية او تفسيرية . انهـا فروق توجد في قواميس اللغة دون ان توجد في سلوك او في اخلاق او منطق واضعي هذه القواميس . ان واضعي القواميس اللغوية ومفسري اللغات لا يعرفون أية فروق منطقية او اخلاقية او ذاتية بين النيـات .

نعم ، هل الزعيم او القائد او العالم او المفكر او الفنان او القديس العظيم انظف نيات من السارق او القاتل أو من أي انسان صغير جدا ؟ هل أعضاؤه اطهر او أشرف او أصدق جوعا او أقـل جوعا أو احتياجا من اعضاء السارق او القاتل او من اعضاء الانسان الصغير جدا ؟

هل اعضاء الانبياء والقديسين والرجال العظام والكبار جدا اقوى على رفض الجوع او التعب او الالم او الاعياء او الانهيار او الارتجاف او التلوث من اعضاء أي برغوث يعيش في التراب والاوحال والشقوق ؟ هـل اعضاء

الانبياء والقديسين والقادة والكبار والعظماء تتحول في وظائفها واحتياجاتها ونياتها الى انبياء وقديسين وقادة وكبراء وعظماء ؟ هل تختلف الأعضاء في نياتها ؟

هل الانسان اكثر نظافة او رفضا أو صعودا في أعضائه أو في نياته من اية حشرة ليس لها كتب مقدسة ، وليس لها كذلك محاريب او منابر او انبياء أو تعاليم زاخرة بفنون البلاغة والارهاب والكبرياء ؟ هل اية حشرة اكثر صدقا او شرفا او طهارة او شموخا في نياتها من اية حشرة اخرى ؟ هل استطاعت جميع محاريب الانسان ومنابره وانبيائه وتعاليمه وكتبه المقدسة أن تصنع له أعضاء انظف نيات أو أكبر على الجوع من اعضاء اي صرصار يتغذى بالهوان ؟

هل الاله في نياته او في حوافزه او في اهدافه او في اي تفسير من تفاسيره انظف او اشرف او اكثر اباء من اية ذبابة قد عانى اي الاله معاناة باهظة في خلقها وفي التفكير والتدبير والتخطيط لصياغة وجودها في أذكى واعظم وابرع النماذج والصيغ ؟

هل يمكن ان يباهي الاله أية ذبابة بطهارة نياته او حوافزه او أهدافه ؟

* *

ان الناس جميعا لا يستطيعون او لا يريدون او لا ينوون ان يفعلوا او ان يكونوا الا ما يقدرون عليه ، أو الا ما يصنع لهم الطموح او الكبرياء والنشوة او الراحة او الاعجاب بالنفس ، او الا ما يرونه ملائما لهم ، او صانعا لقلوبهم ولاعضائهم ولتفاهاتهم ولجوعهم المسرة والتعري والنزق واللذات المحرمة او البذيئة او المخجلة او العدوانية او الفضاحة او المذلة، أي ما لم يضطروا الى نقيض ذلك اضطرارا . هل نيات الاله أو النبي أو العبقري تتكون او تتحرك بمنطق او بأخلاق او بأسلوب غير المنطق والاسلوب والاخلاق التي تتكون وتتحرك بها نيات الحشرات ؟

ان البشر جميعا في جميع ممارساتهم ونياتهم وتدبيرهم وتفكيرهم انما يحاولون الفرار من شعور الى شعور آخر ، او من حالة الى حالة ، او من موقف الى موقف ، أو من اي شيء الى نقيضه . انهم جميعا ودائما انما يحاولون الانتقال من الالم الى اللذة ، واحيانا من اللذة الى الالم ، او من الالم الى الالم ، او من اللذة الى اللذة ، او من العبث الى العبث ،

او مـن أي شيء الى نفسه بصيغة أخرى او بمعاناة اخرى ، او تحت زعم ما او عقيدة ما او مذهب ما او اكذوبة ما .

ان الشيء الواحد يصبح اشياء مختلفة متعـددة تحت المذاهب او المزاعم او الشعارات المختلفة او المتعددة . ان الشيء ليصبح نقيض نفسه او عدو نفسه اذا اختلف المذهب أو الزعيم او الدين او الانسان الـذي ينادي به او الذي يمارسه .

ان الشيء قد يعطي الشعور ونقيضه . ان الشيء الواحد قد يعطي اللذة كما قد يعطي الالم . ان ما يصنع لنا الابتهاج والاعجاب والكبرياء والايمان هو ما يصنع لنا الكآبة والاشمئزاز والغضب والرفض . ان الالم قد يعطي اللذة ، كما قد تعطي اللذة الالم . وان الانتقال من الجلوس الى الوقوف ، او من الوقوف الى الجلوس ، او من الصمت الى الكلام او من الكلام الى الصمت ، او من الحركة والارتجاف الى السكون والهدوء او من السكون والهدوء الى الحركة والارتجاف ، او من الخوف الى الامـان ، او مـن الامان الى الخوف ، او من الرضا الى الغضب ، او مـن الغضب الى الرضا ، او من اي شيء الى نقيضه ، او حتى من الذكاء والرصانة والتهذيب الى السفه والبلادة والافتضاح .

ـ نعم ، ان الانتقال من هذا الى هذا قد يصنع اللذة ، وقـد يصنـع الحالة النفسية التي يصنعها الانتقال من مذهب او دين او من تفكير او من شعار او من زعيم الى آخر . وان البشر جميعا في جميـع ممارساتهم ونياتهم وتفكيرهم وتدبيرهم انما يريدون هذا الانتقال ويبحثون عنه . ان القيمة ليست دائما لمستوى او لنوع ما يمارس ، بـل لنفس الممارسـة . ان حاجتنا الى الممارسات والى اساليبها أكبر من حاجتنا الى الشيء الذي نمارسه . اننا لا بد ان نمارس وان نغني حتى ولو لم نجد شيئـا نمـارسه ونغني له .

انه ليست للبشر نيات لا نظيفة ولا ملوثة اكثر او اقل من بحثهـم عن انفسهم وعن محاولات الانتقال او الهرب بها مـن شي آخر ، او مـن الشيء الى نفسه بشعور آخر ، او بزعم اخر ، او بأسلوب اخـر ، او تحت مذهب او دين او نظام اخر .

اليس كل انتقال قد وقع او سوف يقع ما هو الا انتقال من الشيء الى نفسه او الى معناه وتفسيره تحتدعوى اخرى او شعارات اخرى او اكاذيب اخرى ؟

ان شعور الانسان دائما متحرك ، انه دائما يطلب التغيير حتى ولو بلا هدف او خطة او غرض معروف او مقصود . وقد يطلب الانزعاج والمغامرة والمخاطرة . انه قد يطلب التغيير رغبة في التغيير لا فيما يعطيه أو يصنعه التغيير . اننا لو لم نجد اي أسلوب من التغيير نمارسه الا بأن نقاوم ونعادي انفسنا لكان محتوما ان نقاوم ونعادي انفسنا .

* *

ان المغامرة او المخاطرة المثيرة معنى كبير من معاني الحياة . انها شوق من اشواقها ونشوة من نشواتها . ان المخاطرة الحمقاء هي احدى رقصات الحياة بل احدى رقصات الكون السعيدة .

ان المخاطرات الباهظة هي احد اساليب الحياة في مغازلاتها لنفسها، انها احد اساليبها في تسويغها وتفسيرها لتفاهاتها وآلامها وسخافاتها . انها بالمخاطرات تهرب بنفسها عن التحديق في نفسها وعن القراءة لنفسهاوعن محاسبة نفسها . ان الحياة قد تخاطر لتهرب من مواجهة نفسها . انها قد تخاطر لتهرب من قراءتها لنفسها او من محاسبتها لنفسها .

ان المغامرة او المخاطرة لنفس المغامرة او المخاطرة ، فرارا من الامان او الصمت او الاستقرار ، مطلب من مطالب الحياة ، وتفسير من تفاسيرها . ان الامان والاستقرار لعذاب وموت احيانا .

ان العاصفة المدمرة قصيدة رائعة وخالدة من قصائد الكون ، ومن اغانيه وانشاداته لنفسه . ان العاصفة نشيد رائع ، تعزي وتحيي وتجامل وتغازل به الطبيعة نفسها ، او تغالظ به احزانها وآلامها وضياعها وتفاهاتها، او تغطيها بـه .

ان الامان والاستقرار الدائمين لهما اقسى عذاب تعاقب به الحياة نفسها وتعاقب به الانسان .

.. ان الخطر والخوف المتحركين المتجددين لهما اعظم وانبل هدايا الحياة الى الحياة والى الانسان ايضا .

* *

اذن من هم نظاف النيات ، ومن هم ملوثوها ، ومن هم متطهرو النفوس ومن هم مدنسوها ؟ هل يوجد هؤلاء وهؤلاء ؟ وهل هؤلاء غير هؤلاء ؟ هل يمكن معرفة هؤلاء ومعرفة هؤلاء ؟ هل توجد حدود فاصلة او صفات مميزة بين الفريقين ؟ ما هي الحدود الفاصلة ؟ ما هي الصفات او العلامات المميزة بين النقيضين ؟

ان كل الناس لا بد ان يكونوا هؤلاء فقط ، او هؤلاء فقط . انهم جميعا لا بد ان يكونوا كلهم من ذوي النيات النظيفة او ان يكونوا كلهم من ذوي النيات الاخرى . انه لا يمكن ان يكونوا هؤلاء وهؤلاء . انهم مهما انقسموا في لغاتهم او في تعبيراتهم او في مذاهبهم او في اديانهم او في حضاراتهم او في أخلاقهم ومستوياتهم او في تقواهم او في نظافة أجسادهم وثيابهم ، فانهم لا يستطيعون ان ينقسموا في نياتهم ، اي في نظافتها وتلوثها ، في ورعها او في فسوقها .

ان النيات كالاحساس بالالم او بالتعب او بالجوع الذي لا يقبل الانقسام الى نظيف وملوث او الى ورع وفاسق .

ان الشمس والقمر لا بد ان يكونا رديئين جدا او فاضلين جدا . انهما اي الشمس والقمر لن يكونا هذا وهذا ، بل لا بد ان يكونا معا هذا او هذا . لن يكون أحدهما رديئا والاخر فاضلا ، بل محتوم ان يكون كلاهما رديئا او كلاهما فاضلا .

ان البشر لمثل الشمس والقمر في هذه القضية .

* *

ان جميع البشر ليطلبون الراحة واللذة ولو الراحة واللذة اللتين يهبهما التعب والالم ، كما انهم جميعا يرفضون الالم والتعب ويهربون منهما ، ولو الالم والتعب اللذين تصنعهما الراحة واللذة . انه ليس فيهم من ينوي نقيض ما ينوي الاخر ، مهما وجد فيهم من يريد ويفعل ما لا يريد وما لا

يفعل الاخر . ان نياتهم لا تختلف في طبيعتها مهما اختلفت في تعبيراتها ، وان اعضاءهم لا تختلف في وظائفها مهما اختلفت في ممارساتها وفي تعبيراتها .

ان البشر جميعا لا يطلبون ولا يفعلون الا شهوتهم كيف كانت ومتى كانت ، مهما كانت الاساليب ، او مهما اختلفت او تعددت الاساليب والممارسات والتعبيرات .

ان المعنى الخير او المعنى الشرير الجامع لكل البشر في كل مستوياتهم الدينية او المذهبية او الحضارية او الانسانية او حتى العبقرية هو الشهوانية . انهم جميعا شهوانيون . انهم لا يختلفون في انهم جميعا شهوانيون مهما اختلفت مواقع شهواتهم او اصنافها او اساليبها . انهم جميعا مفترسون مهما اختلفت او تعددت انيابهم او فرائسهم او هجماتهم ، ومهما كانوا بلا انياب او فرائس او هجمات ، او انهم جميعا غير مفترسين وغير نابيين مهما كانت فرائسهم وانيابهم .

اذن هل هم طيبون أم رديئون ؟ هل الشهوانية هجاء أم ثناء ؟ انهم اذن جميعا طيبون او جميعا رديئون . ان البشر مهما انقسموا الى ارانب ووحوش فانهم جميعا فى نياتهم اما ارانب فقط او وحوش فقط . ان التفاوت والخلاف بينهم في الاسلوب او في التعبير او فى التقدير او في القدرة لا في الشهوانية . ان الارانب ليست اقل شهوانية او انظف او اتقى شهوانية من الذئب .

ان الحمائم ليست اكثر تديناً او روعا في شهواتها او نياتها من الصقور او من الافاعي .

ان صانع السلام ليس اتقى او اقل شهوانية من صانع افظع الحروب .

ان رافض الطعام ليس اتقى جوعا او اقل جوعا من سارق الطعام .

ان الناس لا يتفاوتون في التقوى مهما تفاوتوا في تعبيراتهم او في ضراعاتهم او في صلواتهم . انهم لا يتفاوتون في قربهم او في بعدهم من السماء ، او في حبهم للالهة أو في رؤيتهم لجمالها . انهم لا يتفاوتون في التقوى مهما تفاوتوا في اساليبهم او في محاريبهم . انهم مهما اختلفوا في اساليب صلواتهم فانهم لا يختلفون في مستوى تقواهم ولا في حوافز تقواهم او نيات تقواهم .

انه ليس في الناس من ينوون ان يؤثروا الالهة على انفسهم . ان الانبياء والقديسين ليسوا في نياتهم اكثر ايثارا للالهة على شهواتهم من اشد العصاة عصيانا وشهوانية .

انهم لا يختلفون في ضغط اعضائهم عليهم او في احساسهم بالجوع والالم والتعب والكآبة وبالجنس وبالحاجة الى النوم وبالسقوط الى الارض .

انهم لا يختلفون في خضوعهم لقانون الجاذبية الارضية . انه ليس فيهم من يرفض جسده الخضوع لقانون الجاذبية ، من يرفض السقوط الى الارض ، ولو الى الارض التي فوق . ان النازلين على القمر ليسوا الا هابطين الى ارض اخرى . انهم خاضعون لقانون الجاذبية الارضية الاخرى.

انهم لا يختلفون في وظائف اعضائهم ولا في القدرة على عصيانها . انهم مهما عصوا اعضاءهم فانهم مطيعون باستسلام لها . انهم يطيعونها بعصيانها.

انهم يختلفون في اساليب عصيانهم لاعضائهم . ولهذا فقد يبدون وكانهم يعصون اعضاءهم حينما يكونون مبالغين جدا في طاعتها .

ان عصيان البشر لاعضائهم ليس الا استسلاما لها باسلوب آخر . انهم يطيعونها بأسلوب من يعصونها ، انك لا تستطيع ان تعصي اعضاءك الا بقدر ما تستطيع ان تطيعها . ان الصراع فيك هو صراع بين اعضائك واعضائك وليس بين اعضائك ونياتك او بين اعضائك وتقواك .

ان كل التفاوت بين البشر ، بين اتقيائهم وفجارهم هو تفاوت في الاساليب والصيغ التي يعبرون بها عن خضوعهم لاعضائهم ولمجاعاتهم ولاحاسيسهم بسلطان الجوع والجنس والالم والتعب والخوف عليهم . ان كل تفاوتهم هو في صيغ واساليب خضوعهم الشهوانية .

ان اضعف صرصار جائع مطرود من كل اماكن الطعام ليس اشرس شهوانية او اكثر استسلاما للشهوانية من اعظم انسان او من اتقى قديس .

ان أعلى المعلمين او الزعماء صوتا ووعظا ضد الشهوانية ليس اقل شهوانية أو احساسا بها من من اشرس الذئاب جوعا وافتراسا .

واذا كنا نعد القديسين قديسين وهم لا يريدون ولا ينفذون الا شهواتهم خاضعة ومتعاملة اي شهواتهم مع ظروفها وقدرتها ، فلماذا لا نعد الخاطئات ايضا قديسات وهن كذلك لا يردن ولا ينفذن الا شهواتهن ، خاضعة اي شهواتهن لظروفها وقدرتها ، ومتعاملة أي شهواتهن مع ظروفها وقدرتها ؟

ان التقوى والايمان يصبحان شهوة وارادة وهوى مثل ممارسة الحرام ومثل سب الاخرين والعدوان عليهم .

انه ليس بين البشر خلاف او تفاوت في التفسير او في الترجمة . ان كل التفسير بينهم في اللغة . ان جميع الاشياء والكائنات لكذلك . ان الخلاف او التفاوت بين الشمس الواهبة القائدة المضيئة وبين القمر الموهوب التابع المظلم ليس الا خلافا او تفاوتا في اللغة اي في اسلوب التعبير وفي مستواه ، وليس اي الخلاف او التفاوت بين الشمس والقمر في التفسير او في الترجمة ، اي ليس في المنطق او في النية او في الحافز او في الهدف .

ان سلوك الشمس ليس اتقى من سلوك القمر لا في النية ولا في الفكرة ولا في الحوافز ولا في الاهداف .

ان البشر اذن جميعا سواء في طهارة نياتهم او في تلوثها . انهم جميعا اما طاهرون مغتسلون بجميع انهار القداسة والنظافة ، واما هم جميعا انجاس لا يستطيع شيء ان يجعلهم يتطهرون او يتنظفون حتى ولو غرقت او احترقت جميع اعضائهم وشهواتهم ونياتهم وضمائرهم في كل ما في الكون وبكل ما في الكون من انهار وبحار ومن شموس ونيران . وهل يوجد فرق بين الطهارة والنجاسة ؟ ومن صنع او وجد او رأى او حسب هذا الفرق ؟ وما هو هذا الفرق ؟ وما تفسيره ، وما حدوده ، ولماذا هو ؟

* *

ان احكام البشر ورؤاهم ابدا ذاتية . ان جميع ما لا يوافق او يلائم او ينافق او يريح منطقهم او ظروفهم او رغباتهم او مواقفهم او مصالحهم او آلامهم او مسراتهم الخاصة فهو لن يكون نظيفا ولا كريما ولا صحيحا ، بل ولا ذكيا . والعكس صحيح بنفس القوة والنسبة . ونحن ومن هم موضوع احكامنا ورؤانا متساوون في هذه الذاتية . نحن نحكم بهذه الذاتية ونخضع لها ، وهم مثلنا سواء يحكمون بها ويخضعون لها .

انه لا فضل لاحد على احد في هذه القضية او في هذه الذاتية ، بالمستوى الذي لا فضل فيه لحجر على حجر ولا لحشرة على حشرة في

الخضوع للقوانين الذاتية والطبيعية وللجاذبية الارضية والكونية .

ان اختلاف الحشرات في سلوكها لا يعني اختلافها في نياتها . وكذلك اختلاف الناس في سلوكهم .

ان النبي والكافر به يعيشان حقيقة واحدة ، ولكنهما يعبران عنها بلغتين مختلفتين او باسلوبين مختلفين . ان نياتهما لا تختلف ، وانما تختلف ممارساتهما لهذه النيات . ان النبي لا يعصي نفسه اكثر مما يعصيها الكافر به ، وان الكافر بالنبي لا يطيع نفسه اكثر مما يطيعها النبي .

ومهما اراد الانسان أن تكون نياته أو شهواته فانه لن يستطيع ان يضع فيها اي في نياته وشهواته غير ما يلائمه او يريحه او يشتهيه او يهبه المسرة أو الكبرياء او الرضا عن النفس ، أو الشعور بالامان او الاستقرار ، ولو في ظنه وتقديره . وهذا الذي يفعل له ذلك لا يكون ابدا الا ذاتيا . وهل الذاتيات تختلف ؟ وهل اختلافها يعني شيئا رديئا وملوثا وشيئا جيدا ونظيفا ، اي هل يعني انها هذا وهذا ، او انها تنقسم الى هذا والى هذا ؟

* *

انه الهزل الباهظ الثمن ، واعني به محاولاتنا الدائمة والواسعة والكبيرة أن نغير النيات أو الاخلاق أو السلوك أو القدرة او العجز او الحياة أو الاشياء او احتياجات الاعضاء أو مجاعاتها أو وظائفها او نظافتها أو تلوثها بالدعوة الى التطهر والتطهير .

انه الهزل القديم الحديث الدائم الشامل الذي يدفع فيه كل البشر اضخم الاثمان والتكاليف . انه الهزل الغالي الثمن والتكاليف ، الغالي الاجهزة ، الغالية الانفاق والاعداد والحماس . انه الهزل الذي لا يخجل منه أحد والذي لا يخفيه أو يرفضه أو يقاومه أو يبشر ضده احد . بل انه الهزل الذي يفاخر به كل احد ، بل كل مجتمع .

انه الهزل الذي يمارسه كل الناس ، وكل الاديان وكل المذاهب وكل التعاليم وكل الحضارات والمستويات والعقول والاخلاق والمجتمعات وكل الانبياء والزعماء والمعلمين والمنابر .

انه الهزل الذي يمارسه ويفكر فيه ويعد له ويهتم به وينتظر منه جميع البشر ، حتى الكبار جدا ، وحتى العلماء ، وحتى المفكرون ، وحتى الملحدون ، وحتى الثوريون جدا ، في منطقهم واخلاقهم وسلوكهم ومشاعرهم ونياتهم ، وحتى الجادون جدا الرافضون والمقاومون جدا لكل اساليب ومستويات الهزل .

انه ليس هزلا يمارسه فقط الهازلون او الباحثون عن الهزل او الذين لا يخجلون او يشمئزون من الهزل ، او من اي هزل . انه ليس الهزل الذي يمارسه وعاظ السماء وحدهم ، ولا الذي يعجب به سكان السماء وحدهم .

انه الهزل الذي يمارسه ويعجب به ويعلن عنه ويعد له وينفق عليه كل مذهب ودين وفكر وذكاء ومجتمع ، وكل نبي ومعلم وزعيم وقائد واله .

انه الهزل الذي تمجده الالهة وتمجد به الالهة بل الذي لا تمجد الالهة بسواه ولا تمجد سواه .

وهل يمارس الهزل او يعجب به او ينفق عليه او يعلن عنه او يدعو اليه او يمجده مثل الالهة ؟ اليست الالهة هي اكثر الهازلين هزلا ؟ وهل تستطيع الالهة ان تصنع سوى الهزل بل او ان تريد سوى الهزل ، بل او ان تمجد سوى الهزل او ان تمجد بشيء سوى الهزل ؟ وهل للالهة صفات او افكار او اهتمامات غير ان تعيش الهزل وان تفكر فيه وان تهتم به وان تطالب وتفرح به ؟

وهل يوجد هزل الا وهو حصيلة هزل الالهة ؟ هل يستطيع احد ان يهزل لولا هزل الالهة ؟ اليس كل هازل وكل هزل قد وجدا لان الالهة قد هزلت هزلتها الكبرى ؟

لقد هزلت الالهة هزلتها الكونية فاصبح كل شيء هزلا .
هل يمكن ان يكون شيء ما غير هزل اما في ذاته ووجوده ونماذجه وممارساته ، واما في حوافزه واهدافه ومنطقه ؟

بل ان كل شيء لا بد ان يكون هزلا في كل ذلك ، اي في ذاتـــه وفي اساليبه واحتياجاته ، وفي مبدأ وجوده ، وفي صيغ وجوده ، وفي كـــل ممارساته وتفاسيره المنطقية والاخلاقية والنفسية والتاريخية بل والذاتية .

انه الهزل الذي تمجده الالهة وتمجد به الالهة بل الذي لا تمجـــد وكل تفاسيرها هي كل الهزل وكل تفاسيره .

ان كل وجود يجيء ويظل بلا تفسير ، اذن كل موجود يجيء ويظــل ويذهب بلا تفسير ، اذن كل موجود لا بد ان يكون هزلا في مجيئــه وفــي جميع صيغ مجيئه ، وفي بقائه وفي جميع صيغ بقائه ، وفي ذهابه وفي جميع صيغ ذهابــه .

اذن كل شيء لا بد ان يكون هزلا كيفما جاء وكيفما بقي ، وكيفما ذهب وكيفما جاع واحتاج ومارس جوعه واحتياجه ، وكيفما فسر او مارس نفسه او وجـــوده .

ان كل وجود اول لا بد ان يكون هزلا ، اي لا بد ان يكون هزلا كــل وجود غير مسبوق بوجود اخر يحتاج اليه ويريده ويخططه ويخطط له ثم يوجده بصيغة وبمستوى وتحت ظروف تكون ملائمة له ومفهومة ومحسوبة وموضوعــة .

واذا كان كل وجود اول لا بد ان يكون هزلا كان كل وجود لا بد ان يكون هزلا لان كل وجود لا بد ان يكون وجودا اول او وجودا ناتجا عـــن الوجود الاول ، اي لا بد ان يكون هزلا او ناتجا عن الهزل ، اي حاجة من حاجات الهزل او ممارسة من ممارساته ، اي خبطة من خبطاته .

ولكن ما هو الهزل ؟ انه ما ليس جدا . اذن ما هو الجد ؟ انه ما ليس هزلا . ولكن اليس هذا الكلام عن الجد والهزل او هذا التفسير لهما هــو اعلى مستويات الهزل ؟

* *

أن الاشتغال بالتطهير الذاتي لنفس أو للنيات ، أو بالدعوة الى هذا التطهير ، أو بتجريم أهواء النفس أو النيات ، أو بمحاسبتها على اتجاهاتها ومجاعاتها وتقلباتها .

ـ ان الاشتغال بذلك ليس الا اسلوبا من اساليب الدعوة للاعضاء المحرمة المخفاة خجلا منها الى التطهر والتحرر من اخلاقها وضروراتهما ووظائفها ومن احساسها بنفسها وبضغوطها ومن نياتها ونداءاتها غير المهذبة وغير الملتزمة بالحياء او بالوقار والتهذيب او بالاديان او بالمذاهب او بالتعاليم او باوامر الزعماء وخطبهم المتوترة المهددة البليغة .

ان الاشتغال بذلك او بالدعوة اليه ليس اذكى او افضل من الاشتغال بدعوة الحشرات الى ان تكون اكثر نظافة أو استتارا أو حياء أو شهامة او تقوى .

اذن أليس جميع الدعاة وواعظي الاعضاء بان تتطهر من جوعها وشهواتها ونياتها هم وعاظ ودعاة حشرات ؟

* *

ان دعوة النيات الى ان تكون اتقى او انظف او اقوى ليست افضل من دعوة اية حشرة الى ذلك . ان كل تعاليم الاديان والمذاهب والفلسفات والاخلاق لن تستطيع ان تصنع للنيات موجهة اليها ، مسلطة عليها اكثر أو افضل مما تستطيع اي تعاليم الاديان والمذاهب والاخلاق والفلسفات ، ان تصنع لاخلاق ونيات الذبابة لو وجهت أي تعاليم الاديان والمذاهب والفلسفات والاخلاق اليها اي الى الذبابة وسلطت بكل جبروتها وارهابها عليها . ان جميع التعاليم والمواعظ التي جاءت بها الاديان والمذاهب والفلسفات والاخلاق لم تكن الا تخاطبا مع اخلاق ونيات الذبابة لتكون اتقى وانظف .

ان نبيا عظيما لو توجه الينا بكل موكبه ورهبوته السماوي ليطالب نياتنا بان تتطهر من شهواتها واهوائها لما صنع لنا افضل مما يمكن ان يصنع لاية ذبابة لو انه توجه اليها بكل ذلك . ان مناشدة النبوات لنياتنا

ليست أفضل عطاء من مناشدة النبوات لاخلاق الحشرات . اذن لماذا جاءت النبوات لتخاطب اعضاءنا ونياتها اكثر مما جاءت لتخاطب اعضاء الحشرات ونياتهـــا ؟

* *

اننا لا نوجد او نحيا او نتعامل او نتحرك او نفكر او نعمل او نسعد ونبتهج بالنيات الطيبة او المخلصة او المحبة او النظيفـــة او المتدينـــة او الملتزمة بالمذهب او بالنظام او بالعقيدة ، وانما نفعل ذلك ونكون ذلـــك بالمعرفة والقدرة والاحتياج والضرورة والهوى وبالرغبة وبالالزام الذي لا نختاره ولا نختار ازاءه او معه .

اننا لا نتلاقى او نتصافح او نتعاون او نتجمع او نتحالف او نتعاقد بالصداقة أو بالايثار او بالاقتناع بقيمة الالهة او بقيمة الطبيعة او الحياة او بقيمة المذاهب والتعاليم والاخلاق والاديان او بقيمة ونبل ما نفعل ـ ولكن بالانانية والخوف والضرورة والتقليد والاستمرار والاندفاع والحمـــاس والافتـــراس ..

اننا لسنا كائنات تعيش أو تتعامل بالحب ، ولكن بالضرورة والارادة والاشتهاء والجوع والافتراس والمنافسة والغيرة والكبريـــاء والاستســـلام والهزيمـــة .

اننا لسنا نظريات او افكارا او اديانا أو مذاهب او مواعظ ، ولكننا قوانـــين .

اننا لسنا قوانين اخلاقية او فكرية او انسانية ، بل قوانين طبيعية . اننا لسنا قوانين حتى ولا طبيعية . ان القوانين الطبيعية مضبوطة ومتقررة ومحتومة . فهل نحن كذلك ؟

اننا لسنا ارادات بل ضرورات . اننا نريد حتما ، ولكن لماذا نريد ؟

أن ارادتنا خاضعة لغير ارادتنا ، أنها محكومة بغير ذاتها .

وهل نحن حقا ضرورات ؟ وما هي الضرورة في ان نكون وفي أن نكون محتاجين ومحكومين بالضرورات ؟

نحن لا نريد لاننا نريد ان نريد ، ولا لاننا نريد ما نريد او نعرف ما نريده أو نحترمه ، ولكن لان شيئا ما يجعلنا نريد ويجعلنا نريد ما نريد . اننا نريد ونريد ما نريد كما نمرض ونتألم ونجوع ونموت . أن ارادتنا نوع من الاصابة لنا او من الحكم علينا او من القهر او التعذيب او الالزام لنا . اننا نريد بالاسلوب الذي به نتألم ونسقط اعياء .

ولو كنا نستطيع الا نريد والا نريد ما نريد لكان سؤالا صحيحا وقويا ان نسأل : لماذا نريد ، ولماذا نريد نفس ما نريد وبالاسلوب الذي به نريد .

اي منطق او تفسير لهذا او في هذا ؟ اي منطق او تفسير لان نكون كما كنا ؟

ان ارادة الانسان مفروضة عليه كما فرض عليه وجوده ومولده ونموذجه وصفاته وظروفه وسماته وحياته ومكانه . ولهذا فان حريته ليست اكثر من حرية الحجر في ان يكون اي الحجر حجمه وذاته ومادته وصفاته ، وفي ان يكون حجرا لا شيئا اخر ، وفي الا يكون حجرا .

انه اي الانسان يريد ، والحجر لا يريد . اذن هو اكثر حرية من الحجر ، او هو حر دون الحجر . ولكن الانسان خاضع لارادته ومحكوم بها . اذن هو غير حر في مواجهته لارادته ، وارادته غير حرة لانها خاضعة لغير ذاتها ومحكومة بغير ذاتها . وهل يكون غير الحر والمحكوم بقوة غير حرة حرا ؟ أليس الذي يفعل ويريد لانه لا يملك ألا يفعل والا يريد اكثر عبودية من الذي لا يفعل ولا يريد لانه لا يملك ان يفعل او ان يريد ؟ اي اليس الانسان اكثر عبودية وفقدا للحرية من الحجر ؟

اليس الذي يمرض ويموت ويشيخ ويحزن ويتشوه لانه ليس حرا

في الا يفعل ذلك ، او لانه حر ان يفعل ذلك ، اكثر عبودية واكثر فقدانا للحرية من الذي لا يفعل ذلك ولا يستطيع ان يفعله ؟ اليس الذي يتحرك ويفعل ويختار ويريد وهو غير حر اكثر او اقسى عبودية من الذي لا يصنع شيئا من ذلك وهو غير حر ؟

اذن اليس الانسان اقل حرية او اقسى عبودية من الحجر ؟

* *

ان السلاح يقتل ويجرح ويدمر ولكنه لا يفعل شيئا من ذلك الا وهو خاضع للانسان الذي يطلقه ويصنعه . وان الانسان يصنع السلاح ويقتل ويجرح ويدمر به كما يصنع كل اساليب ومستويات حياته ، وكما يصنع ايضا خطاياه وحماقاته . ولكنه لا يفعل شيئا من ذلك الا وهو خاضع لارادته . وارادته خاضعة لغير ارادته . انه لم يرد ارادته ولم يدبرها ولم يعرفها ولم يخترها . وانه لا يدري كيف فرض عليه ان يكون مريدا ، ومريدا بهذا الاسلوب ، ولهذا المراد ، وبهذه القوة او بهذا الضعف ، وبهذا النزق او بهذا الوقار .

فمن اكثر حرية ، او اقسى عبودية : السلاح ام الانسان ؟

وما هو الافضل او الانفع للكائن او للانسان : ان يكون حرا ام ان يكون فاقدا للحرية ؟

* *

انه لا يوجد فاقد للحرية ويبدو كاعظم مالك لكل الحرية مثل الانسان. ان حريته في ان يكون ويحيا ويبدع ويحارب ويسالم ويصنع الحضارات العظيمة والحماقات والذنوب العظيمة ايضا ليست اعظم او اقوى من

خريته في أن يمرض ويتألم ويتشوه ويشيخ ويموت ويجوع وينام ويعادي الحريات ويقاومها ويخاف منها .

ان الانسان ليبدو وكأنه هو وحده الحر في هذا الكون ، او كأن شيئا ما لا يساويه في حريته في هذا الكون .

ولكن هل الانسان اكبر حرية من النهر او من المطر او من الشمس او من الطقس او من الزلزال او من الاعصار او من أي شيء طبيعي في ممارسته لنفسه او لاعماله او لضروراته او لجبريته او لفقده لحريته ؟ هل حدوث الارادة في الانسان اكثر حرية من حدوث الزلزال او الفيضان او الاعصار في الطبيعة ، او من اصابته اي اصابة الانسان بالمرض او بالتشوه أو بالشيخوخة او بالموت او بضعف البصر او بمرض الاسنان وسقوطها ؟

وهل فقد الانسان لحريته في مواجهته لارادته أقل من فقد الاحداث الطبيعية لحريتها حين خضوعها لعواملها الموجبة لحدوثها ؟ هل خضوع الانسان لارادته الكاملة الموجبة اقل من خضوع المطر لعوامله الكاملة الموجبة؟ هل يختار الانسان امام ارادته الكاملة اكثر من اختيار المطر امام عوامله الكاملة؟ ان المريد لا يمكن ان يكون حرا . ان الارادة هي أقسى وأشمل مستويات الهزيمة للمريد . انك بقدر ما تكون مريدا تكون مهزوما لذاتك ومهزومة ذاتك . انه اذا وجدت ارادة الانسان الموجبة لان يفعل فلا بد ان يفعل، واذا لم توجد هذه الارادة الموجبة فلا يمكن ان يفعل ، اي انه اذا وجدت الإرادة الكاملة والمشترطة للفعل فلا بد من وقوع الفعل ، واذا لم توجد هذه الارادة فلا يمكن ان يحدث الفعل

اذن متى يكون الانسان حرا في أن يفعل وفي الا يفعل ؟ انه اذا فعل فليس حرا في الا يفعل ، وانه حين لا يفعل ليس حرا في أن يفعل ، انه ليس حرا في أن يفعل ما لم يفعل ولا حرا في الا يفعل ما فعل .

ان يدي لتبدو حرة دون القلم الذي أكتب به . فهل اليد أكثر حرية من القلم ؟ وهل الانسان حر الا بالاسلوب او بالمقدار الذي تبدو به اليد او تكون به اليد حرة ، أو بالاسلوب أو بالمقدار الذي يبدو به القلم أو يكون به القلم حرا ؟

حريته في أن يمرض ويتألم ويتشوه ويشيخ ويموت ويجوع وينام ويعادي الحريات ويقاومها ويخاف منها .

ان الانسان ليبدو وكأنه هو وحده الحر في هذا الكون ، او كأن شيئا ما لا يساويه في حريته في هذا الكون .

ولكن هل الانسان اكبر حرية من النهر او من المطر او من الشمس او من الطقس او من الزلزال او من الاعصار او من اي شيء طبيعي في ممارسته لنفسه او لاعماله او لضروراته او لجبريته او لفقده لحريته ؟ هل حدوث الارادة في الانسان اكثر حرية من حدوث الزلزال او الفيضان او الاعصار في الطبيعة ، او من اصابته اي اصابة الانسان بالمرض او بالتشوه أو بالشيخوخة او بالموت او بضعف البصر او بمرض الاسنان وسقوطها ؟

وهل فقد الانسان لحريته في مواجهته لارادته أقل من فقد الاحداث الطبيعية لحريتها حين خضوعها لعواملها الموجبة لحدوثها ؟ هل خضوع الانسان لارادته الكاملة الموجبة أقل من خضوع المطر لعوامله الكاملة الموجبة؟ هل يختار الانسان امام ارادته الكاملة اكثر من اختيار المطر امام عوامله الكاملة؟ ان المريد لا يمكن ان يكون حرا . ان الارادة هي اقسى وأشمل مستويات الهزيمة للمريد . انك بقدر ما تكون مريدا تكون مهزوما لذاتك ومهزومة ذاتك . انه اذا وجدت ارادة الانسان الموجبة لان يفعل فلا بد ان يفعل، واذا لم توجد هذه الارادة الموجبة فلا يمكن ان يفعل ، اي انه اذا وجدت الارادة الكاملة والمشترطة للفعل فلا بد من وقوع الفعل ، واذا لم توجد هذه الارادة فلا يمكن ان يحدث الفعل

اذن متى يكون الانسان حرا في أن يفعل وفي الا يفعل ؟ انه اذا فعل فليس حرا في الا يفعل ، وانه حين لا يفعل ليس حرا في أن يفعل ، انه ليس حرا في أن يفعل ما لم يفعل ولا حرا في الا يفعل ما فعل .

ان يدي لتبدو حرة دون القلم الذي اكتب به . فهل اليد أكثر حرية من القلم ؟ وهل الانسان حر الا بالاسلوب أو بالمقدار الذي تبدو به اليد او تكون به اليد حرة ، أو بالاسلوب أو بالمقدار الذي يبدو به القلم أو يكون به القلم حرا ؟

هل كان الانسان مخطئا في رؤيته وقراءته لنفسه أم كان محايياً متملقا لها حينما زعم أو اقتنع انه حر ؟ وهل اقتنع الانسان حقا انه حر مهما زعم أو تحدث أو خطب أو علم وتعلم انه كذلك ، مهما قال له معلموه ذلك ؟

لقد كان الانسان يفسر دائما ويرى دائما بانه هو اكثر الاشياء حرية ، أو بانه هو وحده الحر دون كل الاشياء وكل الكائنات . والسبب في هذا التفسير للانسان أو في هذه الرؤية له انه هو اكثر واسرع الكائنات تحركا وتنقلا بين جبرياته وضروراته المتناقضة او المختلفة او المتعددة . انه ينتقل من هذا الشيء أو من هذا الموقف او من هذا المكان او من هذا المذهب أو من هذا المنطق والتفكير ، او من هذا النقيض الى الآخر المخالف أو المعارض أو الموافق أو المناقض بسرعة وسهولة واعلان فيه كل معاني التباهي .. وحينئذ يبدو اي الانسان حرا ، ويفسر بانه هو وحده الحر دون أي قيد . انه لهذا السبب لا بد ان يرى مالكا لكل أساليب ومعاني الحرية .

ومن الذي رأى الانسان حرا او اعتقد انه كذلك ؟ لعل أولئك هم معلموه وطغاته وقادته وهم يطالبونه بأن يطيعهم ويموت لهم .

ان الانسان يتحرك ويتنقل بين الاشياء او بين جبرياته وضروراته المتناقضة والمختلفة والمتعارضة بهذه السهولة والسرعة لانه لكثر الاشياء وقوعا تحت عوامل وأسباب الضغط الكثيرة المتعاقبة عليه بقسوة وجبروت وارهاب ، لتتنقل به بين مختلف وعديد المواقف والممارسات والاهواء والشهوات والضرورات التي كلها استعباد واكراه لا مثيل له في وحشيته وعنفه . ان التنقل السريع بين الضرورات والارادات هو اقسى اساليب العبودية .

انه يتنقل بين عوامل الاكراه اكثر واسرع من كل الاشياء وكل الكائنات . انه لهذا اكثر واقسى واشمل من كل الكائنات عبودية بينما بدا وفسر وكأنه أكثر الكائنات حرية ، او كأنه هو وحده الحر دون كل الاشياء وكل الكائنات .

لقد فسر اكثر الكائنات عبودية بانه اكثرها حرية . انه لم يزور تفسير كائن ما مثلما زور تفسير الانسان .

لقد تخلقت وعاشت في الانسان اكبر واكثر الاخطاء بقدر ما عاش هو

في أكبر وأكثر الاخطاء ، وبقدر ما خلق واختلق هو أكبر وأكثر الاخطاء .

ان كل الاشياء فاقدة للحرية الذاتية ، أو فاقدة للحرية في مواجهتها لذاتها أو في ممارستها لذاتها أو في تعاملها مع ذاتها ـ أو فاقدة للحرية داخل ذاتها ، او ذاتها سالبة لحرية ذاتها .

ان جميع الاشياء ليست حرة في تعاملها مع ذاتها وبذاتها وفي ذاتها .

ان كل شيء مستعبد لذاته ومستعبدة له ذاته . ان كل شيء فاقد للحرية الذاتية . وان الانسان لأحد الاشياء الفاقدة للحرية الذاتية . ان ذاته لمستعبدة لذاته . إن كل ذات وكل شيء يتعامل بعضه مع بعضه بلا حرية . إن كل ذات هي قيد ضخم على نفسها .

إن ذات الكون هي أضخم قيد على الكون . وإن اي قيد على الانسان لا يتعامل الا مع قيود ذاته عليه .

ان كل شيء ليس الا جهازا يحكم ويستعبد ويقيد ويضبط بعضه بعضا كما يفعل أي جهاز علمي يصنعه الانسان . وان الانسان ليس الا جهازا من هذه الاجهزة التي يستعبد بعضها بعضا . إن إرادة الانسان وتفكيره وخوفه وقدرته واحتياجاته وكل ضروراته ومعانيه الاخرى ليستعبد بعضها بعضا ويخضع بعضها بعضا ويذل بعضها لبعض وينافق بعضها بعضا ويجوع بعضها الى بعض ويخاف بعضها من بعض ، ويطغى بعضها على بعض ، ويكذب بعضها على بعض ويضلل أو يخدع بعضها بعضا . وان ذلك كله لمحتوم أن يحول الانسان الى جهاز أو الى آلة أو الى شيء أو الى ذات لا مثيل لها في عبوديتها ، لا مثيل لها في فقدانها للحرية الذاتية . ان ذات الانسان لميدان رهيب لاعداء يتقاتلون داخله عليه . وفي نية كل عدو من هؤلاء الاعداء ان يسلبه كل حريته .

ان النهر والمطر والزلزال والاعصار والنجم وكل شيء لمستعبد لذاته . ان كل سلوكه ووجوده وأخلاقه وكل خطواته ليست سوى تعبيرات عن هذا الاستعباد للذات أو عن الاستعباد الذاتي . وان الانسان لكذلك وان كان على مستوى أو بأسلوب أعنف وأقسى اذلالا . انه لا يوجد شيء يقاسي من اذلال ذاته له مثل الانسان .

ان الاذلال أو الاستعباد الذاتي الذي يعانيه الانسان هو اقسى أذلال أو استعباد ذاتي يعاني منه أي كائن أو اي شيء . ان كل اذلال قد يحتمل أو يغفر أو يهون أمام اذلال ذات الانسان للانسان . انه اذلال بكل الاساليب وعلى جميع المستويات وبكل التفاسير وبكل الجهر والاعلان والحدة والاصرار .

ولعل فقدان الحرية الذاتية في الاشياء وكذا في الانسان ليس شيئا رديئا ، او لعله ليس أردأ الاحتمالات . بل لعله شيء طيب او حظ جيد.

ان فقدان هذه الحرية الذاتية هو الذي حول الاشياء والكون والحياة والانسان الى انتظام أو نظام أو الى ضبط ، وهو الذي جعل الاشياء والكون والحياة والانسان تظل اشياء وحياة وكونا وانسانا ، وهو ايضا الذي وهبها القدرة على التطور والتكامل والبقاء . ان أي شيء لا يعني او لا يساوي سوى فقدانه للحرية الذاتية . ان الحياة والكون والانسان لا يساوي الاذلك.

ماذا لو ان كل شيء كان يملك حرية الذاتية ، لو ان كل شيء لم يكن مستعبدا استعبادا ذاتيا أي لو لم يكن فاقدا للحرية الذاتية ؟

ماذا لو كانت الانهار او البحار أو الجبال أو النجوم أو الشموس حرة حرية ذاتية ولم تكن خاضعة لعبودية ذاتية شاملة لا خلاص منها ولا رحمة فيها ؟ هل كان يمكن أن يظل شيء كما هو ، أو أن يسير أو أن يجيء أو ان يمارس نفسه كما يسير وكما يجيء وكما يمارس نفسه لو كانت هذه الحرية الذاتية موجودة في الاشياء ؟ هل كان يمكن حينئذ أن يوجد أو ان يبقى اي نظام ؟

أليس من المحتوم حينئذ ان تمارس الانهار والبحار والجبال والشموس وكل الاشياء ذاتها أو حرياتها بأساليب اخرى ، لتكون اشياء أخرى ـ لتكون زوالا أو تدميرا أو جنونا لا نستطيع تصوره أو تحمله ؟ ما الذي منعها من ممارسة هذا الجنون أو هذا الذكاء ؟

ما الذي منع الكون من ان يجن أو أن يعقل ليكون غير ما هو كائن ؟

ولماذا ظلت كل الاشياء مؤدبة وعاقلة ومتوقرة ومستمسكة بالنظام الموجود الذي تسير عليه وتخضع له ؟ أليست تفعل ذلك وتستمسك به

لانها فاقدة للحرية الذاتية،لانها لا تستطيع ان تفعل شيئا آخر ؟ انها لـن تظل مستمسكة بهذا النظام دائما لو كانت تستطيع الخروج عليه مهمـا كانت تقواها واخلاقها وطاعتها للنظام . ان استمساكها بنفسها ليس حياء ولا ذكاء . انه عجز .

هل يمكن أن نقتنع ـ مهما كان مستوى ذكائنا ـ بأن الشمس سوف تظل كما نجدها لو كانت تملك حرية الخروج على نفسها وعلى سلوكهـا وتهذيبها ، أو على خنوعها وهوانها ؟

والانسان لو كان حرا في ان يموت ويرفض ويغادر ويعصي ذاتـه واراداته وخوفه وضروراته وجوعه وأفكاره ومشاعره وتفاهاته وحقاراتـه واوهامه وكل وجوده واحتياجات وجوده ـ لو لم يكن مستعبدا لذاته ، أو لو لم يكن فاقدا للحرية الذاتية بأسلوب هو أشمل وأكثر تشويها مما تفقدها الاشياء ، مما تفقد الصخور والاشجار والالات والاشياء حريتهـا الذاتية.

ـ نعم ، والانسان لو كان يملك هذه الحرية الذاتية هل كان يمكن أن يقبل حينئذ اي نموذج أو سلوك أو ممارسة أو تفكير أو شعور من نماذجـه او من اساليب سلوكه او ممارساته او من اساليب وجوده وحياته وبقائه وأفكاره ومشاعره ؟

هل يمكن ان نتصور الانسان خاضعا لوجوده أو لحياته أو لظروفـه او لكونه أو لضروراته واحتياجاته واحتمالاته وقيوده ، أو لتفاهاته ووقاحاته وتشوهاته وهمومه ، او لحضاراته ، أو لمذاهبه وعقائده وأوهامه وأحلامه واكاذيبه ، أو لزعاماته ومعلميه وآلهته ، او لعلاقاته وارتباطاته ، او لتقواه وأخلاقه وصلواته .

ـ هل يمكن ان نتصور الانسان خاضعا لكل ذلك أو خاضعا لاي شيء او مقيدا باي شيء لو كان يملك الحرية الذاتية ـ لو كان يستطيع ان يخرج على ذاته وان يعصيها وان يختار أمام املاءاتها عليه واذلالها له ، أو لو لم يكن محكوما عليه بأن يكون مريدا ، وبأن يكون مستعبدا لارادته لا مستعبدا لها ، وبان تكون ارادته مستعبدة لغير ارادته .

ـ او لو لم يكن هو السجان والمسجون ، والقيد والمقيـد ، والسيف

والرقبة ، والسلاح والقتيل — او لم يكن مستعبدا من داخله بأقسى وأشمل مستويات وأساليب العبودية ؟

اذن فالعبودية الذاتية في الكون والحياة والاشياء والانسان ليست شيئا أو حظا رديئا . ان هذه العبودية الذاتية ليست ضد الكون أو الحياة أو الاشياء أو الانسان ، بل ليست ضد تقدم أو صعود أو بقاء الكون أو الحياة أو الاشياء أو الانسان ، بل انها هي الصانعة لذلك والمطورة له والمحافظة عليه . ان كل شيء هو هبة العبودية الذاتية في الاشياء . ان الحرية الذاتية — اي لو وجدت — لا تعني الا مقاومة ورفض كل الاشياء .

ان العبودية الذاتية ليست عدوانا على اي شيء ، بل انها هي الحماية لكل شيء . انها هي التفسير لوجود كل شيء ولتطوره ولبقائه ولفهمه ولتلاؤمه مع نفسه ولارادته وتقبله لنفسه ، ولصبره عليها واعجابه بها ودفاعه عنها . انك معجب بوجودك وصابر عليه وممارس له بنشوة لانك لا تملك من داخلك حرية رفضه وكرهه والاشمئزاز منه ..

انه لا خوف على الانسان من هذه العبودية . ان كل الخوف والخطر عليه لو لم يكن محكوما بها . وانه كذلك لا خوف على كرامته أو على كبريائه أو على اعجابه بنفسه وبحريته الشاملة أو على اقتناعه بحريته ، بانه حر بلا اي قيد .

— نعم ، انه لا خوف على ذلك من علمه بانه فاقد لحريته الذاتية ، وبانه اي الانسان مستعبد استعبادا ذاتيا كالشجر أو الحجر ، بل أشد وأعنف ايلاما وتشويها وشمولا .

انه لا خوف على الانسان من معرفته لهذه الحقيقة . لا خوف عليه ولا مساس به ولا ايذاء لشعوره ، لانه سيظل مقتنعا بأنه حر ، وسيظل يهتف لحريته المطلقة ويتحدث عنها بتمجيد وزهو بذيء مهما عرف انه مستعبد كل معاني ونماذج وأساليب الاستعباد .

ان المعرفة لا تمنع من الاقتناع بالنقيض . ان المعرفة تقبل الغدر بنفسها ، بل انها تغدر بنفسها . ان المعرفة لا تنتحر من الغيرة او من مواجهة وممارسة الهزيمة . . ان فيها كل القدرة على التواضع والتنازل .

ان الانسان يستطيع ان يعرف حقيقة ما ، ثم يستطيع ان يظل مقتنعا بنقيضها اي بنقيض تلك الحقيقة التي عرفها ، ويظل يتحدث عن ذلك النقيض وكأنه لا يعرف سواه . ان الانسان ليس متعصبا لذكائه او لما يعرف اكثر من تعصبه لغبائه او لما لا يعرف .

ان عقل الانسان يستطيع بذكاء وكبرياء أن يجامل وينافق اقتناعه ، كما يستطيع بشجاعة وشرف أن يخاف من ارادته فيلقي بكل موهبته وشممه تحت أوامرها ، اي تحت اوامر ارادته . ان الانسان لا يذل شيئا ولا يخرج على شيء مثلما يذل عقله ويخرج عليه . ان العقل الانساني هو أشهر مهان مضطهد معتدى عليه في العالم .

★ ★

ان الانسان — لما سبق تفسيره من فقدانه للحرية الذاتية — لا يكون في حكم الاخلاق القائم على التفسير النفسي للسلوك البشري ظالما أو فاسدا او ملوما مهما فعل الا بقدر ما يكون الوحش او الحشرة او الطبيعة كذلك لانها آذت أو قتلت أو خربت .

ان الانسان الظالم أو القاتل أو الفاسد الشرير قد اراد فغلبته ارادته. انه لم يرد ارادته ولم يصنعها ولم يستطع ان ينتصر عليها او أن يطردها ويخرجها من ذاته . لقد اصابته ارادته اصابة كما تصيبه الرصاصة او الصاعقة . انه لم يطلقها وانما اطلقت عليه . انه كائن مهجوم عليه لا هاجم . انه حينما يعاقب على ما يفعل — وهذا مشروع ومحتوم — فمن اجل انقاذه وحمايته من ارادته . ولكن ارادته الغالبة هي أيضا مغلوبة . ان ارادته لم ترد ارادته ولم تصنعها او تحرضها .

ان عقابه أو تهديده بالعقاب لئلا يفعل ما لا يريد المجتمع أو ما يؤذي الآخرين يشبه حمايته من ان تصيبه الرصاصة أو المرض . ولكن ذلك لا يعني انه ظالم او فاسد او ملوم اي في التفاسير النفسية للسلوك الانساني. كما ان محاولة انقاذ المريض او الضعيف من مرضه او من ضعفه لا تعني الحكم عليه بأية مؤاخذة اخلاقية . ان العقاب أو التهديد بالعقاب أسلوب من أساليب معاقبة الارادة او منعها او زجرها لئلا تهاجم المريد وتعتدي عليه ، ولخلق ارادة اخرى مضادة فيه .

ان العالم الذي يفسر الاخلاق بعلم النفس او يجمع بين علم الاخلاق

وعلم النفس في تفسيره للسلوك الانساني لن يرى ان الظالم القاتل ظالم أو شرير أكثر من المظلوم المقتول ، كما لن يرى أن القاذف بنفسه في مياه النهر حيث كل احتمالات الهلاك لينقذ طفلا أو حيوانا من الغرق ، حيث لا يراه أحد ليشكره أو ليشتمه ، أفضل اخلاقا أو أنبل نفسا أو نيات من قاتل اليتيم .

ان ذلك العالم المفسر للبشر ، لسلوكهم ونياتهم بعلم النفس لا بد أن يرى أن الظالم القاتل المعتدي قد يكون واقعا تحت اكراه وضغوط وعدوان عليه أكثر من المقتول المظلوم المعتدى عليه . قد يكون مظلوما ومقهورا اكثر .

انه لا بد أن يرى المطر الواهب للارض الموات الحياة ليس أكثر تقوى أو حبا أو فضيلة نفسية من الاعصار أو الزلزال المدمر للمدينة النائمة بين همومها ومتاعبها وهزائمها وذنوبها وفضائحها وضياعها على ذراع الظلام .

انه سيرى ان الظالم السارق الضال الفريق في الغواية يستحق الرثاء والشفقة التي يستحقها المريض والشيخ العاجز المحكوم بهوان شيخوخته وقسوتها .

ان مثل هذا العالم لا بد ان يقتنع بأن المؤمن المطيع بتصوف وافتضاح لتعاليم نبيه أو لأوامر وحماقات قائده لا يستحق من الثناء أو الاعجاب أو من أوصاف التقوى أو البطولة أو الاخلاص او الفداء اكثر مما يستحق من يذهب ليلقي بكل وقاره وايمانه وتقواه تحت قدمين يقف فوقهما جسد حرام قد تجمعت فيه كل الابالسة تخطب بكل اللغات ، وبكل فنون البلاغة والاغراء والاغواء ، داعية الى الافتتان به ، والى بيع جميع المزايا الدينية والمذهبية والوطنية والحضارة الانسانية ، ثمنا للمسة سريعة من أطراف احدى يديه، أو من أي مكان في جسمه المسلح بكل اسلحة القدرة على الانتصار والتدمير لكل ارادات المقاومة والتقوى والوقار ، والمسكون بكل أجهزة التحريض على الغواية والافتضاح .

★ ★

ان الارادة مفروضة ومقهورة مثل فقد الارادة . اننا نريد بالقهر والفرض ، وكذا نعجز عن أن نريد . ان ارادتنا مقهورة ومفروضة علينا

مثلما هي مفروضة على نفسها • لقد فرضت على نفسها كما تفرض كل الاشياء على نفسها . ان كل شيء مفروض ومفروض عليه بالاسلوب الذي فرضت به الارادة وفرض على الارادة وفرضت على غيرها الارادة .

ان الشمس والصرصار لم يريدا نفسيهما ولكنهما فرضا على نفسيهما، وفرضت عليهما نفساهما . ان أحدهما اي الشمس والصرصار ليس أكثر حرية او اختيارا لنفسه او اعجابا بها من الاخر . ان الوحشية التي فرضت على احدهما هي التي فرضت على الآخر . ان الالهة التي خلقت هذا الكون لا تتفاضل في مواهبها أو في اخلاقها . ان اي شيء لا يتفوق في منطقه أو في اخلاقه على الآخر . ان اي شيء لم يرد ان يكون كما كان ، أن يكون بالاسلوب او بالشخصية التي بها قد كان ، ولم يكن لأنه قد أراد أن يكون . ان أسلوب كينونة اي شيء ونموذجه وشخصيته وصورته مفروضة عليه بالقهر والوحشية والطغيان الذي فرض به وجوده عليه .

انه لو كان هناك خيار أو ارادة تختار لما كان أي شيء كما كان . لقد جاء كل شيء بأسلوب الطغيان والعدوان ، ثم جاءت ارادته لنفسه ولصيغة وجوده وتقبله لذلك بالعدوان والطغيان أيضا . ان ذات كل شيء قد فرضت عليه بالطغيان والعدوان . حتى الآلهة ، لقد فرض عليها وجودها وفرضت عليها مستوياتها وأخلاقها وهمومها بالعدوان والطغيان .

ان كل شيء اذن معتدى عليه ومطغي عليه حتى الزهرة ، حتى الشمس ، حتى أعلى مستويات الجمال ، لأن كل شيء قد جاء وصيغ وفرض بأسلوب العدوان والطغيان .

حتى الالهة . انها معتدى عليها ومطغي عليها لانها لم ترد كينونتها ولا صيغتها التي بها كانت ، ولم ترد ارادتها لكينونتها ولصيغتها. وهل فرضت على شيء ذاته وشخصيته مثلما فرضت على الاله ذاته وشخصيته ؟

ان وجود الآلهة ووجودها كما وجدت مفروضان عليها ، وكذلك مفروض عليها ارادتها لما فرض عليها . لقد فرضت عليها كينونتها وفرض عليها ان تريد ما فرض عليها .

ان الآلهة لو كانت تختار نفسها ونموذجها وارادتها وضروراتها وارادتها لارادتها لما كان شيء كما كان ، أو لما كان شيء مما كان بأي أسلوب

أو صيغة أو صورة أو نموذج .. لعل شيئا ما لم يعتقد عليه مثلما اعتدي على الالهة حينما افرض نموذجها عليها .

★

هل توجد وحشية اقسى من الوحشية التي فرضت على الاله ان يكون كما كان ؟ اذن هل يوجد من يستحق الرثاء والاشفاق اكثر من الالهة أو مثل الآلهة ؟

ان الانسان محكوم بقوة محكومة . انه عبد لعبد ، انه مقيد بمقيد ، انه مسجون بمسجون .

اذن كم هي قاسية حرية الانسان ؟ كم هي مستعبدة حرية الانسان ؟ ان حرية الانسان هي اقسى مستويات العبودية .

ان أقصى تعبيراته عن حريته هي أقصى تعبيراته عن عبوديته .

ان كل شيء خاضع لذاته خضوعا لا رجوع عنه ولا توبة منه ولا علاج له .. اذن ما هي الحرية ، وكيف يمكن ان توجد ؟!

اذن كيف وضع البشر في لغاتهم كلمات الحرية ؟

★ ★

ايها الكون ، ايها الانسان ..

لقد جئت وعشت ومارست نفسك وأردت نفسك ، وتلاءمت معها ، وخضعت لها واستسلمت لكل املاءاتها ومجاملاتها وهمومها واعبائها ولكل نماذجها لانك لا تملك الحرية الذاتية .

.. وايضا فارقتها او لا بد ان تفارقها ، او طردت منها بنفس الاسلوب والمنطق .

فهل أنت ايها الانسان ، ايها الكون ، جيد الحظ أم رديئه ؟
ولكن ما هو الحظ الجيد والحظ الرديء ، وما هي الفروق بينهما ؟ وهل توجد حدود تفصل بينهما ؟ وما هو النموذج الذي يقاسان عليه ويحكمان به ؟ هل توجد أية وسيلة لمعرفة هذا من هذا ؟

ان للرسالة الروحية ، او لنقل ان للرسالة الدينية حدين : حدا تهذيبيا او اخلاقيا موضوعه معاملة الذات والمجتمع ، ومعاملة وقاحات وبذاءات الاعضاء والحشرات فينا . اما الحد الآخر في الرسالة الدينية او الروحية فهو حد فكري موضوعه تفسير الاسباب والمسببات ، وعلاقاتنا بهذه وهذه ، اي بالاسباب والمسببات . ان موضوع هذا الحد هو ممارساتنا ورؤانا الذهنية لانفسنا وللاشياء .

ان الحد التهذيبي الاخلاقي قد جاء الينا ليخاطب ويزجر ويهزم ويقتل فينا الارادة والضرورة — جاء ليأمرهما وينهاهما محاولا قتلهما او عصيانهما او الانتصار عليهما ، بل محاولا كل ذلك بكل منطق الغرور والقسوة والسذاجة . لقد اراد ان يفعل كل ذلك دون ان يكون طبيبا او ساحرا او ذكيا او قويا — دون ان يملك او ان يحمل معه اية معجزة . لقد نازل وحاول وقاتل باضعف اساليب السذاجة ، وباقوى اسلحة الهزيمة . لقد اكتفى بالوعظ والوعيد ، متحدثا اليهما الى الارادة والضرورة بلغة لا تفهمانها ولا تستطيعان تعلمها او تكلمها . ان الارادة والضرورة لا تستطيعان الاستماع الى الوعظ والوعيد اللذين يتحدثان بلغة غير لغتهما اي غير لغة الارادة والضرورة .

ان هذا الحد لم يغير او يقهر شيئا . لقد اكتفى بأن تحدث بلغة لا يعرفها ولا يستطيع ان يتعلمها من تحدث اليه ، وبمنطق لا يتعامل به شيء من العالم الذي خاطبه بمنطقه . لقد كان محتوما ان تنتصر الطبيعة على الامر والنهي اللذين لا تفهم لغتهما ولا تستطيع ان تتخلى عن نفسها وعن التزاماتها واغراءاتها وعن قوانينها احتراما لهما او حياء منهما او مجاملة او رثاء او نفاقا لهما . ان الطبيعة لا تنافق ولا ترثي ولا تجامل . انها في هذا اقوى وافضل اخلاقا من الانسان ، اي ان كان الترفع عن النفاق والمجاملة والرثاء قوة او اخلاقية .

لقد ظلت الطبيعة تنتصر دائما وبأسلوب مذل على كل ما في الالهة من شراسة وعلى كل ما في لغتها من بلاغة الجحيم . لقد كانت هزائم الالهة وهزائم توعداتها ونيرانها امام املاء الطبيعة وشهوات الطبيعة هزائم تصنع كل الرثاء والاشفاق عليها اي على الالهة .

لقد كانت هزائم في كل العصور وفي كل المجتمعات وفي كل الميادين وتحت كل الظروف وبكل القسوة .

لقد تجمع من تجارب التاريخ ومن مشاهدات الحاضر ما يستطيع ان يقنع اعجز الناس عن الاقتناع بأن محاولة صياغة الانسان والانتصار على جوع اعضائه وعلى ضروراتها ، ومحاولة تعليمها اي تعليم اعضاء الانسان اخلاقا غير اخلاقها ، او اخلاقا تتحدث عنها السماء ، دون ان تعيشها او يعيشها سكان السماء ، او محاولة الانتصار على توقح الحياة والطبيعة فيه أي في الانسان .

ـ نعم ، لقد تجمع من تجارب التاريخ ومن مشاهدات الحاضر ما يستطيع أن يقنع اقل الناس ذكاء وعجزا عن الاقتناع بأن هذه المحاولات ، مرادا منها ولها وبها ان تكون مجدية او منتصرة بقوة تضخيم جبروت الالهة في النفوس ، ليست افضل او اذكى او اقوى من محاولة وعظ الذباب بالايات والاحاديث وبخطب الزعماء ونصائح الاطباء لكي يكون اي الذباب تقيا ومهذبا ومتواضعا ومتوقرا ورحيما ونظيفا ، فلا يتنقل ببذاءة او ببراءة من العيون والوجوه الجميلة والانوف الشامخة الى الاوحال والى الاماكن الاخرى ، او من الاوحال والاماكن الاخرى الى القفز فوق الوجوه والعيون الجميلة وفوق الانوف الشامخة . ان تضخيم جبروت الاله لن يعظ شهوات الانسان افضل مما يعظ بذاءات الذباب . ان عيني النبي لن تريا يدي الاله ممسكتين بالسلاح اكثر من ان تراهما كذلك عينا الذباب .

ان الشيطان لن ينسى فنونه الجميلة العالمية او يتخلى عنها خوفا من الآيات والاحاديث ، او احتراما للايات وللاحاديث التي تذهب تبالغ في تضخيم جبروت الاله وجبروت جحيمه وغضبه .

لقد كان يكفي هؤلاء المؤمنين المبشرين بالمزايا الوعظية الهائلة لايقاظ وحشية الاله وجبروته في ضمائر الناس ـ كان يكفي هؤلاء الذين يريدون ان يوجدوا انسانا بدون اخلاق الطبيعة وبدون وقاحاتها واوحالها .

ـ كان يكفيهم ليدركوا خطأهم العالمي المعاد ، المعاد على مستوى عالمي أن يحدقوا بغضب وترويع في هذه الجماعات التي لا تتحدث الا عن جبروت الاله وجحيمه وعن غضبه المتوحش والتي لا تقرأ او تتعلم غير الآيات والاحاديث التي لا تعلم سوى الخوف من جبروت الاله ومن جحيمه ومن غضبه المتوحش ، والتي لا تضخم او تهول سوى جبروت الاله وجحيمه وغضبه المتوحش ، والتي لا تحترم او تمجد شيئا سوى جبروت الاله وجحيمه

وغضبه المتوحش ، والتي لا يصافح او يحيي بعضها بعضا الا بالتخويف بجبروت الاله وبجحيمه وغضبه المتوحش .

ـ كان يكفي هؤلاء ليدركوا خطأهم العالمي المعاد ان ينظروا بتحديق وذهول وانصعاق الى هذه الجماعات التي لا تتحدث عن مجد اي شيء مثلما تتحدث عن مجد الجبروت والجحيم والفضب الذي يملكه ويدبره ويعده الاله ، وكأنها انما تتحدث عن ذلك لكي تفجر فوقه كل اوحالها وتشوهاتها وفسوقها وشهواتها غير المتحضرة وغير المهذبة بقدر ما تتحدث عنه ، وبقدر ما تؤمن به ، وبقدر ما تمجده وتضخمه وتهوله وتتعلمه وتعلمه وتصلي له وتصلي خوفا منه . كأن الايمان بالشيء انما يعني دائما العدوان عليه والاساءة اليه والفسوق به . وهل يعتدي على الله وعلى الانبياء ويشوههم ويسيء اليهم ويتهمهم ويخرج عليهم الا المؤمنون بهم . كأن الايمان بالشيء عقاب له .

ان هؤلاء سوف يجدون حينئذ انه لا احد يفجر ذنوبه وعاهاته ونياته الملوثة فوق جبروت الاله وفوق جحيمه وغضبه مثلما تفعل هذه الجماعات التي لا تتعلم او تعلم سوى الخوف من جبروت الاله ومن جحيمه وغضبه.

انهم سوف يجدون ان الشيطان لا يستطيع ولم يستطع في كل تاريخه المجيد السعيد ان يكون سعيدا وسيدا وقائدا محظوظا ومتفردا بلا منافسة او عصيان او تمرد بين أي قوم مثلما كان ويكون بين أولئك القوم الذين لا يتعلمون او يعلمون او يقرؤون سوى الآيات والاحاديث التي لا تعرف ولا تعلم سوى التخويف بجبروت الاله وبجحيمه وغضبه .

ـ انهم سوف يجدون ان هؤلاء القوم المتدارسين لمجد جبروت الاله ولمجد جحيمه وغضبه المتوحش لم يستطيعوا ان يجيئوا على مقاس نموذج واحد من نماذجهم النفسية او الاخلاقية او حتى الدينية التي تتوقد وتحترق بالشوق وبالدعوة اليها ، وبالايمان والتخويف بها ارواحهم وعظاتهم ونبواتهم وآياتهم وأحاديثهم المنزلة ببداوة وباستبداد رهيبين . ان هؤلاء سوف يجدون ان الذين يؤمنون بوحشية يخرجون على ايمانهم بمثل الوحشية التي يؤمنون بها . كأنهم يعاقبون ايمانهم او من يؤمنون به بالخروج عليه والمخالفة له . لقد شوهد دائما ان الذين يؤمنون بالاله يذهبون يعصونه او يغيظونه ويخرجون على اوامره وتعاليمه بلا أية تقوى

أو وقار ، حتى ليبدو لنهم انما يريدون أن يعتذروا عن أيمانهم به أو ينتقموا من ايمانهم .. ان أي مهزوم في التاريخ ، في كل التاريخ لم يواجه هزيمة اكبر واشمل أو أعمق أو أدوم من الهزيمة التي واجهها وعاناها الاله وانبياؤه وتعاليمه وكتبه ومحاريبه ومنابره .

إن أحدا لم يهزم في كل التاريخ مثلما هزم الاله . وانه لم يهزم في اي مكان ولا امام أي أعداء او خصوم مثلما هزم ويهزم في بلاده وسكنه ومعبده ، وامام المؤمنين به ، امام أهله واصدقائه . ان اردأ حظوظ الاله هي حظوظه بين أهله والمؤمنين به .

ان الاله لم يواجه هجرانا اخلاقيا ونفسيا مثل الهجر الذي يواجهه به المؤمنون به اعتقاديا وتعليميا .

وان اي كائن في هذا الكون لم يتلق من امجاد النصر والتفوق مثلما تلقى الشيطان ، وانه لم يتلق من الانتصارات مثل الانتصارات التي تلقاها في معاركه السهلة عليه والتي خاضها ضد الاله وضد أنبيائه وتعاليمه وكتبه ومحاريبه ومنابره ، او مثل الانتصارات التي قلده مجدها اعداؤه واصدقاء عدوه ، أي التي قلده بمجدها المؤمنون بالاله . ان الشيطان لم لم يكسب من الامجاد مثلما كسب منها بين الاقوام اللاعنين له الواهبين كل ايمانهم وصلواتهم للاله .

انه لا يوجد من خذله وهزمه واذله أصدقاؤه مثل الاله ، ولا من نصره وكرمه أعداؤه الشاتمون له الكافرون به مثل الشيطان .

انه لا يوجد حظ جيد مثل حظ الشيطان ، ولا حظ رديء حزين مثل حظ الاله . انه لا يوجد كائن يستحق كل الرثاء والشفقة والدموع لفداحة هزيمته مثل الاله . انه لم يقهر احد مثلما قهر الاله . وانه لو كانت الهزائم تقتل لما امكن ان يعيش الاله ولا يوما واحدا ، وانها اي الهزائم لو كانت تسكت لما استطاع الاله ان يتكلم كلمة واحدة .

وانه لا يوجد من يستحق كل التهنئة او كل الحسد او الغيظ او المنافسة لضخامة انتصاراته وتفوقه مثل الشيطان .. ان الانتصارات لو كانت تتحول إلى ضخامة في حجم الذات لكان محتوما ان يملأ حجم ذات الشيطان كل مكان في الكون ، ولما وجد الاله لذاته مكانا في اي مكان أو ذات .

إن أي كائن لم يدخل أية معركة لمهزم فيها بالاسلوب والمستوى اللذين دخل الله بهما معركته ليهزم فيها .. ان احدا لم يصبر على فضائح الهزائم التي لا شبيه لها مثلما صبر الله . إن جميع اجهزة الاله الدعائية والوعظية والإرهابية ، بل والعسكرية لم تستطع إن تنتصر انتصارا ولحدا على أهواء او شهوات او نيات اعضاء لنسان واحد ، او إن تضعفها او ان تجعلها تفقد شيئا من شهيتها او من حماسها او من وقاحتها ، او ان تهبها شيئا من الحياء او من التهذيب او من القدرة على الاشمئزاز او الغثيان .

إن جميع هذه الاجهزة الضخمة العالمية الابدية الشاملة التاريخية الرهيبة لم تستطع في اي وقت ولا في اي مكان من الارض او من التاريخ ان تجعل الشيطان يشعر ان له منافسا او انه قد يصبح له منافس على اعضاء او اهواء او شهوات كل البشر .

انه اي الشيطان لم يخف في اي وقت ولا في اي مكان ان تستطيع كل هذه الاجهزة التي توجه ضده بكل هذا الشمول وهذه العالمية والضخامة ان تصنع له اية منافسة على التفرد بالمجد والسلطان وبقوة الاغراء في قيادته لاعضاء وأهواء وشهوات كل البشر .

ان الشيطان لم يخش ان تنتصر عليه هذه الاجهزة الا بقدر ما يمكن ان يخشى الذباب ــ لو كان الذباب يستطيع ان يخشى ــ ان تجعله هذه الاجهزة تقيا او مهذبا او رحيما او متواضعا ، حتى لا يجرؤ على ان ينتقل بين العيون والوجوه والانوف الجميلة والبريئة والضارعة والشامخة وبين الاوحال الاخرى ، بكل هذه البراءة او بكل هذه البذاءة . انه لمحتوم ان الشيطان يسر ويرحب بالمزيد من مجيء الانبياء والمعلمين والوعاظ الذين يجيئون بالاديان وبالتعاليم وبالكتب المقدسة ليحاربوه ويهزموا مجده . لانه يعلم ان مجيء هؤلاء سيصبح عناء لهم دون ان يخسر هو شيئا . واما ان الوجه الفكري او الحد الفكري للرسالة الروحية او الدينية فانه قد يكون شيئا رديئا او مسيئا لانه يجيء ليساعد حوافز ورغبات الضعف والفرار والتخلي فينا ، او يجيء داعيا الى ذلك ومعلما له . ومحتوم ان تكون الحياة مشحونة بل محكومة بحوافز ورغبات واحتياجات التخلي والفرار .

ان الرسالة الروحية اي الدعاية الدينية تعلمنا باننا لسنا صانعين

لانفسنا ولا للطبيعة التي نحياها ، ولا مسئولين عنها ، وانه لا ينبغي أن نكون كذلك كما لا يمكن ذلك . انها اي الرسالة الروحية او الدينية تخلينا وتحررنا من مسئوليات ومتاعب الارباب ومن التزاماتهم وهمومهم الشاقة المبدعة . انها تعفينا من ان نكون مسئولين عـن أنفسنا او عـن اي شيء حولنا او ملتزمين بشيء من ذلك مسئولية والتزاما كاملين او حقيقيين . لانها تضع فوقنا قوة هائلة لا حدود لقدرتها ولا لاستبدادها ولا لتدخلها فينا وضدنا ولنا ومعنا ، ولا منطق لارادتها او لاخلاقها او لما تطالب به او لما ترفضه .

ان هذه الرسالة تعلمنا اننا عبيد مصنوعون ومغلوبون ومسيرون دائما ، يراد لنا ويراد بنا ، ويراد ضدنا ، ونراد ، ونشيد ونحطم ، ونوهب ونسلب ، ونصاغ ويقذف بنا كما لا ندري ولا نريد ولا نختار ولا نستشار ولا يفكر في احتياجاتنا او في همومنا او في الامنا . ان هذا هو اخف أو أقـل ما تهبنا الرسالة الروحية او الدينية او الايمان بان فوقنا كائنـا هائـلا خالقا شاملا . او هو أخف واقل ما تعلمنا هذه الرسالة او هذا الايمان .

انها قصة لا مثيل لما فيها من عدوان وهوان وتشويه وتحقير وكآبـة ووحشية ، انه خيال لا يملك اي قدر من المجد او من العظمة او من العافية النفسية او العقلية .

ان هذا الخيال او القصة او الرسالة الروحية الدينية قد تريحنا مما نهاب ومما يتعبنا ومما ترهقنا تكاليفه ومعاناته ومسئوليتنا عنه ، ومـن وضع عظمتنا ونذالتنا ورضانا عن انفسنا واحتقارنا لها تحت حساباته . ان كل هذا قد يكـون نافعا لنا وقد نكون محتـاجين اليه . اننـا حتمـا محتاجون اليه . اننا حتما محتاجون الى ان نراح من محاسبتنا لانفسنا ومن وضعها تحت مراقبتنا ومسئوليتنا .

ان ذلك قد يكون سببا من أسباب رغبة الناس في الايمان ، ومـن اسباب اقتناعهم السهل بمسوغاته وبتفاسيره وبمنطقه وبانبيائه وبدعاته الكذبة والجهلاء واللصوص والمتاجرين والمنافقين . لعل رغبة النـاس في الايمان هي التي وهبت أنبياءهم وزعماءهم كل مزاياهم وقدرتهم على الاقناع وعلى الانتصار في السوق .

هل آمن الناس وصدقوا غباء وانخداعا ام احتياجا وفرارا ؟ هل خدعوا ام اضطروا حينما آمنوا بما لا يمكن الايمان به ، وحينما صدقوا من لا يمكن تصديقهم او صدقهم ، ومن لا يغفر تصديقهم او اتباعهم ؟ هل الناس يصدقون لانهم يقتنعون ام لانهم يريدون ؟ وهل يقتنعون لانهم يجدون ام لانهم يريدون ؟ هل النبي يساوي نفسه ام يساوي المؤمن به ؟

لعل الناس قد بحثوا عن مسوغات الايمان واحتاجوا اليها قبل أن يجدوا اسباب الايمان او براهينه او مسوغاته ، او دون ان يجدوا هذه الاسباب والبراهين والمسوغات ، او اكثر مما وجدوها . ولعلهم قد احتاجوا الى انبيائهم وزعمائهم ومعلميهم والى تصديقهم والهتاف لهم ورؤية معجزاتهم ومزاياهم وعبقرياتهم قبل ان يجدوهم او يروهم ، وقبل ان يجدوا او يروا شيئا من مزاياهم او معجزاتهم او عبقرياتهم ، او شيئا يحرض على تصديقهم او يغفر تصديقهم او يعتذر عن بلادة تصديقهم — او دون ان يروا او يجدوا هذه العبقريات والمزايا والمعجزات ، او أكثر مما وجدوها وراوها .

لعل الناس قد راوا معجزات وعبقريات ومزايا انبيائهم وزعمائهم ومعلميهم وآمنوا بهم وهتفوا لهم واتبعوهم قبل أن يوجدوا وقبل ان يروهم ، بل ودون ان يوجدوا أو يروهم .

نعم ، لعل الناس قد آمنوا بانبيائهم وزعمائهم وهتفوا وصلوا لهم وراوهم وجربوا تقواهم وصدقهم واخلاصهم وجميع مزاياهم قبل ان يوجدوا ويحضروا . .

لعل الناس قد آمنوا بأنبيائهم وزعمائهم وبنماذج ومستويات ومواهب هؤلاء الانبياء والزعماء ثم جاءوا اي ثم جاء انبياؤهم وزعماؤهم بنماذجهم ومستوياتهم ومواهبهم التي كان الايمان والاقتناع بها اولا . لقد جاءت نماذج ومستويات الانبياء والزعماء وفق ما في نفوس المؤمنين لا وفق ما في ذوات الانبياء والزعماء . لقد عاش الانبياء والزعماء في نفوس المؤمنين لا في ذواتهم هم .

هل آمن الناس بأنبيائهم وزعمائهم تمجيدا أو تحية او تكريما او عرفانا لهم او معرفة بهم ام آمنوا بهم ليكذبوا ويصغروا ويتبلدوا ويتشوهوا بهم ، وليلقوا عليهم بذنوبهم وعجزهم وهوانهم وخوفهم وهزائمهم وتفاهاتهم ، وليسوغوا بهم نقائصهم وهربهم وعاهاتهم وتخليهم عن المسئوليات والمعاناة وعن التفكير والذكاء والشجاعة ؟

هل آمن الناس بالانبياء والزعماء ليقودوهم الى النظافة والقوة ام ليجعلوهم تفسيرا وتسويغا لتلوثهم وعجزهم ؟

هل كان الناس حينما آمنوا وصدقوا واتبعوا وهتفوا نبلاء ، يهبون نبلهم وحبهم واعترافهم وذكاءهم ، أم كانوا انذالا يلقون بهمومهم واعبائهم ومسئولياتهم وتلوثاتهم وضعفهم على كائنات أخرى ، يسموتها آلهة أو انبياء أو زعماء أو معلمين ، دون أن يريدوا لهذه الكائنات اي مجد أو سعادة أو سرور ، ودون ان يشعروا لها باي قدر من الاحترام أو الشوق او الحب ؟ هل مكانة الآلهة والانبياء والزعماء في السوق مكانة من يكرمون ويمجدون ويصلى لهم أم مكانة من يهجون ويحقرون ويتهمون ويعتدى عليهم ؟

اذن فان اقوى وانفع ما في الدعوات والتعاليم الروحية او الدينية هو اعفاؤها من يؤمنون بها ، أو محاولاتها اعفاءهم ، من تبعات والتزامات ومن هموم واخلاق ومواقف وحسابات ومحاسبات شاقة باهظة ، واقناعها لهم ، أو محاولتها الاقناع لهم ، بانهم عبيد محكومون مصنوعون مسيرون مربوبون بقوة لا حدود ولا نموذج لقدرتها وشمولها وتسلطها وتفردها وتدخلها وغيرتها ومنافستها وكبريائها وشهيتها للافتراس والاستبداد .

وأيضا اقناعها لهم بأن هذا الهوان ليس هوانا بل مجد وعزة ، أو هوان هو كل المجد وكل العزة . .

ان هذا يهب البشر الراحة الفكرية والنفسية والاخلاقية ايضا . ان جميع البشر ولو احيانا يبحثون عن مثل هذه الراحة . وقد يشترونها بكل كرامتهم وشجاعتهم وذكائهم . انهم يناضلون ـ ولو بعض الأحيان ببعض الاساليب للفرار من وطأة التبعات والالتزامات ، ولا سيما الشعورية والنفسية والفكرية والاخلاقية منها . ولكنهم احيانا أخرى يناضلون بجنون للوقوع تحت عقاب اقسى واضخم واشرس التبعات والالتزامات والهموم الانسانية الباهظة .

انهم قد يجنون بحثا عن الظروف والالتزامات التي تصنع لهم اقصى العذاب . والبشر لا يمكن تفسيرهم أو فهمهم بصيغة واحدة أو بمنطق واحد كما تفسر وتفهم الطبيعة .

ان الانسان هو أعصى الكائنات على الفهم بقدر ما هو اقدر الكائنات على الفهم ؛ وانه كذلك لاكثر الكائنات طهارة وشموخا وشجاعة بقدر ما هو اكثرها تلوثا وهوانا وجبنا . انه وحده المصلي للالهة ، وانه وحده المشوه الهاجي لها .

ان المسافة الممتدة بين حدي الانسان أو طرفيه او نقيضيه لاطول من كل مسافة ممتدة بين حدي أو طرفي أو نقيضي اي كائن آخر . ان الانسان لبعيد جدا وقريب جدا . انه لبعيد جدا في قربه ومع قربه وعن قربه ، وانه لقريب جدا في بعده ومع بعده وعن بعده .

اذن فالوجه الاخلاقي او السلوكي في الرسالة الروحية او الدينية ليس له اي نفع . انه لا يمكن التزامه لان التزامه ضد الطبيعة وفوق

ضروراتها وتفاسيرها . انه ليس الا معاناة فقط وتبديدا فقط وحماسا ضائعا فقط .

انه ليس الا قراءات وتفاسير ونصوصا ضائعة ، والا ارهابا عقليـــا ونفسيا واخلاقيا مفرغا من القيمة .

ان البشر لم يربحوا ولم يأخذوا في كل تاريخهم من مجيء انبيائهم ومعلميهم ووعاظهم ، ومن ممارستهم لهم ولاديانهم ولكتبهم المنزلة ولمحاريبهم ومنابرهم ، ومن استماعهم اليهم وعلاقاتهم بهم ، ومن حفظهم لاقوالهـــم وتعاليمهم ، ومن وعظهم لاخلاقهم ونياتهم بهم وبما جاءوا به وبمحاريبهـم ومنابرهم ، ومن شتمهم لهم ومن وعودهم ووعيدهم ، ومن بذاءاتهم وبداواتهم الفكرية والنفسية والاخلاقية واللغوية .

ـ نعم ، ان البشر لم يربحوا أو يأخذوا من كل ذلك في كل تاريخهم سوى المعاناة وسوى التبديد وسوى الحماس الضائع . ما كان اضخمه من حماس ضائع . لقد كان حماسا لا يحمل معنى الحماس او قيمته او موضعه او تفسيره . انه لم يكن حماسا لشيء جيد موجود ولا ضـــد شيء رديء موجـود .

لقد كانت قضية المعاناة والحماس للانبياء والمعلمين والوعاظ ، وللكتب المنزلة وللمنابر والتعاليم المحفوظة الموعوظ بها قضية خسران فقط ، خسران فقط دون انتظار اي شيء يؤخذ او يسترد او يتحول الى تعويض .

كيف تقبل البشر معاناة هذه المعاناة وهذا الحماس ؟ كيف حدث هذا ؟ هل هو بحث عن الغباء أم عن الضياع ؟

انهما معاناة وحماس بالنفس والفكر والاخلاق والتاريخ والزمن لا مثيل لهما في الضياع والخسران . فهل كل البشر مجانين ؟ هل الجنون احتيـــاج محتوم من احتياجات الحياة ، من احتياجات جميع العقلاء ؟ هل الجنون احتياج أو غذاء أو عزاء أو مجـد للعقل ؟

هل تستطيع ان تكون عاقلا فقط ؟ هل من الافضل لك او من العقل ان تكون عاقلا في جميع ممارساتك وتفكيرك وتدبيرك ؟ هل يستطيع العقل أن يواجه أو أن يمارس نفسه دون ان يعيش الوانا كثيرة ومختلفة مـــن الجنون ؟ اليس العقل محتاجا الى ان يسوغ نفسه بالجنـــون ؟ اليست معايشة الحياة والناس والذات والعقل بلا جنون هي اقصى حالات الجنون؟

لقد كان الناس في كل التاريخ ينفقون اضخم المعاناة والحماس والعقول الذكية والموهوبة على الجنون ،وعلى ما لا امل في أن يهب او يفيد أو يعزي او يمجد او ينقذ . فهل كانوا جميعا مجانين ؟ هل كانوا جميعا باحثين عـــن الخسران والجنون ؟

هل المعاناة والحماس للخسران والجنون عبقرية انسانية او مجـــد

انساني ؟ هل المعاناة والحماس بلا ثمن اسلوب جيد من أساليب البحث عن السعادة وعن المجد والعبقرية ؟

هل الآلهة تعبد بالمعاناة والحماس الضائعين ؟

هل المعاناة والحماس الضائعان هما التفسير الشامل والمنطق الشامل لكون الشيء موجودا ؟ هل هما أي المعاناة والحماس الضائعان احتجاجان عالميان على عبث الكينونة التي لا تفسير ولا منطق لها غير المعاناة والحماس الضائعين ؟

ولكن هل يوجد جنون وعقل ؟ أليس كل وجود هو جنونا ؟ هل في الوجود ما هو عقل ؟ أليس الجنون هو الفعل أو الكينونة او ايجاد الشيء أو وجوده بلا هدف أو خطة او تدبير او منطق مقصود ومقصودة معروفة مطلوبة نتائجه ؟ وهل في الوجود أو في الايجاد ما هو كذلك ؟ أليست كل الاشياء قد وجدت بلا هدف ولا خطة ولا تدبير ولا منطق سابق مقصود معروف معروفة أو مطلوبة نتائجه ؟ هل يمكن ان يكون الوجود الاول او الوجود مجتمعا بتدبير او بخطة او بمنطق سابق أو بالبحث عن هدف أو بالانطلاق عن أي حافز .

هل وجد الصرصار بهذه الشروط ليكون وجوده أو ايجاده عقلا لا جنونا ؟ هل وجد الانسان بعقل او بمنطق أكثر من العقل او المنطق الذي وجد أو أوجد به الصرصار ؟

هل موجد الصرصار لو كان له موجد اكثر جنونا او اذكى تدبيرا وتخطيطا من موجد الانسان ؟

اذن اليس كل وجود او ايجاد جنونا ؟ واذن هل من الاشياء او من الموجودات أو من الكينونات او من الممارسات ما هو عقل وما هو جنون ؟

اذن أليس الجنون هو سلوك كل شيء ومنطق وتفسير كل شيء ؟ بل أليس العقل نفسه هو احدى صيغ أو تعبيرات الجنون أو احدى ممارساته ؟

هل يكون شيء أو انسان عاقلا الا بقدر ما يبدع الجنون ويؤمن بالجنون ويحترم الجنون ويلتزم بالجنون ؟

هل يكون العقل الا استجابة لما هو جنون أو عطاء ما هو جنون أو املاء ما هو جنون أو احتياج ما هو جنون ؟ هل يكون العقل الا احدى لغات الجنون او احد مطالبه او احدى مجاعاته او خطواته او ضروراته او ضرباته أو رقصاته أو حماقاته أو غلطاته ؟

هل يوجد عقل ليس ناتج الجنون ؟ أليس الجنون هو مبدأ كل الاشياء ومنطق كل الاشياء ؟ أليس الجنون هو أيضا منتهى وغاية كل الاشياء ؟

اذن فان من المحتوم ان تكون جميع ممارسات البشر أساليب مختلفة

من الوان الجنون لانه لا يمكن أن يكون شيء غير جنون . واذن فالمعاناة والحماس الضائعان المنفقان على الضياع وبلا ثمن هما من هذا الجنون الذي لا بد منه ، والذي لا شيء غيره ، والذي لا بديل عنه ، ولا مهرب منه ، ولا بداية ، ولا نهاية الا اليه .

.. هذا الجنون الذي هو كل البداية وكل النهاية وكل التفاسير وكل المنطق وكل العبقريات وكل التفاهات .

اذن فالمعاناة والحماس الضائعان على مجيء الانبياء والمعلمين وعلى استقبالهم والترحيب بهم والتعلم منهم والاستماع اليهم وشق الطرق وايجاد الاماكن والهتاف والحب لهم ، والخوف منهم ، والبحث عنهم — والضائعان ايضا على المنابر والمحاريب وعلى المواعظ والاديان وعلى الكتب المنزلة .

ــ نعم ، اذن فالمعاناة والحماس الضائعان على ذلك هما من هذا الجنون الذي لا بد منه، والذي لا شيء غيره ، والذي لا بديل عنه ولا مهرب منه، والذي لا يستطيع البشر أن يمارسوا سواه أو يجدوا سواه أو يفكروا في سواه لانه لا يوجد سواه .

ان مجيء الشيء او الانسان هنا ليس أقل جنونا من اصابته بالجنون بعد مجيئه . ان ولادة العبقري ومجيئه هنا ليسا اقل جنونا في كل منطقه وتفاسيره من ولادة اية نملة او حشرة .

ان اصابة أي انسان بالجنون ليست اشد جنونا في منطقها او في تفاسيرها أو في حوافزها واهدافها بل او في نتائجها من مجيء اعقل العقلاء هنا ، ليمارس كل مستويات واعلى مستويات العقل الموجود هنا . ان المجيء هنا هو كل الجنون وكل معاني الجنون وكل اسباب كل الجنون واعلى مستويات الجنون والجامع لمنطق كل منطق كل الجنون .

★

اما الوجه الفكري الداعي والموصل الى العبودية العقلية والنفسية فهذا هو الوجه الخطير في الرسالة او في التعاليم الروحية والدينية . انه الوجه الخطير في الاديان وفي مجيء الانبياء والمعلمين وفي وجودهم ، او في وجود تعاليمهم بيننا .

ان ذلك هو الوجه الخطير لانه هوالذي يتحقق ويتقبل في المجتمعات. انه يتحقق ويقبل ، او يصبح شيئا يعني شيئا لانه يجمع للمؤمنين بين الاستجابة للارادة والشهوانية والاستجابة للضعف وللرغبة في الفرار من الالتزامات والتبعات والمعاناة الصعبة . انه يجمع للمؤمنين بين هذا وهذا ، او هو يأذن لهم او يتسامح بأن يجمعوا بينهما .

ان الرسالة او التعاليم الروحية او الدينية هي اكثر الاشياء قسوة

وطغيانا على العقل والفكر والمنطق ، بينما هي اكثر الاشياء تسامحا او ضعفا او اغضاء او حياء او انهزاما امام التلوثات والشهوات والضعف الاخلاقي . انه لا مثيل للرسالة الروحية او الدينية في تسامحها مع التلوث وفي تعصبها ضد التفكير .

انها لا تحابي شيئا مثل محاباتها لسقوط الاخلاق ولا تقاوم شيئا مثل مقاومتها لشموخ العقول .

ان الدعوة او التعاليم الروحية او الدينية سلاح يقتل دون أن يصنع نصرا أو ان يهزم عدوا . انه سلاح لا يطلق على الاعداء ولا يستطيع ان يصيبهم . انه سلاح لا يقتل الا حامليه ومستعمليه . انه سلاح ليس ذكيا ولا شهما ولا وفيا . انه سلاح أكبر أهدافه واكثر أهدافه سقوطا تحت طلقاته هو العقل والذكاء . انه سلاح لا يقاتل او يصيب سوى كبرياء العقل والذكاء .

ان الرسالة الروحية او الدينية ليس لها خصم تقاتله سوى عقل الانسان وذكائه .

ولكن أليس من المحتمل جدا ان الناس لا يخطئون في تفكيرهم او يعجزون في سلوكهم لانهم يحملون او يعيشون او يتعلمون افكارا خاطئة ، بل لانهم عاجزون عن ان يفكروا تفكيرا صحيحا وعن ان يصنعوا سلوكا قويا او عظيما او نظيفا ، لا لأن لديهم افكارا خاطئة او ضعيفة تعلمهم الخطأ والضعف وتدعوهم الى ذلك ؟

أليس التفكير الخاطىء او الرديء ، والسلوك العاجز أو الرديء هما تعبير عن الذات العاجزة الرديئة لا عن الافكار الخاطئة الرديئة ؟

ان الافكار الضالة او المعوقة او المثبطة لا تستطيع ان تعوق او ان تضعف او ان تهزم أو أن تضلل النشاط المقتحم أو العقل القادر على ان يعرف والمريد ان يعرف او ان يقاوم او ان يتجاوز ويرفض . ولكنها اي الافكار الضالة والمعوقة والمثبطة قد تدل على مستوى او على احتياج او على ظروف واهواء من يؤمنون بها او من يعلنونها أو من يدعون اليها .

بل ان مثل هذه الافكار قد تكون عاجزة حتى عن هذا التفسير . انها قد تكون عاجزة عن الدلالة على مستوى من يؤمنون بها . انها قد تكون منفصلة عن مستوى المؤمنين بها او نقيضا حادا لمستواهم . ان الانسان قد يكون اكبر جدا من افكاره أو من اديانه او من اربابه كما قد يكون أصغر .

ان اقوى الناس واقدرهم على الاقتحام والتجاوز واعظمهم عبقرية عقلية قد يؤمن بأضعف واسخف الافكار . وقد يتعصب لها ويعادي او يقاتل دونها وغضبا لها ، اكثر وأعمق مما يفعل ذلك الاغبياء والعاجزون الذين يكونون اندادا بمواهبهم العقلية والاقتحامية لهذه الافكار والذين

يتساوون ويتكافأون باستعداداتهم وتطلعاتهم معها .

ان الموهبة والقدرة والرغبة والشهوة لا يمكن ان تقتلها ولا ان تهزمها او ان تزجرها الافكار أو التعاليم او الاديان مهما كانت كما انها اي الافكار والتعاليم والاديان لم تستطع ان تقتل او ان تهزم أو ان تزجر في الاعضاء او في النيات أو في الشهوات جوعها الى التلوث والى النذالــــة ، والى السباحة والغرق في حمامات الشيطان .

ان كل ما في تاريخ البشر وكل ما سوف يكون في تاريخهم من آلهــة شرسة ، ومن انبياء ومعلمين غلاظ الاخلاق والعقول والتعاليم ، ومــن صلوات ومحاريب ومعابد ومنابر ، ومن آيات واناجيل ، ومن ارهــاب ووعيد واوامر ومناه تصوغها وتوجهها بكل كبريائها وضخامتها ووحشيتها وكآبتها كل الآلهة في كل ارجاء كل جحيم .

ــ ان كل ما في تاريخ البشر وما سوف يكون في تاريخهم من ذلــك لن يستطيع ان يمنع او ان يؤخر او ان يزجر او يخيف او يضعف أيــة فكرة في اي عقل من ان تقتحم كل السدود والحــدود والحــراســات السماوية ، لتنطلق في زمانها ومكانها وعلى مستوى قدرتها وبكل قدرتهــا وعنفها وشراستها وبكل قدرتها على القتال والانتصار ، دون أن تستأذن او تحترم او تهاب حضور اي آله أو اي نبي أو اي معبد او اي محراب او اي انجيل او اي قرآن ، يامر وينهى ويوعد ويلعن ويحرم ويهــــدد ويحدق بغضب تموت من رهبته وكآبته النجوم والشموس والابتسامــات في وجوه الحقول ووجوه الانهار وفي وجوه كل الاشياء . ان اي حضــور لا يتلقى من التحقير والغيظ والاذلال والعصيان مثلما يتلقى حضور الآلهة والتعاليم والاديان والكتب المنزلة .

ان المواهب الانسانية لا ترحم دموع الآلهة او خوفها أو ضعفهــا . انها اي المواهب لا تتخلى عن تفجراتها وانطلاقاتها أو تؤجلها اشفاقا على ضعف الآلهة أو احترامــا لاحزانها أو بحثا عن مسراتها . ان دموع الآلهة لا تجد من يرثي لها . انها أضيع دموع في هذا الكون . ان مآسي الآلهــة وهزائمها هي اعظم ما يهب المواهب المتفجــرة المتحديــة المقاتلة النشوة والسرور والرغبة في المزيد من التفجر والتحدي والقتال .

ان المواهب لا تحترم شيئا او تهاب شيئا غير قدرتها على ان تكــون او لا تكون . انها تستطيع او لا تستطيع .

ان المواهب الميتة هي ميتة وليست مقتولة . ان الآلهة لم تقتلها وهي لا تستطيع قتلها . وان شيئا ما لا يستطيع أن يقتلها .

ان المواهب الميتة هي مواهب لم توجد . انها لم تمت ولم تقتل ، ولكنها لم توجد . ان المواهب اما موجودة او غير موجودة . انها ليست مقتولة او غير مقتولة ، وليست ماذونا لها او ممنوعة .

ان الآلهة هي أضعف اعداء الانسان . انها لم تستطع ان تصيبه باي

ضرر او الم في كل تاريخه . انها عاجزة عن ذلك . انها اعجز أعدائه .

ان الآلهة هي أنبل أعداء الانسان لانها أي الآلهة هي أضعف اعدائه .

ان الآلهة في كل تاريخها لم تستطع ان تفعل للانسان او ان تفعل به اكثر ، أفضل أو أردأ من أن تتحول الى تفاسير وتسويغات وشعارات لما يريد ويستطيع ويفعل ، او لما لا يريد ولما لا يستطيع ولما لا يفعل .

انها في كل تاريخها وتاريخه لم تعطه ولم تأخذ منه غير أن فسر نفسه بها . ان كل احاديثه عن الآلهة ورؤاه وتفاسيره لها ليست الا تفاسير لنفسه ، لما يريد او لما يرفض لها .

ان الآلهة لا تستطيع ان تكون اكثر من متهم بذنوب لم تردها ولا تستطيع أن تفعلها ، أو بمزايا لم تردها ولا تستطيع ايضا أن تفعلها بل ولا ان تريدها .

ان كل عبقرية الآلهة ، ان كل ذنوبها وحسناتها أن تصبح متهمة ..

أن تتحول الى تفسيرات وتسويغات وشعارات دون ان تدري أو تريد ودون ان تقبل او ترفض ، ودون ان تحزن او تسر او تقاتل لترفض الظلم والعدوان عليها والكذب باسمها ، والاتهام لها ، لذكائها واخلاقها وتاريخها .

هل ترى حظوظ الآلهة اذن جيدة أم رديئة ؟

هل تراها قد افادت الانسان او الحياة ؟ هل تراها قد اصابت الانسان او الحياة بأي ضرر ، اي بهذا التفسير لها ، بهذا الاتهام أو بهذه التبرئة ؟

ان الآلهة رديئة جدا ، ولكنها جيدة جدا ، وكذلك التعاليم الروحية والدينية . انها رديئة جدا في كل تفاسيرها واخلاقها واحتمالاتها .

ولكنها جيدة جدا لانها لا تفعل شيئا ولا تستطيع شيئا . ان عجزها هو اعظم مزاياها بل كل مزاياها . انها عاجزة عن أن تفعل للمؤمنين بها أو أن تفعل ضدهم .

ان الآلهة وكذلك الاديان وكذلك كل رسالة أو تعاليم روحية لا تستطيع ولم تستطع أن تكون قيدا بل ولا أمرا أو نهيا على سلوكنا او على أفكارنا أو على نياتنا .

انها لم تستطع ان تصبح اغراء او تحريضا او زجرا في اي وقت .

لهذا فكم هي نبيلة ورحيمة ومهذبة في سلوكها وتأثيرها مهما كانت رديئة ومتوحشة وهمجية في كل تفاسيرها وحوافزها واهدافها ونياتها .

ان كل ذنوبها انها تتحول الى بيت ضخم ، ضخم تنفق وتبدد عليه أفدح النفقات دون أن يسكنه احد أو يأوي اليه احد ليتقي به الحر او البرد او الرياح او الافتضاح .

ان الآلهة والاديان والرسالات الروحية هي البيوت الضخمة الشامخة التي لم يسكنها في اي عصر او مجتمع احد من مصمميها أو من دعاتها أو من المنفقين عليها او من البانين لها بايديهم واجسادهم .

الانسان .. هل خدع خيال الآلهة

« .. لقد كان التاريخ في جميع أشواطه وصياغاته واهتماماته وتفاسيره كأنه لم يكن يعني او يريد الا ان يصنع الموت والخراب والآلام والاحزان والجنون والغباء والتشويه والاذلال لكل الناس ، ليجعل من كل ذلك تحية وتمجيدا وتتويجا وصلاة لانتصارات وامجاد القادة والزعماء والمجانين الشخصية . لقد كان التاريخ يتحرك وكأنه يرى ان أي مجد او انتصار او ابتهاج لاي قائد أو لاي زعيم ليس الا غفرانا بل ليس الا شفاء لكل ما في الكون والحياة والناس من عاهات وتفاهات ومن شقاء وجنون وعدوان وتلوث وبلادة وذنوب . لقد كان التاريخ يهتف دائما لنفسه وهو يصنع ابشع الآلام والاحزان والحماقات والمظالم والتخريب ، لانه كان يعتقد او كأنه كان يعتقد أنه بذلك أنما يحيي ويصافح الزعماء والقادة والمعلمين القتلة الاغبياء ، ويهتف لامجادهم وانتصاراتهم ، ويصنع لهم التيجان المنسوجة والمسحوبة من جسد الانسان ومن ذكائه وكبريائه وشجاعته . ان المظالم والحماقات التاريخية ليست مغفورة فقط لانها تتحول الى تحية والى تمجيد وتكريم ومحاباة لامجاد وانتصارات الزعماء والقادة والمعلمين ، والى أعلان بذيء شرير عن أمجادهم وانتصاراتهم . بل انها اي المظالم والحماقات التاريخية اكثر من مغفورة . لقد كان التاريخ يؤدي أدواره وكأنه يرى ان أمجاد وانتصارات هؤلاء القتلة والمجانين لا يمكن ان توجد أو أن تكون عظيمة او مقبولة اومقروءة او معروفة اومعترفا بها او صانعة لهم الكبرياء والمجد والابتهاج الا اذا صنعت كل الموت والدمار والويلات الشاملة لكل الناس ولكل الاشياء . أن ذلك هو وحده الذي يهبهم الدوي والخلود واللمعان . لقد ظل التاريخ في كل التاريخ عميلا وقحا نذلا منافقا لجميع القادة والزعماء والمعلمين الاغبياء القتلة وكأنه لا عبقرية له غير ذلك .. » .

**

لو أن كائنا فلكيا استطاع من بعيد ان يستمع الى ما يقول ويذيع البشر ، وان يقرأ ما قالوا وما يقولون ، ما قاله ويقوله أربابهم وانبياؤهم وزعماؤهم ومعلموهم ومفكروهم ووعاظهم وشعراؤهم وكل من مارسوا

ويمارسون الكلام والتعاليم فيهم .

– نعم ، لو أن كائنا فلكيا استطاع ذلك بوسيلة ما فكيف يمكن أن يفهم البشر او ان يتصورهم او أن يفسرهم ؟ هل يتصورهم اقوياء واذكياء؟ هل يتصورهم ضعفاء واغبياء ؟ هل يتوقعهم سعداء أم أشقياء ؟ هل يمكن ان يراهم بأي نموذج او مقاس او مستوى من نماذجهم او من مقاساتهم او من مستوياتهم؟ هل يمكن ان يفسرهم او ان يفسر اي شيء فيهم ، أي شيء من اخلاقهم أو من نياتهم او من حياتهم تفسيرا طيبا أو سعيداً ؟

هل يمكن أن تكون نماذجهم حينئذ في افتراض ذلك الكائن الفلكي عملا من اعمال العقل او الخيال أو التصور او التفسير أو التوقع ؟ هل يمكن ان يرى او ان يجد نماذجهم فيما قالوا وفيما كتبوا لو انه استمع او قرأ ما قالوا وما كتبوا ؟

هل يمكن ان يفهم ذلك الكائن الفلكي بما يسمع ويقرأ عن البشر ولهم ماذا يكونون او يعنون او يساوون او يريدون او يعملون ؟ هل يمكن ان يقدر ولو تقديرا مقاربا طول قاماتهم العقلية او الاخلاقية او ارتفاع هاماتهم العقلية أو الاخلاقية او النفسية بما يسمع ويقرأ منهم ولهم ؟ هل يمكن أن يراهم او يفهمهم او يفسرهم او يتوقعهم او يتصورهم او يحدد طول قاماتهم او ارتفاع هاماتهم النفسية او الاخلاقية او العقلية بالقراءة لهم ، او بالاستماع أليهم ؟

هل يمكن أن يفهم البشر مما يقولون ويكتبون ؟ هل يمكن ان تفهم مستوياتهم ، او نماذجهم ، او تلوثهم ونظافتهم ، او كبرياؤهم واتضاعهم ، او ضآلتهم وضخامتهم ، او ممارساتهم لحياتهم أو لانفسهم او للاخرين ؟

هل يمكن ان تفهم نماذج البشر او مستوياتهم او تصدق او تفترض بالعقل او بالخيال او بالتفسير بدون ممارستهم طويلا ، طويلا .

هل يمكن تصور البشر كما هم او قريبا مما هم بدون قراءة لهم وبدون استماع اليهم ؟ هل يمكن ان يصبحوا صورا عقلية او خيالية في عقل او في خيال كائن ، اي كائن فلكي او غير فلكي لم يرهم ، ولم يمارسهم بأي اسلوب من اساليب الممارسة ؟ هل يمكن أن يهتدي أي عقل او خيال – بالتصور والافتراض والتقدير – الى نموذجهم ، الى اي نموذج من نماذجهم؟

هل البشر نموذج يمكن تصوره او افتراضه او اقتراحه او اختياره او تمنيه او الاهتداء اليه ؟ هل هم نموذج ، هل هم بأخلاقهم او بذكائهم او بذواتهم او بأية صيغة من صيغ حياتهم وممارساتهم ، نموذج يمكن أن يراه او يتمناه او يقترحه او يرضى به او يفهمه خيال او عقل اي اله او اي كائن فلكي او كوني يعيش فوق الكون ، فوق النجوم ، بعيدا عن الارض التي يعيش فوقها البشر دون أن تراهم اي الارض او تنظر اليهم او تفهمهم او ترحب بهم او ترضى عنهم او تقترحهم او تقترح نموذجهم او تستشار في مقدمهم اليها او في نموذجهم — دون ان تتصورهم او تدعوهم او تجوع اليهم او تشعر بالحاجة الى التزين بهم — دون أن تؤمن بالآلهة او تصلي لهم او تتأدب في طاعتها ومعاملتها لهم شكرا لهم على اهدائهم البشر اليها؟

هل البشر نموذج يمكن لاي كائن ان يجامل او يجمل موهبته بأن يبدعه او يقترحه او يتصوره او يفهمه او يعجب به او يدعيه او ينسب اليه ؟ هل للبشر نموذج تعاني اية موهبة في التطاول اليه ؟

هل يمكن ان يكون البشر تصورا او امنية او اقتراحا او تدبيرا او منطقا او خيالا لاي كائن ، لاي اله او لاي فنان او لاي مفكر او لاي كائن فلكي ، لا يراهم ولا يمارسهم ولا يتعذب بممارستهم وبرؤيتهم ؟ هل يمكن ان يكون البشر صيغة في اي منطق ، او في اي تصور او في اية امنية او في اية عين او في اية موهبة لم ترهم ، ولم تعان من رؤيتهم طويلا ،طويلا، جدا ، جدا ؟

هل يمكن ان يمدح اي اله او اي مبدع بأن نموذج البشر من تخطيطاته او من اقتراحاته او من امانيه او من تصوراته او من شهواته ؟ هل يمكن ان يكون نموذج البشر رؤية اله او رؤية فنان ؟ ان يكون حلم اله او حلم فنان ؟ ان يكون احتلام اي اله او احتلام اي فنان ؟ هل يمكن ؟

هل يمكن ان يكون الانسان نموذجا لنفسه ؟هل يمكن ان يكون نموذجا لتصوره او لخياله او لاقتراحه او لتمنيه او لارادته او لمنطقه او لاختياره؟

هل يمكن ان يرى هو نموذج نفسه بكل مستوياته او بشيء من مستوياته ، رؤية عقلية ؟

هل يمكن ان يختار نموذجه او يعرفه او يهتدي اليه بالتصور او

بالافتراض او بالتفكير أو بالرؤية من بعيد ؟ هـل يرضى الانسان بنموذجه او يختاره لو كان مخيرا ؟ هل نموذج الانسان عدوان على الانسان ؟

هل يمكن أن يكون نموذج الانســـان تصوراً او اقتراحا او تمنيـا او إختياراً او رؤية بالتفكير او بالمنطق او بالخيال ؟ هل يمكن أن يكون الانسان نموذجا عقليا او اخلاقيا او أي نموذج لاي خيـال او لايـة رؤيـة او لاي احتلام ؟

لو ان جميع التصورات والخيالات والارادات والاقتراحات والتمنيات والرؤى العقلية والاخلاقية الموجودة والمحتملة والتي قد وجدت قد تجمعت في مؤتمر مفتوح لتمارس كل نشاطها وحماسها وذكائها ، وكل اهتماماتها وقدراتها وعبقرياتها واساليبها المختلفة فهل يمكن ان تتمنـى أو تريـد او تتخيل أو تتصور نموذج الانسان ، أو تقترحه ، او تراه رؤية عقليـة ، او رؤية شعرية او فنية ، او حتى دينية ؟ — هل يمكن ان تتمنى أو تريـد او تتخيل او تتصور او تقترح ، أو ان ترى رؤية عقلية او اخلاقية او فنية او شعرية او دينية نموذجه النفسي أو العقلي أو الاخلاقـي أو العاطفـي او اللغوي او الديني أو الذاتي ؟ هل يمكن أن يكـون اي نموذج مـن نمـــاذج الانسان اهتماما من اهتماماتها او مستوى من مستوياتها ؟

هل يمكن ان يكون نموذج الانسان أي افتراض من افتراضاتها ، أو ان يكون داخل اي نشاط من نشاطاتها ؟

ولو فوجيء أي اله او اي مبدع بمواجهة الانسان لاول مرة وبالتحديق فيه وفي نماذجه المختلفة فهل يمكن أن يجيء في احد حسابات هذا الالــه أو المبدع أنه قد يتصور نموذجه او يتخيله او يقترحه او يختاره او يعجب به او يرضاه نموذجا لاي شيء ، تعبيرا عن اي مستوى من مستويات فنونه ومواهبه ، او انه قد يراه رؤية فكرية او اخلاقية أو دينية او شعرية ، او انه قد يخلقه ويصوغه ، او انه هو الذي خلقه وصاغه ؟

ولو أن هذا الاله او المبدع المفاجأ برؤية الانسان للمرة الاولى اتهم او امتدح بأنه هو الذي اقترح او تصور او تخيـل أو ابـدع او رأى بفكـره وموهبته الفنية نموذجه ، اي نموذج الانسان فهل يمكن ان يصدق ذلك او ان يراه احتمالا ؟ هل يمكن أن يتقبل هذا الاتهام او هذا الامتداح ؟ هـل

يمكن ان يرى هذا الامتداح او الاتهام احتمالا قد يكون صادقا ؟ هل يمكن ان يصدق ان ذلك قد يكون احتمالا في تصور أي آله او أي مبدع ، او في خياله او في تمنياتهاو فيآقتراحاتهاو فيرؤاهاالعقلية؟انهيعنيدائما بنموذج الانسان جميع صيفه وتعبيراته السلوكية والشعورية والنفسية والفكرية والجسدية ، بل واللغوية والدينية ،بكل اساليبها ومستوياتها واحتمالاتها، بل ويعني بذلك آسلوب مجيئه واسلوب ذهابه ، وجميع اساليب معاناته وممارساته لفضائحه وآلامه ولمسراته أيضا .

* *

أن ذلك الكائن الفلكي او الانسان الفلكي المفترض أنه قد سمع وقرأ ما يقوله البشر وما كتبوه ويكتبونه سيجد فيما يقرأ ويسمع ما لا يمكن ان يتحول الى نموذج للبشر ، الى نموذج مفهوم او متوحد او عظيم . ان ما سوف يقرؤه ويسمعه لن يستطيع آن يتحول الى تفسير لنموذج البشر، لاي نموذج من نماذجهم . انه لن يجد في ذلك تفسيرا لنماذج البشر ، بل آنه لن يجد فيه تفسيرا لاي شيء .

انه لن يجد فيه تفسيرا ولا لنموذج آية حشرة ، ولا لنموذجاي شيء. ان ما سيقرؤه ويسمعه سيلقي به في ظلام دون اية علامات .

انه مهما كان محتملا ان يخدع ذلك الكائن الفلكي او الانسان الفلكي في تصوراته وتفاسيره لنماذج البشر ولمستوياتهم المختلفة ــ لان ما سوف يسمعه ويقرؤه لهم وعنهم ومنهم وفيهم قد يخدع ، او هو جدير بأن يخدع، او محتوم ان يخدع ــ فان آحتمالات ذلك الانخداع والخديعة،او حتميتهما لن تصبح شيئا خطيرا آو شيئا مفهوما او شيئا متحددا .

انه لو خدع لما جاءت الخديعة لمصلحة البشر ، لما جاءت تمجيدا لهم او مزيدا من تمجيدهم . انها حينئذ خديعة قد تجيء ضدهم .

وقد يكون هذا القول باحتمال الانخداع آو الخديعة لهذا الكائنالفلكي ليس آلا تصورا لواحد من البشر ، وليس موقفا سوف يعاني منه كائن يعيش بعيدا ، يعيش وراء الكون وفوق النجوم . اننا نحن البشر قد نخدع انفسنا بما نقول عن انفسنا ولانفسنا ، ولكن هل تخدع به الكائنات آلفلكية؟

قد يكون الامر انه لن يوجد اي احتمال لانخداع اي كائن فلكي في

تصوره لنماذج البشر ولمستوياتهم المختلفة حينما يسمع ويقرأ ما يقولون ، وما كتبوا ويكتبون دون ان يعاني معايشتهم ورؤيتهم معاناة فيها كل اهتمامات التجربة ورؤاها ومنطقها وشروطها وآلامها وتحديقاتها وذنوبها وفضائحها. قد يكون الامر انه لو خدع ذلك الكائن الكوني بما يسمع ويقرأ عن البشر ولهم ومنهم لكانت خديعته ضدهم لا لهم . انه قد يتصورهم ويفهمهم ويفسرهم اقل من نماذجهم لا اكثر لانه قرأ وسمع لهم .

انه سيسمع ويقرأ — مصدوما مروعا — ما لن يستطيع أن يتبين هل هو صادر عن عقلاء أم عن مجانين ، عن مستوى غريب وشاذ جداً من المجانين . وهل يحتمل أن يتصور صدور مثل ذلك عن عقلاء ، عن اي عقلاء، عن اي مستوى من مستويات العقلاء ؟ وماذا يمكن ان تكون صفات العقلاء او صفات المجانين في تصور ذلك الكائن الفلكي ، وما هي الفروق في حساباته بين هؤلاء وهؤلاء ؟

انه سيسمع ويقرأ ما لن يستطيع ان يتصور ان مثله قد يصدر عن كائنات عاقلة أو ذكية أو متحضرة او مهذبة أو صادقة او مخلصة او مؤمنة أو سعيدة ، او نظيفة ، او يمكن ان تفهم او تعامل او تعايش او تقبل أو تحتمل او تستطاع رؤيتها او التفاهم معها أو الثقة بها ، او فهم ماذا تريد، او ماذا تعني ، أو ماذا تقول ، او ماذا تستطيع ، او ماذا تنوي ، او ماذا تفهم — او ماذا يمكن ان تعطي او تفيد الآلهة التي دبرتها واوجدتها ان وجدت هذه الآلهة — او ماذا تعطي او تفيد نفسها لانها قد وجدت . انه لن يستطيع ان يفهم اي شيء معقول أو محترم أو مدبر أو مراد مقصود في هذه الكائنات التي يسمع منها ويقرأ لها . انه لن يستطيع أن يفسرها او يضبطها بأي مقياس من مقاييسه ولا بأي منطق .

انه سيجد فيما يقرأ ويسمع كل شيء ونقيضه . سيجد الامتداح لكل شيء والذم لكل شيء . سيجد الامتداح للشيء الواحد والذم له في وقت واحد أو في أوقات مختلفة ، من مكان واحد او من اماكن متعددة ،من فم وعقل واحد أو من عقول وافواه متعددة مركبة في كائن واحد .

انه سيجد الايمان بكل شيء والجحود بكل شيء والجحود او الرفض لكل شيء . سيجد ان الشيء الواحد يقع عليه الايمان ويقع عليه الكفر في أوقات مختلفة او في وقت واحد ، من مؤمن وكافر واحد أو من مؤمن

وكافر آخر ـ من كافر مؤمن ، او من كافر ومؤمن ، من كافر هو المؤمن، او من كافر هو الكافر ، او من كافر هو المؤمن بشيء آخــر ـ بنفس الحماس والاقتناع ، وبنفس الاعــلان والافتضاح والغرور والتحدي والدعوة الــى المبارزة .

انه سيجد الشيء الواحد ، سيجد الاله او النبي او المعلم الواحد ، سيجد الدين الواحد او المذهب الواحد او التفكير الواحد او المنطق الواحد او النظام الواحد او التاريخ الواحد او الوضع الواحد او المستوى الواحد او القائد الواحد او الرجل الواحد .

ـ سيجد الشيء الواحد حقا وباطلا ، صدقا وكذبا ، ذكــاء وغبــاء ، جمالا ودمامة ، عدلا وظلما ، شرفا ونذالة ، شجاعة وجبنا ، قوة وضعفا، تقدما وتأخرا ، تلوثا ونظافة .

انه سيجد أن كل شيء هو نفسه ونقيض نفسه، هو الشيءوالخروج على الشيء ، هو التفسير والتفسير الاخر ، هو الفكرة ومقاومتها ، هــو الفكرة والفكرة الاخرى ، هو المعبد والملهى ، هو النظافة والتلوثهو الايمان والنفاق ، هو البطولة والاجرام ـ هو الشيء وعكسه، هو الشيءومعاداته، في زمان واحد أو في زمانين ، في مكان واحد أو في مكانين ، فــي لسان واحد او في لسانين ، في دين واحد او في دينين ، في تعاليم نبي واحد او في تعاليم كل الانبياء ، في مشيئة وشهوة اله واحد او في مشيئة وشهوة كل الآلهة ، في لغة واحدة أو في كل اللغات .

انه سيجد ان الحق هو الباطل وان الباطل هو الحق ، وأن الذكاء هو الغباء وان الغباء هو الذكاء،وان المنطق هو الخروج على المنطق وان الخروج على المنطق هو المنطق ، وان العدل والصدق والتطهرهو نفس الظلم والكذب والتلوث ، وان التلوث والظلم والكذب هو نفس العدل والصدق والطهارة.

انه سيجد أن النبي هو الدجال وان الدجال هو النبي . وسيجد ان البطل هو المهرج وان المهرج هو البطل . وسيجد ان الذي يوصف بهذا هو الذي يوصف بهذا ، وان الذي يهتف بحياته وله هو الذي يهتــف بموتــه وضده ، وان الذي يمجد ويصلي له في هذا المعبد او في هــذا الديــن او المذهب هو الذي يحقر ويكفر به في الاديان والمذاهب والمعابد الأخرى .

انه سيجد كل شيء يتحول الى نقيضه فيما يسمع ويقرأ ، انه لن يعرف اي النقيضين هو المعتدي وايهما المعتدى عليه ، ايهما الله وايهما الشيطان.

انه لن يجد فيما سوف يسمع ويقرأ شيئا واحداً يمكن ان يفهمه او يميزه او يختاره او يراه الافضل او الاصدق او الاذكى او الاكثر تهذيبا او تقى ، او الاشرف اتباعا ودعاة .

انه لن يجد الها او نبيا او معلما او دينا او مذهبا او منطقا او طغيانا او ادعاء او حقدا او طموحا او عدوانا او غباء او جنونا واحداً بلا نقيض او مخالف او منافس او مزاحم او مشاتم ، له نفس الدعاوى والكبرياء والبذاءات والضجيج والاسلحة والمبشرين والمقاتلين والاتباع العدوانيين ، له كل شهود الزور ومنابر الزور وكل ادوات الفتك والتسلط والتضليل والافساد ، له نفس الدعاية بكل فحشها واكاذيبها وغواياتها وتكاليفها ، له كل ظروف النقيض وشرعيته واحتمالاته ، له كل ذكائه وغبائه ، له كل اقتناعه بنفسه وبذكائه وغبائه ، له كل ما له من هتافين ومؤمنين متساوين في الغباء والهوان .

انه لن يجد فيما سوف يسمع ويقرأ الها ليس أمامه عديد الآلهة تنافسه وتعاديه وتقاتله وتشاتمه وتكذبه وتطعن في طهارته وفي اخلاقه وفي نياته ، وتكيد له ، وتحاول أن تأخذ منه ،وان تسطو عليه،وان تفتاله، وان تشهر به ـ ليفعل هو بها نفس ما تفعل او اكثر ان استطاع . انه لن يجد الها لا يتبادل الشتائم والاحقاد والاتهامات والعداوات والمخاصمات والحروب مع منافسين وانداد آخرين دون اي تهذيب او وقار او عدل او ذكاء او شرف .

انه لن يجد مذهبا او نظاما او دينا لا تقف في مواجهته اديان ومذاهب ونظم اخرى موقف القتال والحسد والغيرة والعداوة والعدوان والتجريح والتشهير والتهديد والتربص والتضليل والمفاخرة والمطاولة ، وتدعي لنفسها من الصدق والخلود والذكاء والنزاهة والنظافة والتقوى مثلما يدعي لنفسه او اكثر مما يدعي ، وتحاول أن تحشد في معابدها وتحت اقدامها وفي معتقلاتها العقلية والنفسية والارهابية كل كائن وكل ما ليس كائنا بلا أي مقدار من الصدق او الورع او النبل ـ ليفعل هو نفس الاشياء التي تفعل بنفس الجنون والوقاحة والشهوة العدوانية والافتراسية ،

وبنفس الافتضاح والضجيج والرغبة في الالقاء بكل الملابس الداخلية والخارجية ، ملابس التجميل والزينة وملابس الاحتشام والاستتار — ملابس الخداع وملابس المقاومة لوقاحات العورة ، ملابس الصلاة وملابس الحمام ، ملابس الميدان وملابس النوم والمخدع .

انه فيما سوف يسمع ويقرأ لن يجد قائداً او نبيا او معلما واحداً او حتى كاتبا او مفكراً او شاعراً ، او حتى كاهنا او واعظا واحداً لا يخوض كل المعارك في أرض كلها اوحال وذنوب وحشرات ووحوش ضد انداد وامثال لهم نفس الحوافز والغايات والنيات والمستويات والصفات .

انه سيجد فيما سوف يسمع ويقرأ آلهة ونبوآت واديانا ومذاهب ونظما وزعامات وقيادات وجيوشا وحدودا وتجمعات واحلافا واحقادا وعداوات وبذاءات ومنابر ولغات وهموما وهزائم ومجاعات وشهوات وذنوبا ومطامع تتصارع وتتلاعن وتتعادى وتتقاذف بكل الاتهامات والبذاءات والبغضاء وبكل اساليب التعيير والسفه ، وبكل معاني الحقد والتطاول والعدوان ، وبكل نيات الغدر والخداع والتدمير — بنفس المنطق والحجة والادعاء والحافز والاسباب ، وبنفس الايمان والتقوى والغيرة والصدق والحب للجمال وللذكاء وللعدل .

انه سيجد كونا من الجنون ، من كل معاني الجنون وتفاسيره ومستوياته .

ان الاسباب التي يجب ان يكون بها هذا مقتولا ومهزوما ومنفيا ومرفوضا ومذموما هي نفس الاسباب التي يجب أن يكون بها قاتلا وهازما ونافيا ورافضا وذاما . ان الاسباب التي تدعوك نبيا ، التي تدعي لك النبوة هي نفس الاسباب التي تدعوك شيطانا ، التي تحولك الى شيطان. ان الاسباب التي تجعل منك قديسا وزعيما عظيما هي نفس الاسباب التي تجعل منك مشعوذا ومجرما يعاقبه القانون .

انه سيجد فيما يقرأ ويسمع أن الاسباب التي تجعلك تملك هذا الكون أو التي تهبك المنطق والقدرة على امتلاكه او على ادعاء امتلاكه والمطالبة بامتلاكه هي نفس الاسباب التي تنفيك من هذا الكون وتعطي خصومك المنطق الذي يطالب بنفيك من الكون ، وتعطيهم القدرة على ان ينفوك .

انه سترهق خياله مستويات الضعف والاعياء والخوف والضياع والجوع والتفاهة والبلادة التي سوف يكتشفها في البشر حينما يقرأ ويسمع منهم لهم. انه سيكتشف بارتياع اضعف المستويات حتى فيما يبدو انه اقوى المستويات ، او انه التعبير عن اقوى المستويات . ان تلك المستويات التي حسبت أقوى المستويات وتحدث عنها على انها أقوى المستويات ستعصف بخياله ، ستتحول الى عقاب لخياله .

انه سيجد كل الضعف والتفاهة والغباء فيما يبدو او يظن انه كل العظمة والقوة والالمعية الذهنية . انه سيسمع ويقرأ عن المواقف الشجاعة والنبيلة والمجيدة والنظيفة والمهذبة والذكية والفادية والواهبة كل ضروب المسرات ليجد فيها التعبير الفادح ، الفادح جداً ، عن النقيض،عن النقيض جدا . انه سيجد هذا النقيض ، هذا النقيض جدا ، في مذاق الكلمات وفي صوتها وفي حشرجتها وفي كبريائها ، وفي بذاءتها ، وفي انانيتها ، وفي عدوانيتها ، وفي جراتها وفي تناقضها وفي غبائها .

انه سيجد اردأ مستويات الضعف في أعلى مستويات التعبير عن اعلى مستويات القوة . سيجد ان أقوى اساليب التعبير عما يراد فهمه وتصديقه هي أقوى اساليب التعبير عما لا يراد فهمه ولا تصديقه، عمايراد اخفاؤه وانكاره .

انه سيجد اردأ المواقف واضعفها مفسرة بأبلغ الكلمات عن انبل واتقى واقوى المواقف . انه سيجد كل الدمامة مخبوءة بغباء حيث يجد الحديث عن كل الجمال . انه سيجد الاعلان عن الدمامة كلما وجد الاعلان عن الجمال . انه سيجد الافتضاح حيث يراد الاستتار انه سيجد كل التعري حيث توجد كل الملابس .

انه سيكتشف ما في نفوس البشر من انخفاض وقبح وفحش وتلوث وصغائر حينما يسمع ويقرأ ما يقولون ويكتبون من اساليب الثناء عليها ومن اساليب التحدث اليها ، وحينما يقرأ ويسمع اوصافهم لانفسهم واساليب الامتداح لها ، وحينما يسمع ويقرأ ما يقولون وما يكتبون عن الآخرين والى الاخرين ، وكيف يصفونهم وكيف يريدون لهم وكيف يشعرون ازاءهم وكيف تتعامل افكارهم وعواطفهم وكلماتهم معهم .

انه سيكتشف كل معاني الفحش والقبح والضعف في البشر حينما

يسمعهم ويقرؤهم وهم يتحدون ويبارزون ويفاخرون ويتهددون ويتوعدون ويتلاعنون ويتجادلون ويدعون بكل ما في الوحش والحيوان والحشرة من بذاءة ووقاحة وسموم وجلافة وبلادة وافتراس ، وبكل ما ليس فيالحشرة والوحش والحيوانمن حقد وبغضاء وكبرياء وكذبوتنافس ونفاقودمامات اخرى .

وهل يتصور الكائن الفلكي ان كائنا ما قد يتحدى أو يبارز او يفاخر او يتوعد او يهدد أو يجادل أو يلاعن كائنا اخر - هل يمكن ان يتصور ذلك او يتقبله ؟ هل يمكن آنيتصور فحشا او عدوانا او جنونا او نذالة او بلادة او دمامة مثل ذلك ؟ هل يمكن أن يتصور ؟ هل يتصور كائن لم يشاهد من يتشاتمون ان كائنا ما قد يشاتم كائنا آخر او يتوعده أو يتحداه أو يفخر عليه أو يدعوه للمبارزة .

كيف يمكن ان يفهم الكائن الفلكي كائنات تتشاتم وتتعادي وتتفاخر وتتحاقد وتتحاسد وتتباغض وتتقاتل بالارباب والانبياء والاوطان والمذاهب والنظم والتاريخ والافكار والاخلاق بكل هذا الفحش والبذاءة والوحشية والنذالة والعداوة التي سوف يجدها ويصدم بها حينما يسمع ويقرأ ما يقوله وما كتبه ويكتبه البشر - كيف يمكن ان يفهم هذه الكائنات ، كيف يمكن ان يفهم ويتصور نماذجها ومستوياتها - كيف ؟

كيف يمكن ان يتصور الكائن الفلكي كائنات مقسمة الى جماعات ، كل جماعة ، واحيانا كل فرد ، تعادي كل الجماعات الاخرى وتشاتمها وتعيرها وتكرهها وتهددها وتتمنى لها الدمار والشقاء والهوان ، وتنتظر - بالكلمات وبالتفكير وبكل اساليب الدعاية - لها كل ذلك ، زاعمة أنها لا بد ان تصنع لها هذا الذي تنتظر - لانها مقتنعة - وتعلن اقتناعها هذا - بأن الهها او دينها او مذهبها أو نظامها او نبيها او زعيمها أو معلمها او وطنها أوتفكيرها او موقفها هو الاصدق والافضل والاذكى والاقوى والاخلد - أو بأنه هو وحده الصادق والفاضل والذكي والقوي والخالد ، وزاعمة ومصدقة بأن الهها او نبيها او زعيمها أو مذهبها او نظامها او وطنها يريد منها ذلك ويأمرها به ؟

كيف يمكن ان يفهم الكائن الفلكي مثل هذه الكائنات - كيف يمكن ان يفهم او يتصور نماذجها ومستوياتها ؟

هل يفترض حينئذ كل هؤلاء الذين يسمع ويقرأ لهم عقلاء واذكياء وصادقين ومخلصين ومحترمين ؟

واذن كيف يتعاملون هكذا ، وكيف يرى بعضهم بعضا ، ويحكم بعضهم على بعض هكذا ؟ كيف ؟

كيف يكون الشيء ونقيضه شيئا واحدا ؟
اذن هل يفترضهم عقلاء ومجانين ، طيبين وانذالا ، صادقين وكاذبين؟

ولكن ايهم هؤلاء وايهم هؤلاء ؟ ما الفارق . ما الدليل . ما هي اسباب الاقتناع ؟

اذن هل يفترضهم جميعا مجانين واغبياء وكاذبين ومزورين وادعياء واهل سوء ؟

واذن اين من ليسوا كذلك ؟ الا يوجد اسلوب اخر من الكائنات ؟

ولعل ذلك الكائن يذهب حينئذ يدير حوارا حادا وصادقا على ذهنه. لعله حينئذ سيقول لذهنه ، او يقول له ذهنه ، او يقول امامه ذهنه ، او يقول ذهنه امامه : اذا كان بعضهم هو وحده الصادق والعاقل والذكي والمخلص والمدرك والقابض على الصواب فلماذا لا يعلم الآخرون ، ولماذا لا يسلمون له ، ولماذا لا يسيرون معه .

ولماذا لا يفهمون كما فهم ؟ هل هم اغبياء ؟ هل هم فاسدون ؟ هل هم أغبياء وفاسدون ؟

ولماذا خص ذلك الفريق وحده بأن يكون الصادق الذكي العاقل الفاهم المالك المنطق والصواب ؟ ومن خصه بذلك ؟ وما هي الاسباب الاخلاقية او الفنية او الاضطرارية في تخصيصه بذلك ؟

وكيف علم ذلك الفريق انه كذلك ، اي كيف علم انه هو وحده المخصوص بالصدق والذكاء والعقل والادراك وبالامتلاك للمنطق والصواب؟ كيف علم ، كيف علم انه قد علم ؟

انه لموقف صعب ان يعلم من علم أنه قد علم وان يقتنع من اقتنع باقتناعه .

أليس كل الآخرين المجانين الاغبياء الكاذبين المخطئين المطرودين من كل حدود المنطق والصواب يحسبون ، بل يعلمون ، بل يعلنون انهم هم وحدهم العقلاء الاذكياء الصادقون المصيبون المالكون لكل احتمالات الحق والخير والذكاء ؟ اذن كل يظن انه هو الله . اذن كيف يعلم الله انه هو الله صدقا لا انخداعا ؟

اذن كيف يقتنع من هو الله حقيقة بانه هو الله ؟ كيف يطمئن الى ذلك ؟ كيف يثق باقتناعه ؟ كيف يعرف ان اقتناعه يعني انه كذلك ؟ كيف لا يقدر انه قد يخطىء في اقتناعه ، بل كيف لا يقتنع بأنه مخطيء في اقتناعه مثلما اخطأ الآخرون في أقتناعهم ؟ ان كل مقتنع مقتنع باقتناعه حتى أشد المخطئين خطأ ، اذن كيف نقتنع باقتناعنا ؟ وكيف يقتنع الاله باقتناعه أنه آله ؟

ان اولئك الآخرين مخطئون ومجانين واغبياء وكاذبون مزورون . وهم مع ذلك مقتنعون بأنهم ليسوا كذلك ، بل انهم مقتنعون بأنهم عكس ذلك .

كيف يقتنع المصيب بأنه مصيب حيث لا دليل على انه مصيب سوى اقتناعه ؟ ان غير المصيب مقتنع ايضا بأنه مصيب مثل اقتناع المصيب حقيقة اذا كان يوجد مصيب حقيقة . كيف يكون آقتناع هذا دليلا او كافيا ، او اقتناع ذاك ليس دليلا ولا كافيا ؟ كيف يمكن فهم الحقيقة المختبئة وراء الاقتناعين ؟ ما الفرق بين الاقتناعين ؟ واذا كان يوجد بينهما فرق او فروق فكيف تعلم ؟ وكيف يثق الكائن بعلمه مع أن الكائن الآخر الذي لا علم لديه يعلم ايضا لانهم كلهم يعلمون ،وقد يعلمون بدرجةمتساوية، وقد يعلم الذين لا يعلمون اكثر واصدق واعمق مما يعلم الذين يعلمون ؟ انهم جميعا يعلمون . اذن من هم الذين لا يعلمون . انهم جميعا يملكون الله .

اذن من هم الذين يملكون الشيطان ؟ آنهم جميعا صادقون . اذن من هو هذا الذي يتهمونه بالكذب ؟

وسوف يدير أيضا ذلك الكائن الفلكي حوارا آخر صادقا وحادا مع ذهنه . سيقول كيف يكون من العدل أو من الرحمة او من الاخلاق ـ على أي مستوى من مستويات الاخلاق ـ كيف يكون من العدل أو من الرحمة او من الاخلاق ان يخص ذلك الفريق وحده بامتلاك الصواب والذكاء والعقل والتهذيب ؟ كيف يخص بان يكون وحده هو الله ؟ كيف يقبل هو هذا التخصيص ؟ وكيف يتعامل به وعليه ؟ وكيف يفترضه ، او يقبل افتراضه ؟ كيف تتقبل ذلك اخلاقه أو مشاعره أو منطقه أو تدينه ـ كيف، كيف ؟

انه قد يعجز ذلك الكائن الفلكي عن تقبل ذلك ، عن تقبل شيء منه . اننا نتقبل اشياء كثيرة لاننا قد مارسناها طويلا ،لاننا قد مارسناها بعيوننا وآذاننا ومشاعرنا ومعارفنا ورواياتنا وبتعاليمنا طويلا ، طويلا ، وبقسوة وشمول . انه لولا ذلك لصرخنا ولصعقنا أمام اشياء كثيرة نراها ، بل ونمارسها بل ونحياها ، بل ونتعبد بها ولها وامامها ثم نذهب نشكر المنعمين الواهبين الطيبين ، ثم نذهب نتحدث بتدين عن جمال الاشياء وعن نبل الاشياء وعن رحمة الاشياء وعن عدل وحكمة واهب الاشياء .

ان ذلك الكائن الفلكي لم يمارس الاشياء التي نمارسها نحن ، وانه لم يمارسنا نحن ، لم يمارس لغاتنا وأفكارنا ومذاهبنا ومنطقنا وسلوكنا وإحقادنا وتعادينا وادعاءآتنا وتفاخراتنا واقتناعاتنا وانانياتنا . انه لم يمارسنا بأية وسيلة من وسائل الممارسات حتى ولا بعينيه ولا بأذنيه ،حتى ولا بخياله او تصوره .

اذن كيف يستطيع ان يتقبلنا او يتقبل الاشياء التي نتقبلها نحن بانبهار وافتخار وتعبد ؟ اننا نحن لم نتقبل الاشياء التي نتقبل ، ولم نتقبل انفسنا بكل نياتها وتعبيراتها ومستوياتها ونقائصها الرهيبة الا بالممارسات الطويلة التي تحول الفضائح والدمامات والآلام الى امجاد وديانات ومذاهب ، والى اخلاق وتعاليم انبياء ، والى عطايا وسواهب آلهة . ان الممارسة الطويلة قتل لطاقات الاحتجاج والرفض والاستقباح .

ولا بد ايضا ان يحاور ذلك الكائن الفلكي نفسه محاورة اخرى . انه لا بد ان يقول :

وذلك الفريق الذي خص بأن يكون هو وحده العاقل الذكي الصادق المخلص الفاهم المالك لكل الحق والذكاء والعقل والصدق — لو انه لم يخص بذلك ، لو انه عاش الجنون والغباء والكذب والباطل والضلال الذي يعيشه الآخرون ، الذي يعيشه مناقضوه ومخالفوه ، أليس من المحتوم حينئذ أن يقتنع بأن ما عنده هو ما فقده ، هو ما ليس عنده مثلما فعل الآخرون الذين يفقدون ثم يظنون أنهم يملكون ، ثم يعتقدون انهم يملكون ما يفقدون ، بل ثم يعتقدون انهم هم وحدهم الذين يملكون ؟ هل يوجد او هل وجد من لا يعتقدون أنهم هم الذين يملكون الصواب او أن الآخرين لا يملكون الصواب اكثر من امتلاكهم له او دونهم أو مثل امتلاكهم له ؟

واذا كان الامر كذلك ، أو وحيث ان الامر لا بد ان يكون كذلك . فهل يعلم هذا ذلك الفريق ؟ ان لم يكن يعلمه فكيف لا يعلمه ؟ وان يكن يعلمه فكيف لا يتواضع ، كيف يتحول غروره الى كل هذه الدمامات والوقاحات والبلادات ؟ انه قد اخذ ما عنده بالاسلوب الذي قد يأخذ به نقيضه ، بالاسلوب الذي أخذ به الآخرون النقيض . وانه لمستعد دائما ان يأخذ النقيض كما اخذ ما عنده ، كما اخذ الاخرون النقيض . انه لم يأخذ شيئا اخذ اعداؤه او خصومه غيره او نقيضه لان له مزية من اي نوع ، لان له مزية أو تفوقا عليهم ، أي على خصومه واعدائه . انه لم يأخذ بالمزية كما لم يأخذوا هم بالمزية او بفقد المزية .

انه لم يأخذ ما عنده ، لقد سقط عليه ما عنده ، او وجده ، او سقط على ما عنده وان خصومه واعداءه لم يأخذوا ما عندهم ، لقد سقطوا على ما عندهم او وجدوه ، او وضع لهم ، او وضع فيهم ، او وضعوا له ، كما وضع هو فيما عنده او وضع له او وضع فيه .

انه لم يأخذ او يختر كما لم يأخذوا هم او يختاروا . أنه ليس في المسألة مزية من اي نوع،ولا فقد للمزية . ان الاذكياء والمالكين للاله الطيب القوي لم يصنعوا ذكاءهم او يختاروه ، ولم يصنعوا صفات آلهتهم او يختاروها ، لقد وضع فيهم ذلك ، او وضعوا هم فيه . لقد اخذوا ولم يصنعوا .

ان من يعطي ويأخذ يجب ان يعتذر الى من لم يعط ولم يأخذ ، انه يجب ان يطلب منه الغفران ، وان يدفع له التعويض . وانه لشيء هو كل

اللؤم والعدوان والوقاحة أن يتطاول من يعطي ويأخذ على من لم يعط ولم يأخذ . ان من يعطي الحقيقه والصواب والذكاء والعقل والنظام العادل والحياة الجيدة المتقدمة لمفروض عليه ان يتحول الى اقوى واصدق اعتذار واستغفار وصلاة ومحبة وتواضع فيه كل معاني التعويض لمن لم يعط شيئا من ذلك ، او لمن اعطي اردأ نقيض لذلك .

ان من اعطي الصواب والحقيقة والعقل لواجب عليه الاعتذار الى من اعطي الخطأ والخرافة والكذب والغباء والجنون اكثر مما يجب على من اعطي المزايا الاجتماعية والمادية والتاريخية أن يعتذر الى من لم يعط ذلك ، وان يشعر بالذنب ازاءه لانه ظالم له وعدوان عليه ولو بالشعور .. ان من يعطى هو دائما عدوان على من لم يعط . ان الاعطاء في جانب واحد ذنب، ذنب يستحق الكفارة .

ان الجميلة ليجب ان تعاني من الشعور بالذنب ازاء الدميمة وان تتوب اليها وتصلي تحت قدميها بضراعة فيها كل معاني الدموع والاسى اكثر مما يجب أن يعاني السارق أو القاتل او الشاتم او الظالم من الشعور بالذنب ازاء المقتول او المسروق او المشتوم او المظلوم ــ واكثر مما يجب ان يتوب اليه وأن يذرف الدموع بين يديه .

ان الجميلة امام الدميمة قاتلة وشاتمة وسارقة ؛ فاذا فاخرتها او اعلنت عن جمالها أمامها اصبحت اكثر من ذلك .

ان من ملك الصواب والحق والصدق والذكاء والنظام العادل والحياة الجيدة المتطورة ثم ذهب يعير ويشتم ويحقر ويفاخر ويتحدى من حرم من كل ذلك لهو يشبه من ملك الجمال والصحة ثم ذهب يعير ويشاتم ويحقر ويفاخر المرضى والمصابين بالدمامات والعاهات . أنه همجية وبلادة وعدوان ، انه أكثر من ذلك ، أنه اكثر .

ان من يفعل ذلك ليس اقل ظلما وهمجية وبلادة من طفل يذهب ــ لانه مالك كلا ابويه ــ يعير ويحقر ويتحدى ويفاخر طفلا اخر لانه فاقد لكلا أبويه . ان ذلك اسلوب من اساليب التعيير لليتيم ، يوجهه اليه غير اليتيم . ان ظلم الطبيعة وتمييزها الانسان على انسان ليصنع الالم والمرارة والغضب والاشمئزاز ويوجب الاعتذار والاستغفار مثلما يصنع ذلك ظلم

المجتمع او النظام او المذهب أو الانسان .

* *

ان ذلك الكائن الفلكي سيجد فيما سوف يسمع ويقرأ كيف يصف البشر اربابهم وانبياءهم وقديسيهم وابطالهم ونماذجهم الاخلاقية والعقلية، وكيف يتحدثون عنهم وكيف يروون اوصافهم ، وكيف يروون عنهم وصفهم هم لانفسهم فيما ينقلون ويحفظون من كلامهم رمن كتبهم المقدسة . آواه . هل يمكن ان يوجد من يستطيع ان يستمع الى ما يقوله الارباب والانبياء والقديسون والابطال في وصفهم لانفسهم ، فيما وضع على السنتهم ؟

انه سيجد انهم يضعون على السنة اربابهم وانبيائهم وقديسيهم ومعلميهم وابطالهم كلاما ليصفوا ويمدحوا به انفسهم هو الغباء والهجاء ، هو كل الغباء والهجاء ، كما انه سيجد البشر يمدحون هؤلاء الارباب والانبياء والقديسين والمعلمين والابطال بما هو اردأ الهجاء ، ويصفونهم بصفات هي أردأ صفات الذم . انهم يروون عنهم صفاتهم ويتصورون صفاتهم وكأنهم انما يريدون ان يبالغوا جدا في هجوهم لهم .

انه سيجد انهم يصنعون أوصافهم وينقلون عنهم من كلامهم المنسوب اوصافهم التي اختاروها ووضعوها لانفسهم واعدوا العقاب لمن ينكرونها عليهم أو لا يستطيعون الايمان او الاقتناع بها . وانهم ليمجدونهم ويصلون لهم بهذه الاوصاف : بروايتها عنهم لهم وباختراعها وتصورها وبالصلاة والتعبد بها ، بتحويلها الى كتب مقدسة ، بجعلها من كلامهم في تمجيدهم لانفسهم .

انه سيجد أنهم يصفون اربابهم وانبياءهم وابطالهم بصفات قد اخترعوها وتصوروها وتمنوها لهم ورووها عنهم في كلامهم المروي وفي كتبهم المقدسة ــ بصفات هي اضعف الصفات، هي أقوى الهجاء والسباب، هي أبلغ صفات الذم والتحقير لمن يبحث عن ابلغ صفات التحير والذم لكي يلقي بها على أحقر عدو ذميم لئيم . انه سيجدهم يصفون هؤلاء الآلهة والانبياء والقديسين والمعلمين والابطال الذين تصوروهم كأعلى النماذج لامانيهم وطموحهم العقلي والاخلاقي والنفسي ــ انه سيجدهم يصفون هؤلاء ــ رواية عنهم وتصورا مختارا ومتمنى لهم ــ يصفونهم بشر الصفات

انهم يصفونهم بالحقد والحسد والانانية والغيرة والمنافسة وبالغضب وبالرغبة في الانتقام وفي الانتصار على الاخرين والمماثلين وفي الاذلال لهم .

انهم يصفونهم بالجبروت والطغيان وبالبحث عن التفرد بالقوة والوحدانية والكمال . انهم يصفونهم بالجوع ، بكل معاني الجوع واساليبه ومستوياته وتوتراته وتشوهاته وهمومه .

انهم يصفونهم بالبذاءات والمخاصمات والمشاتمات ، وبمشاعر الثأر ومشاعر الاخذ به ، انهم يصفونهم بالقسوة بلا حدود ، وبالبغض بلا حدود. وبالوحشية بلا حدود ، وبالحماقة بلا حدود ، بل وبالغباء بلا حدود ، وبالسفه بلا حدود ، وبكل معاني وأساليب التلوث النفسي والسلوكي والفكري والعاطفي بلا حدود — بل ويصفونهم بالكيد والختل والخداع والتآمر ، بل وبالغدر والكذب ، بل انه سيجد في وصفهم لهم انهم يشبون الحروب ، ويحرضون عليها ، بل ويأمرون بها ، ويوجبونها ويباركونها ويصنعون اسبابها ويجزون عليها ، ويعاقبون على رفضها وعلى الدعوة ضدها . انه سيجدهم يقتلون ويعذبون ويشوهون ويستعبدون ، ويصنعون الاحزان والعاهات لمخالفيهم ، بل ويأمرون بكل ذلك ويباركونه ويدعون اليه ويرونه تقوى ومزية ومحبة موهوبة سخية ، بل ويعاقبون عقابا متعديا ، عقابا يتعدى الفاعل لسبب العقوبة الى سواه ، الى كثيرين سواه، واحيانا الى كل من سواه. انه سيجدهم في وصفهم لهم فرسانا متوحشين يتبارون في صناعة الموت والعذاب والاحزان والحروب والتشوهات .

انه سيجدهم يصفونهم — باسلوب وارادة الامتداح والتمجيد لهم — بكل مستويات ومعاني الضعف والغباء والوحشية والهمجية والتخلف والعجز والضياع والحماقة والافتضاح والدمامة والتشوه . ان العقاب وارادته والقدرة عليه هي اسمى صفاتهم واخلاقهم فيما يروون عنهم وفيما يتصورون لهم من صفات الكمال .

انه سيجدهم يصفونهم — رواية عنهم في وصفهم لانفسهم وابتكارا مختاراً لاوصافهم المتمناة لهم — انه سيجدهم يصفونهم فيما وضعوا على السنتهم وفيما تصوروا لهم بأوصاف لو انهم آرادوا ان يبحثوا عن اقبح اوصاف الذم والتحقير والهجاء لما وجدوا اقوى منها ، او مثلها ، او سواها . كل رثائي وعطفي

عليكم ايها الارباب والانبياء والقديسون والابطال لقبح صفاتكم ولضعف اخلاقكم .

انه سيسمع البشر حينئذ يصلون ويتعبدون ويتمجدون ويتحدثون بكلام آلهتهم وانبيائهم وقديسيهم ومعلميهم وابطالهم الذي يصفون به انفسهم ، والذي يعلنون ويكشفون به عن مستوياتهم الاخلاقية والنفسية والمنطقية ، وعما يريدون ويتمنون أن يعرفوا ويروا به ، وعما يريدون ويتمنون ان يكونوه ، وعما يتصورونه ويرونه كل المجد والذكاء والقوة والتفرد بالمزايا .

انهم بذلك يفضحون انفسهم ويعلنون عن ضعفهم الرهيب . ان تفسيرهم للمزايا يعلن عن مستوى مزاياهم .

انه سيسمع – على السنة البشر وبروايتهم – كيف يتحدث هؤلاء الآلهة والانبياء والمعلمون والابطال والقادة والزعماء ، كيف يمارسون الكلام واللغات المختلفة ، وكيف يخاطبون اندادهم وخصومهم واعداءهم ، وكيف يخاطبون انصارهم ورعاياهم وعبيدهم ، وكيف يخاطبون آلهتهم ، وكيف يخاطبون انفسهم وآلامهم ومشاكلهم وهمومهم وخيالاتهم واوهامهم ومجاعاتهم ، وكيف يخاطبون الكلام الذي به يتخاطبون . انه سيسمع كيف يخاطبون الكلام وكيف يتخاطبون بالكلام ، كيف يخاطبون انفسهم وكيف يخاطبون اشباحهم وتصوراتهم وأمانيهم ومخاوفهم الرهيبة .

ويلتاه .. يا ويلتاه . ما اقبح مخاطبة هؤلاء للكلمة ومخاطبتهم بها . ما افظع تشويههم للكلمة وتشوههم بها .

انه لتعذيب لا رحمة فيه لاي كائن لا يعيش هنا أن يسمع كيف يتكلم آلهة البشر وانبياؤهم ومعلموهم وقادتهم وزعماؤهم وابطالهم . انه لتعذيب لا رحمة فيه لاي كائن لم يعش معنا هنا أن يسمع كيف يتكلم هؤلاء كيف يعرضون ضعفهم ونقائصهم وعذابهم من خلال الكلام . لقد كانت الكلمة في كل التاريخ من أشهر وسائل العرض لضعف الآلهة والانبياء والزعماء .

وانه لتعذيب أكثر وحشية وابعد عن الرحمة أن يعلم او يسمع هذا الكائن أن هؤلاء الذين يسمعهم يتكلمون – أي بالرواية عنهم – هم الآلهة

والانبياء والقديسون والقادة والزعماء والابطال . وأنه لاشد مضاعفة لتعذيبه ان يعلم ان هذا الكلام الذي يسمعه كلام يفاخر به هؤلاء الآلهة والانبياء والقديسون والزعماء والقادة والابطال ، ويفاخر به لهم عبيدهم ورعاياهم واتباعهم وانصارهم وكل المؤمنين والخاضعين لهم من مفكرين وعلماء وشعراء وفلاسفة وفنانين ووعاظ واقطاب لاهوت – ان يفاخر به لهم كل ذكاء الانسان وكل عبقرياته وكل ما فيه من كبرياء ورفض .

انه لشيء لا يحتمل ترويعه الاستماع الى كلام ارباب البشر وأنبيائهم ومعلميهم وقديسيهم وقادتهم وابطالهم وزعمائهم – الاستماع الى كلامهم الذي تصلي به المحاريب وتخطب به المنابر ، وتهتف به الاسواق ، وتعلمه المعاهد ، ويعظ به الوعاظ ، وينصح به الرجل زوجته وابناءه ، ويفرض عليهم ان يحفظوه . انه لشيء فوق الطاقة ان يستمع الى ذلك . ان الاستماع اليه ، ان الاستماع اليه فقط ، مجرد الاستماع ، لشيء فاجع ، لشيء فوق التحمل. انه لشيء فوق ان يتحمله اي كائن لا يعيش معنا هنا ليمارس كل ما نمارس من غباوات واهانات ومن مستويات ، تعلم التواضع والاتضاع .

اما نحن البشر فاننا نتقبل ذلك ، بل ونتمجد ونباهي به ، بل ونهتف له ، بل ونصلي ونتعبد به ، لاننا وجدنا فيه ، ولانه يساوي نموذجنا ، لانه يساوي كل نماذجنا ، بل لانه هو نماذجنا . لقد صنعنا ذلك وتصورناه . لقد رأيناه هو النموذج الاسمى، فاردنا ان نمدح به آلهتنا وانبياءنا وزعماءنا وقادتنا وابطالنا وكل قديسينا وكل من نتمناهم ونختار تصورهم وتصور نماذجهم . لقد وضعنا نماذج هؤلاء على مقاسات أمانينا وتصوراتنا وذكائنا وطموحنا الانساني. ان أماني الانسان وتصوراته تفسير لمستوياته ولاخلاقه. أنها جزء منها وحكم لها او عليها .

ان تفاسير الانسان وتصوراته لاربابه ولابطاله لن تكون معزولة عن مستوياته .

وهل يمكن ان نفجع بالدمامة او بالرداءة التي نتصورها النموذج الاعلى ؟ هل يمكن أن تروعنا الرداءة أو الدمامة التي نتمناها والتي نختارها والتي نضعها كأضخم أمانينا واشواقنا التي لا حدود لطموحها ؟ هل يمكن ان ننكر القبح او السوء أو الظلم او الغباء او التخلف او حتى

الجنون الذي يجيء على مقاس ذكائنا وتصورنا وشهواتنا وطموحنا وامانينا واحتياجنا ورؤيتنا وتجاربنا ، وعلى مقاس كل مستوياتنا النفسية والعقلية والاخلاقية ؟ ان الغباء والاثم والخطأ والعدوان هو ما خرج على مقاسات احتياجاتنا وقدراتنا وتصورنا وذكائنا ، وليس هو ما خرج على مقاسات الشمس او على ذكائها او على اخلاقها أو على احتياجاتها .

لقد تقبلنا بنشوة روحية وهضمت اخلاقنا وعقولنا أن يكون هـــذا الكلام الذي نحفظه ونقرؤه ونصلي ونتعبد به هو كـــلام اربابنا وانبيائنــا ومعلمينا وقديسينا وقادتنا وابطالنا وكل نماذجنا العقلية والاخلاقية لاننــا قد وجدنا فيه ، ولاننا نحن الذين تصورناه وتمنيناه ووضعنــاه ورأينــاه منتهى اشواطنا بالتصور والقدرة والامل .

ماذا لو ان انسانا ما استطاع أن يرتفع فوق نماذجـــه وممارساته ، استمع الى هذا الكلام الذي نقرؤه ونصلي به ونهتف له ونتعلمه ونعلمـــه ونحفظه ونرفعه الى آلهتنا وانبيائنا ومعلمينا وقديسينا وقادتنا وابطالنا ؟ كيف يمكن ان تكون حينئذ فجيعة هذا الانسان ، واستقباحـــه وغضبـــه ورفضه ؟ كيف يمكن ان يكون حينئذ استقباله لذلك ؟

ان هذا يساوي ان تفاجأ برؤية الهك بعينين استعرتهما من كائن لم يذل عينيه ولم يجربهما ولم يستعملهما طويلا ، طويلا في التعود على رؤية ذنوب الآلهة وعلى رؤية فضائحها ودماماتها . وهل توجد عيون لـــم تتعود وتروض على رؤية ذنوب وفضائح ودمامات الآلهة ــ هل توجد عيون بريئــة حـــرة ؟

وهل تستطيع النظر الى الآلهة لو انك وهبت عينين جديدتين لـــم تجربا رؤية الآلهة ، لم تجربا رؤية اخلاق الآلهة ومنطق الالهة وعاهـــات الالهة ــ لم تجربا رؤية اجساد الآلهة بكل تشوهاتهـــا واثامها ، وبكـــل اظفارها وانيابها ــ هل تستطيع النظر الى ذلك بعينين جديدتين وهبتهما؟ هل تستطيع النظر ؟

هل تستطيع النظر الى الكون أو الى الناس او الى نفســك أو الـــى الاشياء ــ الى ما في ذلك من دمامات وآلام واهوال وعبث وضعف وبلادة ووحشيـــة وجوع واحزان ، لو انك وهبت عينين جديدتين لم تتعذبا ، لـــم

تذلا طويلا ، طويلا برؤية كل التفاهات والنقائص والالام والاخطاء والذنوب، كأضخم واتقى وانبل النماذج لعبقرية الآلهة وحبها وجمالها وتقواها ؟ هل توجد عينان نظيفتان شجاعتان حرتان لم تهانا وتذلا طويلا ، طويـلا ـ لـم تفسدا وتلوثا طويلا ، طويلا بسقوط الذنوب والالام والنقائص والتفاهات والعاهات فيهما ؟

لقد مت ، لقد مات ذكاؤك ورفضك وغضبك واحتجاجـك ورؤيتـك لانك قد تغذيت طويلا طويلا ، بالخراب وبالفواجع وبالحشرات ـ لانك قـد تغذيت طويلا ، طويلا بعاهات الآلهة وذنوبها وبعاهات الطبيعة وذنوبهـا وبعاهات البشر وذنوبهم وبعاهات ذاتك وذنوبها .

لقد مت ، لقد مات غضبك ورفضك واحتجاجك ، وماتـت رؤيتك . لقد مت ، لقـد مت .

* *

وهنا لا بد أن يخوض ذلك الكائن الفلكي حواراً قاسيا مع افتراضـاته وتصوراته ـ او لا بد ان نفترض انه سوف يفعل ذلك . انه سوف يحاور افتراضاتـه وتصوراته مسـائلا ملحا :

كيف يمكن أن تكون نماذج ومستويات وصور هـذه الكائنـات التي تروي عن اربابها وانبيائها وقديسيها وابطالها وقادتهـا وزعمائهـا هـذه النماذج في وصفهم لانفسهم وفي تصورها وتمجيدها لهم ؟ كيف يمكن ان يكون وجود وشقاء هذه الكائنات التي تبتكر تصوراتها هـذه النمـاذج لنماذجها السماوية لتعبدها وتصلي لها بها ؟

هذه الكائنات التي تتصور اربابها وانبياءها وقديسيهـا وقادتهـا وابطالها بهذه المستويات ـ في روايتها عنهم ، وفي تمنياتها لهم ـ كيـف يمكن أن تكون مستوياتها هي ؟

ان روايتها عنهم اسلوب من اساليب التصـور والتمني لهـم ، وان تصورها وتمنيها لهم اسلوبان من اساليب الاعـلان عن مستوياتها هـي ـ اسلوبان من اساليب الاعلان عن تمنياتها ومن اساليب اعلانها هي عمـا تتمنـاه كأعلى مستوياتها وكأعلى امانيها .

كائنات تتمنى لنماذجها العلوية هذه الصور النفسية والاخلاقية والعقلية والدينية واللغوية والفنية والذاتية كيف يمكن ان تكون صورها هي ؟

ان الذين يهبطون الى هذا الحضيض في تمنيهم وتصورهم لنماذجهم التي يسجد لمجد اقدامها مجد كل مجد لايمكن أن يتعبوا الخيال او التصور لكي يتوقع ما في وجودهم هم ، ما في كل مستويات وتعبيرات كل وجودهم من حضيض حزين ، حزين ، حزين — من حضيض كان الهبوط الى تصوره او توقعه غير مستطاع وغير محتمل لولا المقاييس الحزينة التي وضعوها لمستويات نماذجهم التي كانت السماء بعض عروشها ، فجاءت هذه المقاييس تعبيرا وحشيا عن حضيض وجودهم هم ، الذي لم يكن الخيال او التصور المجرد يستطيع الهبوط اليه او يجرؤ على الهبوط اليه . أن الهبوط بالتصور او التوقع الى حضيض وجودهم يحتاج الى بطولة لا حدود لها في الجراة على مواجهة الدمامات والانحدارات والتفاهات ، وفي التصور والتوقع لها لولا هذه المقاييس التي وضعوها لاربابهم . ان تصور البشر لمستويات آلهتهم وانبيائهم وقديسيهم ، لمستوياتهم الفكرية والنفسية والاخلاقية، ونقلهم عنهم هذه المستويات، لهو اقوى هجاء للبشر وتحقير لمستوياتهم ، لهو أقوى تعبير واعلان عن ضآلة هذه المستويات وعن هبوطها البعيد ، البعيد . .

ان تصورهم هذا لاقوى واقسى اعلان وتعبير عن ضعف خيالهم وضعف طموحهم وضعف تفكيرهم وضعف أخلاقهم وضعف موهبتهم الشعرية والدينية ، وعن ضعف كل وجودهم المادي والروحي . لقد كانوا ضعافا ، ضعافا الى المستوى الذي جعلهم يهبطون في تصورهم لنماذجهم العليا الى هذا الحضيض .

ان رؤيتهم العقلية والدينية والاخلاقية لانفسهم من خلال رؤيتهم لاربابهم وانبيائهم وقديسيهم وكل معلميهم — او هي رؤية لاربابهم وانبيائهم وقديسيهم ومعلميهم من خلال رؤيتهم لانفسهم — ان هذه الرؤية لهي اقسى تفسير يفسرون به انفسهم ، وان تفسيرهم هذا لانفسهم لهو أقسى تفسير يمكن ان يفسرهم به اي مفسر ، ان يفسرهم به أي عدو لهم ، اي هاج لمستوياتهم .

هل يمكن ان تتصور الهك قاتلا وعابثا ولئيما وسخيفا وقاسيا وحقودا ، وان تروي عنه صفاته هذه مادحا هو بها نفسه ، ومادحا أنت له بها ، مادحا انت لها كصفات أعظم وافضل وانبل وارحم آله تتمناه ؟ هل يمكن آن تتصور الهك كذلك ثم تكون أنت شيئا طيبا أو رحيما او عظيما او ذكيا او صديقا او متسامحا او ذا نموذج نفسي نظيف كريم سوي ؟ هل يمكن ان تكون خيرا ثم تختار آلهك شريرا ، او ان تكون سعيدا ثم تختاره شقيا ، او ذكيا ثم تختاره بليدا ، او متحضرا متقدما ثم تختاره بدويا متخلفا ؟

هل يمكن ان تتصور نبيك او معلمك الروحي او زعيمك او قائدك او أي نموذج من نماذجك المتمناة جاهلا او حسودا او عدوانيا او همجيا او كذابا او منافقا أو مضللا او مخادعا ، او أنانيا او مستبدا أو متكبرا او عدوا للمحبة وللتسامح والسلام والصداقة ، او مقاتلا لمخالفيه ، مبغضا لاعنا لهم ، او هادما لجميع المحاريب التي لا تصلي له وحده ، ولا تحتوي صوره وحده ، ولا تنشد ترأتيله وأحزانه وبداواته وغباواته وآياته وحده، او معاقبا لاطفال من لا يؤمنون به وحده ، ومن لا يموتون في حبه وحده ، ومن لا يموتون ضلالا وعذآبا وظمأ في تيهه وحده .

ـ نعم ، هل يمكن ان تتصور نبيك او معلمك الروحي او زعيمك او قائدك أو بطلك او أي نموذج من نماذجك العلوية كذلك ثم تكون أنت شيئا رائعا ، او شيئا غير مهين ورديء جدا ، جدا ؟ هل يمكن ان يكون تصورك رديئا جدآ وتكون أنت جيدا جدا ـ وتكون افكارك واخلاقك وذاتك ووجودك ونماذجك جيدة جدا؟ هل يمكن آن تكون تصوراتك معزولة عنك؟

ان حديثك عن الهك وعن نبيك وعن قائدك وزعيمك وعن بطلك ومعلمك هو ـ بأسلوب ما وتفسير ما ـ حديث عنك ، عن مستواك وعن قدرتك وشهوتك وارادتك وعما تتمنى ان تكون وان تجد ان حديثك هذا هو حديث عنك في أعلى مستوياتك ، وفي ابعد وأعلى امانيك . ان صلاتك لالهك هي حديث عنك في كل معانيك او في آحد معانيك . انك تصلي وتضرع آلى الهك بمستواك لا بمستوى الهك . انك ترى آلهك برؤيتك لوجودك لا برؤيتك لآلهك .

ان اسلوب تشييدك للمعبد ، وان اسلوب صلاتك في المعبد ، وان

اسلوب دعائك لالهك الذي تذهب اليه في المعبد ــ أن ذلك كله ليس آلا حديثا عنك ، وليس ألا اسلوبا من اساليبك في التعبير عن وجودك وعن اخلاقك وعن تفكيرك وعن آمالك وعن جميع نماذجك ومستوياتك. أن المعبد وما تقول وتتلو فيه ، وما ترى وتحس فيه ، ومن تجد وتخاطب فيه ــ ان ذلك كله ليس شيئا سواك في احد اساليبك ، في أحدى صورك وقراءاتك .

ان صورة آلهك في ذهنك ، وان صيغ النصوص التي ترويها عنه والتي تضعها على لسانه ليست الا انت ، كائنا ومتمنيا ومفكرا وطامحا وناظرا ومنتظرا ومتكبرا ومبالغا في كبريائك وطموحك .

ان صورة الهك هي انت في اضخم واجمل صورة تتمناها لذاتك . انك حينما تذهب الى المعبد لتصلي انما تعني ان تصلي لنموذجك ، لصورتك، وانك حينما تقرأ الكتاب الذي تنسبه لالهك ، والذي ترويه عنه ، والذي تؤلفه من وجودك وامانيك وآلامك وضعفك ومن احزان بيتك ومن صخوره، ثم تذهب ترويه عنه ببكاء ورهبة وخشوع ضارع ذليل ــ انك حينما تفعل ذلك انما تقرأ نماذجك ومستوياتك ، متحدثا بها الى مستوياتك ونماذجك .

* *

ان البشر لم يفطنوا الى انهم لم يزالوا يهجون أنفسهم ، يهجون اخلاقهم وذكاءهم وكل وجودهم بما يروون عن اربابهم وانبيائهم وقديسيهم ، وبما يصفونهم به من صفات . انه لم يأتهم أحد ، انه لم يستمع اليهم احد من خارجهم لينقذهم ، ليقول لهم انكم تبالغون جدا في هجائكم لانفسكم . ان من حظوظ البشر الرديئة انه لا يوجد اخرون غيرهم يرونهم ، لينقذوهم ــ اي لينقذوا البشر ــ وليتحدوهم ولتصبح نماذجهم هجاء لنماذجهم وتعليما لها. لقد تقبل ارباب البشر وانبياؤهم وقديسوهم هذا الذي يروون عنهم وهذه الاوصاف التي يتصورونها لهم ليمدحوهم بها لانها ــ اي لان الارباب والانبياء والقديسين ــ لا يملكون موهبة النقد ، او لانهم يعلمون ان احدا لن يفضح او يكتشف ذلك ، او لانهم يجدون استمتاعا في هجاء البشر لانفسهم وفي تحقيرهم لها ، او لانهم يعرفون انهم لا يستطيعون ان يرتفعوا بهم فوق ذلك ، او لانهم مهذبون ومجاملون الى المدى الذي يجعلهم لا يجرؤون على افهام البشر خطأهم خشية ان يؤذوا مشاعرهم ، او لانهم يرون ان هجاء النفس وتحقيرها عبادة لهم ، انهما كل العبادة لهم ، وانه لا عبادة بدون هجاء العابد وتحقيره لنفسه ، او لان الالهة والانبياء والقديسين لا يرون ان هجاء

النفس وتحقيرها شيء رديء او مرفوض ، أو لانهم انما يتعملون من البشر وهم لا يعلمون البشر ، لانهم انما يتعلمون لغاتهم ومقاييسهم في الامتداح والهجاء وفي تقويم الاخلاق والمنطق والجمال والقبح ، وفي تقويم كل شيء انما يتعلمون كل ذلك من البشر ، وهم لا يعلمون البشر شيئا . وكل ما لا يراه البشر ذنبا او دمامة او ظلما او عارا هم لن يروه كذلك ، وكل ما رآه البشر كذلك لا بد ان يروه كذلك . ان البشر هم عقول وعيون وآذان واحاسيس واخلاق ومنطق اربابهم وانبيائهم وقديسيهم ومعلميهم ، انهم هم خالقوهم ومصوروهم ومعلموهم .

ان البشر هم اساتذة آلهتهم وانبيائهم وقديسيهم وقادتهم وزعمائهم ، أنهم هم انبياؤهم ومعلموهم وصائغو عقولهم واخلاقهم وكل مستوياتهم . ان اتباع كل نبي هم انبياؤه .

ان البشر هم انبياء انبيائهم وانبياء قديسيهم وانبياء آلهتهم ، انهم هم صائغو عقول واخلاق ومستويات أنبيائهم وآلهتهم وقديسيهم وكل معلميهم .

ان البشر معلمو انبيائهم ، ومعلمو آلهتهم ، ومعلمو قديسيهم .

ان الالهة والانبياء والقديسين وجميع المعلمين يتلقون دائما غباءهم وحماقاتهم وتشوهاتهم ودماماتهم وكل نقصائهم وذنوبهم من اتباعهم وعبيدهم ، كما يتلقون من هؤلاء العبيد والاتباع كل صلواتهم ومعابدهم ووحيهم وكتبهم المقدسة . ان ما تتعلمه من اربابك وانبيائك وابطالك وقديسيك ليس شيئا غير ما علمتهم وتعلمهم اياه . انهم لا يستطيعون ان يعلموك غير ما تعلموه منك . انك انت صانع تعاليمك النازلة عليك من السماء .

انك انت صورة الهك ونبيك وقديسك ، ولست متصورا لهم فقط . انك انت صفاتهم وتعاليمهم وكتبهم المروية ، ولست فقط رآويها او مخترعها او مفسرها .

انك انت النبي وتابع النبي ولست تابع نبي . ان جميع انبيائك هم دائما اتباعك . انهم يسيرون وراءك باسلوب من يسيرون امامك .

انك لو رأيت نفسك وتعاملت معها من خارجها ثم سمعت نفسك

تروي عن آلهتها وانبيائها وقديسيها هذا الذي ترويه عنهم في وصفهم لانفسهم وفي امتداحهم لها ، وسمعت ايضا نفسك تصف آلهتها وانبياءها وقديسيها بهذه الصفات التي تصفهم بها ، لما وجدت أن احدا يهجو نفسه ابلغ مما تهجو أنت نفسك ، او ابلغ مما تهجوك أنت نفسك . ولكن هل تستطيع ان تتصور أو ان تصدق ان الامر كذلك ؟ انك لا ترى نفسك لانك تعيش داخلها . انك ترى دمامة الحشرة وهوانها لانك تعيش خارجها ولا ترى دمامة نفسك وهوانها لانك تعيش داخلها .

* *

ان ذلك الكائن الفلكي الذي سمع وقرأ ـ بالافتراض ـ ما يقوله وما كتبه ويكتبه البشر سوف يسمع ويقرأ حينئذ ما نسميه نحن البشر آدابا وشعرا وفنونا ومنطقا وعقائد ومذاهب وصلوات ودعايات وتعاليم وعظات وخطبا وبيانات وصحافة وابحاثا ومجادلات ندافع بها عن الحق والصدق والذكاء والعدالة والكرامة الانسانية ، وعن جبروت الالهة واستبدادها وكبريائها ، وعن وجودها فينا وفي كل شيء وعن ارادتها وتدبيرها لكل شيء حتى لما نخجل نحن ان نريده او ندبره ، بل حتى لما نصعق اشمئزازا وذعرا وتأثما لو افترضنا مريدين او مدبرين له ، وحتى لما لا يستطيع او يجرؤ افسق فاسق منا ، واكبر طاغية مجرم منا ان يدبره او يريده ، وحتى لما تعاقب عليه كل قوانينا واخلاقنا وعقولنا ومشاعرنا وتاريخنا كل الوان العقاب والزجر والتحقير والهجاء والنبذ ، وحتى لما تعاقب كل قوانيننا على مجرد التفكير فيه . وهل يمكن حينئذ ان يسمع او يقرأ ما يمكن ان يعقل او يغفر او يحترم ؟

هل يمكن حينئذ ان يجد ذلك الكائن الفلكي اي مستوى او اي نموذج يفهمه لهذه الكائنات التي يقرأ ويسمع لها ومنها ؟

انه سيجد حينئذ أن شاعرا او قصاصا او فنانا او مفكرا كبيرا جدا يكتب كتابا ضخما ، يهبه وقتا طويلا ونضالا نفسيا وفكريا شاقا ليحدثنا فيه عن جوعه الى اعضاء امرأة ما ، وعن أرقه واختباله وهزاله وبكائه وافتضاحه في جوعه هذا الى اعضاء تلك المرأة ، وعما في تلك الاعضاء من جمال واسرار وفنون وقوى خارقة ، وعما في ممارسة تلك الاعضاء من مجد للالهة وللطبيعة ومن ثناء عليهما .

وليحدثنا عما لذلك الجوع الى تلك الاعضاء ، وعما للعلاقة الحادة

البذيئة بين ذلك الجوع وبين تلك الاعضاء من مزايا فنية ودينية واخلاقية وانسانية وجمالية ، بل من مزايا للحياة والكون والناس . انه يحسب قصة ذلك الجوع او الحب او الشهوة لجسد تلك المراة ، وقصة الصراع او النفاق او المخاتلات والمراوغات او اللقاءات بين جوعه وبين ذلك الجسد انه يحسب ذلك عملا انسانيا واخلاقيا وفنيا ، بل وفدائيا عظيما . انه يرى أن عرضه لقصة جوعه الى اعضاء تلك المراة عرضا اعلانيا عمل نبيل ، عمل من اعمال التقوى والفداء والاستشهاد في سبيل الانسان والحياة ، ومن اجل اعطائهما القيمة والمسرة والتفسير لوجودهما ولوجود البشر والالهة ولوجود كل شيء .

انه يرى في هذا العرض الاعلاني مجدا من امجاد الانسان وامجاد الحياة وتقويما لعبقريتهما .

انه لهذا يناضل لكتابة قصة هذا الجوع ، ولاخراج هذه القصة باسلوب فيه كل معاني الافتضاح وحوافز الاعلان ، وفيه كل مشاعر المباهاة ومشاعر الباحث عن أسباب المجد. كما يناضل دون اي قيد من قيود الوقار لكي يقرأ قصة جوعه على كل الناس ، في كل بيت ، في كل مخدع ، في كل سوق ، في كل معبد ، بكل اسلوب من اساليب التبشير والشمول والدعاية .

انه سيجد ان ذلك الشاعر او القصاص او المفكر او الاديب الكبير قد رأى انه نضال عظيم او فن عظيم ، او انه سلوك يجرؤ على ممارسته بافتخار أو دون شعور بالعار او الافتضاح او الذنب : أن يحدثنا عن حب اعضائه لاعضاء اخرى ، ان يحدثنا في كتاب ضخم عن اعضائه الجائعة الى اعضاء اخرى جائعة أيضا ، وأن يحدثنا عن فضائح هذه الاعضاء وعن عذابها وبكائها ، وعما فيها من بذاءات ومن موهبة في القدرة على التنازل عن جميع مستويات الكبرياء والاحتشام والنظافة .

بل أن يحدثنا بنفس الاسلوب والمستوى والرغبة والظروف عن جوع اعضاء انسان اخر الى اعضاء امراة ما ، بنفس الحماسة والبلاغة والانفعالات ، وبكل عمليات الفضح التي يحدثنا بها عن جوع اعضائه هو الى الاعضاء الاخرى .

وانه سيجد ان الناس يتقبلون ذلك ، بل يستقبلونه بمشاعر فيها كل احاسيس التقوى ، بل يمارسونه كما يمارسون الصلوات حينما يكون حماسهم وشهواتهم مستهلكة في ممارسة الوآن التدين ، بل يرتلونه كما يرتل اقوى المؤمنين ايمانا لكتبهم المقدسة ولتعاليم انبيائهم وقديسيهم في اقوى المحاريب جبروتا واقدمها تاريخا واقدرها على ارهاب العقول العاصية الرافضة .

ان ذلك الكائن الفلكي لن يستطيع ان يتصور اي مستوى لكائنات يحول المتفوقون فيها والمزعومون عباقرة جوع الاعضاء للاعضاء الى شعر وآداب وفنون رفيعة عالمية ، يقرؤونها على كل الناس ، في كل الاسواق ، في كل البيوت ، في كل المخادع ، في كل المعابد بصلف وكبرياء وادلال وتدين .

اى مستوى نفسي او عقلي او اخلاقي او فني او تصوري لكائنات تجد في كتابة جوع اعضائها الى اعضائها ، وقراءة ذلك ، وتحويله الى كتب ، ونشره — تجد فيه جمالا واستمتاعا ومسرات وعبقرية ومداواة لعقلها واخلاقها وعواطفها من الملل والضيق والافراغ ومن التفاهات .

— تجد فيه موهبة يتفرد بها الاقلون منها .

— تجد فيه نشيدا كونيا ترتله وتعزفه لقلبها كل بنات السماء ؟

اي مستوى من اي نوع وعلى اي حساب لمثل هذه الكائنات؟ اي مستوى لكائنات تتداوى من وجودها بالحديث عن جوع اعضائها الى اعضائها ؟ انه ليس في ذلك من الذكاء او الاحتشام او المجد او التفسير اكثر مما في سلوك كائن مفتضح حينما يعري اعضاءه الداخلية المحرمة تعرية اعلانية ثم يذهب يتحدث باسلوب دعائي اعلاني عن اخلاق هذه الاعضاء وعن نياتها وامانيها — ثم يذهب يتحدث عن ذلك ببلاغة وبراعة وفضح بذيء .

* *

ان ذلك الكائن الفلكي سيجد ان روائيا او شاعرا او كاتبا كبيرا يؤلف كتابا مؤلفا من مئات الصفحات ليسير مسيرة طويلة هائلة مرهقة في بيداء الكلمات المختلفة التفاسير والتعابير والضخامة والبلاغة والبذاءة والبداوة — ليسير هذه المسيرة هو وقراؤه ، يعانون ويكابدون في مسيرتهم

هذه الطويلة الهائلة المرهقة في تيه الكلمات المهانة الكرامة والشرف والذكاء ليقول لنا كلمة واحدة ، كلمة واحدة فقط — انها كلمة واحدة يقولها . .

ليقول لنا انه يحب زوجته او ابناءه ، او يحب الحياة او الطبيعة او النظر الى القمر والنجوم والفراغ وهو يفكر في معاني الجنس، او الى عيني زوجته البلهاء — او انه يحب العدل او الصدق او الانصاف او السلام او الامن ، او الحرية ، او صداقة الناس وحبهم ، او يحب الذكاء او الشجاعة ، او الشرف ، او الاباء والرفض ، او المحافظة على الكرامة ، او التسامح ، او التواضع او الصحة او الجمال في كل شيء ، او ان يكون هو العشيق المحظوظ الذي تطلع الشمس كل يوم متبرجة متهتكة في تبرجها لكي تسرق منه نظرة ، او ان يكون هو العبقرية الكونية التي تصاب الطبيعة كل يوم من رهبتها بارتجافة اليمة من ارتجافاتها .

ليقول لنا انه يحب مذهبه او نظامه او زعيمه او الهه او نبيه او معلمه او وطنه او تاريخه او آباءه او اعداءه او جيرانه او كل الناس — ليقول لنا انه لا يعيش الا هذا الحب ولا يعيش الا له والا به ولا يشتهي سواه — ليقول لنا انه لا يحب الا الحب .

ليقول لنا انه يكره الحروب او الخوف او الغباء او الظلم او المرض او الطغيان او البؤس او التكبر او الغرور او الاعجاب بالنفس او الغدر او الخيانة او النذالة او التآمر او الكيد او الحسد او البغضاء — ليقول لنا انه لا يعيش الا هذا الكره والا به ، ليقول انه لم يقبل ان يكون حيا الا ليعلم هذا الكره ويدعو اليه ، ليجعله دين الانسان الخالد .

— ليقول لنا ان الحرب او الخوف او العدوان او التخاصم او الكذب او الغدر او الغباء او الحقد او الاستبداد او المرض او الفقر او العجز او الضعف او الكسل شيء رديء ، وشيء ضد الاخلاق والنبل والنظافة او ضد الدين والتقوى

— ليقول لنا ان شيئا من ذلك لم يصبح رديئا وضد الاخلاق والنبل والنظافة الا لانه رأى ذلك وكتبه ودعا اليه والف فيه كتابا كبيرا — ليقول لنا ان الناس لم يتركوا هذه الشرور ولم تشف منها اخلاق الطبيعة وقوانينها الا لانه كتب ضدها رواية او مسرحية او ديوان شعر وادار حولها

حوارا طويلا .

١

انه سيجد ان ذلك الشاعر او الروائي او الكاتب المسرحي يقطع رحلة طويلة شاقة عقيمة ومن ورائه قراؤه — يقطعها في صحاري الكلمات وتيهها ليقول لنفسه وليقول لقرائه ولكل من سوف يجيئون وايضا لكل من لا يجيئون .

— ليقول لنفسه ولكل شيء كلمة واحدة ، فقط كلمة واحدة يقولها .

— ليقول انه يحب هذا او يكرهه ، او ليقول ان هذا شيء طيب او شيء رديء ، أو ليقول لنا انه يحب ابناءه او عشيقته او افكاره او اخلاقه او ذكاءه أو مذهبه او نظامه الذي فرض عليه ، أو ليقول لنا انه يكره مخالفيه ومنافسيه واعداءه وكل من لا يجيئون أو يكونون كما يريد وكما يكون ويجيء، وانه يجب أن يكون مسرورا ومحظوظاوقويا جنسيا ، ان تحبه وان ترضى عنه كل النساء ، ان تكون كل الدنيا والطبيعة وكل الاشياء والناس كما يتمنى وحيث تكون شهواته وظروفه وتوافقه — ليقول لنا انه يتمنى بل ويناضل لكي تكون كل الارباب عبيداً لاربابه ، وكل الشهوات وقودا لشهواته ، وكل المواهب حديثا عن مواهبه ، وكل التاريخ تفسيرا لتاريخه ، وكل الافكار توابع لافكاره .

انه سيجد ان ذلك الشاعر او الروائي او الاديب يقطع هذه الرحلة بنفسه وبقرائه لكي يقول لهم كلمة واحدة ، كلمة واحدة لا تحتاج الى ان تقال ، ولا تحتاج الى من يقولها حتى ولو قالها كما هي كلمة واحدة ، حتى ولو قالها كما هي .

— لكي يثبت لهم : انه سخيف وبليد واناني وانه مسافر سفرا طويلا ومرهقا دون اية حاجة الى اي سفر ، دون اية حاجة الى اقصر سفر .

— ليثبت لهم انه لاعب وهازل ولكن بدون ان يكون مسليا او سارا او مريحا .

ان هذا يشبه ان تحاول اقتناص صيد صغير ، فتذهب تطلق عليه

اضخم الاسلحة ، تطلقها عليه اطول الاوقات . ان هذا يعني ان تصبح بليدا وسفيها وفاقدا لصيدك . ان هذا يعني ان تصبح كالشاعر او الروائي او الكاتب المسرحي الذي يذهب يقول كل الكلمات وكل الاشياء لكي يقول كلمة واحدة وشيئا واحداً ـ لكي يفسر شيئا يعرفه كل الناس ليصبح شيئا لا يعرفه الا اقل الناس .

انه يشبه ان تريد تقديم صورة لنفسك فتصنع صورة تضاعف من حجمك ، تضاعف من حجم كل اعضائك واجزائك الاف المرات . انك حينئذ لا تقدم صورتك ، وانك حينئذ لتخسر شيئا كثيرا لكي تصنع ما لا تريد ان تصنع ولكي يكون ما لا تريد ان يكون .

ان ذلك يشبه ان تريد رؤية شيء ومعرفته فترفض رؤيته ، وتذهب تحاول رؤية صورته لكي تراه ولكي تعرفه . انه يشبه ان تحاول الوصول الى الشيء بالهرب منه الى الحديث عنه ، الى الحديث عن غيره بقصد الحديث عنه .

انه يشبه ان تحاول الاستدفاء والتزين ، فتذهب تضع على جسمك كل ما تستطيع من الثياب والاغطية وادوات الزينة ووسائل الدفء . انك حينئذ تصبح اسلوبا لا مثيل له في البلادة والتشوه والقبح وفي مواجهة الاستهزاء . ان هذا هو ما يفعله الروائي والشاعر والكاتب المسرحي ان هذا السلوك الذي يمارسه الشاعر والروائي والكاتب المسرحي يشبه ان يريد انسان التعريف باسمه ، فلا يكتفي بان يذكر اسمه ، بل يذهب يذكر اسماء كل اقاربه واسماء كل اهل مدينته او قريته او مجتمعه، ويذهب يعدد كل من سموا باسمه من اهله ومن آهل قريته ومدينته ومجتمعه ، ويذكر من سماه باسمه ، ولماذا سمي بهذا الاسم دون الاسماء الاخرى الكثيرة ويذهب يتحدث عما في هذا الاسم الذي اصبح اسمه من الاسرار والقوة والجمال والتدين ، وعما جلبه عليه من الخير والحظ ، وعن الذين ادخل على قلوبهم وعلى مسامعهم السعادة والحب وروعة الموسيقى ، وعما فيه من احتمالات الحظوظ الجيدة لمن ينطقون به ولمن يسمعونه منطوقا به ، ولمن يتباركون ويتدينون بالاستماع اليه وبالنطق به، كما تصنع اسماء الالهة .

* *

ثم يذهب يتحدث طويلا ، طويلا عن فلسفة الاسماء ، وكيف نشأ التفكير فيها ، وكيف اصبحت ظاهرة انسانية عالمية ، وعن الفروق بينها في الفكرة والمعنى والموسيقى ، وعن فنون وجنون الناس والمجتمعات فيها ، وعما في ذلك من غرائب وسخريات ..

ثم يذهب يفسر لماذا لم تصبح للحيوانات ولكل الكائنات الاخرى اسماء كالاسماء التي اصبحت للانسان — لماذا لم تسم الكائنات غير البشر بالاسلوب الذي سمي به البشر . وهل كان محتوما أن تكون للبشر اسماء . وهل كان لاسمائهم تأثير على سلوكهم وعواطفهم او على ذكائهم ، او على صيغ ابداعهم للحضارات .

ثم يمضي في التحدث عن الفرق بين أسماء الاله واسماء الانسان ، وايهما افضل واذكى واتقى واقوى في اسمائهما ، وايهما اكثر ابتهاجا باسمائه ، وهل الاله هو الذي وضع لنفسه اسماءه ، ام وضعها له من حوله كما وضع للانسان اهله اسماءه ، وايهما اكثر صدقا في اسمائه وتصديقا لها وتأثرا بها .

ثم يمضي يتحدث عن الفرق بين الاسم والكنية واللقب ، وايها يصنع الرضا والافتخار، وايها اكثر جاذبية واحاسيس موسيقية ودينية واخلاقية .

ثم لا يكفيه كل هذا تعريفا باسمه ، بل يذهب يجمع كل اهله واهل قريته ومدينته ومجتمعه لكي يشهدوا ويقسموا ان اسمه هو اسمه ، لكي يكرروا شهادتهم وقسمهم بان اسمه هو اسمه ، لكي يناشدهم باسم جميع الاشياء المقدسة ان يعيدوا ويظلوا يعيدون شهاداتهم وقسمهم بان اسمه هو اسمه ، هو الاسم الذي نطق به ، هو الاسم الذي ارتجفت الارض وكل الاشياء طربا حينما شرف الحروف وكرم اللغة بنطقه به، بنطقها به .

— بانه هو الاسم الذي ارادته ونطقت وامرت به الالهة ، واعلنته في السموات وبشرت به في السموات كما فعلت لاسماء الانبياء .

ثم لا يكفيه كل هذا للتعريف باسمه وللتدليل على انه يسمى كما

نطق ، بل يذهب يخطب بكل اللغات ، كل الوقت ، بكل الحماس والصراخ والتهيج ، مقسما بان اسمه كما ذكر ، وانه هكذا مكتوب ومعروف في السماء ، وانه هكذا محفور على جباه النجوم ، وانه كان اول اسم عرفته اللغات ، واول واشرف اسم دوى في الارض وفي السموات ، وبانه الاسم الذي يحمي قوانين الكون من ان تمرض او تموت او تفسد اخلاقها ، او يضعف ذكاؤها .

بل ثم يذهب يؤلف الكتب الضخمة بكل اللغات : الروايات والمسرحيات ودواوين الشعر ، ليدير الحديث بكل اساليب الحوار وشخوصه الحادة المتزاحمة ، وبكل تلفيقات الشاعر والقصاص وتحويماتهما ، وبكل ما فيهما من ألحاح وبكاء وضراعة ، وبكل ما فيهما من قدرة على دق الابواب والوقوف على العتبات المحروسة بالخشونة والرفض وبكل معاني وتعبيرات الطرد والصد .

بل ثم يذهب يؤلف الكتب الضخمة بكل اللغات ، يؤلف الروايات والمسرحيات ودواوين الاشعار ليثبت ان اسمه هو اسمه ، وانه كان مستحيلا بالقدر وبالطبيعة وبالاخلاق وبالمنطق بل وبالدين بل وبالمذهب وبقوانين التطور والحضارة ان يكون اسمه غير اسمه ، بقدر ما هو مستحيل ان يكون هو غير ذاته ، ان يكون وجهه غير وجهه ان تكون احزانه غير احزانه ، ان تكون موهبته غير موهبته .

* *

ان هذا الاسلوب الذي يحاول كائن ما — بالافتراض والتصور — ان يثبت به اسمه هو اسلوب الشاعر والروائي والكاتب المسرحي حينمايكتب كتابا ضخما ليقراه علينا ، ليقنعنا بفكرة او بمذهب او بنظام او بعقيدة او بدين او بموقف ما ، او ليخطىء فكرة او مذهبا او نظاما او عقيدة او دينا او موقفا او الها ما من الالهة — او ليلقي علينا باحزانه ، او بفراغه ، او بسأمه ، او بحيرته ، او بضياعه ، او بمشاكله ، او بطموحه ، او بفراره من الصمت ومن نفسه ، او بأي الم او أية ورطة من آلامه وورطاته — او لاحتياجه الى التدخل في نفوس الناس وعقولهم وفي بيوتهم وفي كل

شؤونهم ، والى التحدث عن آلامهم وذنوبهم وعن تشوهاتهم وتفاهاتهم ، والى اثارة اهتمامهم ، الى اثارة غضبهم ورضاهم ، اعجابهم وصراخهم ، خوفهم واطمئنانهم ، ثقتهم وشكوكهم .

ـ او لاحتياجه ابدا الى ان يكون متسللا متسلقا فوق الناس وداخل ذوات الناس . وهل يوجد فنان ليس محتاجا الى ان يكون متسلقا متسللا ؟ وهل الفن الا اسلوب من آساليب التسلق والتسلل ؟ وهل الفنان اكثر تسللا وتسلقا واكثر احتياجا الى التسلل والتسلق ام هو اعنف تعبيرا او اشهر تعبيرا او اوضح تعبيرا عن ذلك ؟

**

ان ذلك الكائن الفلكي سوف يجد حينئذ ان مفكرا او معلما او نبيا او شاعرا او قصاصا او واعظا ـ لانه كان راضيا عن زوجته او عن ابنائه او عن مكانته في المجتمع او عن الحاكم او المذهب الذي يعيش في خدمته ، او لانه كان راضيا عن صحته او عن طعامه او عن بطولة جهازه الهضمي ، او عن المرآة التي وضعها في بيته لتنافق وجهه وتنافق عينيه ، او لانه كان معجبا بموهبته الجنسية او بممارساته الجنسية ، او بأحاسيسه الجنسية قد ذهب يضع الكتب والتعاليم والتفاسير على كل الاتجاهات والمستويات .

ـ قد ذهب يفكر ويجادل ويصنع البراهين ويزور كل شيء .

ـ ليؤلف من وقاحات هذا الكون ، ومن جسده الهائل الدمامة والضخامة والتشوهات ، الهائل الاتساع ، الهائل الآثام ، الهائل الهجاء والتحقير لمن يحاول ان يراه ، ولمن يحاول ان يفهمه او يفسره ، الهائل السخرية ممن يعيشه او يعجب به او يتلاءم معه .

ـ ليؤلف من حشرات هذا الكون وحيواناته ومن انسانه ومن كل ما في ذلك من ذنوب واخطاء وعجز وجوع وعفن وضياع وموت وغباء وعبث وحقارات ونقائص وانفعالات خسيسة واليمة وتافهة وعدوانية وحضيضية .

ـ ليؤلف من كل ذلك أذكى منطق وافضل سلوك ، أي ليرى في ذلك آذكي منطق وافضل سلوك ـ ليجعلهما منطق وسلوك اذكى وانبل اله ، او منطق وسلوك اذكى وانبل كون ـ ليرى في ذلك كل نماذج الاخلاقية وكل نماذج المنطق في كل مستوياته واحتمالاته الجدلية .

انه ـ اي ذلك الكائن الفلكي ـ سيجد حينئذ فيما سوف يسمع ويقرأ ان المفكرين والانبياء والشعراء وجميع الفنانين والمعلمين ووعاظ المعابد والاسواق يدرسون هذا الكون المتوحش العابث المتناقض العقيم ، هذا الكون المخجل الرهيب في بلادته ودمامته ـ يدرسونه على انه أقصى احتمالات الذكاء والجمال والحب والرحمة والفضيلة ـ على أنه كل ذكاء الآلهة ونبلها ، او كل ذكاء الطبيعة العبقرية وكل قدرتها على العطاء وعلى الصداقة .

انه سيجد فيما سوف يسمع ويقرأ انهم يفسرون كل شيء على أنه نموذج للمنطق والتدبير والحكمة والعطاء ، حتى الامراض والآلام والعاهات والمجاعات والاحزان التي يعانون ، وحتى الموت، وحتى العجز الذاتي، وحتى القحط ، وحتى الصحاري والمستنقعات ، حتى كل ما في الطبيعة والكون من فوضى وعقم ومن ذنوب وعاهات وهمجية وتناقض وبلادة رهيبة واتساع سخيف عابث ، عابث ، صارخ ، صارخ في عبثه وفي سخفه ، حتى الصحاري، قمة التعبير عن تخلف موهبةالآلهة الفنية والاخلاقية والاقتصادية والشعرية .

ـ حتى كل ما في الكون والطبيعة من حشرات وزلازل وبراكين وحماقات اخرى لا عداد ولا منطق ولا اخلاق ولا تفسير ولا نفع لها ، حتى كل ما فيهما من اسراف وشح ، من عطاء بلا حاجة ، بل ضد الحاجة ، ومن منع مع الحاجة ، بل مع استهزاء بالحاجة ـ من قدرة وضخامة بلا منطق او تفسير ، بل ضد المنطق وضد التفسير ، ومن عجز وضآلة حيث يحتمل ان يكون للقدرة والضخامة منطق وتفسير ، بل حيث يطالب المنطق والتفسير بالقدرة والضخامة .

ـ من قدرة وضخامة حيث يفرض المنطق والتفسير العجز والضآلة، ومن عجز وضآلة حيث يفرض المنطق والتفسير القدرة والضخامة ـ من وجود الشيء حيث يكون المنطق والتفسير فقده ، ومن فقد للشيء حيث يكون

المنطق والتفسير وجوده .

ــ من وجود بلا موجود ، ومن فقد حيث يوجد الموجود .

انه سيجدهم حين يسمعهم او يقرأ لهم يفسرون كل هذا العبث الهائل وكل هذه الالام المتوحشة على انها أعلى النماذج لاعلى مستويات المنطق والرحمة والحب والتدبير والعدل ، حتى النجوم الضالة العمياء المتطلعة بوقاحة ونذالة ، دون ان تدري او تسأل : لماذا ، حتى الشمس قمة الحماقة والسفه والحرائق الجنونية دون آن تدري او تسأل : لماذا ، لماذا هي ، حتى البحار المتوحشةباتساعها بلا اي فن او عظمة وبلا اي وقار دون ان تدري او تسأل : لماذا ، حتى الحشرات والحيوانات المهانة المظلومة المحقرة دون ان تدري أو تسأل : لماذا ، دون ان تشكو ، ودون ان تعلم ان لها أن تشكو ــ دون آن تدري او تسأل : لماذا هي ، لماذا هي !

ــ حتى الانسان الذي يجيء دون ان يطالب بمجيئه او يستفيد من مجيئه او يسر بمجيئه او ينتظر مجيئه أحد ــ حتى الانسان الذي يجيء ليواجه ويمارس بكل حواسه وبكل آلامه واحتياجاتهومخاوفه وجوعه وفنائه وضعفه وعاره واحزانه ــ ليواجه كل هذا العبث الهائل الرهيب الدميم دون آن يحارب أو يرفض او يتوقف عن التعامل أو السير او التناسل او الاعجاب او الضحك ، بل ليتحول الى مفسر ، الى مؤمن وعابد لكل هذا العبث الهائل الرهيب الدميم .

حتى هذا الانسان الذي لا يجيء ليواجه ويمارس فقط هذا العبث الهائل الرهيب الدميم بكل حواسه وآلامه واحزانه ومخاوفه وجوعه وضعفه واحتياجاته وافتضاحه ، بل ليحول كل ذلك الى مجد اله ، الى مجد أذكى وارحم طبيعة ، ليحول كل ذلك الى ايمان ، والى صلاة .

حتى هذا الانسان الذي يوجد ويجيءويحيا فيجعل من وجوده ومجيئه وحياته اضخم مجد واضخم عبقرية لاعظم وارحم اله ، لانبل واذكى كون ، ثم يذهب ويفقد ويموت ، فيذهب ايضا يفسر فقده وذهابه وموته بانه اضخم مجد واضخم عبقرية لاذكى واتقى اله ، لاذكى واتقى كون . انها دائما اما عبقرية الاله او عبقرية الكون . . .

حتى هذا الانسان الذي يجعل الشيء ونقيضه ، يجعل موته وحياته ، سروره وآحزانه ، منطقا واحدا وتفسيرا واحدا .

حتى الاله الذي يجيء دون ان يريد آو يدبر او يصنع آو يختار مجيئه آو اسلوب مجيئه او نموذجه او ذاته او صفاته ، ودون ان يستطيع فراق ذاته او فراق وجوده ، آو تغييرهما ، او الاستبدال بهما ــ ودون ان يريد او يدبر او يصنع او يختار مجيئه او اسلوب مجيئه او نموذج ذاته او نموذج صفاته او بقاءه آو عمله ــ دون آن يريد او يدبر او يختار آو يصنع ذلك احد .

حتى الاله الذي لم يعط الخيار او يجد الخيار في ان يكون وفي الا يكون ، في ان يكون كما كان وفي ان يكون نقيض ما كان .

حتى الاله الذي يشقى بما صنع ويشقي به ما صنع ، الذي لم يخلق ما يرضي ولم يكف عن خلق ما لا يرضي ، الذي لم يرض عما خلق ، ولم يرض عنه ما خلق ، الذي لم تجيء مخلوقاته كما يريد ، ولم يجعلها كما تريد ، ولم يفعل لها ما تريد ، الذي لم يكف عن الخلق ، ولم يخلق حينما خلق كما يريد ان يكون الخلق ، او كما يريد الخلق لنفسه ان يكون ، او كما يطلب ويشترط ان يكون من يفرض عليه ان يكون .

حتى الاله الذي اصبح ورطة لنفسه واصبح توريطا لغيره ، توريطا لكل شيء .

حتى الاله الذي لا مثيل لشقائه ولا مثيل لسوء حظه والذي لا مثيل لاحزانه لانه لا مثيل له معصيا ولا مثيل له محروما مما يشتهي ومما يزعم انه الجمال والعدل والحق ، مما يزعم انه الحق الدائم له وانه المطلب المشروع الابدي له وانه آقل حقوقه واول حقوقه .

حتى الاله الذي لا يكف عنه غضبه ولا آحزانه لان شيئا ما لم يجيء كما يريد آو كما يطالب ، بل لان كل شيء قد جاء نقيض ما يريد ويطالب ويدبر .

حتى الاله الذي يطالب بالعدل والجمال ويعشقهما ولا يصنعهما ، ويعاقب على الدمامة والظلم ويكرههما ثم يصنعهما .

حتى الاله الذي تشوه يداه فيعاقب ما أصابت يـداه بالتشويـه ولا يعاقب يديـه اللتين اصابتا بالتشويه . هل وجد موجود ساء حظه بوجوده وساء حظه كل شيء بوجوده مثل الاله ؟

ان ذلك الكائن الفلكي سوف يجد حينئذ فيما سيقرأ أو يسمع :

ان جميع الانبياء والشعراء والفنانين والمعلمين وكـل الواعظين فـي المعابد والاسواق يعلمون ويفسرون بأن كل هذا هـو اعلى نموذج للذكـاء والتدبير والحكمة والحب وللعطاء . انه سيجد أنهم يفسرون كل شيء وكـل ما يحدث بانه اعلى ما في الطبيعة وما في الآلهة وما في المنطق من احتمالات الشهامة والحب والجمال . انهم جميعا يمتدحون ويمجدون ما هو كائن .

وحينئذ كيف يمكن ان يفسر أو يتصـور أو يفهـم مستويات البشر ونماذجهم ؟ كيف يمكن ان يتصور ويفسر ذكاء مـن يرون هذا هـو أعلى مستويات الذكاء ؟ كيف يتصور ويفسر اخلاق مـن يرون هـذا هـو اعلى مستويات الاخلاق ؟ كيف يفسر ويتصور كينونة من يرون هذه الكينونة هي أعلى نماذج الكينونة ؟ وحينئذ كيف يمكن أن يفسر او يتصور من يرون فـي هذا أعلى مستويات عبقرية الآلهة ؟

انك لو كنت كائنا يعيش خارج البشر لما استطعت الا ان تشعر بالرثاء والعطف ، او بمشاعر الاشمئزاز والاستهزاء ، أو بالعجز عـن فهم اي شيء هنا حينما تسمعهم او تقرؤهم يتحدثون عن الذكاء وعن الاخلاق وعن المحبة وعن المنطق والجمال فيما حولهم، وفيما يواجهون، وفيما يعيشون ويمارسون، حينما تسمعهم وتقرؤهم يعلمون ذلك ويدرسونـه ويقتنعون ويقنعون بـه ، ويصلون له . أنهم جميعا يفعلون ذلك مهما اختلفت اربابهم ومذاهبهم .

* *

أن ذلك الكائن الفلكي سوف يقرأ حينئذ الصحافـة ــ الصحافـة العالمية، صحافة كل بلد وكل مذهب ونظام وحاكم وطاغية ــ وسوف يسمعها مقروءة او مترجمة أو منقولة ، وأن يسمع الاذاعات المختلفة المنطلقة من هنا او من هنا ، بأمر هذا ورأيه ، أو بأمر هذا ورأيـه ، بالخوف مـن هـذا أو مـن هـذا .

وماذا يعني ان يقرأ او يسمع الصحافة ، كل الصحافة أو بعضها — ماذا يعني ذلك ؟ وماذا يعني أن يسمع الاذاعة ، كل الاذاعة او بعضها — ماذا يعني هذا او هذا — ماذا يعني ؟

ان ذلك لا بد ان يعني — في قراءته واستماعه — ان الاذاعة والصحافة ليستا سوى اجهزة توصيل واطلاق وتفجير ، لتفجر وتطلق في آذان واعصاب وعقول وضمائر وأخلاق وتدين البشر ، كل البشر ، كل الوقت ، بكل الاساليب ، بكل اللغات والاصوات والتوترات ، كل ما في الزعماء والقادة والطغاة والمعلمين، وكل ما في المفسرين لهم والمبشرين بهم، والمصلين لجبروتهم ورهبوتهم ورغبوتهم .

— لتطلق وتفجر كل ما في اذهان ونفوس وتاريخ ولغات هؤلاء من بذاءات وأحقاد وصغائر وغباوات واحزان وآلام وعفونات وشرور كثيرة وكثيرة .

— لتطلقها وتفجرها كل وقت ، بكل اسلوب ، بكل عنف عدواني في ضمائر الناس واخلاقهم وعقولهم ، وعلى ضمائرهم وأخلاقهم وعقولهم .

— لتطلقها وتفجرها في أسواقهم ومعابدهم ومصانعهم وحقولهم ونواديهم وبيوتهم وعلى آلهتهم وكرامتهم وكبريائهم وشرفهم ، كل وقت ، بكل اسلوب ، بكل قسوة عدوانية ، بكل ألحاح بذيء ، بكل مستوى من مستويات العفونة .

— لتطلقها وتفجرها على كل صباحهم ومسائهم ، وعلى كل اطفالهم ونسائهم ، وعلى كل زوارهم وأصدقائهم .

ان ذلك يعني — في قراءته وسماعه — ان البشر ليسوا سوى مستنقع اليم رهيب ، يستقبل — من فم ويد الصحافة والاذاعة — دون أن يرفض او يمتلىء كل الاكاذيب والحماقات والعفونات والبلادات والهموم والشتائم والمخاوف والصغائر والعاهات والحقارات التي تزدحم بها وتطلقها كل وقت، بكل اسلوب ، بكل ألحاح متوقح بذيء ، نفوس ولغات كل القادة والطغاة والمعلمين ، نفوس ولغات كل المفسرين للقادة والطغاة والمعلمين ، وكل المبشرين بهم ، وكل اللاعقين لادرآنهم المستغفرين لكل ذنوبهم ، المصححين

لكل اخطائهم ، الهاتفين لجمال كل تشوهاتهم ، المصلين لكل طغيانهم ، المغنين بكل بذاءاتهم ، المادحين لاربابهم وأنبيائهم بشتائمهم ، المفسرين لهم بها ، المفسرين لاقوال وتعاليم أربابهم وانبيائهم بشتائم قادتهم وطغاتهم ، المحددين مقاسات انبيائهم وأربابهم ، وصفات واخلاق اربابهم وانبيائهم بشتائم وعداوات وخصومات طغاتهم وقادتهم .

ان ذلك الكائن الفلكي لن يذهب حينئذ يعاني ، ليتصور او ليفهم كائنات لها نموذج او مستوى ، ولكنه سوف يذهب ليعاني في تصور اقبح واعجب وعاء ينصب فيه ــ من مستنقعات الصحافة والاذاعة ــ كل هذا القبح وكل هذا الاثم اللذين يقذف بهما الطغاة والقادة وكل الحاكمين والاقوياء من حضيض فسادهم وجنونهم ومنافساتهم وعداواتهم وطموحهم المتوحش البليد الوبيل ــ واللذين يقذف بهما المعلقون والمذيعون اليوميون ، الصباحيون والمسائيون والدائمون ــ اللذين يقذف بهما هؤلاء المعلقون والمذيعون ، المنتشرون او الموزعون على محاريب كل الطغاة والقادة والحكام والمذاهب والنظم ، ليكذبوا ويجهلوا ويسفهوا ويتكرروا ، ويلقوا بكل عفنهم واعيائهم وخوفهم ونفاقهم وملقهم وفاقتهم وهوانهم ومذلاتهم وجوعهم، وبكل مستوياتهم المستقرة في الحضيض .

ــ ليلقوا بكل ذلك بالتكرار والديمومة في ذلك الوعاء ، في اعجب واحقر وعاء يمكن تصوره من بعيد ، في اعجب وأحقر وعاء يمكن ان يتصوره او يفكر فيه كائن يعيش بعيدا عن هذه الارض ، لو انه استطاع ان يقرأ الصحافة ويستمع الى الاذاعات التي يصنعها ويعيشها ويعاني منها كل العالم . وهل يمكن ان يوجد وعاء او مستنقع يستطيع ان يستقبل من الاوحال والعفن مثلما تستطيع ان تستقبل عقول البشر واخلاقهم من ذلك ؟

ان ذلك الكائن الذي يستطيع ان يقرأ الصحافة ويستمع الى الاذاعات العالمية لن يتصور ان وراءها كائنات من اي مستوى ، او انها تنطلق عن كائنات ، او انها تعبر عن كائنات ما ليذهب يتصور لها مستوى او نموذجا . . انه سيذهب يتصور وعاء رهيبا ينصب فيه شيء رهيب ، لانه لن يستطيع ان يتصور انه قد توجد كائنات هي في استقبالها للاوحال والعفن والهوان اسوأ او اقدر من اي وعاء ، اكبر واوسع من كل وعاء .

انه لن يتصور ان شيئا ما قد يعاقب أو يحقر مثلما يعاقب ويحقر ذلك الوعاء الذي سوف يتصوره مكانا تنصب فيه الصحافة والاذاعة اللتان استطاع ان يقرأهما ويستمع اليهما منطلقتين من افواه واخلاق وعقول كل العالم ، لتفسر كل الالهة والمذاهب والنظم والاخلاق .

كيف يمكن تصور مستويات من يفكرون ويشعرون ويتكلمون هكذا ؟

كيف يمكن تصور مستويات من يستقبلون كل هذا ؟ كيف يمكن ان يكونوا لانهم قبلوه واستطاعوا ان يستقبلوه ؟ كيف يمكن ان يصبحوا لانهم صاروا او ظلوا يستقبلونه ؟ كيف يمكن ان يكون مستواهم الذي استطاع او الذي سمح لهم بان يستقبلوا كل هذا ؟

كيف يمكن ان يكون قد اصبح مستواهم بعد ان ظلوا يستقبلون كل هذا ، بعد ان ظلوا يعيشون كل هذا ؟ بعد أن ظلوا يفسرون به كل اربابهم وقياداتهم ومذاهبهم واديانهم ؟

كيف يمكن ان يكون مستوى من لا يرفضون هذا ومستوى من يعيشون كل هذا ؟

ان كائنا ما يعيش في جحيم اقسى الانبياء قسوة لو انه قرأ وسمع الصحافة والاذاعات المتوزعة على كل الجبهات البشرية المختلفة والمتضادة والمتناقضة والمتخاصمة والمتحاربة والمتشاتمة المذاهب والارباب والمعلمين والنظم والقادة والزعماء والحكام ، ثم تصور الكائنات التي تنطلق منها هذه الصحافة والاذاعات ، والتي تعيش فيها هذه الصحافة والاذاعات والتي تستقبل هذه الصحافة والاذاعات — لكان من المشكوك فيه جدا ان يتقبل ذلك الكائن الجحيمي الخروج من جحيمه — لو عرض عليه ان يخرج اذا كان خروجه يعني ان يعيش في حقارة هذه الكائنات، وفي هوانها وفي بلادتها ، وفي وحشيتها ، وفي تفاهاتها واحقادها وتلوثاتها المختلفة، وفي همومها والامها وتخوفاتها الكئيبة — اذا كان خروجه يعني ان يتكلم اللغة التي تتكلمها هذه الكائنات، وان يعيش المشاعر التي تعيشها هذه الكائنات، وان يتعامل بالاساليب التي تتعامل بها هذه الكائنات، بكل اوحالها واكاذيبها وعداواتها ، وان يفكر الافكار التي تفكرها هذه الكائنات .

ان كل جحيم حتى جحيم الانبياء القساة قد يكون افضل او اخف عذابا من هذا العار ، قد يكون افضل او اخف من ان تعيش في عالم يتحول الى مستنقع تصب فيه هذه الصحافة والاذاعات .

لقد يكون قولا صحيحا ان الحضارة قد عاقبت نفسها حينما اعطت البشر الصحافة والاذاعة ، وان الانسان قد حارب حياته أكثر مما سالمها ، وهبط بموهبته اكثر مما ارتفع بها حينما اصبحت له اذاعة وصحافة . قد يكون صحيحا انه افضل للانسان ان يظل صامتا من ان يتكلم هذه الصحافة والاذاعات ، وان يعيش في الظلام من ان يعيش تحت اضواء هذه الصحافة والاذاعات .

ان الانسان لو كان يستطيع ان يرى نفسه وان يقرأها ويفسرها ، وان يحاسبها ويحاكمها بعدل وذكاء ، ثم سمع وقرأ اذاعته وصحافته لما وجد هنا غير اطفال مرضى اغبياء مستثارين غير مهذبين ، يتصايحون، ويتعايرون ويتفاخرون ويتجادلون ، ويناقشون كل شيء ويتحدثون عن كل شيء بلا اي مستوى من مستويات الذكاء او العدل او التهذيب او الصدق او الامانة أو الاخلاص او التواضع او الاحترام للنفس او للحقيقة او للاخرين او للغة التي يتحدثون بها ، او للزعماء والقادة والحكاموالمعلمين الذين يتحدثون باسمهم او بأجهزتهم وسلطانهم ، او للالهة او للمذاهب والنظم التي يتحدثون باسم الدفاع عنها او الانتصار لها .

ـ لما وجد هنا غير أطفال يحتلمون ويتمنون ويشتهون ويصغرون ويظلون يصغرون ، ويفتضحون ويظلون يفتضحون ، ويتشاتمون باسنانهم واظفارهم وباطراف احذيتهم الكبيرة ، الكبيرة جدا ، التي هي اكبر جدا من ذكائهم ووقارهم ، ومن احترامهم لانفسهم .

ان احذية كثير من الناس هي اكبر واغلى من جدا من اللغة التي يتكلمون بها، وانها لأذكى وأصدق من الآلهة والمذاهب التي يعادى باسمها كثير من الناس .

انه لمطلوب ، ان لم يكن مفروضا او محتوما ان ترتجف مشاعرنا ووقارنا غضبا واشمئزازا لو أن اطفال العالم او لو ان اطفالنا وحدنا تقسموا الى وحدات جماعية او الى افراد ، ليقفوا متواجهين في الميادين

او في المعابد والنوادي ، او في قراهم ومدنهم ومدارسهم ، او على شرفات وابواب منازلهم ، لتتحدث كل وحدة جماعية او ليتحدث كل فرد بأنه هو وحده ، او هو وابوه وجده واقربوه ، او هو ومدينته او وقريته او ومجتمعه ، او بأنه هو ومذهبه ونظامه ومعلمه ، او هو والهه ودينه .

— ليتحدث بأنه هو وحده « الذي علّم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » بانه هو وحده الذي علم الانسان أن يمشي على قدميه ، وان يستعمل بديه ، وان يعلم بأن في وجهه عينين ، وان في رأسه اذنين ، وان يعرف بأن لعينيه واذنيه وظيفة ما ، وانها اي الاذنين والعينين للاستعمال ، وليست فقط للزينة — بانه هو وحده الذي علمه — اي علم الانسان — بأن فيه وظيفة جنسية ، وبأنها وظيفة بذيئة وعدوانية وفضاحة بقدر ما هي وظيفة سعيدة وراقصة ، وبأنها وظيفة تعطي ، تعطي كثيرا ولكنها تعاقب، تعاقب حتما، تعاقب بقسوة، تعاقب ما تعطي ومن يأخذ..

— ليتحدث باعتزاز لا يطاول بأنه هو وحده الذي علم الاله كيف يكون خادما طيبا مخلصا للانسان ، كيف يكون عاملا عنده ، كيف يكون فقط عميلا للانسان ، يصنع له النجوم والسحاب يصنع له الشمس الكبيرة ويجعلها اكثر واكبر مما يريدها ومما يحتاج اليها ، ليبالغ في ارضائه وخدمته وفي الاخلاص له، يصنع له القمر الكسلان الدميم الابله — يصنع له القمر الذي جعله كسلان وابله ودميما ، خيفة ان يثير غيرته او يؤذي مشاعر التنافس والكبرياء فيه ويصنع له الغباء لئلا يعذبه الذكاء ويصنع له الجبن لئلا تقتله الشجاعة ويسلب عينيه القدرة على الرؤية لئلا تشقيه رؤية الاشياء الدميمة والظالمة ، لئلا يشقيه الاحتجاج على ما يرى .

— ليتحدث باعتزاز بانه هو وحده الذي علم الاله ان يكون خادما فقط للبشر ، يهبهم الانبياء والكتب المقدسة ويمنعهم من فهمها لئلا يغضبوا او يكفروا ويهبهم القدرة على الايمان بها دون فهمها ويعلمهم كيف يصنعون الاطفال ، وكيف يريدونهم ويناضلون للمجيء بهم ، للاكثار منهم ، حتى ولو كانوا مرضى ومعتوهين ومتألمين وعاجزين واغبياء واشرارا ، حتى ولو كانوا عقابا لانفسهم ، وعقابا لابائهم ، وعقابا للاخرين وللحياة ، بل حتى ولو كانوا هجاء للخالق وذنبا كبيرا يحاسب عليه ، ويؤاخذ به، حتى ولو كانوا احتمالا ليصنعوا طاغية ، ليصنع جنونا عالميا ، ليكونوا

جوعا وازمات ومشاكل تصنع حروبا وتصنع هموما كونية .

ـ ليتحدث باسلوب اعلاني بانه هو وحده ، أو بانـه هـو وابـوه وجده ووالدته واخوته هم ـ او هو وحده ـ اذكى النـاس واصدقهم وانبلهم واشجعهم واعلمهم واجملهم او بانه هو وحده ، او بانهـم هـم وحدهم الاذكياء والصادقون والشرفاء والشجعان والعلماء والجمـال والمنتصرون والمالكون لكل المستقبل ، والصانعون لكل التاريـخ ، أكـل مزايا التاريخ ، ولكل الجمال .

ـ أو بأن الهه او دينه او زعيمـه او مذهبـه او تاريخـه أو وطنـه او موقفه هو وحده الحق والصدق والمستقبل والذكاء والعـدل والتقـدم والقوة والشرف والنظافة ـ بانه هو وحده التفسير الصحيح والكامـل الدائم للحياة والكون والانسان ولكل شيء .

ـ ليتحدث بصوت لا يحاول ان يكتمه عن أحد بأنه هو وحده ، او بأنه هو وابوه وجده ونبيه والهه ودينه ومذهبه ونظامه هـم وحدهم المنطـق العالمي الكوني ، هم وحدهم اللغة العالمية الكونية ـ بانه هو وحـده وأبوه واهله والهه ودينه ومذهبه ونظامه ، هـم وحدهـم المنطـق واللغـة الذان سوف يظلان ابدا يتكلمهما كل العالم وكل الكون وكـل التاريـخ وكل المستقبل ـ هم وحدهم ضمير كل شيء وعقل كـل شيء ونموذج كل شيء .

ـ ليتحدث بلغة فيها كل النزق والمباهاة بانه هو وحده الذي سوف يظل ـ بتفرد ـ ثور هذا العالم كله ، وليظل كل من سواه في كل هـذا العالم هم البقر ـ او ليشاركه في كونه ثورا ، في كونه ثور كل هذا العالم، ابوه وجده والهه ونبيه ومذهبه ودينه ونظامه فقط ، فقط ، وليظل كل من عداهم هم البقر ، هم البقر .

ان اهل كل مذهب او نظام او دين او معسكر يريدون ان يكونـوا هم الثيران والتيوس وان يكون كل من سواهم هم البقر والمعيـز ، بل انهم ليعتقدون ان الامر كذلك .

* *

وهل الصحافة والاذاعة في ممارساتهما المختلفة في كل العالم ، واحيانا في اغلب العالم الا اسلوب رديء وعنيف لهؤلاء الاطفال الذين لو تصورناهم لاصيبت مشاعرنا ووقارنا بكل معاني الغضب والاشمزاز والاستقباح ؟ وهل تصورنا لمثل هؤلاء الاطفال لنجعل منهم نموذجا أو مستوى أو عارا او افتضاحا للاذاعة والصحافة اللتين يخاطب بهما كل العالم واحيانا اغلب العالم — يخاطب ويمارس بهما كل العالم او اغلب العالم نفسه — يخاطب ويعامل بهما أخلاقه وذكاءه وأربابه ومذاهبه ، وتتخاطب وتتعامل بهما اخلاقه وأربابه ومذاهبه وكل اساليب حياته ، ويعتدي بهما على اخلاقه وأربابه ومذاهبه وعلى ذكائه وتعتدي عليه بهما اخلاقه وأربابه ومذاهبه وذكاؤه — يعتدي بهما ويعتدي عليه بهما — هل تصورنا لمثل هؤلاء الاطفال لنجعل منهم نموذجا او مستوى او عارا او افتضاحا للصحافة والاذاعة الا تصور عاجز ومتواضع ومحاب جداً للاذاعة والصحافة ، وظالم جدا لهؤلاء الاطفال ؟

هل تصور مثل هؤلاء الاطفال تعبير ذكي او مقارب عن رؤية قوية او ذكية لما في ممارسة العالم للاذاعة والصحافة وتخاطبه بهما من بشاعات وذنوب وعدوان وغباء وافتضاح قبيح قبيح — هل هذا التصور تعبير ذكي او صادق عن رؤية قوية او ذكية مهما اريد لهذا التصور ان يكون مخففا او محابيا ؟

هل اي زعيم او حاكم او طاغية ممن جربنا وعرفنا حينما يذهب يتفجر على العالم من حضيض صحافته واذاعاته ، يقول ما يقول امثاله ، ويهدد كما يهدد أمثاله ، ويتعرى ويكذب وينافق ، ويفسر مذاهبه وأربابه ونظرياته ومواقفه محقرا لاعنا بها كل العالم ، زاعما لها التفوق والانتصار على كل المخالفين والخصوم ، زاعما لها الخلود والشمول ، ناطقا بكل الغباء والفحش والبلاهات كما يفعل أمثاله ، كما يفعل هو دائما في مثل هذه المواقف التي طالما صنعت للعالم الموت والخراب والجنون — التي طالما عرضت البشر مثل كائنات لا يمكن أن تتحضر او تتهذب او تتعامل بالذكاء .

— هل مثل هذا الزعيم او الحاكم او الطاغية المتفجر على العالم بعفن الصحافة والاذاعة ، يقول ويفكر ويشاتم ويمارس باللغة كل ذاته ، وكل ما فيها من اوحال وجنون وعار وبلادة ودمامة وتعر وعدوان — هل مثل هذا الزعيم او الحاكم او الطاغية يصلح لان يهب تصورا لطفل يملك

كل البذاءة والسوء وفقد التهذيب والخجل من اي شيء ، وكل الرغبـة في التعري والايذاء والاثارة ، وكل الرغبة في التعبير عن القبح والفحش والعري والعار ، وكل القدرة على ذلك بكل الاساليب الفضاحة .

ـ لطفل يملك كل ذلك ، استطاع ان يعتلي منبرا في مكـان تصورناه اضخم معبد كوني قد احتشد فيه كل البشر ـ بالافتراض والتصور ـ ليلتقوا للمرة الاولى بأربابهم وانبيائهم وبكل رجالهم المقدسـين ليتشاركوا ويتباكوا ويتلاوموا ويتعاتبوا ، وليتحدث لاول مرة وبصدق لم يجـرب ـ ليتحـدث هكذا كل فريق امام الفريق الاخر ، امام الفريق الاخـر الذي هـو خصمه ومنافسه وخادعه ومستغله ومضلله وظالمه ـ ليتحدث كل فريق امام الاخـر وكل فرد امام الاخر ـ بصدق لم يجرب ولاول مرة .

ـ ليتحدث كل فريق وكل فرد امام الاخر بصدق لم يجربوه قبـل هـذه المرة ـ ليتحدث كل فريق وفـرد عن ذنوبه وهمومه ونقائصـه وعن نياتـه وعن معاني الضعف الوبيلة فيه وعن كل تاريخه الذي لا يستطيع ان يستره او الذي لا يريد ان يستره ، لكي يطلب الغفران ، لكي يعرف كـل الاخـر ، ويتعامل معه بلا خداع ولا استعلاء او تأله او تسلط ـ لكي يتحدث كل احـد عن ذنوبه وهمومه ونقائصه وعن كل معاني الضعف فيـه ، حتى الالـه ليتحدث هكذا وصادقا لاول مرة ، حتى الانبياء .

لكي يتدارسوا بصدق وعدل وانصاف : من الاكثر ظلمـا ، من الاكثر ضعفا ، او الاكثر عذابا وتورطا ، او الاكثر توريطا ـ من الاكثر : الالهـة ام الانبياء ام القادة والزعماء ام البشر ، ام الجماهير ـ من المسئول ، مـن المذنب الاول ، من المذنب الاكبر ، من الجاني ، من الذي يجب ان يكفر ، ان يستغفر ، ان يركع امام الاخرين باكيا معتذرا ؟

من الذي عليه ان يدفع الحساب الاكبر ويزرف الدمع الاغـزر : الالهة التي اخطأت دون ان تريد او تعرف او تستطيع ان تمتنع عـن الخطأ ، ام الانسان الذي اخطأت له الالهة واخطأت به ، واخطأت اليه ، واخطأت مـن اجله ، واخطأت باغرائه وتحريضه وضعفه ، واخطأت في رؤيتها وفي تفسيرها وتصورها لـه ؟

ـ ام الانسان الذي ليس خطؤه او ذنبه غناء بل بكاء ، وليس غنما بل

غرم ، بل عقاب ، وليس بحثا عن الترف بل استجابة للضرورة ، وليس عصياننا للآلهة او للاخلاق بل طاعة للضعف والعجز والجوع ، وليس تخزينا للذة بل تفريغ للالم ، وليس كبرياء او غرورا بل اتضاع ، وليس رغبة في الخطأ ولكن عجز عن الصواب ، عن معرفة الصواب وعن القدرة على ممارسة الصواب ، وليس التماسا لمخاصمة او لمحاربة الآلهة بل التماس لمصادقة ومسالمة النفس ، وليس خروجا على الآلهة بل استسلام لقوانينها ، لما ركبت فيه ولما سلطت عليه ، بل استسلام لقوتها ومنطقها ولشهواتها وليس هربا من جبروتها بل سقوط فيه ، وليس انتصارا على وحوشها المدربة المسلطة بل هزيمة أمامها ، بل موت وتمزق بانيابها ؟ أيهما المذنب : الخالق الذي يخطىء داخل ذات مخلوقه ، ام المخلوق الذي يخطىء داخل ذاته خالقه ؟ ايهما افضل حظا : الانسان الذي يتلذذ ويتعذب ، ام الاله الذي يتعذب ولا يتلذذ ؟ أيهما أكبر ذنبا : من يذنب بلا شهوة ولا ضعف ام الذي يذنب خاضعا للشهوة وللضعف ؟ ايهما اكبر وافظع ذنبا : الاله ام الانسان ؟

* *

نعم ، هل يصلح مثل ذلك الزعيم او الحاكم او الطاغية أن يهب تصورا لطفل يملك كل ذلك ، استطاع ان يعتلي منبرا في مكان قد تصورناه اضخم معبد في الكون ، وتصورنا ان كل الالهة والانبياء والقديسين وكل البشر قد تجمعوا فيه لاول مرة ، وتجمعت فيهم اشواق وتطلعات وعيون وعقول وآذان حادة وراصدة ومحدقة — تجمعوا فيه ليتحاسبوا ويتحاكموا ويتكاشفوا — ثم القى اي ذلك الطفل الذي تصورناه وتصورنا اعتلاءه المنبر بكل ثيابه الداخلية والخارجية، كما القى بكل ما عرف من احتمالات الحياء والتهذيب، ثم انطلق يقول كل ما يستطيع ان يقول امثاله وكل ما لا يستطيع احد ان يقول مثله وكل ما لا يستطيع امثاله ان يقولوه .

— مستعملا من الحركات والاشارات البذيئة ما لن تستطيع كل همجية التاريخ وكل همجية الطفولة ، وكل طفولة الهمجية ان تستعمله او ان تتعلمه او ان تتقبله او ان تتصوره .

— صارخا مشيرا متوجها الى كل الاتجاهات ، مكررا نفسه ، مكررا صرخاته واشاراته وحركاته ، مترجما نفسه واشاراته وحركاته وبذاءاته الى كل اللغات ، قارئا لها بكل الاصوات واللهجات — قافزا صائحا، قافزا صائحا، قافزا ، قافزا ، صائحا ، صائحا .

— نعم هل يصلح مثل ذلك الزعيم او الحاكم او الطاغية الذي جربنا

وعرفنا أمثاله طويلا ، طويلا ، ان يهب تصورا لمثل هذا الطفل الذي تصورناه وعذب مشاعرنا تصوره ؟ أليس الانتقال من تصور مثل هذا الزعيم أو الحاكم او الطاغية ، او من مواجهته ، او من التفكير في معاناة جنونه انتقالا خاطئا ، انتقالا مسرفا في الغباء والظلم ؟ أليس في هذا التصور أو التشبيه أو المقارنة او الربط الذهني ظلم لذلك الطفل ، ظلم كبير ؟ أليس في ذلك ظلم عظيم للتصور وتشكيك في قيمته وفي ذكاء انطلاقاته واستجاباته ؟

ولكن هل للتصور ذكاء او هل له منطق او هل له اخلاق أو هل يحترم نفسه أو هل يحترم تحركاته ؟ وما هو التصور ؟ أليس هو ضياع الانسان في آلامه واحزانه وضعفه وتيهه وعبثه وفي تفاهاته؟ أليس هو فرار الانسان من ذاته وظروفه ؟

★ ★

ولكن كيف يمكن أن يكون تصور ذلك الكائن الفلكي للبشر حينما يسمعهم ويقرؤهم يصلون ويتضرعون لآلهتهم ، حينما يسمعهم ويقرؤهم يدعونها ويطلبون منها ، ويبكون ويذلون بين يديها ، ويرتجفون هوانا وجبنا وملقا واحتياجا وانكسارا ، حينما يسمعهم يصوغون لغاتهم ومنطقهم واخلاقهم ومشاعرهم وايمانهم بها وفهمهم لها ؟ كيف يمكن أن يكون تصوره لهم ــ كيف يمكن ؟ كيف يستطيع ان يسمعهم ، او يقرأهم ؟كيف يكون ذعره حين يسمعهم ويقرؤهم ؟ كيف يكون ذعره ؟

انه لن يعرف حينئذ هل هم يصلون ويضرعون ويطالبون ، أم هم يسخرون ويهجون ويحقرون ، هل هم يمارسون جدا ام هزلا ، هزلا . هل هم يخاطبون كائنا كبيرا جادا يريدون منه ام هم يعابثون كائنا صغيرا هازلا لا يوجد عنده ما يمكن ان يطلب منه أو ما يمكن ان يعطيه أو ان يصنعه أو ان يغري به ، او ان يطلب او يراد منه مهما كان عنده . هل هم يخاطبون السماء بكل جبروت الجد ام هم يهزلون في تمثيلية هازلة . هل هم يخاطبون جد السماء أم هم يهزؤون .

انه سيجدهم يصلون للآلهة ويطلبون منها بانكسار ذليل فاجع . وهل بدا الانسان ذليلا وصغيرا وفاجعا مثلما بدأ وهو يصلي لآلهته ويطلب ويريد منها ؟ اذن هم جبناء ومهينون ومتملقون . انهم يصلون لانهم يريدون، ولانهم يخافون ، انهم يهونون ويركعون ويطالبون بثمن هوانهم وركوعهم انهم يهونون ويركعون ويتملقون بتخضع ومذلة لا يفترضون لهما اي حدود . انهم

لا يشترطون لمذلتهم وتملقهم وخضوعهم اية شروط . انهم لا يهابون ان يعرضوا هوانهم ، انهم يجدون في ذلك مجدا ، أنهم يصلون لهوانهم .

انهم اذن يفترضون آلهتهم كائنات صغيرة ورديئة وضعيفة جداً ، انهم يفترضونها تفرح جداً ، جداً ، تفرح أكثر من الاطفال ، من اي طفل ، بالهوان والمذلة والملق والانكسار بين يديها ؛ أنها تفرح بذلك كالاطفال ، اكثر من الاطفال ، انها تجزي عليه ، تجزي عليه بلا حساب ، انها تجزي على الهوان والتملق والانكسار . انها اذن شيء رهيب ، مخيف .

انهم اذن يرون أن الآلهة لا تعطي او تفعل حينما يكون الفعل والعطاء عدلا او حقا او منطقا او واجبا او قانونا أو كرما او رحمة او فضيلة .. انها تعطي وتفعل بالسؤال والملق والالحاح وبالتأثير في مشاعرها وتوازنها . انها اذن اسوأ اساليب الخروج على الاخلاق والنظام والقانون والعدل والاحترام للنفس في تصورهم وسلوكهم . أنهم يهبطون بها متصورين لها ، وانها تهبط بهم متحولة الى تصور لهم . انهم يحقرونها متصورين لها ، وانها تحقرهم متصورة لهم !

انهم أذن لا يرون ان اي شيء يكون بالقانون او بالعدل او بالواجب او بالمنطق . ولو أن شيئا ما يكون بذلك لكان كل شيء كذلك . وحينئذ لن يكون شيء ما بالصلاة أو بالتضرع او بالمطالبة الملحة الذليلة . انه اما بالقانون والعدل والواجب فقط ، وأما بالصلاة والتملق والسؤال فقط . ان أحد الواقعين أو المنطقين او الافتراضين يسقط الاخر ، أنه لا يتركه احتمالا ، انه يسقطه اسقاطا . ان العدل والقانون والواجب والمنطق هزيمة وابطال للصلاة والدعاء والتضرع ، وان الصلاة والتضرع والدعاء هزيمة وابطال للعدل والقانون والواجب والمنطق .

أنه لو كان للصلوات والتضرعات والمطالبات السائلة الملحة اية قيمة فاعلة لأصبح كل شيء لغوا ، لاصبح كل شيء في الكون وفي نضال الانسان لغوا ، لان كل ذلك ، ولان كل شيء حينئذ يمكن تغييره والتحكم فيه وامتلاكه وفقده وصياغته واعدامه بالصلوات والضراعات وبالمطالبات الملحة السائلة ، حتى الشمس ، حتى اسقاطها ، حتى قتلها ، حتى امتلاكها هبة ، حتى تحويلها الى رغيف ، الى كتلة من الخبز او العجين او الزبد ، حتى تجفيف البحار وحتى تحويلها الى مياه عذبة، وحتى موت الآلهة وحتى فقدها

لألوهيتها ، وحتى تنازلها عن الوهيتها ، حينما يطلب منها ذلك ، حينما يصلي له ويتضرع اليها لكي تفعله . انها اذا فعلت بالاخرين بالدعاء فلا بد ان تفعل بنفسها بالدعاء .

انه أذا كانت دعوة او صلاة او مطالبة أنسان ما باسلوب ما تحت ظروف ما تجعل الاله يتقبل ان يهب الشمعة او يطفئها او يغير صفاتها او يحولها الى طعام ، اذا كانت الدعوة او الصلاة او المطالبة موجهة الى ذلك ، فان دعوة او صلاة او مطالبة انسان اخر اكبر ، مثل نبي او قديس او ملاك، باسلوب ما أخر ، تحت ظروف ما أخرى تستطيع ان تجعل الاله يتقبل ان يهب الشيء الاعظم من الشمعة ، ان يهب الشمس او أن يسقطها او ان يطفئها او ان يصوغها من جديد ، أو أن يصنعها طعاما للنجوم الجائعة ، اذا كانت الدعوة او المطالبة او الصلاة مرادا بها ذلك .. وكيف اذا كانت حالة الاله النفسية مواتية مستجيبة . انه لا حدود لاستجابة الحالة النفسية التي تخضع للصلاة والسؤال والتضرع والالحاح . أنه لا حدود لسلوك كائن يتحرك بالدعاء والمطالبة والمناشدة الذليلة الخاضعة أذا لم يكن ذلك الكائن يخاف شيئا او يعجز عن شيء . انه لا حدود ولا قانون لسلوك الاله ولا لذكائه اذا كان يتقبل الصلوات والمناداة والضراعات ويستجيب لها ويجزي عليها .

ان اي كائن عاقل يعيش في عالم تحكمه قوة مطلقة تتقبل الصلاة والدعاء والتضرع والسؤال او تستجيب لذلك ، او يحتمل ان تستجيب له او لشيء منه ــ ان أي عاقل يعيش في مثل هذا العالم الذي تحكمه مثل هذه القوة ليجب ان يصاب بالجنون ان لم يكن محتوما ان يصاب بالجنون . ان هذه القوة المطلقة التي تتقبل الصلاة والدعاء والسؤال والضراعات وتستجيب لها موجهة منا ، قد تتقبلها ، بل حتما لا بد أن تتقبلها ولو احيانا حينما تكون موجهة ضدنا . انها كما تتقبل ذلك منا لا بد ان تتقبله ضدنا . انها عقدة لا مثيل لها في السخف .

ان وجود الاله الذي يتقبل الصلوات والدعوات والمطالبات ويستجيب لها لعقدة لا مثيل لها في سخفها . ان ذلك هو الجنون .

وهل من الخير او الذكاء او الافضل ان يكون هناك اله يستجيب منك ضد خصمك او ضد غيرك ليستجيب من خصمك او من غيرك ضدك ؟ هل

من الذكاء أو من الافضل او من الخير ان يكون مثل هذا الاله موجودا ؟ هل وجود مثل هذا الاله افضل لك او للاخرين الذين قد يستعملونه ضدك كما قد تستعمله انت ضدهم ؟ أليس الافضل لك ولهم ان تتحالفوا ضد وجوده ؟ أليس ذلك هو الاذكى ؟

اما ان يوجد اله يتقبل منك فقط ، ويستجيب لك فقط فان افتراض او تمني مثل هذا الاله قد يكون فيه من الهجاء لك اكثر مما فيه من الهجاء لذلك الاله ، او مثلما ما فيه من الهجاء لذلك الاله او اقل مما فيه من الهجاء لذلك الاله . انه هجاء لك وهجاء منك ، ان فيه من الهجاء منك مثلما فيه من الهجاء لك . وهل تهجى الالهة ؟ وهل يهجى شيء مثلما تهجى الالهة ؟ هل يهجو الانسان شيئا مثلما يهجو الهه ؟

أما تقبلك بان يوجد اله من هذا الطراز ، بهذه الصفات فانك بذلك تصبح طرازا لا مثيل لك في انسذاجة والبذاءة والغباء . انك حينما تتقبل ان يوجد اله يستجيب لك فقط فانك حينئذ تجعل جميع صفات الهجاء وجميع اساليب الهجاء عاجزة عن ان تكون على مقاس ذاتك ، عاجزة عن ان تجرؤ على وصفك وعن ان تفكر فيك لتفوقك عليها .

كيف تقبل ان يكون في بيتك او في معبدك او في تصورك اله يستجيب لك ولا يستجيب لاعدائك بقدر ما يستجيب لك ؟

اما ان يكون هناك اله لك وللاخرين ، ولمنافسيك واعدائك وخصومك ، فانك لن تقبل مثل هذا الاله ، انك لن تسعد به ، ولن تستفيد منه . انه حينئذ لا بد ان يكون عدوا وخصما ومنافسا ونقيضا لك ، لانه لاعدائك وخصومك ومنافسيك وللمناقضين لك في مصالحهم وظروفهم ومطالبهم ومذاهبهم ، مثلما هو لك . اذن هو جيش وقوة ضارية ضدك ، مع اعدائك ومخالفيك وخصومك اكثر مما هو معك لان خصومك ومخالفيك واعداءك والمناقضين في مواقفهم لك اكثر منك . اذن فهو عليك اكثر مما هو معك . انك بقدر ما تفترض الاله عادلا وطيبا وعالميا وكونيا تفترضه عدوا وخصما ونقيضا لك لانه حينئذ لا بد أن يكون للاخرين المناقضين لك . هل تقبل أن تدخل حربا او خصومة ما مع خصوم لك واعداء ، ليكون فوقك وفوقهم اله لا حدود لقدرته ولحماسه ولرغبته في التدخل ، اله يتقبل من اولئك الخصوم والاعداء صلواتهم ودعواتهم وتضرعاتهم ضدك بالاسلوب الذي

يتقبل به منك ذلك ضدهم بلا محاباة او ظلم او خطأ ؟ هل تتقبل ذلك ؟ هل علمت ان مثل هذا الاله سوف يضطر الى ان يصنع لك الهزيمة والاذلال اكثر من أن يصنع لك النصر والكرامة ؟ هل علمت انه محكوم عليه حينئذ بذلك لكي يكون عادلا في تقبله للصلوات والتضرعات ؟

انك لم تتقبل وجود الاله ، ولم ترض عن وجوده الا على افتراض ان يكون لك فقط ضد الاخرين ، لا على افتراض ان يكون لك وللاخرين الذين قد يكونون اعداء لك ، او خصوما او مخالفين او مناقضين ، فيكون حينئذ الاله عدوا او خصما او مخالفا او نقيضا لك بالاضطرار والالتزام . وهل تتصور اضطرارا او التزاما فيه من الهول والقبح مثلما في اضطرار الاله والتزامه وهل تتصور اقبح او اسخف من اله يتقبل من اعدائك دعواتهم ضدك ويتقبل منك دعواتك ضدهم ؟

ان كل المؤمنين بالالهة انما قبلوا الهتهم وتعاملوا عليها واستراحوا اليها **لانها في افتراضهم وفي حساباتهم العقلية والاخلاقية ليست الا لهم وحدهم**، وليست لهم ولاعدائهم ومخالفيهم بقدر ما هي لهم . ان اي مؤمن لم يفترض ان الاله الذي يؤمن به قد يكون لعدوه او لخصمه قدر ما هو له او اكثر . ان المتعامل مع الحياة وعلى الحياة قد يرى ان الحياة قد تكون مع خصمه او عدوه اكثر من كونها معه . وليس كذلك المتعامل بالالهة .

انك لو كنت مؤمنا بالاله ، وبأنه أبدا واقف متحفز متوتر مرهف الاحاسيس والحواس ، ينتظر الدعوات والصلوات والتضرعات ليتدخل ويستجيب بكل حماسه وقدرته، وكنت في حرب أو في مخاصمة مع عدو لك يؤمن بالاله مثل ايمانك ، ويراه مثل رؤيتك له ، ثم طلب منك ذلك العدو المحارب المخاصم بأن تتفقا على أن ترفعا الاله من حسابكما ، وان تمنعاه وتصداه عن التدخل فيما بينكما ، رحمة به من ان يتورط بينكما ، او خوفا منه حينما يكون ملزما بأن يتدخل لمصلحة كل منكما بالعدل والقانون او بالمساواة مهما كان منطق العدل والقانون .

— انك لو كنت كذلك لما قبلت مثل هذا الاتفاق ، ولما قبله عدوك المحارب لك ، لان كلا منكما يرتب حسابه على ان الاله له وحده . اذن فليبق الاله ، وليبق تدخله ونشاطه ، وليبق تقبله واستجابته للدعوات والمناداة والمطالبات . لانك انت — في افتراضك وحسابك — لانك انت فقط — الذي سوف تدعوه

وتصلي له وتطلب منه، فيستمع ويرق ويضعف امام ملقك وتضرعاتك ومذلاتك، ويغلق بلا اية رحمة او مجاملة او تقوى كل عواطفه وحواسه عن دعوات ومناداة وصلوات عدوك ، ليكون لك وحدك ، لتكون كل عواطفه واهتماماته لك وحدك ، وليكون لك وحدك كل قلبه وعبقريته واهتماماته .

ان كل المؤمنين ، حتى الانبياء ، حتى كل القديسين انما كانوا جميعا يتعاملون بالاله ويؤمنون به على هذا الافتراض ، ان كل حسابات المؤمنين حتى حسابات كل الانبياء والقديسين انما كانت قائمة على هذا الافتراض اي على افتراض ان الاله انما يملكه دائما احد الفريقين ، اي على افتراض انه دائما يقاتل تحت احدى الرايتين . ان كل فريق يتهمه بأنه انما يقاتل معه وحده ، انهم جميعا يتهمونه اذن بالانحياز ، بالمحاباة الرهيبة البذيئة . ان الايمان بالاله والتصور له لن يكونا الا عدوانا عليه في حسابات وتصورات جميع المؤمنين به والمتصورين له .

ان المؤمن لا يستطيع ان يؤمن بالاله دون ان يفترضه محابيا منحازا . ان المؤمن لا يستطيع ان يتصور انه هجاء للاله ان يفترض منحازا محابيا او ان يكون كذلك في منطقه وفي سلوكه ، اي في منطق الاله وسلوكه .

ان المؤمن لا يستطيع ان يفترض الاله منحازا محابيا مهما افترضه وفهمه منحازا محابيا ، ومهما انتظر منه أن يكون منحازا محابيا ومهما طالبه بأن يكون كذلك .

ان الايمان بالاله لا يمكن ان يكون منطقا او تنزيها او تمجيدا او عدلا تحت اي ظرف ولا بأي اسلوب .

ان مجرد الايمان بالاله يعني حتما افتراضه منحازا محابيا . ان مجرد وجود الاله يفرض عليه ان يكون منحازا محابيا ، انه لا يمكن أن يوجد اله دون ان يكون منحازا محابيا . ان معنى وجود الاله لا بد أن يعني معنى وجود الانحياز والمحاباة . ان الالوهية لا تكون الا انحيازا ومحاباة ان هذا الكون — على افتراضه عمل وتدبير اله ما — ليس الا ابشع اساليب الانحياز والمحاباة . انه لا يمكن تصور صيغة او اسلوب للمحاباة والانحياز اقبح من الصيغة والاسلوب اللذين جاء بهما هذا العالم وجاء بهما الناس والحشرات وكل الكائنات . اننا لن نستطيع ان نتهم احدا بوحشية الانحياز والمحاباة مثل ان نزعم ان هذا الكون قد صاغه صائغ .

* *

ان ذلك الكائن الفلكي سوف يجد البشر يتضرعون الى الالهة، مطالبين لها بأن تغير الاشياء ، بأن تصوغها صياغات جديدة افضل او اكثر ملاءمة لهم، بان تهب الاشياء صفات أخرى لم تكن صفاتها ، بأن تكون دائما هادمة بانية، معطية مانعة ، قاتلة محيية ، مريدة ناقضة لارادتها ، محابية لهم ضد خصومهم واعدائهم ومخالفيهم ، منتظرة ابدا لطلباتهم لكي تصوغ كما تريد شهواتهم .

انه سيجدهم دائما يريدون من الالهة ان تكون غير ما كانت ، وأن تصنع غير ما صنعت ، وان تهب غير ما وهبت انهم ينادونها لتفعل كل ذلك ، أنهم دائما ينادونها لتفعل أفضل مما فعلت ، ولتكون افضل مما كانت ولتعطي اكثر أو أفضل مما اعطت. أنهم دائما ينادونها لتهبهم الصحة والقوة والثراء والسعادة والسرور وكل الظروف الاخرى المواتية . وانهم مع ذلك يصفونها بكل العدل والحكمة والرحمة والذكاء ، بكل الصفات الكاملة وبكل معاني واساليب الكمال في السلوك . انهم ينادونها ويلحون في ندائها لتستجيب وتفعل تحت الالحاح والنداء كانما يتصورونها طفولة تسمع وتطيع بالرجاء والثناء والنداء والملق وبالبكاء ايضا .

ولكن كيف ؟ اليس احد الموقفين ينافي الاخر ، اليس كل من الوصفين والموقفين ينافي الاخر ؟ أليست مطالبة الالهة هذه المطالبة تنافي وصفها بهذه الصفات ؟ اليس الايمان بهذا ينافي الايمان بذاك ؟ ان الايمان بكمال الاله وعدله ينافي مطالبته بأي شيء . انه ينافي مطالبته بأن يفعل ما يريد او يكون غير ما فعل واراد وكان . انك حينما تطالب الاله تنكر كماله وعدله . اذن حاذر على ايمانك .

أليست مطالبة الالهة بان تفعل اي شيء ، او ان تغير اي شيء او ان تكون اية كينونة جديدة ينافي الايمان بكمالها ، وبأنها عادلة او ذكية او رحيمة او حكيمة ؟ أليس الايمان بانها كاملة ورحيمة وحكيمة وذكية وعادلة — اليس الايمان بانها كل العدل والذكاء والحكمة والرحمة يمنع مطالبتها بان تهب او تصنع شيئا اخر ، شيئا غير ما صنعت ووهبت ؟ اليس ذلك يمنع مطالبتها بان تكون غير ما كانت او افضل مما كانت او اكثر رحمة مما كانت ؟ اليس ذلك الايمان بانها كل مستويات الكمال والرحمة والحكمة والعدل و لذكاء يمنع مطالبتها باي شيء او بفعل او تغيير آي شيء او بأن تعطي او تعالج اي شيء ؟ اليس مثل هذا الايمان يمنع المريض والضعيف

والفقير والحزين والمهزوم من أن يطلب منها الشفاء او القوة او الثراء او السعادة او الانتصار او اي شيء هو فاقده لان مطالبة الالهة بذلك تعني أنها ليست حكيمة ولا رحيمة ولا ذكية ولا عادلة ، لانه لو كان مرض المريض أو ضعف الضعيف أو فقر الفقير أو حزن الحزين أو انهزام المهزوم هو العدل والذكاء والرحمة والحكمة والمصلحة لما جازت مطالبة الالهة بأن تزيل ذلك او ان تزيل شيئا منه ولما جاز ان تفعله أو ان تفعل شيئا منه . انه لو كانت الالهة عادلة وذكية وحكيمة ورحيمة وكاملة كمالا مطلقا في كل مستوياتها ، وفي كل سلوكها وتدبيرها وتفكيرها لما جاز ان تطالب بشيء ، ولما جاز ان تراجع في أية خطوة من خطواتها ولا في اية فكرة من فكرها ، بل لما جاز ان تدعى او تنادى او يجثى أو يبكى بين يديها لترحم أو لتفعل شيئا، او لتهب شيئا او لتزيل شيئا او لتنقذ من شيء — لما جاز أن توجه اليها التضرعات واللهفات الجائعة المتطلعة المنتظرة . ان الذين يتوجهون الى الالهة يدعون ويرجون وينتظرون ليسوا الا وفود هجاء . انهم كوفود الشعراء والمغنين والمتملقين الذين يتوجهون الى ابواب الخلفاء والامراء الذين كانوا يعيشون في صحراء التاريخ .

اليست مطالبة الالهة بأي شيء ، حتى ولو بالشفاء من المرض او الفقر او الحزن او العار او الهزيمة او الهوان او من فقد الكرامة والشرف والنخوة والشجاعة والذكاء — اليست مطالبة الالهة باي شيء من ذلك ، او باي شيء غير ذلك ، اسلوبا من اساليب التسفيه او المقاومة او النقد لها ، او من اساليب الاتهام لاخلاقها او لذكائها ، لرحمتها وعدلها وحكمتها ونزاهتها ومروءتها ؟

اليست هذه المطالبة اسلوبا عنيفا من اساليب مطالبتها بالخروج على نفسها وبالرفض لنفسها وبالتراجع عن نفسها ، بل بالهجاء لنفسها ، وبالاعلان عن تخطئتها لكل مستوياتها ونماذجها وبالحكم على هذه المستويات والنماذج ، بالحكم ضدها ؟

اليست هذه المطالبة اسلوبا من اساليب المقاومة لذكاء الالهة ولاخلاقها او لاي مستوى من مستوياتها او لكل مستوياتها ؟

واذا كان محتملا في حساب المؤمنين ان تعطي الالهة ما يطلب منها او ان تفعل ما يطلب منها أن تفعله فلماذا تعطي او تفعل ذلك في تقدير المؤمنين؟ هل

لانه طلب منها ، ام لانه هو العدل والرحمة والحكمة والمنطق ؟ ان كان للاول كان ذلك خروجا على العدل والذكاء والحكمة والرحمة والمنطق ، بل وعلى الوقار والاحتشام — بل كان ذلك اسلوبا رديئا من اساليب الطفولة والنزق الحزين الصغير جدا ، جداً .

وان كان للثاني فلماذا لم تفعله الالهة دون ان يطلب منها ؟ وهل الالهة لا تفعل الحكمة والرحمة والعدل والذكاء والمنطق الا اذا طلب منها ؟ هل الالهة لا تفعل اخلاقها ومستوياتها وواجباتها وحبها ورحمتها وكل فضائلها الاخرى الا بالطلب والتضرع والصلوات لها ؟

اليس ممارسة فضائل الذات وقدراتها احتياجا وضرورة وليس حبا او نبلا واختيارا او مجازاة ؟

بل ولماذا حينئذ فعلت نقيض ذلك — لماذا فعلت نقيض العدل والذكاء والحكمة والرحمة والمنطق ؟ لماذا فعلت ذلك قبل ان تدعى وقبل ان يطلب منها التراجع عما فعلت من الذنوب او من النقيض لاخلاقها او لما ينبغي او ينتظر أو يرجى منها ؟ هل الالهة تتوب او يطلب منها التوبةأو تفعل ما يتاب منه ؟

اذا اصابت الالهة كائنا ما بالمرض او بالفقر او بالهزيمة او بالاحزان أو بالتشويه او بأية آفة اخرى فالافتراض الذي يجب ان يكون والذي لا يمكن ان يكون هناك افتراض غيره : انها قد اصابته بذلك لانه العدل أو الرحمة او الحكمة او المنطق او الواجب او الجزاء العادل . وحينئذ كيف يجوز أن تطالب بالشفاء من ذلك ، او كيف يمكن أن تشفيمنه؟أليس ذلكيعنيمطالبتها بالخروج على العدل والرحمة والحكمة والمنطق ، ومطالبتها بترك الواجب وبالتخلي عن المجازاة العادلة ؟ اليس ذلك يعني ان ينتظر منها هذا الخروج وهذا الترك وهذا التخلي ؟

ولو انها أستجابت لمناشدتها وشفت مما أصابتبه فهل تستحقحينئذ ان تكون الهة وهل تستحق الثناء ؟

ولو جاز الإفتراض الاخر ، اي الافتراض بأن الالهة قد اصابت ذلك الكائن او ذلك الانسان بما اصابته به بلا عدل ولا منطق ولا حكمة ولا رحمة

ولا التزام بالواجب او بالمجازاة العادلة ، او بأنها قد اصابته بذلك الذي اصابته به ضد العدل والمنطق والحكمة والرحمة وضد الالتزام بالمجازاة العادلة .

ـ اجل ، انه لو جاز هذا الافتراض البذيء لكان الافتراض الاخر : الا تغير الالهة موقفها ، والا تعالج مما اصابت به . ان الالهة حينئذ يجب ان تظل مصرة على ما فعلت ، انها يجب الا تتراجع عن سلوكها الخارج على المنطق والعدل والحكمة والرحمة والذكاء والواجب .

لقد اصابت الالهة ـ أي على حساب الافتراض البذيء ـ ذلك الكائن او ذلك الانسان بما اصابته به دون عدل او حكمة او رحمة او منطق او استحقاق عادل . واذن فلماذا تعالجه أو تنقذه مما أصابته به ؟ لقد أصابته لان اصابته تصنع لنفسها ولضميرها السعادة واللذة والابتهاج . لان اصابته تتحول الى عزاء او مسلاة لها من اي نوع وبأسلوب ما . وهذا افتراض قد يكون محتوما ، والا فلماذا أصابته ؟ هل أصابته لتدخل على قلبها الحزن والعذاب ؟ قد يكون ذلك صحيحا جدا . قد يكون صحيحا جدا ان الالهة انما تفعل افعالها ومخلوقاتها بحثا عن الحزن والعذاب والا فكيف تفعل وتخلق بهذا الاسلوب ؟ ان كانت قد أصابته بحثا عن المسرة والمسلاة والعزاء فلماذا تتخلى عن سرورها ومسلاتها وعزائها ؟ وأن كانت قد اصابته لتتلذذ بالعذاب والحزن لانها تجد فيهما لذتها ، فلماذا تتخلى عن لذتها التي تهبها اياها الاحزان وأنواع العذاب ؟ هل يوجد من يسعد بالحزن والعذاب في قلبه وفي عينيه مثل الالهة ؟ هل يوجد من يفعل الحزن والعذاب ويعيشهما مثل الالهة ؟

هل نفترض انها تتخلى عن ذلك استجابة للدعوات والصلوات والتضرعات ؟

هل نفترض أنها قد أصابت بما اصابت به لكي تدعى وتنادى ويطلب منها لكي تشفي من ذلك ؟

هل نفترض ان الالهة تصيب الانسان بالعمى او بالتشويه أو بالحزن أو بالفقر او بالمرض او بالافات والآلام الاخرى الباهظة لكي يطلب منها ويتضرع اليها ويصلى لها لتشفيه فتشفيه ؟ هل نفترض ان الالهة تصيب وتؤذي وتقسو بلا استحقاق ولا منطق ولا عدل ولا حكمة ولا ارادة جزاء لكي يطلب

منها أن تعالج مما فعلت فتعالج ؟ هل يمكن ان نفترض الالهة بهذا المستوى من الوحشية والتفاهة والضآلة والنزق ؟ هل يمكن افتراض الالهة صغيرة الى هذا المدى ؟

وهل يمكن أن تصعد بأي وحش وحشيته لكي يجرؤ على أن ينشب اظفاره بحيوان ضعيف عاجز ، لا ليتغذى بلحمه ، ولا ليسكت هجوم جوعه عليه ، ولكن من اجل ان يجعل ذلك الحيوان الضعيف العاجز يبكي له متضرعا مناديا مصليا مستغيثا طالبا منه الرحمة والاحسان — او من اجل أن يجعل وآلدة ذلك الحيوان الضعيف العاجز الناشبة فيه الاظفار تفعل ذلك بين يديه ، اي بين يدي ذلك الوحش ، مصلية ضارعة له في أعتى واقدم محاربيه ، في اكثرها ظلاما ورهبة وكآبة ؟ هل يمكن ان تصعد بنا وحشية التصور لكي نستطيع أن نتصور مثل هذا الوحش ؟ هل يمكن أن يوجد مثل هذا الوحش ولو في التصور ؟

ان ذلك الكائن الفلكي سوف يعجز عن الفهم وعن الاقتناع : كيف أمكن ان يجمع البشر بين هذين الاعتقادين : بين الاعتقاد بأن الالهة هي التي تصنع الالم والعذاب والاعتقاد بأنها هي التي تعالج من الالم والعذاب وهي التي ترجى للعلاج منهما ، وبأنها هي التي تصوغ الشيء وتدبره وتوجده ، وهي ايضا التي تغير صياغته وتدبيره وهي التي تعدمه ، تقتله .

كيف جمعوا بين الايمان بأن الالهة هي كل الخطر وكل الاعداء ، والايمان بأنها هي كل النجاة من كل الخطر ومن كل الاعداء ؟

اذا كان الهك هو الذي يمرضك ويفقرك ويشوهك ويهزمك فكيف ترجوه ، أو كيف يكون هو المرجو لشفائك واخراجك من كل ذلك ؟ واذا كان هو الذي انقذك واخرجك من آلامك او الذي يخرجك وينقذك منها ، أو هو المرجو لك منها فكيف يصيبك بها ؟ كيف يكون هو الذي يصيبك بما تريد ان ينقذك منه ؟ كيف يكون هو نبيك ودجالك ، او كيف يكون نبيك هو دجالك ؟ او كيف يكون سيافك هو جلادك ؟ او كيف يكون سيافك وجلادك ؟ أو كيف يكون طبيبك هو مرضك ؟

اذا كان يريد أن يصيبك فكيف يريد ان ينقذك ؟ واذا كان يريد ان ينقذك فكيف يريد ان يصيبك ؟ كيف يشتهي ان يمرضك ويفقرك ويهزمك

ويشوهك اليوم ، ثم تصبح شهوته غدا أو بعده ان يهبك الصحة والثراء والانتصار والعافية من كل سوء واذى ؟ كيف تكون آذن أخلاقه ؟كيف تتصور حينئذ اخلاقه وصفاته ومزاجه ومستوياته النفسية ؟ كيف يمكن حينئذ ان تفسره آو ان تفهمه ـ كيف يمكن ؟

كيف تلجأ الى من قتل ابنك بالامس بداء القلب ليشفي آبنك الثاني اليوم من داء آلزكام ؟

كيف ترجو من امرضك بمنطق او بلا منطق أن يشفيك بمنطق او بلا منطق ؟

كيف تدعو الطبيب الذي قتل أبناءك التسعة وهو يعالجهم من مرض الحصبة الى ابنك العاشر ليعالجه من مرض السرطان ؟

كيف تدعو الطبيب الذي من حكمته ورحمته ومنطقه ومجده وسعادته ان يقتلك آو يشوهك او ان يصيبك بالداء العضال ـ كيف تدعو مثل هذا الطبيب آلى منزلك آو تذكره بوجودك ؟

كيف يمكن ان يكون ذكاء دموعك وصلواتك وتضرعاتك ـ كيف يمكن آن تكون نظافة وكرامة واخلاق وضمير دموعك وصلواتك وضراعاتك حينماتطرح نفسك باكيا متضرعا مصليا تحت اقدام من قتل كل آبائك واهلك واصدقائك وكل الاولين ، بعد ان سامهم كل الوان التحطيم والتعذيب والاذلال ـ تحت اقدام من سوف يقتلك ويقتل كل من بقي من آبنائك واهلك وآصدقائك وجيرانك ، بعد ان يسومك كل الوان التعذيب والتحطيم والاذلال ، وبعد ان يسومهم كل آلوان التعذيب والتحطيم والاذلال ؟

كيف يمكن آن يكون شرف دموعك وآيمانك وصلواتك وتضرعاتك حينما تلقي بنفسك باكيا مصليا متضرعا هاتفا تحت آقدام من قتل ومن سيقتل كل العالم بعد ان سامه او بعد ان يسومه كل الوان التعذيب والاذلال والتحطيم، مناديا له ، مؤملا فيه ، منتظرا منه ـ اي من ذلك القاتل المحطم لكل العالم ـ مناديا له ،مؤملا فيه ـ منتظرا منه ان يجنبك مصيرا وتحطيما وآلاما وهموما قد آصاب بها كل آبائك وآهلك واصدقائك وكل العالم ، وان يهبك آمالا

ومسرات وحماية لم يهبها أحدا من آبائك او من اهلك او من اصدقائك اومن العالم ؟

كيف يمكن أن يكون شرف عينيك ، وكيف يمكن ان يكون ذكاؤهما وكبرياؤهما حينما ترنو بهما الى قاتل كل العالم ، الى محطمه، الى واهبه كل الامراض والمهانات والمذلات وكل اسباب الخوف والاسى والدموع ، لكي يهبك كل ما ليس في سلوكه او في تاريخه أو في ضميره او في نياته ؟

كيف يمكن ان تكون لغات وجهك وتفاسيره، كيف يمكن أن تتكلم أعصاب وجهك حينما يعنو الى من قتل كل آبائك وأهلك ، بعد ان سامهم كل التشويه والتعذيب والاذلال ، طالبا اليه ان يكون الحارس لك والحارس لابنائك من كل احتمالات الخوف والالم والخطر ؟

كيف يمكن ان تكون لغات وجهك وتفاسيره، كيف يمكن ان تتكلم أعصاب وجهك حينما تهب كل تضرعاتك وصلواتك ودعواتك للقاتل العالمي ، للقاتل الكوني لكي يهبك كل الخلود وكل الحياة ، وكل الحماية .

ــ حينما تطلب من كل الموت أن يكون كل الحياة ، ومن كل الخوف ان يكون كل الامان ، ومن كل العدو ان يكون كل الصديق ، ومن كل الذنب ان يكون كل التوبة ، ومن كل الدمامة أن يكون كل الجمال ، ومن كل البغض والغضب ان يكون كل الحب والرضا ، ومن كل القسوة والبطش والتعصب والجبروت أن يكون كل الرفق والتسامح والتواضع والغفران ؟

كيف يمكن أن تكون لغات وجهك وتفاسيره ، كيف يمكن ان تتكلم اعصاب وجهك حينما تصلي وتتضرع وتدعو ــ حينما تطلب من الآلهة ان تشفيك او تغنيك او تهبك أو تنصرك او تحميك او تحييك اذا كانت هي التي تمرضك وتفقرك وتجيعك وتخيفك وتحرمك وتهزمك وتقتلك ــ اذا كنت تؤمن بأنها هي التي تفعل بك ولك ذلك ؟

انه لغباء وهوان رهيبان ــ انه لغباء وهوان ان تهب اي قدر من ثقتك او اطمئنانك الى من قد تكون حكمته او رحمته او شهوته او منطقه او واجبه او لذته او سعادته او ارادته في ان يهبك الداء او الفقر او الهزيمة او التشويه او الاذلال او الضياع او العجز او الغباء او الجنون او الموت ــ

انه لشيء رهيب ، انه لشيء رهيب ان تمنح ثقتك أو أيمانك لالهك الـذي ترى انه لن يصبح حكيما أو رحيما او عظيما او طيبا او ذكيا أو محباصديقا الا اذا وزع الآلام والتشوهات على كل العالم ، على كل شيء .

اني أنعاك أيها الانسان ، اني انعي كرامتك وذكاءك وكبرياءك .

اني أنعاك ، اني انعاك أيها الانسان . .

اني اشفق عليك – اني اشفق عليك أن يراك أي كائن ، أو ان يعرفك اي كائن ، او أن يسمعك اي كائن سواك . . أني اشفق عليك **ايها** الانسان.

اني أشفق،اني اشفق ان يراك او يعرفك او يسمعك ذلك الكائن الفلكي – اني اشفق أن يراك او يعرفك أو يسمعك ذلك الكائن الفلكي وانت تصلي، وانت تتضرع وتدعو . .

اني اشفق ، أني اشفق ايها الانسان ان يراك ، ان يعرفك ، أن يسمعك أي كائن سواك وانت تصلي ، وانت تدعو وتتضرع وتناجي وتنادي .

أني انعاك ايها الانسان ، اني انعي كرامتك وذكاءك وكبرياءك .

اني اشفق عليك ، اني اشفق على من يراك او يعرفك او يسمعك . . اني اشفق عليك ، أني أشفق منك ايها الانسان .

اني اشفق عليك ، اني اشفق منك ، أني انعاك ، انعاك .

ايها الانسان . . ايها الانسان .

أنك أيها الانسان لذكي بلا حدود وشجاع بلا حدود ومبدع بلا حدود وشامخ بلا حدود ، وانك لرافض بلا حدود ، حتى لتهابك الالهة ، وحتى لتنظر اليك الالهة بغيرة وحسد وبارتجاف ، وحتى لتخاف النجوم اقتحامك لها ، وتحليقك فوقها .

انك لعظيم وكبير بلا حدود ، ولكنك ايضا صغير وتافه بلا حدود .

انك ايها الانسان لغبي بلا حدود ، وذليل بلا حدود ، وراكع بلا حدود، وجبان وملوث بلا حدود .. حتى لتعافك وتشمئز منك كل الكائنات ،وحتى لتعافك وتشمئز من تلوثك وغبائك وهوانك وجبنك الحشرات ، وحتى لتشعر الديدان بالتفوق عليك ، وبالرضا عن مستواها حين تنظر اليك ، بشموخ قامتها حينما تقيس قامتك ، حينما تتعامل بقامتك مع الطغاة وفي المعابد وحينما تمارسها في الركوع والسجود ، وفي كل ممارساتك للحضيض .

هل انت ايها الانسان تعاقب نفسك ؟ هل انت تعاقب ذكاءك ببلادتك ، وتعاقب شموخك وابداعك بهوانك، وعجزك وتلوثك ، وتعاقب حضاراتك وقفزاتك البعيدة ، البعيدة بمعابدك ومحاريبك ، وبصلواتك وتضرعاتك ، وبآلهتك البدوية ؟

هل الآلهة ايها الانسان تعاقبك وتقتص منك لانها تغار من تفوقك ؟

هل الالهة تعاقب مزاياك بنقائصك ، وتفوقك بهوانك ، وذكاءك بغبائك، وضحكاتك بدموعك ، ولذاتك بآلامك وتعاقب براعاتك ومدنياتك بصلواتك وبتضرعاتك وباعتقاداتك ؟

هل تفاهاتك تعاقب عبقرياتك ؟

هل انت أيها الانسان جيد الحظ ، هل أنت رديء الحظ - أي اذا وضعت في مباراة مع الكائنات الاخرى ، أي متبارية ارباحك مع خسائرك ؟ هل انت جيد الحظ ، هل أنت رديء الحظ ؟هل مسراتك أكبر من احزانك؟ او هل لذاتك أعظم من الامك ؟ هل عبقريتك وابداعاتك اعظم من تفاهاتك ومن بلاداتك ونقائصك الرهيبة ؟

انك اعظم الكائنات ضحكا وسرورا وممارسة للذات وشعورا بها وتخيلا لها وانتظارا لقدومها واكتسابا لها وعلما بها وتعبيرا عنها . ولكنك أيضا أعظم الكائنات احزانا ودموعا وآلاما ، واعظم الكائنات ممارسة للاحزان والدموع والآلام، واحساسا بها وتوقعا لها وخوفا منها واحتشادا بأساليبها وتفاسيرها ولغاتها ، وقدرة على اكتسابها وتضخيمها ، وعلى التعبير عنها والاستزادة منها .

وانك ايها الانسان لاعظم الكائنات ذكاء وابداعا وقوة ونظافة وشموخا

ورفضا . ولكنك ايضا اعظم الكائنات غباء وهوانا وعجزا وركوعا وصلاة وانهزاما وتلوثا .

انك دائما حدان متباعدان جدا ، انك دائما كائنان لا يلتقيان ولا يتعارفان ولا يتفاهمان ــ انك تبدو كذلك .

فهل أنت ايها الانسان جيد الحظ ؟ هل أنت رديء الحظ ؟ هل جاءت حظوظك الرديئة عقابا لحظوظك الجيدة ؟ هل رذائلك ونقائصك وضعفك اقتصاص من تفوقك ومن مزاياك ومن قوتك؟هل محاريبك وعقائدك وقاماتك التي حطمتها انحناءاتك عقاب لمدنياتك ؟

انت ايها الانسان متفوق في عبقريتك وفي مسراتك وملذاتك ، وفي شموخك ورفضك ، وفي قوتك وانتصاراتك ، ومتفوق ايضا في تفاهاتك ، وفي هوانك وخضوعك ، وفي عجزك وتقبلك ، وفي تلوثك ، وفي همومك وآلامك . .

أنت دائما طرفان تتسع المسافة التي بينهما لكل الكون متحولا الى ذنوب وعاهات وآلام ونقائص ومسرات واحزان وغباوات ــ متحولا الى انسان فهل هذا افضل لك ، ام الافضل لك ألا تكون متفوقا ، الا تكون متفوقا في الشيء ولا في نقيضه ؟ هل الافضل ان تكون لك سماء بلا حدود وحضيض بلا حدود ، أم الا يكون لك مثل هذه السماء ولا مثل هذا الحضيض ؟ هل الافضل ان يكون لك ذكاء بلا حدود وغباء بلا حدود،ام الا يكون لك لا هذا ولا هذا ؟ هل الافضل لك آن تسر وتضحك بتراقص ونزق مبتذل وان تحزن وتبكي بتمزق وانهيار ، ام الا تسر وتضحك والا تحزن وتبكي ؟

هل الافضل لك آن تنظف بكل انهار الدنيا وبحارها ثيابك وبدنك ، ثم تلوث بكل اوحال الدنيا وقاذوراتها اخلاقك وكرامتك ، وعقلك وجبهتك ، ام الا يكون لك هذا التنظف ولا هذا التلوث ــ الا تكون لك هذه البحار والانهار، ولا هذه الاوحال والقاذورات .

هل الافضل لك ان تكون الها شريرا حزينا سخيفا احيانا ، ام الا تكون الها ولا شريرا ولا حزينا ولا سخيفا ولو احيانا ؟

هل انت ايها الانسان جيد الحظ أم رديئه ؟ هل انت كائن مصنوع له ام كائن مصنوع ضده ؟ هل انت كائن ترعاه كل الهة الكون ام كائن تتحداه كل هذه الالهة؟هل انت كائن لم توجد الهة الكون ولم تقبل انتكونموجودةالا لكي تصنع وتهيء له ، ام كائن لم توجد هذه الالهة ولم تقبل وجودها الا لكي تصنع وتهيء ضده ؟

هل انت كائن ابدعته الالهة لتزين به نفسها ولتحابي بمزاياه عبقريتها، ام كائن شوهته الالهة لتعاقب نفسها ، لتهزأ من عملها ، من وجودها ، من موهبتها ؟

هل انت أيها الانسان اجود الكائنات حظا ، هل انت اردأ الكائنات حظا ؟

هل انت كائن لا يمكن ان يوزن أو يفسر بشيء ، ولا ان يفسر او يوزن به شيء ؟ هل انت افضل ما في هذا الكون ام اردأ واشقى ما فيه؟

هل من مصلحة ذكائك ان يخوض منافسة مع غبائك ؟ هل من مصلحة شجاعتك ان تخوض منافسة مع جبنك ؟ هل من مصلحة نظافتك ان تخوض منافسة مع تلوثك ؟ هل من مصلحةانتصاب قامتك أن ينافسانحناءقامتك؟ هل من مصلحة مسراتك ان تفاخر أحزانك ؟

هل من مصلحة حضاراتك ان تفاخر آلهتك ومعابدك ، ان تفاخر صلواتك وتضرعاتك ، ان تفاخر معتقداتك وايمانك ؟

هل من مصلحة حضاراتك ان تفاخر صرخاتك ودعواتك في معابدك ومحاريبك ، ان تفاخر انحناءاتك تحت أقدام اربابك الهمجية ؟

هل من مصلحة ابداعاتك الفنية والعلمية والصناعية والفكريةانتفاخر مواكبك الذليلة المنطلقة وراء مجانينك لتقاتل نفسك في معارك هي أردأ مستويات الجنون والهمجية والنذالة ؟

هل من مصلحة سموآتك ان تدخل في مبارزة مع حضيضك ؟

آذن ايها الانسان ، هل انت جيد الحظ ، هل انت رديئه ؟

هل تختار كينونتك او كينونة اخرى من الكينونات الاخرى الموجودة لو كان محتوما عليك أن تختار كينونة ما وكان جائزا لك ان تختار الكينونة التي تراها أفضل ، اي من الكينونات الموجودة المحتومة ، المحتوم عليك ولك أحداها ؟

هل تقاتل حينئذ لتكون ما كنت ؟ هل تقاتل حينئذ لئلا تكون ما كنت؟ هل تجن حينئذ عشقا لامجاد كينونتك ؟

هل سبب تفوقك هو سبب تخلفك ؟ هل تفوقك هو سبب احزانك وآلامك وغبائك وهوانك وجبنك ، وسبب تلوثك واكاذيبك ونفاقك وصلواتك وتضرعاتك ؟

هل تفوقك هو سبب محاريبك ومعابدك وعقائدك البذيئة وآلهتك المتوحشة وطغاتك الجهال ، الاشرار ؟

هل تكون حزينا وغبيا ومنافقا ومستسلما وكذابا ومصليا ومتضرعا ومؤمنا بالالهة المتعصبة هكذا لو لم تكن متفوقا ؟

هل يمكن أن تكون متفوقا دون ان يعاقب تفوقك بأشياء رديئة واليمة، دون ان يعاقبك تفوقك ؟

هل سبب ذكائك هو سبب غبائك ، وهل سبب مسراتك وضحكاتك هو سبب آحزانك وبكائك ؟

وهل سبب انحنائك هو سبب شموخك ؟

وهل سبب جبنك هو سبب شجاعتك ؟

وهل سبب شرفك هو سبب نذآلتك ؟

وهل سبب مدنياتك هو سبب معابدك ومحاريبك وارباك وانبيائك

وطفاتك ؟

هل هو سبب صلواتك وتضرعاتك ودعواتك ؟

هل ذكاؤك هو سبب غبائك ، وهل مسراتك هي سبب احزانك ، وهل شجاعتك هي سبب جبنك ، وهل كبرياؤك هي سبب اتضاعك وهوانك،وهل تفوقك هو سبب تخلفك ؟

هل كونك انسانا هو سبب هبوطك عن مستوى الانسان ، عن مستوى تعاليمه وأمانيه ؟

هل هبطت عن مستوى الانسان لانك موجود ام لانك انسان ؟

هل يهبط عن مستوى الانسان سوى الانسان ؟

هل هذا هو سبب هذا ، هل سبب هذا هو سبب هذا ؟ هل محتوم ان تكون هذا لانك قد أصبحت هذا ؟ هل محتوم أن تمارس الهبوط لانك تمارس الصعود ، وان تمارس الاحزان والدموع لانك تمارس الضحكات والمسرات ، وان تمارس الاكاذيب والغباوات لانك تمارس العبقرية والذكاء والصدق ، وأن تمارس الشجاعة لانك تمارس الجبن والخوف الذليل ؟ هل محتوم ان تملك اسباب هذا وان تعيش اسبابه لانك تملك اسباب النقيض وتعيش اسبابه ؟ هل محتوم أن تموت بعنف لانك تحيا بعنف ؟ هل محتوم ان تسقط بدوي وعذاب وبتمزق رهيب لانك تصعد بشموخ وبكبرياء وبتألق ؟ هل تهبط هذا الهبوط لو لم تصعد هذا الصعود ؟

هل ارباحك هي أسباب خسائرك ؟ هل اسباب ارباحك هي اسباب خسائرك ؟ هل مستواك الذي يعطي هذا هو الذي يعطي هذا ــ هل يعطيه حتما أم قدرا ؟ هل ظروفك هي التي تعطيك السماء والحضيض ؟ هل تعطيك السماء والحضيض حتما ام قدرا ؟

هل انت سماء وحضيض ، ام أنت سماء فقط او حضيض فقط ، او حضيض له صيغتان وتعبيران ، أو له عديد من الصيغ وعديد من التعبيرات ؟ هل انت ذكاء وغباء ، هل انت صعود وهبوط ، هل انت

شجاعة وجبن ، هل أنت نظافة وتلوث ، هل انت كرامة ونذالة ، هل أنت صدق وكذب ، هل انت حب وبغض ، هل انت رفض وقبول ؟ هل انت هذا وهذا ؟ وهل هذا غير هذا ، هل هما شيئان ، هل هما نقيضان ؟

اليسا شيئا واحدا جاء بتعبيرين او بصيغتين او بعدة صيغ وعدة تعبيرات ؟ أليست اللغة أضخم جهاز كذب وخداع ابتكره الانسان ؟ هل اللغات معتدية ام معتدى عليها ام معتدى بها أم هي كل ذلك ؟

هل الصدق غير الكذب ، وهل الذكاء غير الغباء ، وهل الشجاعة غير الجبن ، وهل الشرف غير النذالة ؟ وهل الحضارة غير البداوة – هل الاختلاف بينهما غير اختلاف في التعبير او في الصيغة ؟ هل هما شيئان، هل هما مستويان وخلقان ، هل هما نيتان مختلفتان ، هل هما نموذجان مختلفان ، أم هما تعبيران ؟ هل الانسان اخلاق مختلفة ، ومستويات مختلفة ، ومعان مختلفة ، وتفسيرات مختلفة، ونيات مختلفة – هل الانسان حقائق مختلفة ام لغات وصيغ واساليب مختلفة ؟

ما هو الذكاء ؟ أليس هو التعبير عن الذات بأسلوب ما ؟ أليس الغباء ايضا هو تعبير عن الذات بأسلوب ما ؟ أليست الحدود بينهما غير معروفة وغير معترف بها ؟ أليس ما يعد في وقت ما او في مكان ما او عند قوم ما او في منطق ما قمة الذكاء هو قمة الغباء ، أليس ما يعد قمة الغباء هو قمة الذكاء ؟ اليس ما يعد قمة هذا يعد قمة هذا ؟ أليس كل ما يعد ذكاء يعد غباء ، وكل ما يعد غباء يعد ذكاء ؟ اليس كل شيء هو ذكاء وغباء ، هو ذكاء بقدر ما هو غباء ؟

اليس ما يعد في عصر من العصور او في مجتمع من المجتمعات او في دين من الاديان هو أعظم مستويات الذكاء ، هو ذكاء الآلهة حولته الى نبوات والى كتب مقدسة والى انبياء ، يعلمونه الناس والارض ، يعلمونه الكون والحياة وقوانين الطبيعة – أليس مثل هذا الذكاء هو قمة الغباء، قمة السخف والعار العقلي في ظروف اخرى وفي تفسير قوم آخرين ؟ اليس من يعدون اذكى الناس ، من يعدون أذكى العباقرة ، يمارسون ويحيون غباء اغبى الناس ؟ أليسوا جميعا يخضعون للسلوك الواحد وللجوع الواحد وللألم الواحد وللحزن الواحد وللخوف الواحد وللهوان الواحد وللطاغية الواحد وللخرافة الواحدة وللاله الهمجي القاتل الواحد ،

وللجنون الواحد وللعدوان الواحد وللموقف المتعصب الواحد وللموقف الساقط المنافق الذليل الجبان الواحد ؟ أليست حياتهم، اليست اعضاؤهم، اليست اجسامهم ، أليست نياتهم وشهواتهم وحوافزهم ومشاعرهم تخضع لمستوى واحد من الذكاء ومن الغباء ، من الضعف ومن الانهيار ، ومن الارتجاف ، ومن الجوع ، ومن التعري ، ومن التلذذ بالعار ، ومن الاحتياج الى العار ، ومن الشره الذميم اللئيم ؟

اليس اذكى الناس ، اليس اذكى العباقرة ، اليس من يحسبون أذكى العباقرة — اليس هؤلاء قد يكونون اكثر خضوعا للغباء ، اي لما يحسب غباء ، اليسوا أكثر ابتداعا وترويجا وحماسا ودعاية له ، اي للغباء ، وجرأة وقدرة عليه ، واحتياجا اليه ، ودفاعا عنه ؟ أليس هؤلاء هم أكثر فعلا للغباء ولاساليبه المختلفة وللتعبير عنه ولجعله اعظم شمولا وقوة وانتصارا وجنونا وتدميرا ؟ اليسوا هم اقدر على ذلك ؟ اليس الذكاء جهازا ضخما لصناعة الغباء ولجعل الغباء شيئا رهيبا مروعا ، لجعله سلوكا مدمرا ، لجعل الغباء افدح غباء ؟

هل الذكاء ممارسة ، ام رؤية ، ام ابداع ، ام احساس ، أم تفسير ، ام براهين ، ام اقناع ، ام اقتناع ، أم فصاحة ، ام موقف ، أم نبل ، ام سير في الطريق ، ام استمرار في السير ، في السير الذي لم يختر نفسه والذي لم يبدأه او يختره السائر ، في السير الذي لا يبحث عن نتيجة او هدف ، والذي لم يقنع بأن له نتيجة أو هدفا ، والذي لم ينطلق عن حافز مفهوم او محتوم ، في السير الذي لم يخطط نفسه ، ولم يخطط له اي مخطط ؟

هل الذكاء سلوك ؟ هل الذكاء قراءة ؟ هل الذكاء حجارة تتلاءم ، ام عقول تتصادم ؟ هل الذكاء تفكير ام خطوات ؟

هل قلب الانسان ذكي ، وهل كبده او غدده او شرايينه أو اعضاؤه ذكية ؟ هل ميكانيكية جسمه ، هل كيمائية جسمه ذكية ؟ هل هو اذكى من عمليات قلبه وكبده وغدده وشرايينه واعضائه ومن كيمائية وميكانيكية بدنه ودمه ، وكل ممارسات ذاته لذاته ولما حولها ولاستقبالاتها الخارجية والداخلية ؟

هل الانسان يضبط سلوكه ويرى طريقه بذكائه أذكى مما تضبط

اعضاؤه سلوكها وترى طريقها بلا ذكاء ؟

أليس ما يعد ذكاء او عبقرية ليس الا ممارسات ذاتية والا ضرورات ذاتية ، والا آلية ذاتية مثل ممارسات الجسم لعملياته الميكانيكية والكيمائية ، مثل ممارسات الجسم والاعضاء لذاتها ، لآليتها ؟ هل الذكاء الا اسلوب من أساليب الميكانيكية والكيمائية يمارسها العقل بالاسلوب الذي يمارس به الجسم عملياته الكيمائية والميكانيكية ؟ هل ممارسة العقل للذكاء ذكاء ؟

هل الجسم يدبر لكي يؤدي عملياته هذه ؟ هل هو ذكي لانه يؤدي هذه العمليات ؟ هل تأديته لها ذكاء أو استجابة للذكاء او بحث عن الذكاء او اسلوب من اساليب الذكاء ؟ هل تأدية هذه العمليات تهب نتيجة ذكية ؟ هل الجسم يدبر ام يخضع ؟ وهل المدبر يدبر لانه يفهم او لانه ذكي ام يدبر لانه يخضع ؟ هل التدبير ذكاء أم خضوع ؟ هل الذكاء ذكاء ام كينونة ؟ وهل الكينونة ذكاء ؟

هل ممارسة الذكاء ، اي ما يحسب ذكاء ـ هل ممارسة الذكاء ذكاء ؟ هل النتيجة التي تؤدي اليها هذه الممارسة أو التي يراد او ينتظر ان تؤدي اليها ذكية ؟ هل التوقف عن هذه الممارسة غباء ؟ هل النتيجة التي يؤدي اليها هذا التوقف غبية ؟

ماذا يحدث لو توقف الجسم عن تأدية عملياته المختلفة ؟ هل يكون الموقف حينئذ اكثر غباء أو اكثر ألما او اكثر حزنا او اكثر خروجا على التقوى والفضيلة والتهذيب ، أو اكثر عصيانا للاله أو للقانون أو تحقيرا للذات او اغضابا للشمس والكون ؟ هل توقف الجسم عن عملياته هجاء لذكائه او لذكاء الآلهة ؟ هل استمرار الجسم في عملياته ثناء على أحد أو على شيء ؟

ماذا يحدث لو توقف الانسان عن ممارسته لما يحسب ذكاء انسانيا ، او لو فقد هذا الذي يحسب ذكاء انسانيا ـ ماذا يحدث لو كان بدون هذا الذي يسمى ذكاء انسانيا ؟

هل يكون حينئذ اعظم غباء أو شقاء او كآبة او انحطاطا او فسوقا

او غيظا او حسدا او تلوثا او حروبا أو تعاديا أو خوفا او أرقا او نفاقا او كذبا او بغضا او نذالة أو انانية او هموما نفسية وعقلية ودينية واخلاقية ؟

هل يكون حينئذ اكثر عصيانا للاله ، أو اكثر تحقيراً لنفسه أو للآخرين ؟ هل يكون حينئذ اكثر او اعمق شعوراً بضياعه او بتفاهته او بتورطه ؟ هل يكون حينئذ اكثر ابتداعا للآلهة الغبية ، وللعقائد والمذاهب والافكار العدوانية ، او اكثر طاعة واستسلاما للطغاة والزعماء القتلة الجهلة ؟ هل يكون حينئذ اكثر رؤية او أقوى رؤية لعبث كينونته ، لعاره ؟ هل يكون حينئذ اكثر او اقوى تحديقا في تشوهاته وفي عاهاته ؟ هل يكون اكثر احساسا بها او رفضا لها ؟

هل تبدو له المرآة حينئذ أقل صداقة أو حنانا او ابتساما حينما يقف أمامها ؟ هل تصبح المرآة حينئذ اكثر واعنف رفضا لوقوفه أمامها ، او اقسى عبوسا في وجهه ، في نظراته الملهوفة المذعورة المستعطفة — في نظراته المطالبة بالرحمة وبالصفح الكريم ، بل وبالاحسان السخي ؟ هل تصبح المرآة حينئذ أكثر هجوما عليه حينما ينظر اليها باحثا عن الحب ؟ هل تصبح المرآة حينئذ اكثر وحشية وعداوة لنظراته المحدقة فيها ، الخائفة منها ، المتضرعة اليها ، المطالبة لها بأن تكون مزورة وكاذبة ، رحمة بها ومحاباة لها ؟

نعم ، ان كل من يحدق في أية مرآة ليضرع اليها لتكون مزورة وكاذبة ومحابية لوجهه ولنظراته الضارعة .

* *

والشجاعة ما هي ؟ اليست هي صناعة الموت والتشويه والألم والعار والاذلال والدمار والهزيمة والاحزان ؟ اليست الشجاعة هي توقيع كل ذلك بالنفس او بالآخرين ؟ اليست الشجاعة هي أن تخاف جداً ، فتنفعل من الخوف لتتحول الى خوف جديد ؟ اليست هي الهرب الى الخطر خوفا من الخطر ؟

اليست الشجاعة هي الاقدام على شيء والفرار من شيء ، أليست

هي الرفض والعصيـان والكره لشيء ، ثم التقبـل والطاعة والحب لشيء آخر ؟ اليست هي اختيار آحد موقفين ، او الاضطرار آلى موقف مـن موقفين ، او الاكراه على التـزام موقف ما من عدة مواقف ؟ اليست هـي التنقل او التردد أو الحيرة أو التمزق او الموت بين موقفين او عديد مـن المواقف تحت ضغط الخوف او الخطـأ او المشاعر المتناقضة في بحثها عن الربح أو الامان ؟

اليست الشجاعة هي أن تستجيب لشعور ما لتخرج على شعور ما ـ ان تستجيب لضغط ما لتخرج على ضغط ما آخر ؟ أليست هي ان تستسلم لتحريض ما متمردا على تحريض آخر ؟ اليست هي ان تطيع نفسك عاصيـا لنفسك ، ان تطيع خوفك عاصيـا لخوفك ـ ان تطيع ظروفك عاصيـا لظروفك ، أن تطيع قدميك عاصيـا لقدميك ان تطيـع احد انبيائك عصيانا لاحد آنبيائك ؟ اليست هي دائمـا الطاعة والمعصية ، هي الشيء ونقيضه ؟

اليست آلشجاعة هي ان تخطو مع نفسك خارجا على آلهتك ومثلك ، او غير مستأذن لآلهتك ومثلك ، آو غير مفسر بآلهتك ومثلك ، او غير مدافع عن آلهتك ومثلك ، او غير غاضب لآلهتك ومثلك مهما كانـت أحاديثك عـن آلهتك ومثلك ؟ اليست هي ان تستسلم لأوامر نفسك اليك ، ان تستسلم لاملاءات نفسك عليك وعلى آخلاقك ، وعلى اربابـك ومذاهبـك وافكارك وتعاليمك ، وعلى وقارك وعلى احترامك لنفسك ؟ اليست هي آن تتحرك في جنون من الخوف والارتجاف ، من الكـره والبغض ، مـن الضـلال والضياع ، من الغباء والتوتر ؟

اليست آلشجاعة ارتجافا مذعورا يتحـول الى تعبـيرات مرتجـفة مذعورة ؟

اليست الشجاعة هي آن تتعامل مع نفسك ومع الاشياء حولك ومع الآخرين كأنك بلا انسان ، بلا منطق ، وبلا تقاليد ، وبلا آخلاق ، وبلا ديـن . كأنك شيء يسقط هنا او هناك ، كأنك كتلة من المادة تتحرك في هذا الاتجاه او في ذلك الاتجاه ، كأنك لا تعيش شيئا من آلانسان ، ولا من المنطق ، ولا من التقاليد ، ولا من التعاليم ، ولا من الاخلاق او آلاديان ، كأنـك لا تعيش سوى قوانين الكتلة المادية المتحركة بلا حافز انساني او اخلاقي او منطقي ؟ اليست الشجاعة آن تتحرك كما يتحرك ذئب او كمـا يتحرك برغوث آو كما

يتحــرك ذباب ، كما يتحرك بهذا الاسلوب او بالاسلوب الآخر ؟

أليست الشجاعة هي ان تبحث ــ ولو بغباء وارتجاف ــ عن الموقف الــذي يلائمــك أكثر ، او يهبــك الامــن والثمن الاكبر ، او الامــن والثمن الاقرب ، او الامن والثمــن اللذين تشتهيهمــا اكثر ، او يغريانــك اكثر ، او يجتذبانك وينتصران عليك اكثــر ؟ اليست الشجاعة اسلوبا مــن اساليب المساومة او المتاجرة البذيئة الشريرة ؟ اليست اسلوبا من اساليب البيع للموقف أو من اساليب التثمين للموقف ، من اساليب البيع والشراء للــذات ؟

اليست الشجاعة هي كل هذا ؟ أليست كــل اساليــب الشجاعــة ومستوياتها وحوافزها واهدافها ونتائجها هي هذا ؟

واذن ما هو الجبن ؟ أليس الجبن هو هذا ، هو كل هذا ؟ هل تستطيع ان تكون شجاعا دون انتكون جبانا او ان تكون جبانا دون ان تكون شجاعا ؟ هل تستطيع ان تكون شجاعا فقط او جبانا فقط ؟

اذن من هو الشجاع ، ومن هو الجبان ؟ أو هل يوجد شجاع او يوجد جبــان ؟

والصدق ما هو ؟ أليس هو 'ن نقول ما نريد قوله ، أو ما نريح مــن قوله ، او ما نشتهي قوله ، أو ما لا نستطيع الا قوله ، او ما يهبنا السرور والرضا عن انفسنا قوله ، أو ما نعرض أنفسنا بقوله ، أو ما نزيــن أنفسنا بقوله ، او ما يمنحنا الامان قوله ، او ما نتحدى او نعير أو نشاتم او نقاوم او نقاوي أو نهدد او نغيظ او نساوم بقوله الاعداء أو الخصوم او المخالفين او المنافسين او الاصدقاء ؟ ألسنا نصدق احيانا كمحاربين ومعادين ومهددين وشاتمين ، لا كصادقين ؟ أليس الصدق احيانا سلاحــا وبذاءة وحجارة نقذف بها ، وليس صدقا ؟

أليس الصدق هو ان نقول ما نتاجر بقوله ، او ما نقاتل بقوله ، أو مــا نهجو ونحقر بقوله ، او ما نخادع بقوله ، أو ما نتوقح بقولــه ، او ما نجــد شهوة اعلانية او افتراسية أو استعراضية بقوله ، او ما نبحث بقوله عــن اعجاب الآخرين بنا وعن ثنائهم علينا ، أو ما لا نخاف او نخسر من قوله ؟

اليس الصدق في حوافزه وفي نياته وفي نتائجه آيضا هو دائما خروجا على الصدق ورفضا له ؟

انه اي الصدق ليس هو ان نقول ما هو صدق قوله ، او ما ينبغي او يجب قوله ، او ما نخسر ونتعذب بقوله ، او ما نفتضح ونحاكم بقوله ، او ما نكره قوله . اننا لا نستطيع آن نصدق بهذا الاسلوب او بهذه الحوافز، اننا لا نستطيع ان نعامل الصدق بهذا الحب ، او ان نعامل انفسنا بهذه القسوة .

ان الصدق ليس هو آن نقول الشيء او عن الشيء او ان الشيء كما هو ، بل هو ان نقول عن الشيء كما نريده او كما نريد آن نقول عنه ، او كما نريد أن يعرف عنا قوله . ان حديثنا عن الشيء ليس حديثا عن آي شيء انه حديث عن انفسنا . اننا لا نقول الصدق حينما نصدق ، وانما نقول انفسنا .

آن الصدق ليس هو ان نرى الشمس كما هي ، وآن نقتنع بها كما نراها ، وان نتحدث عنها ونشير اليها ونجدها كما نقتنع بها . بل آن الصدق هو ان نرى الشمس كما نريد ان نقتنع بها ، وان نقتنع بها كما نريد أن نتحدث عنها وان نجدها وان نشير اليها ، وآن نتحدث عنها ونجدها ونشير اليها كما نريد ان تكون ، وكما يلائمنا ويفيدنا آن تكون ، وكما يلائمنا ويفيدنا آن نتحدث عنها ونجدها ونشير اليها . آننا لا نستطيع ان نرى الشمس ، وان نقتنع بها ، وان نتحدث عنها ونجدها ونشير اليها كما هي او كما ينبغي أن نفعل او كما تتعامل معها آعضاؤنا واعضاء البرآغيث .

اننا لا نصدق في تحدثنا عن ضخامة الشمس بقدر ضخامتها ، بل بقدر ارادتنا لضخامتها وبقدر تلاؤمنا وتعاملنا مع هذه الضخامة . آن الشمس لا تبدو لنا دائما في حجم واحد من الضخامة والاشراق .

ان الصدق ليس هو ان نقول ما يريده او ينتظره منا الاخرون ، وما يريده او ينتظره منا الباحثون عن الصدق ـ آنه ليس هو ان نقول ما يريده او ينتظره منا من شرفهم او حياتهم او نجاتهم آو مسراتهم او آنتصارهم او براءتهم في الصدق ..

ان الصدق ليس هو أن نقول ما تطالبنا به اربابنا أو انبياؤنا او مذاهبنا او صلواتنا ، او ما يطالبنا به شرفنا أو ذكاؤنا او كبرياؤنا او حبنا للمجد والتفوق والمديح . ان الصدق ليس هو ان نقول ما بايعنا عليه اربابنا وأنبياءنا ومذاهبنا وصلواتنا او ما عاهدنا عليه شرفنا وذكاءنا وكبرياءنا وتطلعنا الى المجد والتفوق والمديح . ان الصدق ليس ان نقول ما تحيا بـه وله اربابنا وانبياؤنا ومذاهبنا وصلواتنا ، او ما ينشده شرفنا وذكاؤنا وكبرياؤنا وطموحنا الى المجد والتفوق والامتداح . أن الصدق ليس هو ان نعشق جمال النجوم او ارتفاعها او وقارها او استرخاءها او خمود احاسيسها او بلادة نظراتها او وقاحة فضولها وتحديقاتها في آلام الناس وتشوهاتهم بلا أشفاق أو حياء أو تهذيب .

ان الصدق ليس هو ان نقول شيئا من هذا . ان الصدق هو ان نقول ما نريد قوله ، او ما نريد أن يعرف عنا قوله ، او ما نجامل انفسنا بقوله ، او ما يفيدنا قوله ، او ما نريده ان يكون ، او ما يرضي أحقادنا أو بغضاءنا او عداواتنا او وقاحاتنا قوله . أن الصدق هو ما في كهوف أنفسنا من احتياج وجوع وتمنيات ومخاوف ، وليس هو ما في سطوع الشمس من ضخامة وجهارة واشراق ومن عيون تسخر وتتحدى .

اننا حينما نصدق فيوصفنا لنجم بالصعود لا نقصد ان نتحدث بصدق عن النجم وعن صعوده ، وانما نقصد ان نقول عن انفسنا شيئا او لانفسنا شيئا . اننا حينما نصف اعلى نجم بارتفاع المكان لا نكون صادقين ، ولا نتوي ان نصدق ، ولا ان نبحث عن الصدق ، ولا أن نحترم الصدق اكثر من اكذب واوقح شاعر او خطيب ،حينما يقف بين يدي اغبى وافسد وأفجر واظلم طاغيـة مجنون ، ليصفه بكل الذكاء والعدل والنظافة والاستقامة . ان مثل هذا الشاعر او الخطيب لا ينوي ان يكذب او ان يحترم الكذب اكثر مما ينوي ان يصدق او ان يحترم الصدق اي قديس حينما يتحدث عن رؤيته لله .

انك لا تكون في حوافزك واهدافك صادقا حينما تقول عن اجمل واعدل انسان : انه اجمل واعدل انسان الا بقدر ما تكون صادق الحوافز والاهداف حينما تقول عن أظلم واقبح انسان : انه اجمل وأعدل انسان . انك لا تكون صادقا في حوافزك واهدافك حينما تتحدث الى الهك الذي تؤمن به اقوى ايمان أكثر مما تكون صادقا في حوافزك واهدافك حينما

تتحدث الى افجر طاغية تعرفه ممجدا عدله وتقواه وتواضعه .

ان هذا هو الصدق في سلوك واهداف وحوافز الانسان ، في سلوك وحوافز واهداف كل انسان . ان الصدق لا يمكن أن يكون غير هذا . وان هذا لا يعني الهجاء للانسان ، ولا يعني تأثيم الانسان ، كما لا يعني الاحتياج الى نصح الانسان أو الى تهذيبه لكي يصبح الصدق في سلوكه او في حوافزه وأهدافه شيئا افضل . انه يعني فقط أن هذا هو الانسان ، هو كل الانسان في كل مستوياته ونماذجه ، في كل انماطه واطواره الحضارية والاخلاقية . وكل هذا أليس يعني أن كل ما وجه الانسان الى نفسه من كتب مقدسة ومن أنبياء ليتعلم الصدق ليس الا قتالا لعدو لا تصيبه الاسلحة ؟

والكذب اذن ما هو ؟ اليس هو هذا في حوافز واهداف وسلوك كل انسان ؟

اليس الصادق كاذبا ؟ أليس الكاذب صادقا ؟ اليسا قضية واحدة في الحوافز والاهداف ؟ اليسا كلاهما صادقا ، أو كلاهما كاذبا ؟ اليس كلاهما ثناء على الاله او كلاهما هجاء للاله ؟

هل الكذب الا استجابة للذات ؟ وهل الصدق الا استجابة للذات ؟ هل نكذب حينما يكون الكذب خصما لنا ؟ وهل نصدق حينما يكون الصدق خصما لنا ؟ هل نصدق حينما تكون مخاصمة الصدق لنا كاملة ؟ وهل نكذب حينما تكون مخاصمة الكذب لنا كاملة ؟ هل نكذب لنموت ؟ هل نصدق لنموت ؟

هل نصدق حينما نكون في موقف الكذب وتحت ظروف الكذب ؟ وهل نكذب حينما نكون في موقف الصدق وتحت ظروفه ؟ هل نستطيع ان نصدق حينما نكذب ؟ وهل نستطيع ان نكذب حينما نصدق ؟ اذن لماذا نصدق حينا ونكذب حينا آخر ؟ اليس توزيعنا لانفسنا على الصدق والكذب توزيع اضطرار وخضوع ؟

هل نرفض اغراءات الكذب ما لم تكن لنا في الصدق اغراءات مضادة ؟ هل نرفض اغراءات الصدق ما لم نجد في الكذب اغراءات مضادة ؟

هل نصدق او نكذب لوجه الله او لوجه الشيطان ؟ هل نحن مهذبون او رحمنـــاء الى المدى الذي يجعلنا نكذب احتراما او رحمة بالشيطان ؟

هل الصدق الا بحث عن افضل شروط التعامل ولو في الحســاب الخاطىء ، ولو في التعامل النفسي ، ولو في الحسابات النفسية ؟ وهـل الكذب الا كذلك ؟ هل الصدق والكذب الا بحـث عن التعامل مع اكثـر الشروط ملاءمة لنا ولو في الحسابات الخاطئة ؟ هل الانتقال بين هـذا وهذا الا انتقال بين الشروط ؟

وهل الذي يصدق بحثـا عن افضل شروط التعامل خير او أصدق من الذي يكـذب بحثا عـن مثل هذه الشروط ؟ هل الذيـن يبحثون عـن الشروط الملائمـة اخيـار واشرار ، اتقياء وفسقـة ؟ هـل هـم صادقون وكاذبون ، ام هم متعاملون فقط ، أم هم عبيد شروط ، طلاب شروط فقط ؟

هل الذي يصدق لان الكذب لا يلائمه ولو نفسيـا افضل من الـذي يكذب لان الصدق لا يلائمه ولو نفسيا ؟ هل الذي يبحث عن التلاؤم لنفسه فقط فاضل ، هل هو غير فاضل ؟ هل الذي يطيع هوى نفسه او احتياجاتها اتقى أو افضل من الذي يطيع هوى اعضائه او احتياجاتها ؟

هل انت حينما تعترف بخطاياك صادقا أمام الكـــاهن اصـدق او افضل في اهدافك وحوافزك من اللص الذي يسرق زي الكاهن ثم يقسم ويده على كل الكتب المقدسة في محراب مقدس انه لم يسرق قط في حياته، وان الكاهن هو الذي سرق منه كل شيء ، حتى اللحية الغزيرة المربوطة الى وجهـه ؟ أليس الفرق بينكمـا فرقـا في التعبـير والاسـلوب فقط عـن الحوافز والاهداف الواحدة التي لا فروق بينها والتي لا تنقسم الى صادقة وكاذبة ولا الى مؤمنة وزنديقة ، ولا الى طاعة ومعصية ؟ اليس الفرق بينكما فرقـا في التوزيع والاخراج للحوافز والاهداف ، للمخاوف والحسابـات والتقديرات ؟ أليس كل الفرق بينكمـا انه لا فرق بينكمـا ؟ أليست كـل الفروق بينكما فروقا ليست فيكما ، اليست فروقا فيمن يتعاملون فيكما ، فيمن يرونكما ، فيمن تتعاملان فيهم وعليهم ، لا فروقا فيكما ؟

* *

ان الناس لا يقولون ما يريدون او ما ينوون ان يفعلوا، ولا ما يستطيعون

إن يفعلوا ، ولا ما سوف يفعلون ، ولا ما يشتهون أن يفعلوا . ان العلاقة بين الانسان والكلمة ليست علاقة حب او صداقة او شرف او احترام او التزام، بل ليست علاقة شهوة .

ان الناس يقولون ما يريدون قوله ، أو ما يشتهون قوله ، او ما يحبون ان يعرف عنهم قوله ، أو ما يضطرون الى قوله ، او ما يعلنون عن انفسهم بقوله . ان انسانا ما ، أن قائدا او زعيما ما اذا تحدث عما سوف يفعل او عما سوف يحدث لم يجب ان نبحث او نتساءل : لماذا يفعل ، أو لماذا يفعل هذا ، او لماذا يريد ان يفعل . وانما يجب ان نتساءل ونبحث : لماذا قال هذا ، لماذا قال ما قال . لقد قال . وهذه هي الحقيقة فقط . فلماذا قال ؟ لقد قال انه سوف يفعل . ان هذه ليست هي القضية ، أن القضية هي انه قد قال فقط . فلماذا قال ؟

وحتى اذا فعل ذلك الانسان او ذلك القائد او الزعيم ما قال فانه لم يفعل لانه قد قال ، كما أنه لم يقل لانه سوف يفعل .

ان العلاقة بيننا وبين ما لا نقول او بيننا وبين ما ننكر او بيننا وبين ما ننكر قوله ، لاقوى من العلاقة بيننا وبين ما نقول ، او بيننا وبين ما نعلن عن قوله . ان العلاقة هي دائما بينك انت وبين ما تفعل ، وليست بين ما تفعل وما تقول . ان العلاقة بينك وبين قولك ، وليست بين قولك وفعلك . ان بينك وبين قولك علاقة مهما كانت في التعبير مناقضة .

انك دائما متهم بأنك قد تفعل ما لا تقول أو بأنك قد تفعل ما تنكر او بأنك قد تفعل ما تنكر قوله اكثر من اتهامك بانك قد تفعل ما تقول ، او بأنك قد تفعل ما تمتدح . ولكن لماذا تفعل ما تنكر ؟ هل تفعله لانك أنكرته ؟ هل انكرته لانك تفعله ؟ ام ماذا ؟ ام انت لا بد ان تكون هكذا بلا تفسير ؟

انه لأسلوب حافل بالخطأ والغفلة ذلك الاسلوب الذي يسلكه اولئك الذين يحاولون بحماسة وتقوى ان يفهموا سلوك انسان قد كان ، او انسان قد يكون ، ان يفهموا اخلاقه او نياته ومقاصده مما كان يقول ، او مما سوف يقول . ان محاولة فهم المعلمين الخالدين العالميين ، او محاولة فهم اخلاقهم او نياتهم مما كانوا يقولون ويعلمون ليست أذكى من ان نحاول فهم اخلاق وسلوك ونيات اولئك المعلمين بفهمنا لما كان يقول اعداؤهم

والخارجون عليهم عنهم ، او بفهمنا لاخلاق ونيات وسلوك اولئك الخارجين الاعداء لأولئك المعلمين . ان محاولة فهمنا لاخلاق ونيات وسلوك أولئك المعلمين مما كانوا يقولون لابائنا المخدوعين ليست اذكى من محاولة فهمنا لاخلاق ونيات الآلهة من كتبها المنزلة لا مما توقع بنا من آلام وتشويه .

ان المسافة الفاصلة بينك وبين اقوالك ليست أقل من المسافة الفاصلة بين اي انسان وبين اقوالك، كما أن المسافة الفاصلة بين اي انسان وبين اقواله ليست اقصر من المسافة الفاصلة بينك وبين أقوال ذلك الانسان . ان اخلاقك ونياتك بعيدة عن أقوالك بقدر البعد الذي بين أقوالك وبين اخلاق ونيات اعدائك .

ان البعد الذي بينك وبين أقوالك ليس أقل من البعد الذيبين اقوالك وبين خصومك وأعدائك ومخالفيك في المذهب أو في الدين او في التفكير او في الرب .

ان البعد الذي بين أخلاقك وسلوكك ونياتك وبين الكتاب المقدس الذي نزل عليك لتعلمه الناس ، لتقاتل الناس لكي يتخلقوا به ليس أقل من البعد الذي بين اخلاق وسلوك ونيات الكافرين بك وبين كتابك المقدس . ان البعد الذي بينك وبين كتابك المنزل ليس أقل من البعد الذي بين كتابك المنزل وبين أية حشرة مندسة بين صفحاته . وإذا جاءت اخلاقك أو نياتك او سلوكك قريبا من اقوالك فليس لانها اقوالك .

انك اذا توافقت مع ما تقول أو مع ما قلت فليس لانك قلت ذلك او تقوله ، ولكن كما قد يتوافق خصومك ومخالفوك مع اقوالك ، وكما تتوافق انت احيانا مع اقوال مخالفيك وخصومك ، او كما قد يتفق أن تموت حشرة في حجر نبي ، او ان تدفن مع جسده الطاهر في ضريحه المحروس بقلوب الملائكة وحنانهم ، ملفوفة في أكفانه المعقمة بكل ما في السماء من طهارات ضد كل ما في اخلاق او جسد أو حياة اية حشرة من تلوث واتضاع وهوان .

اذن كيف تعامل الناس بالكلمة ؟ وهل تعاملوا بها قط ؟ لقد تظاهروا او اعلنوا بالكلمة انهم يتعاملون بالكلمة دون ان يتعاملوا ، أو ينووا التعامل بها . لقد اتفقوا على الا يتعاملوا بها وعلى ان يتظاهروا بالتعامل بها .

* *

والعقل ما هو ؟ أليس هو حارس الجنون ؟ أليس هو مفسره ومروجه ومنطقه وداعيته ؟ أليس هو نبي الجنون ، أليس شاعره وخطيبه وقائده وزعيمه ؟

أليس العقل هو الذي يهب الجنون قوته وخلوده ومكانته واغراءاته ، وكل صولاته وتفسيراته ومواقفه المتألقة المتكبرة ؟ أليس العقل هو الذي يحول الجنون الى مجتمعات ودول وأخلاق وشرائع وقوانين ، والى آلهة واديان ومنطق وتقاليد ومزايا مختلفة ؟ أليس العقل هو الذي يحول الجنون الى تعاليم وعلاقات ومعاملات دولية وانسانية ؟

هل للعقل في جميع مستوياته واساليبه من عمل غير أن يبارك الجنون ويعلن عنه ويحميه ، وغير ان يتحول الى تشريع وتفسير ودعاية وقوة للجنون ؟ هل للعقل من موهبة ونضال غير ان يتعلم الجنون ويعلمه ، وغير أن يمارس الجنون ويعيشه وينافقه ويتكلمه ؟

هل يوجد شيء غير الجنون ليكون العقل خادما له ، تابعا له ، حارسا له ؟ هل يوجد شيء غير الجنون ليهبه العقل صداقته وولاءه واخلاصه المميت المهين ؟ هل يوجد شيء غير الجنون يستطيع العقل ان يهبه نفسه وان ينفق عليه موهبته ويصرف اليه حماسه واهتماماته ؟

ان كل شيء ليس الا جنونا ، وان العقل لا يجد غير هذا الجنون الذي هو كل شيء ليتعامل معه . ان العقل لو اراد ان يحترم نفسه وان يكون عميلا لغير الجنون لما وجد ذلك الغير . أن العقل لا يجد شيئا يهب له نفسه غير الجنون . ان هذه هي مشكلة العقل ، ان مشكلته أنه لا يستطيع أن يكون شيئا محترما او فاضلا أو عاقلا مهما أراد وحاول .
ان الوجود ، أن كل وجود ، أن تحويل الشيء الى موجود ، أن الحكم بالوجود على الموجود — ان ذلك ، بكل مستوياته واحتمالاته ونماذجه وأساليبه ومهما كانت اسبابه ونتائجه — ان ذلك كله جنون ، انه ابشع صيغ الجنون .

ان الوجود بكل اطواره جنون ، ان كل الجنون هو كل الوجود ، انه لا يوجد جنون غير الوجود ، وانه لا يوجد وجود غير جنون . ان كل صيغة وجود هي صيغة جنون ، ان كل صيغة جنون هي صيغة وجود . ان أي

وجود لا يستطيع ان يكون غير جنون ، وان أي جنون لا يستطيع ان يكون غير وجود . ان كل صيغ الوجود هي جنون ، وأن كل مستويات وصيغ الجنون هي وجود . انه قدر لا يمكن الخروج عليه بأية وسيلة او حضارة او تقدم او عقل .

انت موجود ، وانت وجود ، اذن انت جنون ، أنت جنون ، او انت صيغة جنون ، اذن انت وجود ، او اذن انت موجود . انت لا تستطيع ان تكون غير جنون الا اذا استطعت ان تكون غير وجود .

انت أن كنت ترفض ان تكون جنونا فانه محتوم عليك حينئذ ان ترفض كونك وجودا . وانت ان كنت تقبل ان تكون وجوداً او ان تكون موجودا فالمعنى انك تقبل ان تكون جنونا اي ان تكون احدى صيغ الجنون ، احد مستويات الجنون ونماذجه . انك تقبل دائما ان تكون جنونا دون انتدري او تدبر لانك تقبل دائما ان تكون وجودا . انك لتقاتل لتظل جنونا لانك تقاتل لتظل وجودا .

ان وجودك بصيغتك او بأية صيغة او بكل صيغة اخرى لا يمكن ان يكون غير جنون . ان الجنون لا يمكن ان يكون غير هذا او أقبح من هذا . ما هو الجنون لكي يكون محتملا ان وجودك بصيغتك الحاضرة وتحت ظروفها او بأية صيغة اخرى وتحت اية ظروف اخرى – ما هو الجنون لكي يكون محتملا ان وجودك ليس جنونا بل ليس ابشع نماذج الجنون ؟ مهما كان لك من عقل او مهما كنت عقلا ؟ هل للجنون صيغة اردأ من وجودك كما انت ومهما كنت ، بشعراتك واظفارك ، وبأنيابك واسنانك ، وبتضاريسك وكهوفك ، وبمرتفعاتك ومنخفضاتك ، وبجوعك وهمومك ، وبصغائرك وكبريائك ، وبذنوبك وصلواتك ، وباعتقاداتك وزندقاتك ؟

هل يمكن ان يكون الجنون شيئا سوى هذا ، او اكثر دمامة اوخروجا او جنونا من هذا ؟

هل يمكن أن يكون وجود هذه الحشرة ، بهذا المستوى والنموذج ، وبهذه البداية والنهاية ، وبهذه الوظيفة ، وبهذه النتيجة ، وبهذه الحوافز والاهداف والتفاسير ، وبهذا المنطق والتدبير ، او دون منطق وتدبير .

– هل يمكن ان يكون وجود هذه الحشرة بصيغتها هذه او بأية صيغة اخرى ، في هذا التاريخ او في اي تاريخ ، في هذا المكان او في اي مكان آخر ، بمنطق وتدبير هذا الاله او بمنطق وتدبير أي اله آخر – هل يمكن ان يكون وجود هذه الحشرة ليس جنونا ، او ليس كل معاني الجنون ؟

هل يمكن ان يكون اي جنون أقل جنونا من هذا ؟

هل يمكن الا يغفر اي جنون امام هذا الجنون ؟

هل يمكن ان يفسر هذا بغير ما يفسر به اي جنون ؟

هل تستطيع ان تتصور مجنونا يستطيع جنونه أن يبدع جنونا ، ان يبدع اسلوبا من أساليب الجنون اردأ من ابداع اية حشرة لتكون كما تكون اية حشرة ؟

هل تقبل ان تملك من الجنون مثل الجنون الذي اوجد الحشرة بكل كبريائها وتواضعها ؟

هل تقبل ان تملك من الجنون مثل الجنون الذي اوجد الانسان كما تعلمه ، كما تحياه ، كما تراه ، كما تتوقعه ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذا الكون بكل مجموعاته الكونية وبكل وحداته ، وبكل ما فيه وما فوقه من آلهة تفسره ويفسرها ، وتعشقه ويعشقها ، وتصنعه ليعبدها ، وتشوهه ليجملها ، وتعذبه لانها ترحمه ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه المجموعة الشمسية التي نحن افضل وأذكى واتقى حشراتها ، او هكذا نظن ونتحدث – التي نحن اكثر حشراتها غرورا وتدينا .

هل يمكن ان يكون وجود هذه المجموعة بكل اعدادها واحجامها وابعادها ، وبكل تشوهاتها وذنوبها وأحزانها ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه المزحة الكونية ، هذه المزحة التي

نسميها ارضا .

هل يمكن ان يكون وجود هذه الغلطة الكونية ، هذه العاهة الكونية المملوءة بالذباب وبكل سلالات الحشرات ، المملوءة بالجراثيم والبشر ، وبالتراب والصخور والرمال وبالصحراوات والجبال ، المملوءة بالغبار وبالمياه التي كأنما ندمت آلهة الكون على كرمها آذ خلقتها ، التي كأنما غارت آلهة الكون وحسدت الانسان عايها ، فذهبت تعاقب نفسها على كرمها ، وذهبت تفسدها ــ اي تفسد تلك المياه ــ ذهبت تفسدها وتفسدها ، ذهبت تلقي فيها الملح ، تلقي وتعاني في القائها الملح فيها الى أن اصبحت مياها غير صالحة ، الى ان اصبحت بحارا مالحة ، بحاراً فاسدة .

لقد كان تمليح مياه البحار هو آقوى اساليب الالهة في تعبيرها عن ندمها على كرمها وفي معاقبتها لنفسها على كرمها .

هل يمكن آن يكون وجود هذه الارض بكل صفاتها الجسدية والاخلاقية والنفسية والمنطقية ، وبكل تاريخها ومستقبلها وآحتمالاتها ، بكل ما في تاريخها من ذنوب وبداوة ، وبكل ما في مستقبلها من جنون وحماقات وآلام وهزائم ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذا الجبل بمكانه هذا ، وبحدوده هذه ، وبحجمه هذا ، وبعدد صخوره ، وبعدد الحشرات والكائنات والنباتات الموجودة فيه ، وبكآبته ، وبدمامته ، وبوقاحته وهمجيته ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه النبتة أو هذه الدابة او هذه الصخرة بهذه الصورة ، بهذا اللون ، بهذا الوزن ، بهذا المكان ، بهذه الصفات ، بهذه التفاسير التي يمكن ان تفسر بها او التي لا يمكن ان تفسر بها ؟

هل يمكن آن يكون وجود هذه الثمرة ، في هذه الشجرة ، بهذا الحجم ، بهذا المذاق ، في هذا المكان ، في هذا الفصل ، بهذا الاسلوب ، لهذا الغرض ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه العاهة ، في هذا العضو ، في هذا المكان ، في هذا الانسان ، بهذه القسوة ، بهذه البشاعة ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه الدمامة ، او هـذا الضعف ، او هـذا المرض ، أو هذه البلادة في هذا الانسان لهذين الابوين ، في هذا المجتمع؟

هل يمكن ان يكون وجود هذا الجمال ، او هذه القوة، أو هذهالصحة او هذا الذكاء في هذا الانسان ، لهذين الوآلدين ، في هذا المجتمع ؟

هل يمكن أن يكون وجود هذا النهر ، بهـذه الضخامة ، فـي هـذا المجرى ، في هذه البلاد ، بين هذه الشعوب ، بهذا النظام ؟

هل يمكن ان يكون وجود هذه الصحراء ، بهذا الاتساع ،بهذه القسوة والوقاحة ، بهذا القحط والموت ، بهذا الاسراف في البداوة والشح ، بهذا الاسراف في الفقر والجهل ؟

اجل ، هل يمكن ان يكون وجود أي شيء من هذا الوجود ، او وجود اي وجود ، بصيغته هذه او بأية صيغة أخرى .

ـ نعم ، هل يمكن ان يكون وجود اي شيء من هذه الموجودات ليس جنونا ، ليس أبشع مستويات ونماذج الجنون ؟ هـل يمكن ان يكـون اي جنون ليس هذا او اكثر جنونا من هذا ؟

هل يمكن ، هل يمكن أن يكون اي وجود بأية صيغة، أو ايةاحتمالات وجود بأية صيغة محتملة او ممكنة او متصـورة او متمناة ، ليست جنونا ؟

أن وجود اي موجود مثل وجود كل موجود في كونه جنونا . انه اذا كان وجود ما جنونا فان كل وجود لا بد ان يكون جنونا . انـه لا يمكن ان يكون وجود ما جنونا ثم يكون أي وجود ليس جنونا ، او ثم يكون عقلا .

انه لا يمكن ان يكون كل وجود عقلا ، اذن لا يمكن ان يكون أياسلوب او اي مستوى من الوجود عقلا . ولكن ايهما اكثر جنونا : وجود الانسان ام وجود أصغر وابلد حشرة ، وجود الشمس ام وجود أصغر واحقرحصاة في أصغر واحقر جبل ؟

أن الوجود ليس جنونا لانه بهذه الصيغة دون الصيغة الاخرى بللانه

جنون بكل الصيغ . وان الجنون ليس جنونا لانه بهذه الصيغة بل لان فيه معنى الجنون .

**

ما هو الجنون في تقديرك وفي تقديري وفي تقدير كل انسان يحاول ان يحاسب الاشياء على جنونها ؟ اليس الجنون في كل تقدير هو فعل ما لا يريده احد وما لا يطلبه احد وما لا يحتاج اليه احد وما لا ينتفع به أحد وما لم يدبره او يوافق عليه منطق ما ، ما لم يدبره او يوافق عليه أي منطق ، منطق اي صاحب منطق ؟

هل يمكن ان يوجد اي خلاف على هذا التفسير للجنون ؟ هل يمكن ان يكون هناك جنون آن لم يكن هذا جنونا ؟

اليس الجنون هو ما لا يستطيع منطقك او آي منطق آخر أن يعرف افعاله آو لحدوثه تفسيرا ما أو منطقا ما او وظيفة ما ؟ اليس هذا هو الجنون ، او اليس هذا حتما جنونا ؟ اليس الجنون هو فقدان الحافز والهدف ، فقدان التدبير والنتيجة ، او اختلالهما ، او جنونهما ؟ اليس تفسير الجنون مرتبطا دائما بتفسير الحافز والهدف ، وبتقويم التدبير والنتيجة ؟

واذن فهل وجود هذا الكون ، او وجود المجموعة الشمسية ، أو وجود هذه الفعلة الاستفراغية الكونية — اعني الارض ، او وجود هذا الانسان ، آو وجود هذا النوع من الحشرات ، أو وجود اي موجود .

— واذن فهل وجود اي موجود من هذه الموجودات ليس مالكا كل صفات الجنون وشروطه وتعريفاته وتفسيراته ؟

ان كل وجود لم يكن يريده آحد ، او يطالب به آحد ، او يحتاج اليه احد ، او ينتفع به احد ، انه لم يدبره آو يوافق عليه اي منطق ، منطق صاحب آي منطق . لقد وجد كل الوجود قبل ان يكون هناك احد يحتاج او يطالب او يدبر او يوآفق او ينتفع . آذن لقد وجد كل الوجود بضربة جنونية ، مهما تعامل بعضه مع بعض ، او احتاج بعضه الى بعض ، او اراد

بعضه بعضا بعد وجوده بهذه الضربة الجنونية .

انه اذا كان احد او شيء ينتفع بشيء قد وجد ، او يحتاج اليه او يطالب به او يدبره او يوافق عليه او يستطيع ان يفسره فهذا بعد ان حكم على ذلك الاحد او على ذلك الشيء بأن يكون موجودا وبأن يكون محتاجا. لقد وجد ذلك الاحد او ذلك الشيء دون ان يحتاج اليه احد او شيء ، ودون ان يدبر وجوده او يوافق عليه او ينتفع بوجوده احد او شيء ، كما قد وجد في ذلك الاحد او الشيء الاحتياج وصفات التدبير والموافقة والانتفاع دون ان يوجد من يطالب بهذا الاحتياج او ينتفع به او يدبره او يوافق عليه احد او شيء .

اذن لقد وجد كل شيء دون ان يريده او يدبره او ينتفع به او يحتاج اليه او يوافق عليه احد او شيء مهما اصبح مدبرا او مرادا او منتفعا به او محتاجا اليه او موافقا عليه بعد وجوده .

لقد وجدت الشمس دون ان تكون احتياجا او انتفاعا او تدبيرا او ارادة او قبولا او رغبة . ولئن اصبحت بعد ذلك احتياجا او انتفاعا او قبولا او رغبة او ارادة للانسان او لغيره فلقد وجد الانسان او هذا الغير دون ان يكون احتياجا او انتفاعا او رغبة او قبولا او ارادة او تدبيرا . ولكن حذار من الاعتقاد بأن الانسان والحشرة المنتفعين بالشمس قد وجدا تعزية ومجاملة ومحاباة للشمس لئلا يظل وجودها بلا معنى او تفسير .

اذن لقد وجدت الشمس والانسان ، او وجدت الشمس والمنتفع بها دون ان يكون وجودهما احتياجا او انتفاعا او قبولا او رفضا او رغبة او ارادة او تدبيرا او منطقا يحتمل ان يكون مفهوما او يحتمل ان يكون احتمالا .

وهل يحتمل ان الشمس قد وجدت بلا معنى او تفسير ، فوجد الانسان او اي كائن آخر يستطيع ان يتعامل بها وعليها لكي يكون لها معنى وتفسير ؟

وحينئذ ما التفسير او المعنى في ان تكون الشمس والانسان او الشمس واي كائن آخر غير الانسان موجودين ؟ ان وجود المرض يجعل

لوجود الطبيب تفسيرا . ولكن هل يمكن أن يكون لوجود المرض او لوجود المرضى لكي يوجد الطبيب اي تفسير ؟

اليس بقاء الشمس بلا تفسير أو معنى أفضل او اقل جنونا من ايجاد ما لا معنى له ولا تفسير لوجوده لكي يجعل ما لا معنى ولا تفسير له ذا معنى وذا تفسير ، اي لكي يجعل للشمس معنى وتفسيرا ؟ اليس كون الشمس وحدها بلا معنى وبلا تفسير اقل جنونا من كون الشمس ومن يحيا بها وعليها بلا معنى وبلا تفسير ؟

ان الشمس وحدها اقل تدليلا على جنون الكون وعلى جنون الاشياء من الشمس ومعها من يحيون بها .

اذن فوجود كل موجود تتجمع فيه كل اوصاف الجنون وشروطه وتفسيراته وتعريفاته . اذن فكل وجود جنون ، بقدر ما كل جنون وجود .

لقد جرؤ الانسان ان يدعو بعض اخلاق الجنون جنونا ولكنه لم يجرؤ أن يدعو نفس الجنون جنونا .

* *

هل يمكن ان تكون حروبنا ومخاصماتنا وعداواتنا ومنافساتنا واحقادنا وكل علاقاتنا وانفعالاتنا الا جنونا بل الا أعلى مراحل الجنون ؟

هل يمكن ان تكون آلهتنا ومذاهبنا واعتقاداتنا وصلواتنا وكل اساليب وطقوس عباداتنا ، وان يكون تعصبنا واقتناعنا بآلهتنا ومذاهبنا وعقائدنا وبصلواتنا وبكل عباداتنا وطقوسنا وان تكون خلافاتنا على هذه الآلهة والمذاهب والاعتقادات والعبادات والطقوس ، وباسمها وباسم الدفاع عنها والغضب من اجلها ، وأن يكون تقاتلنا وتشاتمنا وتباغضنا باسمها وباسم الدفاع عنها وباسم احترامها وحبها وباسم الغيرة عليها وبحجة البحث عن رضاها وجلب السرور والنشوة الى نفسها ، الى اخلاقها وباسم الارتفاع الى اخلاقها ، وباسم الاعلان عن مستوياتها وعن ذكائها .

هل يمكن أن يكون كل ذلك او اي شيء من ذلك الا جنونا ، بل الاكل

معاني ومستويات الجنون ، بكل صيغه وأساليبه وتعبيراته ـ هل يمكن،هل يمكن ؟

هل يمكن ان نكون اي مستوى من مستويات العقل ؟ هل يمكن أن يكون اي اسلوب من سلوكنا اي اسلوب من اساليب العقل ؟

هل يمكن انتكون ممارساتنا للحياةاو لانفسنا او للاخرين او لجوعنا وآلامنا أو لاحتياجاتنا وضروراتنا أو مواجهتنا لمخاوفنا ومشاكلنا ولاثامنا ونقائصنا ؟

هل يمكن ان يكون استمساكنا بالحياة ،وبالوجود ،بهذا الاسلوبوبهذا الهوان ، وبهذا الضعف ، وبهذا الانقهار والانهزام ، وبهذه التضرعات واللهفات ، تحت كل هذه الظروف ، تحت كل هذه الاحتمالات والشروط المفروضة والشروط المفقودة ، وتحت كل هذه الآلام والبكاء والافتتان والانطراح والتقبل والطاعة والانتظار والغفران ؟

هل يمكن أن يكون تناسلنا ، أن يكون اسلوبنا في هذا التناسل ، واعجابنا به ، وشهوتنا له ، وخضوعنا لهمجيته وطغيانه ، وتتابعنا فيه ، وتحملنا لنتائجه ، لما في نتائجه من آلام وهموم وقسوة وعدوان على الآتين الذين نصنع مجيئهم بهذا التناسل ، لما في نتائجه من احتمالات رهيبة شريرة ، من احتمالات حزينة بذيئة تصيب الذين نصنع مجيئهم بهذا التناسل ، وتصيب بهم ؟

هل يمكن ان يكون تحملنا لتبعات هذا التناسل ، ولما فيه من بداية نراها ونعلمها ، ومن نهاية نراها ونعلمها ونمارسها وتمارسنا ، ولما بين هذه البداية وهذه النهاية من آلام وحقارات وعاهات وشرور ودموع نصنعها نحن بالاخرين وللاخرين ، لاننا نصنع اسبابها ، لاننا نصنع كل اسبابها،لاننا نحن كل اسبابها ؟

هل يمكن أن تكون ممارستنا لعملية التناسلالتي نصنع بها كائنات لم نردها احيانا ، وأحيانا لم نفكر فيها ، وحتما ودائما لا نعرف لمجيئها ، اي لمجيء هذه الكائنات معنى او رسالة أو غرضا او تفسيرا ، أو انتصارا لاي الهاو لايمذهباو لاية حقيقةاو لأيكائنآخر،او نعرفلمجيئها فرحاوابتهاجا

لاية شمس او لاي قمر او لاي كوكب آخر ـ بل ونحن نعلم أننا نصنع لهذه الكائنات التي نصنع مجيئها بممارساتنا لهذه العملية ـ نصنع لهـا الموت المحتوم بصنعنا لمجيئها ، ونصنع لها كل طريقها الى الموت ، وكـل أسباب الموت وشروطه وظروفه واسلحته واظفاره وانيابه وهمومه وآلامه ومخاوفه؟

هل يمكن ان يكون اي شيء من ذلـك ليس جنونا بـل ليس أعلـى مستويات الجنون ؟ هل يمكن ان يكون أي شيء من ذلك ليس كل اساليب الجنون وتفاسيره وتعبيراته ومعانيه ولغاته وشروطه ؟

هل يمكن ان يكون اي شيء من سلوك الانسان او أي أسلوب مـــن اساليب وجوده ليس جنونا بل ليس كل الجنون ؟

هل يمكن ان تكون رئتا الانسان او غدده أو كبده او أي عضو مـــن اعضائه اقل جنونا من عقله المصاب بكل الجنون ؟ أليست هذه الاعضاء انما تستمر تعمل لتصنع جنونا ولتحافظ علـى جنون ؟ أليست كـل وظائفهـا جنونا ؟

هل مجيئنا ، هل ذهابنا ، هل موتنا ، هل حياتنا ، هل مرضنا ، هل صحتنا ، هل شبابنا ، هل شيخوختنا ، هل قوتنا ، هـل ضعفنـا ، هـل ذكاؤنا ، هل غباؤنا ، هل جمالنا ، هل دمامتنا ، هل حبنا ، هل بغضنا ، هل صداقاتنا ، أو عداواتنا ، هل تشاؤمنا ، هل تفاؤلنا ، هل اعجابنا ، هـــل رفضنا ، هل نفاقنا ، هل وقاحتنا او صراحتنا ، هل آيماننا ، هل انكارنا ، هل اقتناعنا ، هل عجزنا عن الاقتناع ، هل صلواتنا ، هل دعواتنا ، هـــل هتافاتنا ، هل احتفالاتنا ، هل أعيادنا ، هل مهرجاناتنا ، هل صراخنا ، هل مواكبنا ، هل مبايعاتنا ، هل مدائحنا ، هل تهاجينا ، هل أغانينا ، هل فنوننا هل ادابنا ، هل خضوع بعضنا لبعض ، وطاعة بعضنا لبعض ، وخوف بعضنا من بعض ، واتباع بعضنا لبعض ، وايمان بعضنا ببعض ، وتسلط بعضنا على بعض ، وتفضيل بعضنا على بعض ، وكبرياء بعضنا على بعض ؟

هل حبنا لانفسنا ، وفرحنا بأنفسنا ولانفسنا ، واهتماماتنا بأنفسنا ، اكثر من حبنا للاخرين ، ومن فرحنا بهم ولهم ، ومن اهتمامنا بهم ؟

هل اصرارنا الدائم البذيء على ان نكون نموذجا لكل الاخرين ، ومنطقا

لكل الاخرين ؟ ودنيا لكل الاخرين ؟

هل أعجابنا بأبنائنا ، وغضبنا لابنائنا،وتحديقنا في عيون أبنائنا وفي مشاعرهم وآلامهم ، دون ابناء الاخرين ، وامام ابناء الاخرين ، وتحديا لابناء الاخرين ، ونسيانا او تجريحا لنظرات أبناء الاخرين ولتطلعاتهم وأوجودهم ولحضورهم ولدموعهم ولآلامهم ، ولاحزانهم ولاهاتهم ولهفاتهم ولتضرعاتهم ولاحتجاجاتهم ؟

هل اي شيء من هذا ليس جنونا ؟ هل اي جنون ليس أفضل جنونا من هذا الجنون ؟ هل أي جنون لا يعاني من مشاعر الهزيمة والتضاؤل امام هذا الجنون ؟

انه أذن لا يوجد الا الجنون ، وان العقل آذن لا يجد ما يعمله الا ان يكون حارس الجنون ومفسره ومسوغه ومروجه وداعيته والمدافع عنه ، والمحول له الى آلهة وانبياء واديان ومذاهب ومنطق ،والى زعماء وقيادات لا تعرف ولا تشتهي ولا تصنع الا الجنون والموت والخراب . وهل شيء غير العقل يحول الجنون الى آلهة وانبياء وزعامات وقيادات ومذاهب وأديان، بل يحوله الى اكثر الالهة والانبياء والزعامات والقيادات والاديان والمذاهب جنونا ؟

واذن لا يوجد جنون وعقل ، وآذن فالانسان والكون ليسا جنونا وعقلا . انهما جنون أو عقل قد صنعه الجنون ، ولا يصنع هو الا الجنون، ولا يتعامل الا مع الجنون ، ولا يجد الا الجنون ، ولم ير أو يعشق الا الجنون . وهل يدري العقل انه كذلك ؟

وهل يرفض نفسه او ممارساته لو علم انه كذلك ؟ وأي عقل هذا العقل الذي كل عمله ان يصنع الجنون وان يمارسه دون أن يدري أنه كذلك ؟

وايهما اكثر جنونا : الجنون ام العقل الذي لا يصنع الا الجنون ، ولا يتعامل الا مع الجنون ، ولا يعشق الا الجنون ، بل الذي يفسر الجنون ويسوغه ويروج له ويمجده ، بل الذي لا يفسر الجنون ، ولا يروج له ولا يمجده سواه ، بل الذي لا يفسر ولا يروج ولا يمجد الا الجنون ؟

ايهما اكثر جنونا : عقلك المصاب بكل مستويات الجنون ، ام قلبك وجهازك الهضمي ورئتاك وغددك التي تـدأب لتؤدي نشاطاتها الوظيفيـة لتصنع كل جنونك ، ولتبقي على كل جنونك ـ علـى كـل جنون وجـودك وجنون عقلـك ، وجنـون ممارساتك ومشاهداتك ، وجنـون استمرارك واستمرار جنونك في ممارساتك لجنونك ؟ وهل يوجد فيك ما يحمي ويديم جنونك العقلـي والاخلاقي والمذهبـي والنفسـي والشعوري والوجودي والسلوكي غير أعضائك وغير ممارستها لوظائفها ؟

انه لو وجد قانون يعاقب على كل الجنون لما وجد ما يستحق العقاب مثل الاعضاء واجهزة الجسم التي تؤدي وظائفها لتخلق الحياة ، لتستمـر وتخلد وتتسلسل ، لتمارس كل حماقاتها وعارها ومجاعاتها وآلامها وعبثها وهمومها وسخفها وحقاراتها وضروراتها ، اي لتمارس كل وجودها ، اي كل جنونها ، أي لتصنع وتمارس اشياء لا يحتاج اليها ولا ينتفع بها ولا يريدها ولا يدبرها ولا يوافق عليها ولا يفهمها أحد او شيء .

اي لتصنع وتمارس كل اوصاف الجنون وأخلاقه وشروطه وتعريفاته وتعبيراته وتفاسيره،اي لتمارس وتصنع ما لا يملك أي شرط او اي تفسير او آي تعريف أو اي وصف ، من أوصاف العقل او شروطه أو تفاسيره او تعريفاته أو وقاره .

ان جنون اي جسم يؤدي وظائفه ليس اقل من جنون اي عقل مجنون يؤدي جنونه . ان جنون العقل وقدرته على ممارسة جنونه واستمراره فيه ليسا الا بعض عطايا الجسم اي الا بعض جنون الجسم ، اي الا بعض عمل وظائفه واستمرارها في عملها ، وقدرتها على هذا العمل والاستمرار .

ان جسمك حتما مجنون ، وان وظائفه حتما مجنونة ، مهما كان عقلك عاقلا وان الشمس مجنونة ، وان كل وظائفها وعطاياها مجنونة مهما عاش بها الانسان والحشرات ، مهما عاشت تحتها وسخرتها ، وتولـدت عنهـا ، وتعلمت منها ، وتغذت بها ، وقدستها اضخم العقول . ان الشمس بكـل هباتها وعبقرياتها ليست الا اضخم موكب من مواكب الجنون ، انها تعيش كل ظروف الجنون ، وكل تفاسيره وتعبيراته ولغاته ومنطقه وشروطه ، انها اضخم عرض للجنون .

ان الجنون هو ما ليس له غاية مقصودة او مرادة او مدبرة او مفهومة. والوجود كله ليس له هذه الغاية ، لهذا هو جنون .

**

والنظافة ما هي ؟ ان النظافة ليست هي الترفع عن ممارسة الاوحال والتراب وأخلاق الحشرات . أنها ليست الارتفاع عن الجوع الى الاوحال والتراب وأخلاق الحشرات . انها ليست فقد الشهوة لذلك او الاحساس به وبقيمته وبانتصاره . انها ليست فقد الاحتياج الى التحديق في الاوحال والتراب واخلاق الحشرات . انهـا ليست رفضـا للسقوط فـي التراب والاوحال او للتغذي بالعفونات وبأخلاق الحشرات ، انها تلاؤم مع ذلـك ، انها اسلوب مختار من اساليب السقوط والتغذي ، انها اسلوب معين مـن اساليب التلوث .

انه لمفروض عليك ان تمارس التراب والاوحال وان تمارس الحشرات واخلاقها واعضاءها وجوعها وضروراتها ، وان تحكم بالضعـف امامهـا وبالهزيمة لها وبعنف اشتهائك اياها وبالحاجة الى التحديق المتوهج اليهـا فيها ، مهما كنـت نظيفا او قديسا ، ومهما حصنـت وعقمـت اعضـاءك واخلاقك وفكرك ومولدك وتاريخك وحبك لنفسك بكـل خوفك من الآلهـة وبكل رغبتك وطمعك فيها ، وبكـل ايمانك بمذهبـك واعتقادك وبنفسـك وبنظافتك وباحترامك لنفسك وبثقتك بها . ان وجودك محكـوم بأخـلاق الحشرات وبجوعها وممارساتها ونياتها مهما كانت صرامة اربابك ومذاهبك ومواقفك ومحاسبتك لنفسك ، مهما كانت صرامة رقابتك على اخلاقك .

ان النظافة هـي ان تمارس التراب والاوحـال واعضـاء الحشرات وجوعها واخلاقها باسلوب ما ، وفي مكان ما ، وتحت شعارات وظروف مـا ان تمارسها باسم اله او مذهب او نظام او قانون او قوة ما ، بصيغة ما . ان هذه هي كل النظافة في تفكيرك وسلوكك وطموحك وفي تعاليمك وفي مذاهبك واديانك وفـي شروط اربابـك وانبيائك وزعمائك عليـك وفـي مطالباتهم لك .

ان الفرق بينك ، يا انظف انسان وبـين الذباب ان الذباب يمـارس نفسه في التراب والاوحال والاشياء الاخرى باسلوبه هو ، وبلا مذهب ولا

إله ولا تشريع ولا دين ولا منطق ولا شعارات ولا اية شروط ـ وانك انت تمارس نفسك فيما يمارس الذباب فيه نفسه، بل وفي أكثر واردأ جداًمما يمارس فيه الذباب نفسه ، ولكن باسلوب وصيغةما ، وباسم اله او مذهب او نظام عدواني متعصب بذيء ، او تحت شعار ضاج مرجف مرهب . انك تمارس كل ذلك باسلوبك انت لا باسلوب الذباب . أن الفرق بينكما هو الاسلوب والشعار ، هو التسبيب والتسويغ والتشريع والالف الطويل والتعود الجاهر الذي لا يوجد تشريع ضده .

انك تنهب وتقتل وتسطو وتحقد وتكره وتعادي وتشتم وتفعل جميع التلوثات والصغائر ، فلا ترى انك تجرح نظافتك او تسيء اليها لانك انما تفعل كل ذلك بأسلوب وشعار ما ، ولانك انما تفعل ذلك باسم اله أو دين او مذهب او عقيدة أو فكرة او قانون . انك تمارس كل الذنوبوالعفونات بهذا الاسلوب .

ولكنك ترى ان آتيان أي شيء من ذلكاثم وتلوثوعار اذا لم يكن باسم ذلك الاله او الدين او المذهب أو القانون ، او باسم تلك الفكرة او العقيدة، او اذا لم يكن بذلك الاسلوب او تحت ذلك الشعار . ان الاثام والاوحال التي تمارسها مشرعة ومسوغة ليست أنظف او أصغر من الاثام والاوحال التي تمارسها محرمة ومحقرة .

انك تقتل الحيوان وتأكله وتعتدي عليه بكل اساليب الاعتداء ، فلا تجد في ذلك وحشية او ذنبا ، ولكنك ترى ان الحيوان الذي يفعل ذلك يصبح وحشا وتهجوه بالوحشية . وانك لتصف الحشرة التي تأكل الديدان والفضلات والجثث وتعيش في الشقوق بالخسة والقذارة ،ولكنك انت اكثر من الحشرات أكلا للديدان والفضلات والعفونات والجثثوأكثر سكنا في الشقوق ، دون ان تصف نفسك بذلك . لانك انت تفعل تحت شعارات ، وباسم آلهة واديان ومذاهب وشرائع وافكار ، وبأساليبك انت. اما الحشرات فتفعل بلا مذاهب او آلهة او اديان او شرائع ، وبأساليبها هي ان ما تفعله انت كمزية يفعله الحيوان كوحشية. لماذا؟انه افتراضافترضته لنفسك ، وتشريع حابيت به سلوكك ، حابيت به حاجتك الى الاثم .

ان الفرق بين النظافة والقذارة في تفكير الانسان وتقديره هو فرق

اسلوب وصيغة ، هو فرق مذهب وآله ودين وعقيدة وشعار ، هو فرق تفسير وتبرير ، هو فرق في حسابك ونظراتك ، وليس فرقا في الاشياء ، ليس فرقا في النظافة والقذارة ولا فرقا بينهما .

ان الفرق بين النظيف والملوث ليس اكثر من الفرق بين الاناء والاناء، وبين اليد واليد، وبين الاداة والاداة اللتين يتناولان بهما غذاءهما المستنبت المعتصر دائما من التراب والاوحال ومن اخلاق الحشرات وجوعها — المستخرج المصنوع دائما من عرق الارض وهمومها ومن افرازاتها التي لم تغتسل بأية مياه معقمة ، ولم تسق من مياه اي نهر مقدس ، او متقاطرة متجمعة مياهه من دموع أتقى الآلهة او من دموع واحزان اتقى الانبياء والقديسين .

أن كل الناس عائشو عفونات وحاملو عفونات ، ولكنهم يختلفون في نوع عفوناتهم ، كما يختلفون في الاساليب والاسباب التي يمارسون ويحملون بها وباسمها هذه العفونات. انالبشر ليسوا حاملي وآكلي عفونات فقط ، انهم اذن لمطهرون ومبرأون جدا . ان البشر ليسوا ذلك فقط ،بل انهم ايضا مؤلهو عفونات ، اي انهم متلقون لها من أفواه الالهة ، وناسبوها الى الالهة .

انك موجود، اذن لا بد أن تجوع وان تحب وتكره ، وان تخاف وتشتهي والجائع المحب الكاره الخائف المشتهي كيف يمكن ان يكون نظيفا ؟

انك أعضاء تتغذى ، والاعضاء التي تتغذى كيف تستطيع أن تكون نظيفة ؟ انك اعضاء تضعف وتمرض وتموت ، والاعضاء التي تموت وتمرض وتضعف كيف تستطيع ان تظل غير ملوثة ؟

انك موجود ، اذن لا بد ان يفرض عليك الوجود اخلاقه . وهل تجهل ما هي اخلاق الوجود ؟ ألم تمارسها طويلا طويلا ؟ ولانك موجود فلا بد ان يفرض عليك الوجود ضروراته . وهل تجهل ماذا تعني ضروراته ؟

* *

والحضارة ما هي ؟ انها هي البداوة باسلوب او بتعبير اخر ، انها هي ازياء البداوة .

ان الحضارة هي فنون البداوة ، انها طاقاتها المتفجرة، انها وحشيتها المبدعة وولادتها الباهظة .

ان جميع اساليب الحضارة ووسائلها وانجازاتها ومستوياتها ليست سوى البداوة جاءت في صيغ اخرى اي في صيغ اقوى .

انك حينما تبدو في ازهى ازياء الحضارة لست الا بدويا يحركه ويصوغه اقسى ما في اقسى البداوة من حوافز واخلاق ونيات ، ومن منطق وضمير وانياب وافتراس وجوع وخوف وضياع وعبث . انك حينئذ لست الا بدويا نبتت فيه اظفار وانياب حضارية . وكم هي الفروق بين انياب واظفار الحضارة وبين انياب واظفار البداوة .

ان الحضارة لا تعني الا ان البداوة قد صاغت نفسها صياغة جديدة وقوية ومثيرة . ان الحضارة ليست نقيضا للبداوة ، وليست هزيمة او نفيا او اضعافا او تهذيبا لها انها ليست الا مستوى من مستويات البداوة، بل انها اعلى مستوياتها . ان الحضارة انتصار للبداوة ، انها قوة وتمكين لها ، انها تسليح وتجميل لها . انها حتما اغراء لها واغراء بها . ان الحضارة لا تقتل او تهزم فيك البداوة ولكنها تتحول فيها وفيك الى مزيد من الاغراء.

انك لا تكون حضاري النفس او الانسان بقدر ما تكون حضاري الحياة . اننا لا نصنع الحضارة بانسان حضاري ، اننا نصنع الحضارة بانسان بدوي : بدوي النفس والرغبات والشهوات والانانية والجوع والحوافز والاهداف ، بدوي الضياع والعبث .

انك بدوي المنطق مهما كنت حضاري اللغة ، وانك بدوي الاعتقاد مهما كنت حضاري المنطق ، وانك بدوي النفس مهما كنت حضاري الاعتقاد ، وانك بدوي الاعضاء مهما كنت حضاري النفس ، وانك بدوي الحب والبغض والانانية والعواطف مهما كنت حضاري الاعضاء ، وانك بدوي الانسان مهما كنت حضاري الحياة . انك بدوي بقدر ما انت حضاري ، انك بدوي التفسير مهما اصبحت حضاري الصيغة ، وبدوي الانسان مهما اصبحت حضاري الحياة . انك بدوي مهما اسكنت النجوم . انك بدوي لانك ابدا بدوي .

ان الحضارة هي خلق البداوة بقدر ما هي ادواتها . اننا بالبداوة نصنع الحضارة ، واننا بالحضارة نمارس البداوة ، ونعيشها ونطيعها ونستجيب لها ونرضيها . اننا بالحضارة نستطيع أن نكون بدوا اكثر ، نستطيع ان نمارس البداوة اقوى واكثر واقسى .

ان المتحضر جدا ليس الا بدويا جدا قد صنعته بداوته القوية صناعة قوية ، ووهبته القدرة على ان يمارسها ويعيشها ويخضع لها ويعبر عنها بأساليب اقوى ، أو بأساليب أكثر اغراء واغواء وشمولا واقناعا وتكبرا وقسوة .

ان الناس ليسوا بدوا ومتحضرين ، ولكنهم بدو في صيغة بدو،وبدو في صيغة متحضرين . انهم بدو ضعفاء ، وبدو اقوياء ، او بدو فقراء،وبدو أغنياء ، انهم بدو يعيشون في الصحراء او الغابة ، وبدو تعيش فيهم الصحراء والغابة بكل ما في الغابة والصحراء من حقد ولؤم وخوف ووحشية وأفتراس وبغضاء — وبدو يعيشون في المدينة وتعيش فيهم الصحراء والغابة . ان كل غابة ، ان كل صحراء تعيش في كل انسان مهما عاش في اجمل واضخم مدينة . ان المدينة لا تستطيع أن تقتل الصحراء او الغابة في الانسان . أن المدينة صديقة الغابة ، ابنتها .

ان البداوة هي ان تبحث عن التفوق والانتصار ، وان تريدهما وتتمناهما ، ولو بهزيمة الاخرين ، ولو بهوان وحقارة الاخرين ، وتحقيرهم .

أنها هي ان تدافع عن حياتك وان تحافظ عليها ولو بموت الاخرين .

انها هي أن تضحك وتبتهج وتسعد وتغني ولو تحولت ضحكاتك وابتهاجك واغانيك وسعادتك الى دموع واحزان وشقاء للاخرين — ولو تحولت ضحكاتك واغانيك وابتهاجك وسعادتك الى تحد لدموع وشقاء واحزان الاخرين .

انها هي ان تحب أطفالك اكثر مما تحب أطفال الاخرين ، وأن تقبل اطفالك امام اطفال الاخرين ، امام يتم الاطفال الاخرين ، وان تحدق في المرآة اكثر او اصدق مما تحدق في وجوه الاخرين ، وان تحس بآلامك واحزانك وامراضك وجوعك ومخاوفك اكثر مما تحس بآلام واحزان

وآمراض وجوع ومخاوف الاخرين .

انها هي ان يرقص قلبك آو تعبيراتك ابتهاجا لانك افضل واقوى حظا وظروفا ممن حولك ، من اصدقائك وأعدائك .

ان البداوة هي ان توجد او تبقى في نفسك ذكرى او صورة رمح او نبل آو خنجر مهما امتلأت يداك بالكتب وبالاجهزة العلمية وبالمصافحات ، وامتلأت كلماتك بالحديث عن آلسلام والحب وبشعارات الحضارة .

انها هي ان يخفق قلبك بالسرور لان عدوا لك قد مات او آصيب او هان او أهين .

انها هي ان تحقد او تحسد او تبغض آو ترضى عن نفسك آو تباهي بها او تطلب لها الثناء او يرضيها آلثناء،او تعجب بها او بأبنائك اوبزوجتك او بآبائك او بتاريخك او بأي شيء تملكه ، بلا ذكاء أو وقار .

انها هي آن تقاتل وتموت لان زعيمك اراد لك ذلك كما كان البدوي يقاتل ويموت لان شيخ قبيلته أراد له ذلك – ان تقاتل وتموت مع المجتمع الذي وجدت فيه كما يقاتل آلبدوي ويموت مع القبيلة التي يوجد فيها – ان تقاتل دفاعا عن مذهب مجتمعك وعن شعاراته ، وتعصبا لها ، كما يقاتل البدوي دفاعا عن انساب قبيلته وعن مفاخرها وعن أمجادها وعن مضارب خيامها – أن تؤمن بالمذهب او بالنظام أو بالدين او بالافكار آلتي يلقنك اياها مجتمعك كما يؤمن البدوي بالاصنام والعادات والمفاخرات والملاعنات والخرافات والاساطير التي تلقنه آياها قبيلته ، كما يؤمن بصدق نسبه وبطهارته وبتفوقه على كل الانساب .

ان آلبداوة هي ان تجوع اعضاؤك كما تجوع اعضاء البدوي ، وان تحس بجوعها كما يحس البدوي بجوع اعضائه ، وان تطيع اعضاءك كما يطيع آلبدوي اعضاءه ، وآن تظل وظائف اعضائك كما تظل وظائف أعضاء البدوي ، وان تحترم جوع اعضائك اكثر مما تحترم جوع أعضاء الاخرين .

ان آلبداوة هي ان تعاني من جوع اعضائك اكثر مما تعاني من جوع افكارك او من جوع اخلاقك آو من جوع كرامتك او من جوع صداقاتك اي من جوع الانسان فيك .

ان البداوة هي ان تريد الحياة وان تستمسك بها ، بلا فكرة وبلا تفسير وبلا اقتناع ، وبلا شروط . انها هي ان تهب الحياة كائنات اخرى دون ان تعرف لماذا ، ودون ان تفكر لماذا ، ودون ان تسأل لماذا ، كما يفعل من يعيشون في الصحراء ، في الغابة ، كما تفعل الحشرات والديدان .

انها هي أن تعطي الوجود كائنات جديدة دون أن يتضرع اليك احد بأن تفعل ذلك ، دون ان تريد بذلك شفاء الارباب من همومها .

ان البداوة هي ان تقبل نفسك بلا منطق الا لانك موجود ، كما يقبل الحجر نفسه بلا منطق الا لانه موجود ، وكما يقبل الذباب نفسه بلا منطق الا لانه موجود . وهل يمكن أن تقبل نفسك لغرض او لتفسير أو بمنطق أفضل من ذلك او غير ذلك ؟

أن البداوة هي أن تقول وان تفعل كأنك تؤمن، وان تؤمن كأنك تعرف، وان تعرف كأنك تعلم ، وان تعلم كأنك تمسك ، كأنك تبصر ، وان تبصر بلا رؤية .

انها هي ان تقول وان تفعل وانت لا تؤمن ، وان تؤمن وأنت لا تفهم وانت لا تعرف ، وأن تفهم وأن تعرف وانت لم تعلم ، ولا تعلم ولن تعلم،وان تجهل كأنك تعلم .

ان البداوة هي أن تفسر نفسك افضل مما تفسر أية حشرة ، وان تجد في وجودك من تكريم الاله أو من حماسه او من ذكائه أو من صداقته اكثر او افضل مما تجد في وجود اي حجر .

ان البداوة هي كل هذا ، وان كل هذا بداوة . فهل تستطيع ان تكون غير هذا ؟ هل تستطيع ان تشفى من كل هذا لتكون غير بدوي ، أي لتكون متحضرا ؟

اذن هل الحضارة الا اقسى واقوى صيغ ومستويات البداوة ؟

* *

أن الانسان اذن ليس الشيء ونقيضه ، ليس حضارة وبداوة ، أو

ذكاء وغباء ، أو صدقا وكذبا ، او نظافة وتلوثا ، او عقلا وجنونا ، او حبا وبغضا . انه ليس سماء وارضا ، شرفا وسقوطا ، نبيا وشيطانا ، تقوى وفسوقا ليس زندقة وايمانا ، عطرا وعفونة ، اعضاء وروحا، شهوة وزهدا انه ليس شهوة وقداسة . ان الانسان ليس الشيء ونقيضه ، انه شيء واحد ، تفسير واحد ، ومنطق واحد . انه طبيعة واحدة مهما كان أو جاء صيغا مختلفة .

ان الفرق بين الانسان والانسان كالفرق بين الحجر والحجر ، وبين الشجرة والشجرة الاخرى من نفس النوع . أنه فرق في الحجم لا في النوع ولا في التفسير . ان الفرق بين الانسان والانسان كالفرق بين اللغة واللغة ، وليس كالفرق بين الموضوع والموضوع الآخر . ان الفرق بينهما كالفرق بين الموضوع ونفس الموضوع في الحجم والتعبير لا في النوع ولا في المنطق ولا في القيمة .

انه لا يوجد فرق بين اعضاء النبي واعضاء الزنديق ، لهذا لا يوجد فرق بين احتياجات ووظائف وجوع اعضاء النبي وبين احتياجات ووظائف وجوع اعضاء الزنديق . انه اذن لن يوجد فرق بين احساس النبي بضغط اعضائه عليه وبين احساس الزنديق بمثل هذا الضغط الواقع عليه من اعضائه . ان طاعة هذه الاعضاء او عصيانها — في سلوك النبي والزنديق — ليس تمردا او انتصارا على اخلاق الاعضاء أو على اوامرها ، ولكنه تعامل بها ، رفض لها بها ، أو طاعة لها بها من اجلها .

ان الذين يتساوون في أعضائهم وفي وظائف أعضائهم لن يختلفوا الا في اسلوب تعاملهم مع هذه الاعضاء ، لن يتفاوتوا ألا في اسلوب طاعتهم لها من اجلها ، بأمرها ، أو في اسلوب عصيانهم لها من اجلها ، بأمرها . أنهم لن يتفاوتوا الا في تعبيرهم عنها ، الا في أسلوبهم الذي يعبرون به عنها — الذي يختارونه أو يستطيعونه للتعبير به عنها . ان التفاوت بين البشر ليس الا تفاوتا في أساليب تعاملهم مع أعضائهم ، في اساليب طاعتهم لجوع وضغوط اعضائهم عليهم .

آن الذين يتساوون في أعضائهم وفي وظائفها وجوعها لن ينقسموا الى كائنات تعيش بالعطور والاناشيد الروحية ، والى كائنات تقتات بالعفونات وبعواء الوحوش والحشرات ، آنهم لن ينقسموا الى كائنات

تفسر بقوانين التـراب وبقوانين الجـوع ، والى كائنـات تفسر بتسابيح النجوم . أن البشر ليسوا ملائكـة وابالسـة ولكنهم ملائكة فقط او ابالسة فقط او لا ابالسة ولا ملائكـة . انهم تفسير واحد يعبر عنه بشتى اللغات، او لغـة واحدة تنطق بعديد اللهجـات ، او لهجة واحدة تسمع بمختلف الاصوات والقراءات .

**

ولكن لو ان ذلك الكائـن الفلكي او الانسان الفلكي الذي قـرأ وسمع ــ بالافتراض ــ ما يقول ، وما كتب ويكتب الانسان ، اي لو انه هبـط أو سقـط الى الارض ، ليعيش الانسان بكل احاسيسه ومواجهـاته وممارساته وتجاربه فماذا يمكن ان يجـد الانسان ؟ كيف يمكن ان يراه ويفهمه ويفسره ويقومه ؟

ماذا يمكن أن تجد الانسان لو كنت غير انسان ثم واجهته، ثم عايشته فجأة ؟ هل تقتلك حينئذ قسوة البشاعة ؟

هل قراءة الانسان والاستماع اليه من بعيد ، دون ممارسته بالرؤية والتجربة يعطيـان عنه نموذجا او تصوراً او تفسيراً افضل ؟ هل ممارسته بالتجربة والرؤية تضع له حدودا ونماذج اقل من قراءته والاستماع اليه من بعيـد ؟

هل قراءة الانسان والاستماع اليه تخدعان عنـه ، تخدعان عـن حقيقته ؟ هل تجعلانه اكبر حجما في مزاياه واصغر حجما في رذائله ؟

هل من المحاباة للانسان ، أو من الدعاية له ان يقرأ ويستمع اليه دون ان يواجه ويمارس ويعايش ويجرب من قريب ؟ هل من الاساءة اليه ان يرى ويعامل ويجرب ؟ هل الآلهـة التي تسكن السماء قد خدعـت بالانسان ؟ هل تصورته اعظم واكبـر وانظف من حجمه ؟ هل رأت فيـه مجداً من امجادها ونموذجا من نماذجها ؟ هل رأته كل أمجادها لهـذا وهبته كل اهتمامها ، ووضعت فيه كل تعبيرأتها ؟ هل تصورته في حجمها او في صعودها او في نظافتها او في طموحها ؟ هل عشقته الآلهة كنموذج أعلى لعشق الالهة ؟ هل زاغ خيال الآلهة في تصورها له ؟

هل خدعت الآلهة بالانسان لانها سمعته من بعيـد ولم تعايشه ، ولم تواجهه ، ولهذا فتنت به ، لهذا وجدت أنه هو وحده طريقها الى نفسها والى نموذجهـا ، الى نموذجها العقلي والنفسي والاخلاقي والذاتي ـ لهذا وجدت انه هو وحده النموذج الذي يستطيع ان يتكافأ معها وان يفهمها ، وان يصادقها ، وان ينوب عنها ، وان يفسرها ، وان يعجبها وان يرضيهـا وان يصنع لها كل السرور الذي تبحث عنه ، كل السرور الذي تفقده ؟

هل وجدت فيه النموذج الذي يستطيع ان يصنع لها كل المجـد الذي تبحث عنه ، ان يصنع لها كل المجد الذي تستحقه ؟ هل وجدت فيه الآلهـة كل عزائها وحبها وشفاء جوعها لانها سمعت ولـم تر ، ولم تواجه او تعامل ؟ وهل تخدع الآلهة بسماعها ، هل يمكن ان تخدع ؟

هل تصدم الآلهة لو انها نزلـت الى الارض ؟ هل تصدم بالانسان ؟ هل تفجع برؤيته وبمعرفته وبحجمه الذاتي والنفسي والاخلاقي والعقلي؟ هل تتراجع عنه ؟ هل تتخلى عن املها فيه او عن اصطفائها له ، او عـن ابتهاجها به ، او عن تبني عبقريته لعبقريته ، او عن تبني اشواقها لنظافته او لاخلاقـه او لجماله ؟ هل تعلـن الآلهة توبتها من ايمانها بالانسان ومن اعجابهـا به ، ومن احتفالها بمستقبله وبمقدمته ؟ هل تعلـن الآلهة توبتها ؟

هل تصفي الآلهة نفسها لو انها نزلت الى الارض لترى الانسان ولتعامله، ولتشقى بمعاملته وبرؤيته، لتفجع بمعرفتها لمستوياته ولحدوده؟ هل تصفي حينئذ نفسها يأسا وخجلا ورفضـا واشمئزازا ؟ هل تتخلى حينئذ عن جميع خططها ، او هل تغلق كل الكون الذي صنعته تحيـة وهدية للانسان ، وثمنـا لحبه ولتقبله ولشكره ؟ هل تدمـر كل الكـون يأسـا واشمئزازا وخجلا ورفضـا وهربـا لو انهـا واجهت الانسـان وعرفـت كل كينوناته ؟

هل تغلق الآلهة حينئذ كل اسواقها وكل معاملاتها وكـل رحلاتهـا الفكرية ؟ هل تتوب حينئذ من جميع اشواقهـا ؟

هل تزيـل جنتها وجحيمها ؟ هل تغلق جنتها ونارها اللتـين انمـا اعدتهمـا للانسان ، واللتين انمـا بنتهما لتكونا سكنـا للانسان ؟

هل تحذف الجنة والنار من أعمال الآلهة الانشائية ؟ هل يصبح مستقبل الانسان بلا جنة ولا جحيم ؟

هل تعترف الآلهة حينئذ بخطئها وتعبر عن هذا الاعتراف بالخطأ باسلوب يتلاءم مع مكانتها وقدرتها وموهبتها ومع مستوى الخطأ الذي وقعت فيه والذي تريد التكفير والتراجع عنه بعد الاعتراف به ؟ هل تعترف بخطئها هذا وتعبر عن اعترافها هذا بان تصفي ، بأن تزيل كل شيء ، لتعود الى معاناة وحدتها القاتلة ، لتعود بلا انسان قد خدعت به ، وبلا كون كبير جدا قد خلقته لتهديه الى هذا الانسان الذي قد خدعت به ، ليكون ـ اي الكون ـ لعبته الجيدة الكبيرة ، لكي يرضى ويهتف ويصفق ويصلي لها ، لكي تتقبل وتسعد وتتعزى عن عذاب وحدتها الرهيبة الكئيبة التافهة العابثة المجدبة ـ عن عذاب كينونتها الاليمة الحزينة المشوهة ؟ هل تعترف الآلهة بخطئها وتعبر عن اعترافها بأسلوب يتلاءم مع مكانة الآلهة ؟

هل تتنزل الآلهة الى الارض لكي تعرف الانسان ، لكي تعرف كيف خدعت ، ولكي تعترف بأنها قد خدعت ، ولكي تتراجع وتكفر عن خديعتها ، عن وقوعها في الخديعة ، ولكي تعبر عن تراجعها وعن تكفيرها تعبيرا يتلاءم مع مكانتها وموهبتها وقدرتها وعن مستوى الخديعة التي وقعت فيها وعن قيمة الثمن الذي دفعته لحسابات هذه الخديعة ؟

هل تصفي حينئذ كل شيء ، هل تزيل حينئذ كل شيء ؟ هل تعود الآلهة حينئذ الى معاناة وحدتها التي لا مثيل لقسوتها وبلادتها ، بلا انسان وبلا كون وبلا شيء ؟ هل تعود الآلهة لتكون وحدها ؟

* *

ان المفترض الدائم ، او المقرر المعترف به دائما ان قول الانسان ـ مسموعا ومقروءا ـ أكبر دائما من حجمه ، أجمل وأنظف دائما من ذاته ، اصدق واذكى دائما من خياته .

ان المعتقد الدائم ان الانسان في تعاليمه وفي كتبه المقدسة وفي اشعاره وخطبه وفي كل ما يقول ويكتب يبدو اكبر جدا ، واصدق ،

وانظف ، وأذكى جدا ، واجمل جدا ـ يبدو اكبر واجمل وآنظف وأصدق واذكى واشرف واشجع وأقوى من حجمه ، ومن ذاته ، ومن أخلاقه ومن جميع أحتمالاته .

ان المعتقد الدائم ان الانسان يخدع بأقواله عن حقيقته ، يخدع كثيرا وبعيدا ، واننا لو سمعنا وقرأنا له من بعيد دون ان نواجهه او نعامله أو نعايشه لوجدناه شيئا كبيرا جدا ، او لوجدناه حتما اكبر وأفضل من مواجهته ومعاملته ومعايشته . ان المعتقد الدائم ان كل الناس يستطيعون ان يعرضوا انفسهم باقوالهم افضل واعظم جدا مما يستطيعون عرضها بحياتهم .

ولكن قد يكون هذا الاعتقاد من الاخطاء الشائعة العالمية التي لها اشباه كثيرة . قد يكون الصواب ان اقوال الانسان لا يمكن ان تكون جهاز خداع به ، بل انها قد تكشفه أكثر مما تخدع به ، بل دون ان تخدع به . ان اقوال الانسان قد تكون ـ بكل اساليبها وتوتراتها وتناقضاتها وضجيجها وبكل ما فيها من غضب وبذاءات وعدوان وحقد وتفاهة وغرور وكبرياء وبلادة وانانية ومن روائح أخرى كثيرة ، غير كريمة ـ نعم قد تكون أقوال الانسان عاجزة عن ان تخدع به ، بل قد تكون أقواله هذه عاجزة عن ان تكون محايدة ، اي عاجزة عن أن تكون لا له ولا ضده . اي ان اقوال الانسان هذه قد تكون هجاء له ، قد تكون تدليلا قويا على مستويات هي أقل جدا من مستوياته . قد تكون حقيقته افضل واكبر مما تعرضه اقواله هذه التي حسبت واهبة له أكثر وافضل مما يملك ويستطيع ويستحق . قد تكون حياته افضل جدا مما يمكن ان تفسره اقواله .

قد يكون الانسان مظلوما بأقواله ، لا خادعا بها . قد تكون اقواله خادعة عنه لا خادعة به ، قد يرى الذين يسمعون للانسان ويقرؤون له دون رؤية وتجربة ومعايشة ـ لو حدث هذا ـ قد يرون انه أصغر واضأل مما يراه الذين يعايشونه ويعاملونه ويواجهونه ـ او قد يكون هذا هو المنتظر والمتوقع .

قد يكون تشويها باهظا للانسان ان يسمع ويقرأ دون ان يرى ويجرب . قد تكون رؤيته وتجربته انقاذا وانصافا له من سماعه وقراءته .

لعل الذين يخدعون بالانسان لا يخدعون به لانهم استمعوا اليه او قرأوا له ، بل لعلهم خدعوا به لانهم محتاجون الى الانخداع ، لانهم يريدون ان ينخدعوا ، لانهم لا يجدون غير ان ينخدعوا ، لان الانخداع عمل من اعمالهم ، لانه حاجة من حاجاتهم ، لانه فن وأسلوب من فنون واساليب حياتهم .

ولعلهم لم ينخدعوا ، وانما تحدثوا عن انهم قد انخدعوا .

نعم ، قد يكون الانخداع حاجة او فنا أو ضرورة أو وظيفة او اسلوبا او اعلانا عن الذات او عن شيء ما . ولعل الذين انخدعوا لم ينخدعوا وانما تظاهروا بانهم قد انخدعوا . هل يوجد من لا يتظاهر بالانخداع ؟

ان أحدا لم يحاول او يرد أن يفهم او يفسر الانسان بأقواله . انه لتفسير لا بد ان يكون فاجعا ومهينا لو ان احدا فسر الانسان تفسيرا ذكيا وصادقا بأقواله . لقد كان الذين يفسرون الانسان ويفهمونه — اي يحاولون فهمه — يفسرونه ويفهمونه كما يريدون ، او كما يستطيعون ، او كما يقال لهم . ان أحدا منهم لم يفسر الانسان أو يفهمه أو يحاول فهمه كما قرأه وكما استمع اليه ، ولا مما قرأ له او استمع عنه .

ان الناس لا يفسرون الاشياء أو أنفسهم بالاقتناع بل بالشهوة او الحاجة او التقليد أو الهوى أو الظروف او بالعجز والانانية والمصلحة .

هل حاول احد ان يفهم او أن يفسر الانسان — كمستوى فكري ونفسي واخلاقي — من خلال فهمه وتفسيره وقراءته لخطب وتعاليم اي زعيم من الزعماء او نبي من الانبياء او معلم من المعلمين ، أو واعظ من الوعاظ ، أو كاتب أو شاعر او فنان من الكتاب والشعراء والفنانين — من خلال ما سيؤدي فهمه وسمعه واخلاقه ووقاره وحياءه وتهذيبه وتواضعه من صغار وغباء وفحش وعدوانية وتلوث وكبرياء وافتضاح واعياء وحقد وبغضاء وتساقط وجوع نفسي وعقلي واخلاقي ولغوي .

— من كل هذا الذي سيجده ، هذا الذي سيصدمه ويروعه في خطب وتعاليم جميع الزعماء والانبياء والمعلمين والوعاظ والكتاب

والشعراء ، وجميع من يتحدثون ويعلمون ؟

هل حاول احد ان يفهم الانسان أو ان يفسره كأخلاق وسلوك ومنطق ولغة وعواطف من خلال ذلك ؟

ان احداً ما لو حاول ان يفهم الانسان من كلام وخطب وتعاليم اي نبي ، مما يمكن فهمه بلا تلقين أو تفاسير سابقة من نصوص هذه الخطب والتعاليم والكلام لكان ذلك أسلوبا متوحشا من أساليب التشويه للانسان والعدوان عليه ، ومن اساليب التصغير والتحقير له بل من اساليب الاهانة والكذب على مستوياته التي يحياها مهما كان تواضع هذه المستويات ولكن احدا لم يكن قاسيا كل هذه القسوة التي تجعله يفسر الانسان بكلام وخطب وتعاليم أنبيائه ومعلميه .

انه لا حد لما يمكن فهمه من ضعف الانسان وضآلة مستوياته لو انه فسر بما يمكن ان يفهم عنه فهما مباشراً وحرا من كلام وخطب وتعاليم اي نبي او معلم او واعظ او فنان او شاعر أو اي متحدث . ان ايحاءات هذه الخطب والتعاليم تعطي عن الانسان مستويات لا حد لضعفها وضآلتها وبذاءتها وعفونتها لانها تعطي مثل هذه المستويات عن قائليها وكاتبيها ومعلميها الذين يتحولون الى مستويات للانسان لانهم هم مستويات انسانية بل أعلى هذه المستويات .

انك — لو وعيت — لن تقبل أن تفسر مقاساتك أو أن تجيء مقاساتك النفسية او العقلية أو الاخلاقية او السلوكية على مستوى المقاسات الاخلاقية او السلوكية أو العقلية او النفسية التي يمكن أن تفسر بها مقاسات اي نبي او أي معلم ، او اي شاعر أو فنان او واعظ لا بد ان توحي بها وتدل عليها بسهولة جدا خطبه وتعاليمه وكل كلامه عنه . ان هذه الخطب والتعاليم ستعطي عنه مستوى نفسيا وفكريا وأخلاقيا وسلوكيا . وان هذا المستوى سيتحول الى مستوى للانسان ، الى مستوى ظالم للانسان ، مشوه محقر له جدا . وانك أنت لن تقبل ان تفسر بهذا المستوى الذي يمكن ان يفسر به مستوى أي نبي أو زعيم أو معلم مما توحي به تعاليمه وخطبه عنه .

ولكنك انت لم تفطن — لاسباب خارجية — الى المستويات الضعيفة

التي لا بد أن تفهم عن الانبياء والزعماء والمعلمين والشعراء والمفكرين مما يقولون ويكتبون ويعلمون أي آلتي لا بد ان يفسرها ويدل عليها ويوحي بها ما يقولون ويعلمون ويكتبون . ان تعاليم الانسان وخطبه وكلماته لا بد ان تصبح تفاسير ومستويات له باسلوب ما مهما كانت كاذبة ومنافقة وغير مراد بها أن تكون مستوى او تفسيرا له .

ان الانسان لن يهجى بأقسى من ان يفسر بما توحي به أقواله وتعاليمه ، بل بما توحي به كتب وتعاليم وخطب ومواعظ وشرائع انبيائه ومعلميه وقديسيه وشعرائه وفنانيه ، أي بما يختفي باعلان وجهر ، بل بما يختفي بافتضاح وصراخ وراء هذه الكتب والتعاليم والخطب والمواعظ والشرائع ، او بما تعلن عنه هذه الشرائع والمواعظ والخطب والتعاليم والكتب من مستويات لا يمكن أن تهبط اليها اية حياة مهما كان هبوطها . آن كل ما في الطبيعة من ضعف ونذالة لعاجز عن الهبوط الى مستويات الضعف والنذالة التي يمكن قراءتها وفهمها بل ورؤيتها في تعاليم واقوال وخطب وشرائع البشر .

ان حياة الانسان ، اي انسان لأفضل وانظف واقل فحشا وبذاءة وآثما ودمامة من أقواله وتعاليمه ولغاته مهما كانت تلك الاقوال والتعاليم واللغات مبالغة في الثناء على نفسها ، ومهما كانت تلك الحياة مبالغة في التحقير لنفسها .

هل عرف اي انسان آن اضعف ما في البشر هي اقوالهم ؟ هل عرف اي انسان ان آقوال البشر تهبهم من الضعف والنقائص اكثر واكبر من ضعفهم ونقائصهم ؟ هل عرف اي انسان ان اقوال البشر تتهمهم بالضعف والنقائص اكثر مما يتهمهم ضعفهم ونقائصهم ؟

هل عرف اي انسان آن آقوال البشر تسيء اليهم اكثر واقسى مما تسيء اليهم حياتهم ، وتعتدي عليهم وتشوههم اكثر مما تعتدي عليهم واكثر مما تشوههم ذنوبهم وعاهاتهم التي تمارسها حياتهم ؟

هل عرف اي انسان ان الانسان سلوكا واخلاقا ونيات افضل وانظف واشرف منه اقوالا وتعاليم وشرائع وخطبا مهما كان المظنون

دائمـا عكس ذلك ، بل مهما كان الاقتناع آلدائـم العالي نقيض ذلـك ؟ مهمـا كان ذلـك غير وارد في أي ذهـن او حساب ؟

اننا لو قرأنا بموهبة قارىء محدق ناقد مفسر اقوال وتعاليم وخطب ومواعظ وتشريعـات اي معلم من المعلمين آلروحانيين آلخالديـن لوجدنـا في أقواله وتعاليمه وخطبه ومواعظه وتشريعاته من الحقـد والقسـوة والجوع والعفونة وكل معاني الضعف والضآلة ما لا تستطيع ايـة حيـاة ان تعيشه ، بل ما لا تستطيع حياة كل البشر أن تحياه ، او أن تستطيعه او أن تعرف كيف تستطيعه او كيف تشتهيه او كيف تواجهه ، او كيف تراه او كيف تستطيع رؤيته — لوجدنا في تفاسير اقواله وتعاليمه وخطبه ومواعظه وشرائعه — لوجدنا في ذلـك من النيات والحوافز ما لا تستطيع ايـة حيـاة ان تتكافأ مع ما فيه من وحشية واثم وخراب وتفاهة .

أن انسانا واحـدا لو استطاع أن يتحول آلى اقواله — أن آنسانـا واحداً من المعلمين والقـادة العظام لو استطاع أن يتحـول آلى أقوالـه وتعاليمه وشرائعه ، واستطاع أن يحول ذلـك الى فعل ، لأعطى الحيـاة من التعذيب والتخريب ما لا تستطيع كل آلطبيعة ان تعطي الحيـاة مـن آلتعذيب وآلتخريب .

ان كل تخريب وتعذيب في العالم لا يساوي ما في تفاسير اقـوال وتعاليم آي معلم من آلتخريب والتعذيب .

ان آي انسان ، اي معلم عظيم لا يستطيع أن يكـون اقوالـه — لا يستطيع ان يكونها ، ولا يستطيع ان يستطيعها ، ولا يستطيع أن يريدها . إن هذه لمن اعظم مزاياه . ان أي انسان ، اي معلم عظيم خالد لو تحول الى أقواله لذعر من نفسه ، لهرب من نفسه ، لقاتل نفسه . ان تفاسير اقوال اي معلم لا تستطيع اية حيـاة ان تكونها ، أن تستطيع مواجهتها . ان تفاسير اقوال المعلمين ، تفاسيرها النفسية والاخلاقية لشيء رهيب ، رهيـب .

إن البشر لم يقرأوآ اقوالهم واقوال معاميهم ولم يفسروهـا ولـم يحاسبوها ، ولم يفهموآ كل دلالاتها وقراءاتها وتفاسيرها ، لم يفهموا مـا وراءها من شرور وحقارات وتفاهات وعدوان وبغضاء وضآلة وحوافـز

ونيات مصابة بكل العاهات . انهم لم يفهموا معانيها التي تكاد تكون منطوقة ، مجهوراً بها — لم يفهموا أو يحاولوا أن يفهموا تفاسيرها التي هي اقوى من كونها منطوقة ، من كونها مجهوراً بها . ان محتويات هذه الاقوال ، محتوياتها النفسية والاخلاقية لشيء رهيب فهمه وتفسيره ، لشيء رهيب التحديق فيه .

ان البشر لم يقرأوا اقوالهم وأقوال معلميهم العظام ، ولم يفطنوا الى ما تعني ، والى ما في ضمائرها ، بل الى ما في حروفها واصواتها وانينها من تفاسير رهيبة . لهذا يظلون ينكرون بكل اساليب التقوى والاصرار على الذين لا يفعلون ما يقولون وعلى الذين لا يساوون أقوالهم وتعاليمهم ، كأن اقوالهم وتعاليمهم هي كل التقوى والمجد والبطولة والذكاء .

انهم يرون ان الذين يفعلون اقوالهم ، او الذين يساوون تعاليمهم ومواعظهم هم النماذج والمثل للاخلاق والقوة والابداع والتدين .

لهذا يذهبون — بحثا عن الكمال — ينصحون كل الناس ويطالبونهم — بأسلوب وعظي دولي — بأن يكونوا اقوالهم ، اي بأن يكونوا كل ما تعني وتحمل اقوالهم من تفاسير وايحاءات ودلالات ، ومن حوافز واهداف ونيات .

انه الهول كل الهول ان يحدث هذا ، لو كان ممكنا ان يحدث . ما ابشع ما يتمنى الانسان احيانا لنفسه ، ما ابشع ما يختار الانسان احيانا لنفسه ، ما اجمل أن يعجز الانسان احيانا عن الاختيار لنفسه .

ان البشر ليسوا فقط افضل من اقوالهم — انهم ايضا افضل من حوافزهم ونياتهم واهدافهم .

ان حياة الانسان لافضل دائما من أقواله ومن نياته ومن حوافزه واهدافه .

ان حياة الحجر ، بل حياة الوحش لافضل من تعاليم ومواعظ وخطب اتقى واصدق المعلمين . ان حياة الحجر ، بل حياة اي وحش

لاقل اثمـا وآكثـر تقوى وأنبل أخلاقا من نيـات وحوافز واهداف اتقى المعلمين حوافز ونيـات وأهدافا . آن اقوى اعداء الانسان وحشية ، ان اقـوى وحوشه هي نياته وحوافزه وأهدافه ، هي تعاليمه واقواله ــ أنها آقـوى وحوش الحيـاة .

ان التفاسير المحتملة والمقروءة في انياب وأظفـار اي وحش ، وفي قسوة وكآبة اي حجر لاكثـر واصدق تقوى وفضيلـة وآقـل وحشية وافتراسا من التفاسير المحتملة والمقروءة والمحتواة في آقوال وتعاليـم ونيـات وحوآفز واهـداف اي قديس ، بل اي قديس عظيم .

أن اقوال الالهة ، اقوال آلالهة المحسوبة الموضوعة عليها لا يستطيـع كل ما في الكـون من قسوة وبغضاء وكآبـة وافتراس وجنون ان يتحول الى تفاسير لها . ان كل دمامة وقسوة لتتحول في مقارنتك الى جمـال ورحمـة لو آنـك حدقت في تفاسير أقوال الآلهـة لترى ما فيهـا من وحشية وقبـح وكآبة .

ان أي اله لا يستطيع ان يتحول الى اقوآله الموضوعة المحسوبة عليه، انه لافضل من اقواله مهمـا كانت وحشيته . انه لا يستطيع ان يقوى على ان يعيش اقواله مهمـا كانت قوته . آن آلبعد بين الاله واقواله ليس اقل من البعد بين الاله في ذاته وبين آلاله في تصور المؤمن به ــ ان البعـد بينه وبين اقواله ليس اقل من آلبعد بين ما يمكن ان يفعل وبين ما ينتظر منـه المؤمن فعله . آن آلمؤمنين بالآلهـة ليصلون لآلهتهم ، ليهتفون لهـا ويؤمنون بها ، انبهارا بأقوالها ، وانتظارا لصدق وتحقق اقوالها . انهـم ليتضرعون اليها طالبين ان تصدق اقوآلها . ان أعجابهم باقوالها وانتظارهم لصدق آقوالها سببان من اسباب آيمانهم بآلهتهم ورضاهم عنها وتفاؤلهم بمـا ينتظرون ، بما ينتظرون ان تفعل من اجلهم .

ان هؤلاء المؤمنـين لا يعلمون ، وانهم لم يحاولوا ولم يريـدوا ان يعلموا أن اقوال الآلهـة لا يمكن ان تكـون صادقـة لان صدقها شيء فوق قدرة كل شيء ، فوق قدرة نفس هذه الآلهة ، لان صدقها شيء لا تتحمله الاشيـاء ، ولا تستطيعه قوانين الاشياء ، لا تستطيعه ولا تجرؤ علـيه وحشية الاشياء ، لا يستطيعه او يجرؤ عليه وحشيـة شيء حتـى ولا وحشية الآلهة نفسها . أن صدق الآلهة في اقوالها لشيء ضد الالهـة

نفسها ، وضد الانسان ، وضد المؤمنين بها ، وضد كل شيء . ان صدقها يعني عقاب كل شيء .

آن المؤمن ليبالغ كثيرا في هجاء آلهه حينما يعتقد آنه ـ آي ان الهه ـ يفعل ما يقول ، او انه سوف يفعل ما يقول . آنه ، اي المؤمن، ليتمنى لنفسه اشد أساليب الوحشية في المحاسبة والعقاب حينما يتمنى ان يكون آلهه صادقا فيما يقول ، حينما يتمنى ان يكون سلوك الاله تفسيراً وتطبيقا صادقا لاقواله . أن الاله الصادق هو اخطر وابشع شيء في هذا الكون . ان اغبى امانيك هي تمنيك ان يكون الهك صادقا .

ان كل اله طيب ومحتمل ـ بقدر ما ـ لانه لا يفعل أقواله . ان مزية كل اله في انه خارج على أقواله . آن الكون باق ، وان الاشياء باقية ، وان الانسان باق بقدر ما تخالف الآلهة اقوالها ، او لان الآلهة مخالفة دائما لأقوالها .

ان شيئا من الوقار والرحمة والحب موجود في الكون وفي الحياة لان الآلهة لا تعيش اقوالها .

لقد ظللت محتفظا بالهك لان الهك ظل محتفظا بالخروج في سلوكه على اقواله .

* *

أيها الانسان ، ايها الاله . انا نطالبك ان تكون مهذبا ورحيما وتقيا . ايها الاله ، إيها الانسان . لتقل ما تشاء ، ولتكن نياتك وحوافزك واهدافك ما شاءت . ولكننا نطالبك بان تكون مهذبا ورحيما وتقيا ، لهذا نطالبك بان تكون دائما خارجا على أقوالك وتعاليمك واشعارك وخطبك ، وخارجا على حوافزك ونياتك واهدافك .

انا نطالبك ان تكون في سلوكك خاضعا للقانون الذي تخضع له النبتة في نموها ، والنهر في جريانه ، وقطرات المطر في نظافتها ، وأنياب الوحش في براءتها ورحمتها .. ونرفض لك ان تكون خاضعا لأقوالك وتعاليمك ، أو لحوافزك وأهدافك ونياتك .

انا نريدك ان تكون مهذبا ورحيما وتقيا ، لهذا لا نريدك ان تكون صادقا ، وانت دائما غير صادق ، آن هذه هي مزيتك العظمى . أنا لا نريدك كذلك ان تعيش حوافزك أو نياتك او اهدافك ، وانت حتما لا تستطيع أن تعيشها ، لهذا كانت معايشتك ممكنة ، لهذا لم تقتل كل الناس ، ولم تذل كل آلناس ، ولم تمتلك كل الناس ، لهذآ بقي سواك ، بقي فيك ما يحتمل .

انك ايها الاله ، ايها الانسان ، لانظف واتقى وآذكى دائما من اقوالك وتعاليمك ومن حوافزك ونياتك وآهدافك . آن اعضاءك، أن سلوك اعضائك ايها الانسان ، ايها الاله ، لأنظف واشرف واذكى واتقى دائما - من آقوالك وتعاليمك ، ومن آهدافك وحوآفزك ونياتك . ان حوافزك واهدافك ونياتك هي اردأ واخطر ما فيك ، انها اردأ واخطر ما في آلحياة وما في الطبيعة .

انك لا تستطيع ان تكون صادقا ، انك لا تستطيع آن تكون نياتك او آهدافك أو حوافزك . ان هذه احدى مزاياك العظمى . انك تكون حياتك فقط . انا لا نريدك ان تكون صادقا ، لأنا نريدك ان تكون مهذبا ورحيما وتقيا . انا لا نريدك آن تعيش حوافزك ونياتك واهدافك ، لانا نريد ان تبقى سواك ، وان يبقى فيك ما يحتمل او يقبل او يعايش ، ولأنا لا نريد ان تكون آخطر واردأ ما في آلحياة والطبيعة ، ولانا لا نريد ان تذل كل الناس ، او تخطو فوق كل الناس ، او تستعبد كل آلناس ، او تقتل كل الناس ، او ان تلقي بكل الناس تحت طموحك العدواني . آنه لا خلاص لك ولا لنا من ذلك الا بان تكون غير آقوآلك وغير حوآفزك ونياتك وخارجا عليها .

ايها الانسان ، ايها الاله ، انا نريدك مهذبا ورحيما وتقيا ، لهذا نريدك خارجا على اقوالك وتعاليمك ، نريدك عاصيا لحوافزك ونياتك واهدافك .

لأنا لا نريدك ان تكون آخطر واردا ما في آلحياة ، اخطر واردأ ما في آلطبيعة .

ايها الانسان ، ايها الاله — آنا نريدك رحيما مهذبا تقيا .

لهذا نريدك ابدا عاصيا ، عاصيا لنفسك . انه لا جمال ولا رحمة للاله الا بأن يكون عاصيا . آن عصيان الاله لاخلاقه ولرغباته ولوعوده ولطموحه هو آتقى وانبل ما فيه وما ينتظر منه .

**

آننا لا بد ان نفترض ان ذلك الكائن الفلكي الذي هبط او سقط – بالافتراض – الى الارض ليواجه الانسان – اننا لا بد ان نفترض أن ذلك آلكائن آلفلكي او الانسان الفلكي الذي قد سقط او هبط – بالافتراض – آلى الارض قد آصبح اعجب غريب في هذا الكون ، واصبح اقسى مواجه في هذا الكون مواجهة ، اقسى من كل المواجهين رفضا وذعرآ واشمئزازا لما يواجه ومما يواجه . آننا لا بد ان نفترضه أغرب محكوم عليه . لا بد ان نفترضه اقسى محكوم عليه تعذيبا وترويعا وتفجيرا للدمامات والبذاءات والتفاهات والحقارات والاهوال في تحديقاته وفي مشاعره وفي آعصابه المقتولة ، المقتولة .

اننا لن نتصور ان أية عيون في كل تاريخ الكون وفي كل تاريخ العيون قد تفجر فيها من الذنوب وآلقبائح واهوال الجحيم مثلما ما سوف يتفجر في عيني ذلك الكائن الفلكي الذي هبط او سقط – بالافتراض – الى هذه آلارض ليكون محكوما عليه بمواجهة الانسان . أن مواجهة الانسان لا تطاق أهوالها لولا التعود عليها .

إننا لن نتصور سائحا اشقى أو اكثر غربة من ذلك الكائن الفلكي .. اننا لن نتصور رحلة مثل هذه الرحلة في مشاهدها الفاجعة آلحزينة البذيئة .

ما اقسى وآغرب وافظع هذا الذي يرى ، هذا الذي يحدث امامه بكل التهاويل والاهوال . انه آلآن ، وبلا ترويض للرؤية طويل يرى كيف يجيء الانسان وكيف يذهب . كيف يبدأ مجيئه وكيف يكون هذا المجيء ، ومن ايـن يجيء هذا المجيء . ما هذا الاسلوب الذي يكون به . وكيف ينتهي ، وكيف يكون هذا الانتهاء – كيف اسلوبه ، آلى آين ، لماذا .

ما آلتدبير ، ما التفسير ، ما العظمة ، ما التفاهة ، ما الحقارة ، ما

السخف ، ما العبث ، ما الجنون ، ما الهوان .. ما النظافة ، ما القذارة من الفاعل ، من المستفيد ، من المفعول من اجله .

ما القصة . من يريد هذا ، ومن يقبل هذا ، ومن يستطيع التحديق في هذا . من يقبل ان يكون ذاتا لهذا ، ومن يقبل ان يكون شريكا في هذا ، ومن يقبل ان يساعد على تكرار هذا . من يقبل ومن يستطيع ومن يريد ..

من الفاعل ، ومن المفعول من اجله . وهل يوجد فاعل او مفعول من اجله . ما التفسير . وهل يوجد تفسير . هل يطاق المشهد . هل يطاق لولا التكرار . ان التكرار ليغفر كل الذنوب والدمامات .

انه الآن ، وبلا تذليل للرؤية طويل ، يرى الانسان كيف يعاني وجوده وكيف يعيش وجوده ، وكيف يجوع وكيف يمارس ، يعالج جوعه . كيف يحب ، وكيف يغازل حبه ، وكيف يمارسه ، وكيف يصنع اساليبه ، وكيف يصنع ويشرع اساليب ممارساته له . كيف يتحدث عنه ، وكيف يحوله الى فنون وأديان وآداب ولغات وفضائح .. كيف يتعب ، وكيف ينام ، وكيف يمارس نومه ، وكيف يفتضح في نومه ؟ ما اقبح المرأى وما اصغر المرئي ، ما اصغره . ما ابشع ما يتشوه ويصغر ويحقر . ما ابشع الدمامة ، ما ابشع ما يرى .

انه الآن ، وبلا تذليل طويل للرؤية يرى الانسان في المعبد ، يراه امام آلهته ، يراه يصلي ، ويبكي ويركع . يراه يخاف فينافق ويكذب ويهون ، يراه يتضرع ويدعو ، — يراه يقصر ، ويقصر ، ويقصر . يراه يسقط ويسقط — يراه يجهل ، ويجهل ، ويجهل . يراه يشتم الآخرين ويراه يطالب الهته ان تكون معه ضد الاخرين ويراه يصلي لآلهته لتعادي من اجله الاخرين . يراه يبكي ، يراه يحدق بلا رؤية وبلا شجاعة وبلا كرامة وبلا اباء وبلا ذكاء . يراه يحدق ويبكي ويركع ويتضرع ويصلي ويتلو ويكذب ويخاف ويهون وينافق ويجهل — يراه يقصر ، ويقصر ، ويقصر — يراه يسقط ويسقط ويسقط ، بلا ظهر وبلا ذكاء ، وبلا شجاعة وبلا كرامة ، وبلا رفض ، وبلا وقار وبلا اي حدود لذاته او لارادته الركوع .

يراه في المعبد ، يراه امام آلهــته ، يــراه يشتم آلهته ويحقرهــا ويفضحها ، لانه يصلي لهــا ولانه يتملقها ولانه يدعوها ولانه يرشوها ولانه يفسرها ولانه يصغرها .. انه يصغرها حين يفسرها ، انه يفسرها حين يصلي لها وحين يدعوها وحين يرشوها .

ما اصغر الانسان في المعبد ، ما أصغره ، ما اقصره ، ما اجهله ، مــا اغبــاه . ما اعظــم ما يهجو الانسان نفسه ، وما اعظــم ما يهجو آلهته ــ ما اعظم ما يهجو نفسه وآلهته في المعبد . ما اعظم ما يهجــو نفسه وآلهته امــام الهته .

ما اصغر الانسان في المعبد ، ما اقصره وما أجهله وما اتفهه ومــا أهونه امام آلهته ، يبكي ويدعو ويركــع .

انه يرى الانسان في المعبد ، انه لا يستطيــع ان يراه في المعبد . انه يتحول الى دمامات لا تطيقها عيناه . ان الانسان يتحول في المعبــد وامام الهته الى تشوهات لا تطيقها عيناه ، لا تطيقهــا عينــا ذلــك الكائــن الفلكي . انه يتحول في المعبد وامام آلهتهالى ذنوب وعاهاتلا تطيقهاعينان، لا تطيقها آية عين سوى عين الانسان ، سوى عين الانسان آلــتي قتلتــها الرؤية ــ التي قتلتها ، ففأتها رؤيتها لنفسها وتعاملها مع نفسها .

انه الآن ، وبلا تذليــل طويل لعينيه يرى الانسان يمارس حكــامه وزعماءه وقادته . انه يراه يمارس طاعته لهم وايمانه بهم وخوفه منهــم وهتافه لهم ، ومسيرته تحت اقدامهم . انــه يــراه يمارس محاكماتهم وسجونهم ومعتقلاتهم وحماقاتهم ومغامراتهم وكل اساليب جنونهم . انــه يــراه يمارس كل تفاسير ومعاني ولغــات البكــاء خوفا منهم ، وآبتهــالا اليهم ، وموتا من أجلهم . انه يرى حكامه وقادته وزعماءه يمارسونه ــ يمارسون انفسهم به . انه يراهم يمارسون احقادهم وطموحهم ومخاوفهم وصغائرهم وكبرياءهم وجوعهم وبكاءهم وهمومهم وهزائمهم وجراحــهم وآلامهم وبغضهم وحبهم وصداقاتهم وعداواتهم ومنافساتهم وكل ذنوبهم وشرورهم به وفوقه ومعه وضده وبواسطته وتحته وبــين ابنائه وفي بيته وفي حقوله ومصانعه ، وفي قراه ومدنه ، وضد اربابه وادیانه واخلاقه ، وضد كرامته وشرفه وشجاعته وذكائه ، وضد تعاليمه واديانه واخلاقــه وحيــاته .

انه يراه ، يرى الانسان يصنع المعابد والسجون والمعتقلات والقيود والسلاح والحروب والخصومات والعداوات لكـي يعيشها ، ولكي يعاقب بها نفسه ، ولكي يمارسها ضده وفيه وبه وفوقه وبواسطته وفي بيتـه ، وضد ابنائه واهله ، وضد قراه ومدنه ومصانعه وحقوله ، وضد اربابـه واديانه واخلاقه ، وضد شرفه وكبريائه وذكائه وشجاعته ، وضد كـل انسانيته وحيـاته .

ـ لكي يمارسها ضده وفيه وبه وبواسطته وفوقه زعماؤه وقـادته وحكـامه وكل مجانينه وطغاته . انه يحفر القبر لكي يضعه فيه اعداؤه . انـه يحفر القبـر ثم يضع نفسه فيه ارضاء لاعدائه ، التماسـا لشهوات اعدائه . انه يضرب القيـود والسلاسل على نفسه لئـلا يهرب من اعدائه او يقـاومهم .

انه الآن ، وبلا تذليـل طويل لعينيه يرى الانسان يمارس مذاهبـه وعقائده وارბابه ونظمه ونظرياته ، ويمارس قومياته ووطنياته وخضوعـه لتاريخـه بكل هذا القبـح والعدوانية والوحشية التي يمارسها بها .

انه يراه يمارس احقاده وعداواته ومنافساته ومخاوفه واكاذيبـه وبذاءاته ومطامعه وكبرياءه وانتصاراته وهزائمـه ، ويمارس زعاماتـه وقياداته وحكوماته وتعاليمه بكل هذا الغبـاء والعدوانية والوحشية التي يمارس بها كل ذلك .

انه يراه ، يرى الانسان يمارس همومه وآلامه ومشاكله واحتياجاته وعجزه بكل هذا الضعف والبكاء والانهيار والتعب ـ ويمارس مسراتـه ولذاته وضحكاته وقدراته بكل هذا النزق والتفاهة والافتضاح ـ ويمارس صداقاته والتزاماته وعلاقاته بكل هذه الاكاذيب والسماجات والخـداع والابتذال ، ويمارس عداواته وبغضاءه وخلافاته بكل هـذه البـذاءات والصليل والصهيل والحقـد المتوحش الغبـي .

انه الآن ، وبلا ترويض طويل لعينيه يرى الانسان بكـل مسافاتـه وحدوده وبكل تفاسيره وازيائه . انه يراه في ذاته وفي نياته ، في حوافزه واهدافه ، في تعاليمه التي يتحدث دائمـا عـن انتصارها على شهواته ،

في انانياته التي يتحدث دائمـا عن مقاتلته لها وعن انتصاره الدائم عليها ــ يراه في كل حياته ، آخذا منها ، آخذة منه ــ يراه في كل الاثمـان التي يدفعها ، وفي كل الاثمـان التي يقبضها .

أنه يرى الحوافز التي تدفعه ، والاهداف التي يندفع اليها ــ انـه يراه حافـزا وهدفا . انـه يرى نياته ، يرى ما يريد ، وما يعني ومـا يساوي ، يراه فاديا وانانيـا ، يراه ثمنـا وسلعة ، اجـرا وعملا .

انه يرى كل لغاته وتعاليمه وشعاراته ومذاهبه ونظرياته وحروبـه وخلافاته وخصوماته وعداواته وصداقاته وآلهته وعقائده وزعاماته ونياتـه وحوافزه واهدافه وتطلعاته وقفزاته وعبقرياته ــ متحولة الى ثمـن ، الى ثمن ذليـل ، صغير ، حقير ، مهين ــ متحولة الى ثمـن يعيشه ويقبضه ، دون أن يتحدث عنه ودون ان يستطيع التحدث عنه ــ يقبضه ويعيشـه ويلعن التحدث عنه ، ويخجل من التحدث عنه .

انه ثمن يعيشه ويقبضه ولكنه قد يصلب من يتحدثون عنه ومـن يحدثونه عن اسمه . انه يعيش ما يرفض ان يسمى .

انه ثمن لا يختلف نوعه مهما اختلفت مقاديره ، انـه ثمن لا يختلف مهما اختلفت اللغات والشعارات والمذاهب والنظريات والالهـة والمعلمون والخلافات والخصومات والحـروب والعداوات والصداقـات والحوافـز والنيات والتطلعات والقفزات والعبقريات والاهداف التي هي دائما سعي اليه وبحث عنه .

انه يرى الانسان : الصيغة والتفسير ، الاسلوب والفكرة ــ التفسير الذي هو الصيغة ، والفكرة التي هي الاساوب . انه يرى الانسان : العمل والاجر ، الاجر الذي هو العمل ، الاجر الذي هو الاجير ، الاجر الذي هـو ان يظل اجيرا . انه يرى الانسان الذي يظل يعمل بلا أجر ، والـذي يظل يعمل ليكون اجره ان يظل يعمل . انه يرى الانسان الاجير بلا اجر غـير ان يظـل اجـيرا . أن يـرى الانسـان الـذي يجعـل لنفسـه فكـرة وتفسيرا ، ثم لا يكون التفسير والفكرة سوى الصيغة والاساوب ــ سـوى ذات الانسان بكل احتياجاتها وتعاملها مع هذه الاحتياجات ، وبكل صيـغ

واساليب هذا التعامل مع هذه الاحتياجات .

ما ابشع واوقح هذه الصيغ والاساليب،هذه الاحتياجات والتعامل. ما اقسى التحديق في ذلك ، ما اقسى تفسيره ، ما اقسى البحث عن حوافزه واهدافه ونياته وغاياته . ما اقسى فهم ذلك ، ما اقسى رؤيته . ما اقسى ان ترى الانسان ، ان تراه صيغة واسلوبا . ما اقسى ان تفسره، ان تفسره فكرة ومنطقا ، ان تفسره حوافز واهدافا ، نيات وغايات واخلاقا، ان تفسره اجرا واجيرا . ما اقسى ان تفسر الانسان صيغة واسلوبا ،سلعة وثمنا ، آخذا ومأخوذا منه ، مبتدئا ومنتهيا — ما اقسى ان تفسر الانسان

ما اقسى ان ترى الانسان وان تفسره وان تستطيع رؤيته وتفسيره وان تجرؤ على ذلك .

ان هذا الكائن الفلكي هو اول من يرى الانسان . ان احدا قبله لم يره ، ان الانسان لم ير نفسه ، انه لم ير شيئا ان العيون لا ترى ما توجد فيه ، ما يوجد قبلها . انها لم تر الشمس ولا النجوم لانها قد وجدت قبلها، لانها وجدت فيها .

لقد كانت نفس الانسان تتحول دائما الى جدار ضخم لتقف بينه وبين نفسه ، لتقف بين عينيه وبين نفسه . لقد كانت ذاته تحول دائما بينه وبين ذاته . لقد كانت رؤيته لذاته تمنعه من رؤية ذاته . لقد كان دائما يرى ارادته لذاته لا ذاته . لقد كان يرى امانيه ومخاوفه واحتياجاته وتصوراته حينما كان يريد ان يرى ذاته ، ان يرى نفسه . ان العيون لا ترى بأمرها، انها لا ترى الا مأمورة .

لقد كان الانسان يرى صورته التي في نفسه وفي تمنياته، لا صورته التي في ذاته او التي يعيشها وتعيشه . ان في نفسه، في نفس كل انسان مرآة هي خصم ونقيض للمرآة التي امامه . ان في داخل كل انسان مرآة قد تحاسب على انها محابية كذابة منافقة مزيفة ، وقد تحسب رحيمة مهذبة جيدة الاخلاق . ان في داخل كل انسان مرآة يرى بها ما يريد لا ما هو موجود . ان في داخل كل انسان جهاز تزييف لعينيه ، جهاز تضليل لرؤيته ، لرؤيته ما امامه . ان الانسان يريد فيرى اكثر من ان يرى فيريد.

أن ذلك الكائن الفلكي يحدق الان . ان ما يحدق فيه يكبر على كل وصف ، انها صور تهزأ من كل ما عرف من لغات الهجاء والبلاغة والرفض.

ان امامه قوما مبتهجين جداً ، قوما قد اخرجهم ابتهاجهم عن كل وقار . انهم قادة وزعماء يحتفلون بما يسمونه نصرا . انهم زعماء وقادة قد قتلوا اعدادا هائلة من شباب المجتمع الذي يحكمون ويقودون ،وخربوا مدن وحقول ومصانع البلد الذي يحتلون ، كما قتلوا اعدادا هائلة من شباب قوم آخرين يسمونهم اعداءهم ، كما دمروا مصانع وحقول ومدن اولئك الاخرين الذين يدعونهم أعداء ولكنهم انتصروا ، لهذا هم مبتهجون جداً ، لهذا يحتفلون بانتصارهم .

وكيف انتصروا ، وعلى من انتصروا ؟ انهم قاتلون ومخربون ـ قاتلون لشباب شعبهم ولشباب شعوب اخرى ، مخربون لحقول ومصانع ومدن شعبهم ، ولحقول ومدن ومصانع شعوب اخرى . انهم قاتلون ومخربون . لهذا يحتفلون لانهم منتصرون ، لانهم قاتلون ومخربون .

اذن كيف انتصروا وعلى من انتصروا ؟ وأي نصر هذا الذي به يحتفلون ؟ انهم لم يصنعوا الا الهزيمة والخراب ـ الا الهزيمة للانسان والا الخراب لحياته . ولكنهم ايضا مبتهجون ومنتصرون لان ابتهاجهم او انتصارهم لا يكون الا بالخراب والهزائم .. الخراب والهزائم للحياة وللانسان .

لقد انتصروا هم ـ لقد انتصر القادة والزعماء ـ لقد انتصروا على الانسان،لقد انتصروا على ذكائه وعلى شجاعته وعلى حياته وعلى انسانيته. انهم يحتفلون ويبتهجون بانتصارهم الشامل العالمي على الانسان في كل معانيه ومستوياته ، تحت كل قياداته ومذاهبه وتعاليمه وحضاراته وشعاراته .

ان القادة والزعماء دائما منتصرون على الانسان مهما كانت مذاهبه ومستوياته وحضاراته . انهم منتصرون عليه انتصاراً عالميا . انهم يحتفلون بكل ما في الابتهاج من جنون وبذاءات ـ يحتفلون بانتصارهم العالمي الدائم على الانسان .

ان انتصار القائد او الزعيم على القائد الاخر أو على الزعيم الاخر هو كل الانتصار في حساب الزعماء والقادة ، في حساب كل الزعماء وكل القادة مهما هزم الانسان نفسه ومهما خربت حياته .

ان الانتصارات والهزائم لا تعني في لغة الانسان وحساباته سوى انتصارات وهزائم الزعماء والقادة .انهم هم المالكون للحروب ولحساباتها ، لهذا فهم الذين ينتصرون او ينهزمون في حسابات وحياة الانسان ولغاته. اما البشر فهم أدوات لهذه الانتصارات والهزائم ، انهم دائما منهزمون مهما انتصر او انهزم القادة والزعماء . ان انتصار الانسان في أية معركةمنتصرة لا يساوي اكثر من انتصار الفرس او الدابة التييقاتل بها أو عليها الفارس أو اللص المنتصر . انه انتصار لا يصيبهمنه الا ان يفقد حياته او يتعذب.

ان الانتصار لا يعني الا ان جنون او طموح قائد او زعيم قد انتصر على جنون او طموح قائد او زعيم آخر او على جنون او طموح قادة او زعماء آخرين – وان الانهزام لا يعني الا ذلك ايضا . أن انتصار أي زعيم او قائد لا يمكن أن يكون فيه أي انتصار للانسان الا بقدر ما يكون فيه من انتصار للفئران والبراغيث .ولكن اليس فيه انتصار ضخم لهذهالحشرات؟ أليس يقدم لها الغذاء الوفير ؟

ان الانسان خاسر ومهزوم دائما في جميع انتصارات القادةوالزعماء وفي جميع انهزاماتهم لان كل عداوة وخصومة بين الزعماء والقادة هي هزيمة وخسران للانسان . والانتصار لا يكون الا على عداوة أو خصومة يصنعها القادة والزعماء ، أو بين الزعماء والقادة . اذن فالانتصار لا يكون الا لعداوة او خصومة ، كما لا يكون الا على عداوة او خصومة . وانتصار العداوات والخصومات المتحاربة لن يكون فيه اي انتصار للانسان ، كما ان انهزام هذه العداوات والخصومات لن يكون فيه كذلك اي نصر أو مجد او ربح للانسان ، كما أن انهزام هذه العداوات والخصومات لن يكون فيه كذلكاي‌نصر او مجد أو ربحللانسان. انهلو هاجمناوحش‌فقاتلناهفقتلناه فاننا لن نكون منتصرين او كاسبين شيئا ، ولكننا قد تخلصنا فقط من الشر بعد ان نكون قد دفعنا الثمن احيانا . اذن لقد أخذ منا ولم نأخذ نحن شيئا .

ان الانتصار على اسوأ طاغية عرفه التاريخ ليس فيه اي‌نصر او كسب للانسان . ان الذي حدث ان الانسان قد دفع حسابات وجود مثل هذا

الطاغية ، وحسابات مقاتلته والانتصار عليه . وهل في هذا أي كسب أو نصر للانسان ؟ أن ربح الانسان وانتصاره في ألا يوجد مثل هذا الطاغية ، وفي الا يوجد من يثيرون جنونه وطموحه واحتلامه ، وفي الا يوجد من يوجدون الظروف او يوحون بالظروف التي توجده وتحركه وتصنع منه مجنونا عالميا . ان المجانين العالميين لا يوجدون أنفسهم ولكن العالم يوجدهم، ولكن مجانين آخرين أو أشباه مجانين آخرين يوجدونهم، أو يساعدونهم على ان يوجدوا اويحرضونهم على ان يوجدوا وعلى ان يجنوا وان يصابوا بالمزيد من الجنون، وعلى الا يخجلوا او يخافوا من جنونهم . أن المجنون العالمي لا يكفيه ان يكون مجنونا لكي يمارس جنونه ويعرضه كخلق دولي او كخلق يمكن ممارسته ضد كل العالم ، بل لا بد لكي يمارس المجنون جنونه من استساغة ذلك عالميا على نحو ما . ان جنونا ما لا يوجد وحده ولا يعيش وحده ، انه يحتاج دائما الى الاشباه والانداد ، والى المحرضين ، والى المعلمين احيانا . ان المجنون لا يقبل ان يكون وحده ، انه لا يستطيع ولا يعرف ان يكون كذلك. ان المجنون العالمي لا يجن من داخله، وان الجنون العالمي ليس مرضا ذاتيا. ان المجنون العالمي لا بد ان يلده مجانين وأن يعيش بين مجانين وان يكون حوله مجانين .

ان المجنون لا يقبل ولا يستطيع ان يكون الها اي لا يقبل ولا يستطيع وحدانية الاله .

ان هذا الجنون كائن اجتماعي ، أنه عالمي الابوة والسلوك والمنطق والارض . ان الارض العاقلة لا تلده ، ان الارض العاقلة لا تلد المجانين .

انها اذا ولدت مجنونا فانها لن تجعله وحيدها .

أن الارض لا تعرف التوحيد في ولادتها للمجانين . انها في مستقبلها اما ان تصاب بالعقم فلا تلد مجنونا واحدا ، واما ان تظل ولودا تلد المزيد من المجانين .

ان الارض لا بد ان تظل تلد الحشرات بلا حساب او ان تعجز عن ولادة حشرة واحدة .

★★

أن ذلك الكائن الفلكي يحدق الان ، يحدق في قائد يكاد يقفز الى النجوم من الفرح . يكاد يتعرى من النزق .

انه قائد يجلس الى مكتبه الذي يدير منه عمليات القتل والتخريب. انه لا يكاد يفهم او يرى شيئا من الانتشاء . ان كل ما في الغابات وفي الطبيعة الصحراوية من وحوش وحشرات عدوانية سامة قد تحولت الى نشوة في اعصابه وقلبه ووجهه وفي كلماته واشاراته واوامره .

ان كل همجية الطبيعة قد تحولت الى نشوة همجية في كلماته وحركاته وتعبيراته وفي ضميره وعينيه ومشاعره .

لماذا ؟ ان القتلى في جيشه كثيرون جدا ، وان الدمار في بلاده هائل، هائل . ولكن القتلى في جيوش من يراهم اعداءه اكثر ، والخراب في بلاد اولئك الاعداء أفدح . لهذا يجب ان يجن سرورا لانه منتصر ، يجب ان يجن سرورا لانه منتصر انتصارا شخصيا . ان كل انتصار في حسابه ليس سوى انتصاره الشخصي ، وان كل معاني الهزيمة ليست الا هزيمته الشخصية .

ان الخراب في بلده قد اصبح شاملا ، وان الموت في جيشه قد اصبح فناء .

ولكنه مع ذلك يجب ان يتعرى من السرور لان الموت والخراب في جيوش وبلاد من يراهم اعداءه اشمل وأفدح هولا . انه منتصر ، منتصر على خصومه واعدائه من القادة والزعماء . ان انتصاره انتصار شخصي ، ذاتي ، فردي . انه انتصار قائد على قائد آخر أو على قادة آخرين . انه منتصر عليهم بالعبقرية والتدبير والنشاط والهمة وبالرؤية البعيدة او بالحظوظ . ان انتصاره بالحظ يعني احتراما كونيا لشخصه، يعني التفات الكون وقواه الخفية اليه . ان كل قائد ينتصر بالحظ الغبي لا بد ان يعتقد انه قد انتصر بالقدر او بالتدبير الذكي .

انه انتصار شخصي ، ذاتي ، انه انتصار قيادة وزعامة . ان هذا هو الانتصار ، هو كل الانتصار في كل العصور . لهذا يجب ان يجن سرورا. ان ينشر اعضاءه الداخلية فوق المنابر من الابتهاج .

ان انتصاره ليس الا تدبيرا اعلى وليس الا تحية ترفعها الاقدار الذكية الى عبقريته والى شخصه المقصود بالعناية .

أما القتل والخراب في جيشه وبلده ، وفي الجيوش والبلاد الاخرى فيجب ان يتحولا آلى تحية لانتصاره الشخصي ، لمجده الشخصي . ان انتصاره ومجده الشخصيين يستطيعان ان يتحولا الى كفارة واعتذار عن كل الآلام والاحزان والخسائر ، وعن كل موت وخراب يشملان العالم ، ويصيبان الشمس والقمر .

ان مجده وانتصاره ثمن ليس بالقليل لكل ما في الطبيعة او في الناس من مظالم وذنوب وآهات وعاهات .

لقد كان التاريخ في كل خطواته واهتماماته ومنطقه كأنه لم يكن يعني او يريد الا ان يصنع الموت والخراب وكل الآلام والاحزان للانسان ليجعل منها تحية وهتافا وتتويجا لانتصارات وامجاد القادة والزعماء الشخصية . لقد كان التاريخ يتصرف وكأنه يرى ان اي مجد او نصر لاي قائد او زعيم يستطيع أن يغفر كل ما في الكون والحياة من عاهات وشقاء وجنون . كأنه — اي التاريخ — يرى ان اي انتصار او مجد او سرور يصيب أي قائد او زعيم يستطيع ان يغفر كل ما في وجه القمر وكل ما في وجوه الاشياء وما في اخلاق الاشياء من دمامات ووقاحات ومن عار وخطايا .

لقد كان التاريخ يتصرف وكأنه قد قرر أن يجعل انتصار أو مجد اي زعيم غفرانا لكل ذنوب وخطايا كل الآلهة .

لقد كان التاريخ يهتف دائما لنفسه وهو يصنع أبشع الآلام والاحزان والخراب والموت لانه كان يعتقد أنه بذلك يصنع المجد والانتصارات للزعماء والقادة المجانين — لانه — اي التاريخ — كان يعتقد انه بذلك يحيي الزعماء والقادة ويهتف لمجدهم وانتصاراتهم . ان المظالم والذنوب ليست فقط مغفورة بأمجاد الزعماء والقادة وبانتصاراتهم ، بل انها اي المظالم والذنوب تمجيد لهذه الامجاد والانتصارات واعلان عنها . وهل لاي انتصار او مجد اي مجد او دوي بدون الآلام والذنوب ؟

لقد كان التاريخ يمارس ادواره وكانه يرى ان امجاد وانتصارات الزعماء والقادة لا يمكن ان تكون ، او ان تكون عظيمة ، او ان تكون مقبولة او معروفة او معترفا بها ، او ان تكون مرضية لهم ، او صانعة لهم الكبرياء ، الا اذا صنعت الموت والدمار والويلات والآلام الشاملة للانسان . ان ذلك

هو الذي يصنع لامجادهم وانتصاراتهم الدوي والخلود . لقد كان التاريخ دائما عميلا وقحا للطغاة ضد الانسان .

وهل انتصارات الزعماء والقادة وامجادهم انتصارات وامجادحكمت تعقيدات الطبيعة بأن تكون الآلام والويلات جمالا ودويا لها وفيها او شرطا في وجودها ، ام ان انتصارات وامجاد الزعماء والقادة ليست الا آلاما وويلات فقط زعمت امجادا وانتصارات ؟.

هل مجد الزعيم او القائد مجد صنع الما وزينة ألم ولم يكن ممكنا الا بألم ، او مجده الم قرىء مجدا ؟ ام مجده الم فقط اشتد واشتد حتى دعي مجدا وخطب له كمجد ، ومارسه التاريخ وهابه وتحدث عنه كمجد ؟

هل امجاد الزعماء والقادة امجاد تصنع الآلام وتصنعها الآلام ، ام هي فقط آلام تصنع آلاما وتصنعها الام وتسمى امجادا ؟

هل الآلام التي يصنعها القادة والزعماء تصبح امجادا وانتصارات بقدر ما تصبح شاملة وباهظة ومجنونة ؟ هل الفرق بين الالم والمجد هو فرق بين الم وألم ، هل هو فرق بين من يصنعون الالم والالم ، فالالم الذي يصنعه الزعماء والقادة يصبح مجدا ويتعامل معه التاريخ كأعظم مجد يهابه التاريخ ويمجده ويتملقه ، اما الالم الذي لا يصنعه الزعماء والقادة فيظل الما ، فيظل الما فقط ؟

هل امجاد الزعماء والقادة امجاد لنا أم هي امجاد للحشرات والخراب والموت ولجميع الآلام ؟

هل وجد اي مجد او انتصار لاي زعيم او قائد دون ان يصنع الما او دون ان يكون الما فقط ؟ هل تساوي انتصارات وامجاد الزعماء والقادة شيئا اكثر مما تساويه الآلام التي يوقعونها بالانسان ، او تعني شيئا غير هذه الآلام ؟ هل يهاب اي زعيم او قائد ان يشتري مجده الشخصي او انتصاره الشخصي حتى ولو كان الثمن هو تحويل كل العالم الى أيتام وارامل ، والى قبور وخرائب ؟

هل يعني التاريخ حينما يتحدث عن اي مجد او نصر لاي زعيم او قائد

غير ان يتحدث عن آلام واحزان وحماقات عانى منها الانسان في بعض مواقعه أو في كل مواقعه ، أو عانت منها الحياة ؟وهل نفهم نحن من تحدث التاريخ هذا شيئا غير أنه يعني التحدث عن هذه الآلام والاحزان والحماقات؟

وهل يمكن الا يكون الخراب والعذاب هما كل ما تعنيه او بعض ما تعنيه كلمات زعيم وقائد ، او كلمات مجد وانتصار ، محولين الى حسابات للزعماء والقادة ، مسحوبين من حسابات الانسان ؟

هل يمكن أن تفسر كلمات زعيم وقائد ومجد وانتصار بغير : خراب وعذاب ؟ هل يمكن ان يصدق اي تفسير لهذه الكلمات يكون غير خراب وعذاب ، للانسان وللحياة في كل اوطانهما ؟

**

انه ، اي ذلك الكائن الفلكي يحدق في قوم تفيض أعصابهم وتعبيراتهم وضحكاتهم بالرضا والغبطة لانهم هم أصحاء حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم مرضى ، أو لانهم هم أعزة ومحابون حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم اذلة ومحقرين ، او لانهم هم طلقاء وناجون حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم مكبلين ومطاردين وهالكين ، او لانهم هم آمنون حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم خائفين ، أو لانهم هم سعداء حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم أشقياء ، أو لانهم هم جيدو الحظوظ حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم تتخطاهم كل الحظوظ ، أو لانهم هم قادرون حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم عاجزين ، او لانهم هم واجدون حتى ولو اصبح كل الناس من حولهم فاقدين ، او لانهم هم وحدهم الذين يأخذون ويملكون ويريدون وكل من سواهم هم الذين يعانون ويسخرون ويتمنون ويؤخذ منهم ، او لانهم هم قد اصبحوا العصا واصبح كل من سواهم الظهر ، او لانهم قد اصبحوا الاقدام واصبح كل من سواهم هم الاحذية والارض — او لان كل من عداهم قد اصبحوا النشيد والصلاة والموكب الذليل ، أما هم فقد اصبحوا لغة النشيد وموضوعه وتفسيره ومفسريه ، كما أصبحوا المعبد ، وكما اصبحوا غاية الموكب وهدفه وحداته — او لانهم هم قد أصبحوا الذنب ، وكل من عداهم قد اصبحوا الاستغفار والتوبة والتكفير .

انه يحدق في قوم يرقصون ويغنون ويقهقهون ويغازلون وسط عالم

من الاحزان والدموع والاهات والآلام وآلعاهات والذنوب والعار والخوف والضياع والاشلاء والحقارات والتفاهات واليتم الكوني والانساني ، اليتم الفردي والاجتماعي ، العقلي والنفسي ، الاخلاقي والمذهبي والديني ، اليتم الشامل في كل الاتجاهات والتفاسير ، اليتم في كل معانيه واحزانه ودموعه . ليتحول كل شيء الى بذاءة ووحشية . انه سوف ينظر الى وجهه في المرآة باعلان وغناء امام قوم مشوهين . ليتحول كل شيء الى عار .

انه يحدق في قوم يشيدون بمجد وصلابة وشموخ منزلهم الواقف المنتصب بوقاحة بين البيوت التي قد تهدمت كلها لتحول جميع سكانها الى جثث . انه يحدق في هؤلاء القوم الذين يصلون ويهتفون للقدر الطيب العادل الذكي الذي حمى منزلهم مما أصاب به كل المنازل حوله — او لانه حمى منزلهم مما اصاب به تلك المنازل . أنهم يبتسمون للقدر ويمجدون مزاياه الدينية والاخلاقية والذهنية لو أنه سلب من كل الناس رؤيتهم وقدرتهم وصحتهم وسعادتهم واعضاءهم وذكاءهم ومسراتهم وشهواتهم وكل حظوظهم ليحولها الى مزيد من الرؤية والقدرة والصحة والاعضاء والسعادة والذكاء والمسرات والشهوات والحظوظ لهم هم تخصيصا ومحاباة . انهم يمجدون القدر او الطبيعة او الاله الذي يفعل ذلك . أنهم يمجدون ذكاءه ومنطقه وعدله . انهم يصلون ويبتسمون له ، انهم يتحولون الى متفائلين والى أنبياء للتفاؤل لان ذلك قد حدث .

انه اي ذلك الكائن الفلكي يحدق في قوم يعيشون كل هذا الهوان ، او كل هذا الشقاء ، او كل هذه المظالم ، او كل هذه الاحزان ، او كل هذه الحقارات والتفاهات والعاهات والتشوهات ، او كل هذه الامراض والآلام ، او كل هذا اليأس ، او كل هذا الضعف والانين ، أو كل هذه المخاوف والمخاطر ، او كل هذه الذنوب ، او كل هذه الاكاذيب والخرافات ، او كل هؤلاء الطغاة والمعلمين والوعاظ ، او كل هذه المنابر والمعابد ، أو كل هذه الحروب والخصومات والاحقاد ، او كل هذا العبث وتكراره ، او كل هذا التكرار للذات وللممارسات وللاشياء ، او كل هذا الالتزام بلا اقتناع أو تفسير او تساؤل او رفض أو نقد او اشتراط .

ان ذلك الكائن الفلكي يحدق في قوم يعيشون كل هذا بالفرض والاكراه ، دون أن يغضبوا او ينكروا او يرفضوا او يفهموا او يسألوا ، او ينكروا لانهم لم يفهموا او يسألوا ، ودون ان يحاسبوا أو يعاقبوا او

يحاربوا او يتوقفوا عن المسير ، او يبطئوا في المسير ، او يهابوا المسير ، او يحاولوا ان يعرفوا نهاية المسير او هدف المسير او تغيير المسير ، ودون ان يحاولوا وقف الافواج والمواكب الضالة المتتابعة وراءهم في نفس الطريق ، بنفس الاسلوب والمنطق ، الى نفس الممارسة والمعاناة والمصير ، دون ان تختار او ترى او تعرف لماذا ولا الى اين ولا من اين ولا الى متى ولا من الآمر او المدبر او المريد .

بل ان ذلك الكائن الفلكي يحدق في قوم يعيشون كل هذا وهم يغنون ويتناسلون ويصرخون اغتباطا واعجابا ، ويمجدون أنفسهم وحظوظهم وكبرياءهم وذكاءهم وشجاعتهم وقدرتهم على الرفض والاباء والاختيار لانفسهم ، بل ويمجدون الآلهة والطبيعة والاقدار على ذكائها وتدبيرها وحبها واخلاقيتها وعلى محاباتها وعشقها لهم . ان من أعظم واشهر مواهب البشر قدرتهم على التمجيد . انهم يمجدون كل ما يحدث لهم وما يحدث بهم وما يحدث ضدهم . انهم لا بد ان يمجدوا اما انفسهم أو الطبيعة او الآلهة مهما فعلت بهم ومهما شاهت اخلاقها . انهم لا بد ان يمجدوا شيئا حتى ولو حماقات الطبيعة او الالهة وتشويهاتها لهم . انهم لا بد أن يمجدوا ولو جنون الطبيعة .

أن البشر لا يستطيعون ان يعيشوا او يرضوا عن أنفسهم او يقبلوها بلا تمجيد ولو للذباب الذي يتحدى كل تفوقهم عليه . ان ذلك الكائن الفلكي قد أصبح اعظم واشقى محتاج الى العيون . انه لا يجد عيونا يواجه بها مشاهدة الفاجعة ، اي يوزعها على هذه المشاهد . لقد عجزت عيناه ، لقد تبددتا ، لقد هزمتا ، سحقتا . لقد ضاعت عيناه في تحديقاتهما الى كل الذوات والممارسات والاساليب التي يعيشها الانسان وتعيشه ، والتي ينويها ، والتي هي كل حوافزه واهدافه وتفاسيره ومستقبله وتقواه . لقد ضاعت عينا ذلك الكائن الفلكي في تحديقاتها الى الانسان .

أنه يريد ان يتحول كل شيء الى عيون ، انه محتاج الى أن يصبح كل شيء عيونا لتركب فيه ، لتكون قدرته على الرؤية بلا حدود . انه اول من يعاني عذاب الرؤية على هذا المستوى . ان الرؤية عذاب ودمامة متوحشة اكبر من أن تطاق . انه لم يوجد قبل هذا الكائن الفلكي من يعاني عذاب الرؤية ووحشية دماماتها . انه لم يوجد قبله من يرى . أن رؤية الانسان، رؤية الحياة اقسى من ان يتحملها اي كائن . ان رؤية ذلك شيء صعب

فهمه وصعب تصوره . ان احدا لم يجرب ذلك ، ان تجربة ذلك شيء فوق كل اساليب التعذيب .

ان الانسان — وهذا قد تكرر — لم ير ، ولم ينو أن يرى ، ولم يشعر او يفهم انه يجب أن يرى او انه يمكن ان يرى. انه لم يفهم ما هي الرؤية، وما هو العجز عن الرؤية ، او انه لم ير ، او انه عاجز عن الرؤية او ان الرؤية شيء غير ما يفعله او اكثر مما يفعله او اقسى مما يفعله ، او شيء لا يستطيع أن يفعله او يريد أن يفعله ، او كيف يستطيع ان يفعله ، او كيف يريد ان يفعله . انه لم يعان الرؤية ولم يعان الشعور بفقدها او بالعجز عنها او بالارادة لها او بالشوف الى ما يختبيء وراءها ، الى ما فيها من اسرار ورؤى ، ومن ذنوب وتشوهات ، ومن قسوة وعار ، ومن رفض واشمئزاز . ان اي شيء لن يبدو لنا طيبا او مقبولا آلا لاننا لا نحدق فيه .

ان التحديق في الاشياء عدو لها ، تحقير لها . ان التحديق عدو للانسان ، انه هجاء وتحقير للبشر ولكل شيء .

انه لا يوجد في العالم بعد وحواجز عالية ومكثفة بين شيء وشيء مثل البعد والحواجز التي بين الانسان ورؤيته لنفسه ، او بين الاشياء ورؤية الانسان لها .

انه بعد وحواجز لا تقتحم،ولا يستطاع اقتحامها ، ولا يراد اقتحامها، ولا يفكر في اقتحامها .

انه بعد وحواجز لا يعرف انها موجودة ، ولا يرفض او يغضب ان تكون موجودة ، ولا يراد أن تكون غير موجودة ، ولا يحتمل أن تزول او ان يضعف وجودها . انها حواجز المستحيل وبعده . وهل يوجد بعد أو حواجز ابعد أو اقوى من بعد المستحيل ومن حواجز المستحيل ؟

ان البعد والحواجز التي بين الانسان وعينيه هي كل بعد المستحيل وحواجزه . انها اذن كل البعد وكل المستحيل .

**

ولكن ذلك الكائن الفلكي لم يجد عيونا اخرى ليواجه بهـا موقفه الصعب . أنها المرة آلاولى ألتي يحتاج فيها الكائن الى مزيد من العيون،الى غير عينيه ، الى آكثر من عينيه لكي يستطيع أن يرى الانسان،ولكي يستطيع ان يرى الدمامات والآلام والتشوهات والذنوب وما لا يستطيع ان يفهم او يقبل او يغفر .

انها المرة آلاولى التي يريد فيها أي كائن أكثر واقوى من عينيه لكـي يرى ما يرفض وينكر ، لكي يرى ما يؤذي رؤيته وما يعذبه ،وما يشتتها،لكي يتفجر فيها كل ما في الطبيعة من حجيم وقبح ، لكي يتفجر فيها كل ما في الانسان من تفاهة ودمامة وتلوث وتشوه وعذآب . ويلاه . كم في هذا من العذاب والجنون .

لقد ظل ذلك الكائن الفلكي يرى بعينيه ، بعينيه فقط ، ما لا يستطيع ان يراه بكل العيون ـ لو ركبت فيه كل العيون، وما لا تستطيع كل آلاشياء ان تراه ، آن تتحمل رؤيته لو تحولت كل الاشياء الى عيون .

هل تستطيع كل الاشياء لو آصبحت كلها عيونا ان ترى القبح الذي امامها والذي يحيا داخل عيونها ؟

لقد أستهلك عينيه ، لقد قتلهما سريعا . لقد أصبح عاجزا عن الرؤية مثل الانسان ، ثم اصبح رافضا للرؤية كرفض آلانسان . آن الانسان كمـا لا يستطيع ان يكون رائيا فانه لا يستطاع ان يكون مرئيا . أن رؤيةالانسان قاتلة ، انها تقتل الرائي والمرئي والعين المرئى بها . انه لهـذا لم يحتمل أن يكون آلانسان رائيا أو مرئيا او مريدا لذلك .

لقد ظل يصرخ ويهتف : أهذا هو الانسان ، أهذا هو الانسان ـ أهـذا هو كل آلانسان ، اهذا هو كل الانسان . لقد ظل يصرخ ويهتف في أيامـه الاولى التي هبط او سقط فيها الى الارض . لقد ظل يصرخ ويهتف،معانيا كل اهوال الرؤية آلمحدقة فـي اقبـح الدمامات والحقارآت والتفاهـات والبشاعات والذنوب والغباء وآلسخف والعبث والضآلة ـ المحدقة فـي اقسى الآلام والاحزآن واساليب التعذيب والتحقير وآلضياع ـ المحدقة في أشمل أساليب الاذلال والترويع والاستسلام والركوع ـ آلمحدقةفيالانسان

الذي لم يكن احد قد رآه والذي لم يكن قد راى نفسه والذي لـم يجرب احد عذاب وقبح رؤيته .

لقد ظل يرى بعينيه ـ بعينيه فقط ـ ما لا يستطيع ان يتحمل معاناة رؤيته بكل العيون لو ركبت فيه كل العيون ، بكل الاشياء ، بكل الوحوش، لقد تحولت كل الاشياء وكل الوحوش الى عيون .

ان كل ما في الكون من وحشية لو تحول الى عين لترى الانسان كمـا رآه ذلك الكائن الفلكي لفقأتها وحشية المنظر .. لقد ظل يرى بعينيه ـ بعينيه فقط ـ كل الانسان ، كل الانسان حتى ماتت عيناه .

لقد ماتت عيناه ، وماتت ارادته للرؤية وقدرته على الرؤية . لقد أصبح مثل الانسان ، لا يستطيع الرؤية ولا يريدها ، ولا يشعر أنه فاقد لها ، أو انها شيء موجود ، أو انها شيء يستطاع ، أو انها شيء يطلب ، أو انها شيء يفقد . لقد ماتت فيه « فلكيته » . انه لم يبق كائنا فلكيا ، لقد مات فيه الكائن الفلكي . لقد مات فيه ذلك الكائن الغريب المفجوع بمواجهاته . لقد أصبـح كائنا مستوطنا ، لقد استوطن ذات الانسان ففقد انبهاره .

لقد اخذ يتحول الى انسان ، الى انسان يعيش وجوده دون أن يراه أو يخافه أو ينكره أو يستبشعه أو يخجل منه أو يناقشه أو يسائله أو يطالبـه بالتفسير . لقد أخذ يتحول الى انسان يتقبل وجوده كيفما كان دون أن يطالب بالثمن أو ينتظر الثمن أو يفهم انه يجب أن يكون له ثمن .

لقد تحول الى انسان ، لقد صـار انسانا ، يبتلع كل ما في أعضـاء الانسان ، وما في جوعه ونياته وسلوكه وحوافزه وأهدافه وأخلاقه وحيـاته وتاريخه من تشوه وقبح وتلوث وأكاذيب وتفاهات وبشاعات ، ومن أحـزان ودموع وآلام ومخاطر واهانات وضعف ، ومن طغاة وزعماء وحكام ومعلمين، ومن مذاهب وأديان ونظم ونظريات ، ومن آلهة وغيب وأحلام واحتلام وتاريخ، ومن صلوات وتضرعات ومخاوف روحية وعقلية لا حدود لغبائها ولا لكآبتها ولا لوحشيتها ولا لما فيها من معاني التحقير والاذلال وارادة الانتقام ـ دون أن يصاب بالغثيان أو بالعجز عن الهضم .

انه بالقانون والظروف التي اصبح بها الانسان انسانا اصبح ذلك الكائن

الفلكي انسانا . انه لشيء رهيب أن تصبح انسانا ، ان ذلك يعني أن تصبح كائنا لا يستطيع أن يرى نفسه وكائنا لا يستطيع شيء أن يراه . ان رؤية الانسان لنفسه كرؤية أي شيء له انما تعني الموت . انه لا بد أن تموت العيون التي ترى الانسان ، حتى ولو كانت عيونه هو ، بأية وسيلة من وسائل الموت . وآ أسفاه . لقد اصبح ذلك الكائن الفلكي انسانا ، لا يستطيع أن يرى أو ينكر أو يشمئز أو يستفظع أو ينقد . هل يوجد عدوان على أي كائن أو اذلال لاي كائن أقسى من تحويله الى انسان ؟

* *

أيها الانسان . . أنت قاتل ، قاتل للذين يحدقون فيك وللذين يحدقون منك ؛ وأيضا أنت قاتل للذين تظنهم يحدقون فيك أو منك . انك تقتل المحدقين ولمن تحسبهم محدقين . انك تقتلهم بأساليب مختلفة من أساليب القتل . انك تقتل من يحدقون فيك أو منك أو من تحسبهم يحدقون بالصلب أو بالتسميم كما قتلت المسيح وسقراط ، أو بما معناه الصلب والتسميم دون أن يكون بلغتهما . ان تاريخك ليس الا طريقا طويلا حزينا أليما متزاحما بضحاياك المحدقين أو الذين حسبتهم محدقين ، بضحاياك الذين قتلتهم بالصلب أو بالتسميم أو بما معناه الصلب والتسميم دون لغتهما ودون أسلوبهما ، أو بما هو دونهما ، أو بما هو أبشع في محتواه وتفاسيره منهما . ان شيئا واحدا لا تستطيع غفرانه أو تحمله أو مواجهته ، هو أن تكون محدقا أو محدقا فيك .

ولكن لك أسلوب آخر في قتل هؤلاء هو أكثر أساليب قتلك شمولا ، انه الاسلوب الذي قتلت به هذا الكائن الفلكي الذي أصبح انسانا . انه أسلوبك في تحويل جميع الافراد الى متلائمين معك وبك ، أو محاولاتك الشاملة الرهيبة لجعلهم كذلك . انه أسلوبك الدائم العالمي الذي تحاول ألا ينجو منه أحد . وهل يستطيع أن ينجو منه أحد كل أساليب ومعاني النجاة ؟

انك تقتل او تحاول ان تقتل جميع الافراد والجماعات بان تجعل التلاؤم معك وبك عليهم طغيانا لا يستطيعون الافلات منه ، أو لا يريدون الافلات منه ، أو لا يعرفون كيف يكون الافلات منه ، أو لا يجرؤون على محاولة الافلات منه أو حتى على التفكير في هذه المحاولة للافلات منه . ان كل انسان مفروض عليه التلاؤم على نحو ما وبأسلوب ما وعلى مستوى ما ، آذن كل انسان مقتول على نحو ما ، أو على مستوى ما ، أو باسلوب ما . ان انسانا ما لا

يستطيع أن يحيا كل ما فيه من احتمالات الحياة ، من احتمالات الرؤية والتفكير والاحتجاج والارادة والرفض والغضب . أن انسانا واحدا لا يستطيع أن يحيا كل حياته وطاقات حياته . ان في فرض التلاؤم كل أسباب القتل وكل نتائجه ومعانيه . أن من أسباب القتل ارادة منع الرؤية أو منع الاشمئزاز أو الغضب أو الاحتجاج أو الرفض ، أو منع المنافسة أو الخوف أو النقد ، أو منع كل احتمالات المقاومة بكل أساليبها ومستوياتها . ان من يقتل انما يقتل لاحد هذه الاسباب . ان القاتل ليس قاتلا في حوافزه ونياته ولكنه مقاوم لشيء أو رافض لشيء أو مريد منع شيء .

وفرض التلاؤم ليست له أسباب غير هذه الاسباب . فالذين يفرضون التلاؤم أو يريدونه انما يفرضونه ويريدونه ليقاوموا الرؤية أو الرفض أو الاشمئزاز أو الغضب أو الاحتجاج أو المنافسة أو الخوف أو النقد أو المقاومة، لان كل ذلك يفسد عليهم أمورهم أو استقرارهم أو أمنهم ، او رضاهم عن أنفسهم وعما عندهم وعما يفعلون ، أو يفسد عليهم اعجابهم بذلك . ان فرض التلاؤم أسلوب من أساليب القتل ، انه أسلوب من أساليب القتال ضد عدو ما ، عدو نتصوره أو عدو نجده . أن فرض التلاؤم حرب لا صلاة .

اذن فأسباب وحوافز القتل هي أسباب وحوافز فرض التلاؤم وارادته . .

أما نتائج القتل فهي ليست غيرامتناع أو زوال أو موت هذه المخاطر والمحظورات التي هي الرؤية والغضب والرفض والاحتجاج والنقد والاشمئزاز والخوف والمنافسة وكل أساليب واحتمالات المقاومة .

وهل يمكن أن تكون نتائج فرض التلاؤم هذه غير النتائج التي يعطيها القتل أو التي يراد منه أن يعطيها ؟

اذن فنتائج القتل هي نفس نتائج فرض التلاؤم . اذن فالتلاؤم قتل بأسلوب ما ، قتل بكل أسلوب ، بكل أساليب القتل . انه قتل بكل أسباب القتل ومعانيه ونتائجه .

ان فرض التلاؤم يحمي أبشع وأكبر الغباوات والتفاهات والفضائح والطغيان والهوان والذنوب والدمامات والمظالم والحقارات والآلام والعفونات من أن تكون مرفوضة أو مقاومة أو منقودة أو محتجا عليها أو مشمأزا منها ،

بل يحميها من أن تكون مرئية أو مسؤولة أو صانعة للتساؤل .

بل ان فرض التلاؤم يحول كل ذلك الى جمال وذكاء ومنطق وتفوق و يمان ومجد وعبقرية وانسانية ووطنية ومذهبية — بل يحوله الى آلهة وأنبياء ومعلمين وصلوات ومعابد .

وهل يفعل القتل غير هذا ؟ بل وهل يستطيع القتل أن يفعل كل هذا ؟

اذن ففرض التلاؤم هو قتل أكثر من القتل ، والخاضع للتلاؤم هو مقتول أكثر وأعنف من المقتول . ان قانون التلاؤم ليس قتلا فقط بل وهوان وهزيمة وتحقير وتشويه .

اننا بتلاؤمنا لا نكون موتى فقط ، بل نكون أكثر موتا وأبشع موتا من الموتى . ان الموتى يصبحون فقط عاجزين عن المقاومة وعن جميع أساليب الرفض . أما المتلائمون فان عجزهم عن الرفض وعن المقاومة هو بعض ما يكونون أو أصغر ما يكونون . انهم يتحولون الى جنود وأنصار والى أنبياء ومعلمين لما يجب رفضه ومقاومته .

ان المتلائمين لا يصبحون فقط عاجزين عن مقاومة أو عن رفض الطغيان والغباء والظلم والفساد والعبث والتفاهات والآلام والحقارات والحروب والعدوان والعداوات فقط كالموتى ، ولكنهم يصبحون أكثر من ذلك وشرا من ذلك . انهم يتحولون الى أنصار ومعلمين وحماة لما يعجز الموتى عن مقاومته ورفضه . ان الخاضعين للتلاؤم قتلى يصلون لقاتليهم ويموتون دفاعا عنهم ، واعجابا بهم ، وثناء عليهم ، وانبهارا بمزاياهم . انه لا يوجد مقتول أو مهزوم أو مهان أو مستعبد أو مضلل أو مفقوء العينين مثل الانسان لانه لا يوجد متلائم ومفروض عليه التلاؤم مثل الانسان .

* *

أيها الانسان .. أنت قاتل ، قاتل لنفسك ، ولكل أفرادك ، ولكل من يعايشونك أو يمارسونك بالرؤية والمواجهة والتفكير . أنت لا تكون الا قاتلا ، لا تكون الا قاتلا مقتولا . أنت قاتل لانك فارض للتلاؤم ، ومقتول لانك مفروض عليك التلاؤم . أنت أبدا قاتل مقتول .

أنت قاتل لنفسك ، ولافرادك ، ولكل من يهبطون اليك من العوالم المجهولة كما قتلت هذا الكائن الفلكي الذي هبط اليك . انت قاتل بالصلب والتسميم ، أو بما معناه الصلب والتسميم ، أو بما هو أبشع من الصلب التسميم . ان القتل بالصلب والتسميم بل وبالحروب هو اقل عنفا وشمولا من القتل بالتلاؤم .

انت تقتل كل من يحدقون فيك أو منك ، أو من تحسبهم كذلك بالصلب والتسميم وبما معناه الصلب والتسميم ، وبما هو أقسى من الصلب والتسميم. حتى الآلهة ، لقد قتلتهم لانهم كانوا يحدقون فيك . لقد قتلت فيهم الرؤية والرفض والاشمئزاز والجمال والعدل والمنطق والرحمة . حتى الآلهة لقد قتلتهم لانهم كانوا يحدقون فيك .

وانت تقتل كل افرادك ومجتمعاتك ممن لا يحدقون ولا يستطيعون أن يحدقوا ولا يريدون أن يحدقوا ، ولا يعرفون كيف يحدقون .. تقتل هؤلاء بفرضك التلاؤم عليهم . تقتل رؤيتهم وغضبهم ورفضهم واستبشاعهم وتفكيرهم ومنطقهم وذكاءهم وانبهارهم وحماسهم ونظافتهم وكبرياءهم وشرفهم وكرامتهم وشجاعتهم وصدقهم واحترامهم لانفسهم ولنياتهم ولحوافزهم ولاهدافهم ولاعضائهم ولشهواتهم وجوعهم . انك تقتل هؤلاء بالاسلوب الذي قتلت به الآلهة . لقد قتلت في الآلهة كل أساليب المقاومة والغضب والرفض ، وهكذا قتلت هؤلاء ، وهكذا قتلت في هؤلاء .

أنت تقتل هؤلاء ، تقتلهم وتقتلهم حتى يتقبلوا وجودهم ووجود ما حولهم وكل وجود يفرض عليهم ، حتى يتقبلوا املاء اعضائهم واملاء جوعهم واملاء عجزهم وآلامهم ومخاوفهم وضروراتهم وورطاتهم وعارهم — حتى يتقبلوا املاء كل ذلك على حياتهم وعلى كل ما يزعمون لانفسهم من كرامة وذكاء وشرف واباء وشجاعة وكبرياء ورفض وشموخ — حتى يتقبلوا كل ذلك كثناء عليهم ، ومحاباة لهم ، وكتضحية لا مثيل لها من أجلهم — حتى يتقبلوا كل ذلك كأعظم تمجيد لوجودهم،كأعظم تحية لهم من الالهة أو من الطبيعة — حتى يتقبلوا كل ذلك وكأنهم بتقبلهم له انما يهبون الشمس مزيدا من الضوء والضخامة والارتفاع والكبرياء .

انهم يتقبلون لانهم مقتولون ، لا لانهم فاهمون ، أو مقتنعون أو معجبون أو راضون . انهم يتقبلون آلهتهم ومذاهبهم ومثلهم وقيمهم وأخلاقهم

وتعاليمهم وعقائدهم وأديانهم وأوطانهم وزعماءهم وأنبياءهم ومعلميهم وكل أساليب ومستويات ونماذج حياتهم وأهدافهم وحوافزهم ونياتهم واقتناعاتهم وممارساتهم . انهم يتقبلون كل ذلك بالاسلوب وبالمنطق الذي يتقبلون به وقوع الذباب على طعامهم وعلى عيونهم وكما يتقبلون ان الذباب ليس الا هدية أكرم الآلهة .

انهم يتقبلون كل ذلك كما يتقبلون أعضاءهم ، وكما يتقبلون جوع أعضائهم ، وكما يتقبلون بذاءة وفحش ووحشية وتلوث أعضائهم . وانهم يتقبلون أعضاءهم وجوعها وبذاءاتها وفحشها ووحشيتها وتلوثاتها كما يتقبل الموتى قبورهم وأكفانهم .

انهم يتقبلون كل ذلك كما تتقبل اعضاؤهم اخلاقها وتلوثاتها وفحشها وبذاءاتها ووحشيتها .

انهم يتقبلون ذلك لانهم مقتولون قد ماتوا ، لا لانهم فاهمون أو مقتنعون أو معجبون أو راضون . انهم يتقبلون كل ذلك كما تتقبل الآلهة أحزانها وآلامها ومستوياتها — انهم يتقبلون كل ذلك بالاسلوب والمنطق اللذين تتقبلهم بهما الآلهة وتتقبل تعاملها معهم وتعاملهم معها وتلوثهم امامها .

أيها الانسان .. هل انت الانسان ؟ هل انت كل الانسان ؟ هل انت بدايته ؟ هل أنت نهايته ؟ هل انت الطريق اليه ، هل أنت الهرب منه ؟ هل انت تفسيره ، هل أنت صيغته في مرحلة وطور من مراحله وأطواره ، ام انت الصيغة الدائمة والتفسير الدائم له في كل صيغه ومراحله ؟ هل انت تطوير لنفسك وخروج عليها ، أم أنت تضخيم لنفسك وتمكن فيها ؟ هل انت بحث عن المفارقة أم تمكين للبقاء ؟

هل انت العبث الذي يتحول الى منطق ، أم انت العبث الذي يتعاظم عبثه ؟ هل انت الذنب الذي يتحول الى توبة واستغفار ، أم انت الذنب الذي يتحول الى قوة وإصرار ؟

هل انت التلوث الذي يتحول الى نظافة ، أم انت التلوث الذي تزداد قدرته على التلوث وتزداد أعضاؤه وثيابه الملوثة ؟

هل أنت الدمامة التي تتحول الى جمال ، أم أنت الدمامة التي يتعاظم حجمها وتتكاثر وجوهها الدميمة ؟

هل أنت الانانية التي تتخلى عن نفسها ، أم أنت الانانية آلتي تزداد استمساكا بنفسها وخضوعا لطغيانها وعدوانها ؟

هل أنت الجوع الذي يتداوى من جوعه ، أم أنت الجوع الذي تتكاثر احتياجات جوعه ؟ هل أنت الخوف الذي يتداوى من خوفه ، أم أنت الخوف الذي تزداد موهبته على أن يضاعف من أسباب خوفه ؟

هل أنت الآلام والمشاكل والهموم والمخاطر التي تضيق حدودها وانطلاقاتها فوق الارض ، أم أنت الآلام والهموم والمشاكل والمخاطر التي تمتد حدودها وانطلاقاتها الى ما فوق النجوم ؟ هل أنت كائن تكبر أعضاؤه وتتسع قدرة خطواتها ، أم انت كائن تتخلى اعضاؤه على أخلاقها ؟

* *

أيها الانسان .. أنت كائن يكبر ، فهل أنت تكبر في حجمك وفي قدرتك ، أم تكبر في معناك وتفسيرك ؟ هل أنت كائن يكبر في صفاته أم كائن يكبر في قدراته ؟

انت كائن يتوالد ، فهل أنت تلد ذاتك في حجم وقدرة أكبر على أن تكون ذاتك ، أم تلد كائنا آخر ، كائنا مناقضا في تفاسيره ، وفي حوآفزه وأهدافه ونياته ؟

هل أنت تلد نفسك أم تلد نقيضك ؟

هل أنت كائن يكبر ، أم كائن يعظم ؟ هل أنت كائن يتعاظم معناه أم كائن يتعاظم وجوده ؟ هل تعاظم وجودك يعني تعاظم معناك وتفسيرك ونياتك وحوافزك وأهدافك ؟ وهل تعاظم وجودك دون تعاظم معانيك وتفاسيرك ، ودون تعاظم نياتك وحوافزك وأهدافك ، شيء ينفعك أو يريحك أو يمجدك ، او يجعلك شيئا تفسر به حكمة الآلهة وعبقرية الطبيعة ، أو شيئا يجعل لوجود الآلهة أو لوجود الطبيعة تفسيرا مفهوما أو مقبولا أو مغفورا ، أو يجعل لوجودك

ولاعجابك بوجودك تفسيرا من أي نوع وبأية لغة ؟

ان وجودك يتعاظم ويتغير ، ولكن معناك وتفسيرك لا يتعاظمان ولا يتغيران . ان تفسير أو معنى أي شيء لا يتغير مهما تغير وجوده . ان العبقرية هي تعاظم وجود لا تعاظم معنى ولا تعاظم تفسير . ان العبقرية هي تعاظم اعضاء لا تعاظم ذات ، انها تعاظم حركة لا تعاظم مستوى . ان العبقرية تجعلك كبيراً في حركتك دون أن تجعلك كبيرا في حبك أو في خوفك أو في جوعك أو في كبريائك أو في غاياتك .

ان كل شيء هو وجوده فقط ، لا تفسيره ولا معناه لانه لا تفسير ولا معنى له سوى وجوده . ان معنى وتفسير الشمس ليسا أكثر أو افضل من معنى وتفسير أصغر هباءة . أن الفرق بين الشمس وبين أصغر هباءة هو فرق وجود لا فرق تفسير ولا فرق معنى .

وماذا يعني فرق الوجود دون فرق في التفسير أو المعنى ؟

ماذا يعني أن تكون ذاتك أو أعضاؤك في حجمها وحدودها اضعاف أضعاف ذاتك وأعضائك اذا ظل معناك وتفسيرك دون تغيير ؟ اذا ظلت نفسك ، وظلت احتياجاتك ومخاوفك ومجاعاتك وضعفك دون تغيير ؟

أليس الوجود الكبير ، أليس الحجم الكبير قد يتحول الى تعقيد اذا لم يكن لهذا الوجود الكبير أو الحجم الكبير معنى أو تفسير ، أي اذا لم يكن لهما معنى أو تفسير ملائم ، اي اذا لم يكن لضخامة الحجم والوجود ضخامة مماثلة في التفسير والمعنى ؟

أليس الحجم الكبير أو الوجود الكبير بلا تفسير أو منطق كبير تشويها كبيراً؟

وماذا يعني أن تكون هذه الشجرة كبيرة بلا حدود اذا لم يكن لوجودها معنى أو تفسير ، واذا كانت خصائصها النفسية والذاتية لن تتغير ؟ ماذا يمكن أن تستفيد هذه الشجرة أو يستفيد أي شيء من كونها اي كون الشجرة كبيرة بلا حدود ؟ ماذا ربح الكون أو الآلهة أو البشر من كونه اي من كون الكون بهذا الحجم الساخر من منطق الآلهة والمشقي لمنطق الانسان ؟

هل يستفيد الفيل من وجوده الكبير اكثر مما تستفيد النملة أو العصفور من وجوده الصغير ؟ هل يستفيد منطق الاله أو منطق الطبيعة من وجود الفيل أكثر مما يستفيد من وجود العصفور ؟ هل يرضى الأله عن نفسه لانه خلق الجبل الكبير أكثر مما يرضى عن نفسه أو أكثر مما يعجب بنفسه لانه خلق الجبل الصغير ؟

هل ترضى الطبيعة عن نفسها او تعجب بنفسها بهذا الاسلوب او انها فعلت ذلك ؟

ان وجودك أيها الانسان يتفاوت كتفاوت وجود الفيل ووجود النملة ، او كتفاوت وجود أكبر كوكب ووجود أصغر هباءة ، دون أي تفاوت في تفسيرك أو معناك أو في خصائصك النفسية والذاتية والمنطقية . انك تتحضر وتتعاظم في وجودك وفي حضاراتك ولكن هل تتحضر أو تتعاظم في معنى وجودك أو في منطق وجودك أو في تفسير وجودك ؟ أليس ذلك كالضخامة في عضلات الاله دون أية ضخامة في منطقه أو في أخلاقه ؟

✶✶

ان العبقرية ليست تفاوت تفسير أو معنى ، بل تفاوت وجود ، انها تعاظم أعضاء أو كينونة ، وليست تعاظم قيمة او شرف أو طهارة او كبرياء .

ان هذا هو أنت أيها الانسان .. انك أنت هذا فقط ، فقط .

هل أنت اذن عظيم ؟ هل أنت ربح أو مجد لنفسك أو لغيرك ؟ هل أنت كائن فيه أي تمجيد لعبقرية الآله أو لعبقرية الطبيعة أو لاية عبقرية ؟

كيف رآه كل العقول

« .. كيف أمكن أن يتفق الناس الكثيرون جداً المختلفون المتفاوتون جدا في جميع مستوياتهم وظروفهم العقلية والثقافية والعلمية والنفسية والاخلاقية والتاريخيـة والميلادية بل وفي أهوائهـم وهمومهم ومصالحهـم ومواجهاتهم وتجاربهم ؟ كيف أمكن أن يتفق كل هؤلاء على الاقتناع باله واحد أو بنبي واحد أو بزعيم أو بمذهب أو دين واحـد أو بأعداد هائلة من المعتقدات المتنافـرة المتنافية المتناقضة البليدة الهمجية التي ترفض كل العقول منطقها وترفض كل العيون دمامتها وترفض كل الاخلاق والحضارات وحشيتها ؟ كيف أمكن أن ترى عيون كل هؤلاء الناس هذا الاله أو هذا النبي أو هذا الزعيم أو هذا القديس أو هذا البطل أو هذا الدين أو هذا المذهب بكل هذه المزايا والاخلاق والتفوق والقوة والمجد والخلود ؟ كيف أمكن أن يروه جميعا نفس الرؤية الواحدة ؟ كيف توحدت كل عيونهم في عين واحدة وعقولهم في عقل واحد ونماذجهم في نموذج واحد ؟ لقد توحدوا في أيمانهـم ورؤاهم لانهم لا بد أن يتوحدوا في مواقفهـم وسلوكهم ، ولم يتوحدوا في مواقفهـم وسلوكهم لانهـم متوحدون في ايمانهم أو رؤاهـم ... »

**

أنت محكوم عليك بأن تعيش مع الآخرين ، بل في الآخرين ، وكما يعيش الآخرون . اذن أنت مقضي عليك بالبحث عن التوافق معهم وبالتزام هـذا التوافق في جميع نماذجه وأساليبه المختلفة ، اي في السلوك وفي التفكير وفي الايمان والاقتناع والاعجاب ، وفي الرفض والاستنكار ، بل وفي البغض لانك محكوم عليك بالبحث عن التوفيق بين أفكارك ونظرياتك وبين ظروف حياتك وتصرفاتك ، بل محكوم عليك بالتزام وتحقيق هذا التوفيق . لان الشقـاق بين هذا وهذا يعذبك وقد يفضحك أحيانا .

ان خروجك في سلوكك على المجتمع شيء لا تستطيعه ، ولعلك أحيانا لا تستطيع ارادته . وان خروجك في فكرتك أو في مذهبك أو في اعتقادك على سلوكك شيء يشقيك ويؤنبك ، وقد يهجوك ويحولك الى متهم .

انه لمأزق قد حكم عليك بمواجهته . لقد واجهته باحثا عن الراحة لا عن

الصدق ، وبالاستسلام لا بالمقاومة . لقد واجهت هذا المأزق كما كان ينتظر منك ومن كل من كان في موقفك أن يواجهــه .

انك لا تعتقد ما يعتقده الناس من أديان أو مذاهب أو تعاليم أو أخلاق لانك مقتنع به أو فاهم له أو حتى مفكر فيه أو متصور أو محترم له ، بل لانك محكوم عليك بالتلاؤم معهم في سلوكهم وحماقاتهم وفي عبادتهم لاوثانهم . لقد فرضت عليك الحاجة الى التلاؤم السلوكي الحاجة الى التلاؤم الفكــري أو الاعتقادي أو المذهبي . لقد اعتقدت ما اعتقد الآخرون ، لانه محكوم عليك أن تفعل ما يفعلون أو أن تبدو كما يبدون . انك لم تتظاهر أو تنافق فقــط بل لقد اعتقدت مــن داخلك . لقد عاش الآخرون في عقلك كما عاشــوا في سلــوكك ومواقفــك .

لقد آمنت بجمال الوثن وبالوهيته ، وزعمت ذلك لانه قد حكــم عليك بالسجود له . لقد كان ذلك أكثر راحة وأمنا لك وتوافقا ذاتيا من أن تسجد له مع اقتناعك واعلانك بأنه لا جمال فيه ولا الوهية له .

لقد كان الايمان من الداخل يهبك الراحة والرضا عن النفس أكثر ممــا يهبك ذلــك النفــاق .

لقد أدركت أن من الصعب أو من المستحيل أو من القتل أو من العذاب أو الهوان أو الضياع والمطاردة الخروج على سلوك الجماعة أو على السلوك المفروض عليك ، لهذا أدركت أن من التشويه والتهديد والتوبيخ لك أن تكون أفكارك أو مذهبك أو عقائدك خارجة على السلوك الذي لا تستطيع الخروج عليــــه .

لقد اضطررت الى التوفيق بين آرائك وسلوكك ، أي بين ذاتك وذاتك، أو بين ذاتك ورؤيتك لذاتك ، أو بين ما يراه الناس منك وما تراه أنت مــن نفسك . لقد كان معنى هذا أن تفكر تفكير الجماعة ، وأن ترى بعيونها ، وأن تفسر وتؤمن بمنطقها اذ لم يكن بد من أن تسلك سلوكها .

انك اذا كنت ممنوعا من رؤية الاشياء أو من رؤية أي شيء فان المعقول لك ومنك حينئذ أن تغلق عينيــك بل أن تفقأهمــا .

ان العيش والتوافق مع الآخرين لا بد أن يعني فقء العينين أو اغلاقهما .

انه لا يوجد من لم يفقأوا عيونهم أو يغلقوها . انه لم يوجد من لا يحتاجون الى ذلك . وانك اذا كنت لا تستطيع أن تنقد أو ترفض ، ولا تستطيع أن تؤمن أو تقبل فان المنطق حينئذ الا تحاول أن تفكر أو تفهم .

وانك اذا كنت لا تستطيع الا أن تصلي للطغيان في جميع معابده العامة فان المريح الملائم لك حينئذ والاكثر سترا لعارك وهوانك ، وتخفيفا من تعذيب اخلاقك لك ومن احتجاجها عليك ، هو أن تذهب تحاول البحث عن أسباب الاقتناع بمزايا الطغيان ، بمزاياه المذهبية أو الدينية أو القومية أو الوطنية أو الانسانية ، وان تجد هذه الاسباب المقنعة . ان عارك المحول الى مذهب أو دين أو نظام تؤمن به قد يكون أقل تعذيبا لك من عارك بلا دين أو مذهب .

انك تحت الظروف المحرضة قد تنافق وتستطيع أن تنافق ، ولا بد أن تنافق ولو احيانا . وهل يوجد في الناس من لا ينافقون أو من يستطيعون الا ينافقوا ؟ ولكن النفاق ليس نشوة روحية او مجدا روحيا . انه ليس استمتاعا أو انتصارا أو مجدا من أي نوع . ولكنه أي النفاق تعذيب وتشويه ومعاناة باهظة . وقد يكون أسلوبا من أساليب التضحية أو الفداء أو النضال الشاق . قد يكون أسلوبا من أساليب البكاء أو من أساليب الشتم للذات . قد يكون المنافق انسانا يبكي نفسه ويهجوها بأقسى الاساليب وأشدها حزنا ومرارة .

لعل المنافق ليس الا انسانا يعاقب نفسه وذكاءه وضميره واخلاقه ويقاتلها ويتحداها وينشق عليها . لعله يرثيها بصدق وقداسة ودموع فيها كل الاحزان .

ان المنافق قد يكون مظلوما ومعتدى عليه ومضطهدا وفدائيا وانسانيا مهما بدا غير ذلك أو نقيض ذلك . هل يوجد أحق بالرثاء أو الاعجاب أو الحب من انسان لا يستطيع أن يقتنع ثم لا يستطيع أو لا يجرؤ أو لا يقسو ليقول انه غير مقتنع ؟

لهذا كان من الاسهل عليك والارفق بك — ولو أحيانا — أن تخضع منطقك لسلوكك أو لموقفك المفروض عليك بديل أن تنافق وأن تقاسي كل

أهوال النفاق وهوانه وحقاراته وتهديداته واحتمالات افتضاحه او افتضاحك به . ان المنافق ليس الا انسانا يبكي ويصلي مهما بدا يغني ويضحك ويعصي. انه يتعذب مثل شهيد ..

ان توحد مذهب المجتمع أو توحد دينه أو الهه أو زعامته او تعاليمه وتقاليده لا يؤكد حقيقة فكرية ، بل يؤكد سلوكا جماعيا محتوما أو مفروضا . ان هذا التوحد المثير يؤكد أننا لا بد أن نكون أدوات مخلوقة مسحوقة في الجهاز الكبير الرهيب ، اي ان نكون بلا حرية مهما كانت الحريات موجودة ومشروعة ومنادى بها وممارسة ، ومباحة ، ومعروضة في جميع الاسواق والمعابد ، وفي جميع القوانين ، ومن فوق جميع الاجهزة والمنابر ، بلا اي منع او محاسبة . اننا لا نعيش الحرية بقدر ما تكون موجودة او مبذولة او مطلوبة بل بقدر ما نستطيعها أو نريدها أو نسعد بها ، ان الحرية ليست دائما ربحا أو شهوة .

ان حرية اي انسان في المجتمع او امام املاء المجتمع لا تساوي اكثر من حرية اي عضو من اعضاء الجسم في الجسم وأمام املاء الجسم وضغوطه عليه . انها حرية قانونية او افتراضية فقط . ان هذه الحرية ليست هي كل الحرية ولا اقوى أو أفضل أنواع الحرية . انها كحرية الجسم في الا يشيخ أو يمرض أو يضعف أو يموت .

ان عقل الانسان وحريته وشجاعته مسحوقة ومهانة ومهزومة تحت وقع واملاء هذا الجهاز الرهيب . ان ضرورة التوافق او التوحد مع الاخرين أو مع المجتمع هي أقوى وأشمل واخلد واشهر الاعداء لحرية الانسان .

انهم ليسوا الطغاة هم اقوى من يسلبوننا الحرية . ان الطغاة ليسوا سوى عمل صغير رديء في الجهاز الضخم الذي يأكل حرياتنا .

ان التوحد او التوافق في اية فكرة او سلوك لا يعني فهما موحدا ولا مستوى موحدا أو حتى متقاربا من مستويات الذكاء أو عمق الحساسية أو من مستويات القدرة على الرؤية أو على النظافة والنزاهة والمقاومة أمام الحقائق والاحداث ، أو أمام المشهد أو الموقف الواحد . ان المتوحدين او المتوافقين ليسوا متوحدين أو متوافقين في تفاسيرهم اكثر من المختلفين المتنازعين المتقاتلين .

ان هذا التوحد أو التوافق انما يعني أن حاجة الآحاد الى التوحد والتلاؤم في سلوكهم ومواقفهم هي التي تصوغ أفكارهم وعقائدهم وتوحدها . انه يعني ان عمل الناس هو الذي يصنع مذاهبهم وأديانهم وتعاليمهم الموحدة . آنه يعني أن ضغوط المجتمع على آحاده هي التي تصوغهم صياغاتهم المذهبية والدينية والتعايمية والسلوكية وجميع صياغاتهم .

ان البشر ليسوا وحدات مفروضا عليها أو مطلوبا منها أن تتوحد في سلوكها وفي صيغها ومواقفها الاجتماعية لانها وحدات مفروض عليها أن تتوحد في اقتناعاتها العقلية . ولكنهم وحدات مفروض عليها ان تتوحد في اقتناعاتها العقلية لانهم وحدات مفروض عليها أن تتوحد في سلوكها وفي صيغها الاجتماعية . انهم مستعبدو العقول والعقائد لانهم مستعبدو الصيغ والسلوك والمواقف والاخلاق .

ان البشر وحدات لها سلوك وصيغ اجتماعية تتحول الى صيغ فكرية ومذهبية ودينية وتعليمية ، وليسوا وحدات لها اقتناعات عقلية او مذهبية أو دينية أو تعليمية . ان الاقتناعات العقلية والمذهبية والدينية والتعليمية ليست مأخوذة من ذاتها ولا موجودة من اجل ذاتها او في ذاتها .

* *

انه لصعب جدا تصور هذا . كيف أمكن أن يحدث هذا الذي يصعب تصوره ، بل أن يصبح هذا الذي يصعب تصوره هو الذي يحدث دون منازع او بديل ؟ كيف حدث أن هذا الذي يصعب تصوره هو الذي يحدث دائما في كل التاريخ وفي كل المجتمعات ؟

كيف أمكن ان يتفق كل هؤلاء الناس المختلفين المتفاوتين جدا في جميع مستوياتهم وظروفهم العقلية والثقافية والعلمية والنفسية والاخلاقية والميلادية والتاريخية ، بل وفي أهوائهم ومصالحهم وهمومهم وتجاربهم ومواجهاتهم ؟

نعم ، كيف أمكن ان يتفق جميع هؤلاء على الاقتناع بإله واحد أو بنبي واحد أو بزعيم واحد أو بمذهب او دين واحد ، أو بأعداد هائلة من المعتقدات المتنافرة المتنافية المتناقضة البليدة الهمجية التي ترفض منطقها كل العقول ، وترفض دمامتها كل العيون ، وترفض وحشيتها وبذاءتها كل الاخلاق ؟ كيف امكن أن يتسع نعش واحد أو قبر واحد لتوضع فيه كل الجثث في وقت واحد وحالة واحدة ؟ كيف امكن أن يحتلم كل الناس بهذه الذات الواحدة ، بهذا

الاسلوب الواحد ، في هذه الليلة الواحـــدة ؟

كيف أمكن أن ترى عيون كل هؤلاء الناس هذا الاله أو هذا النبي أو هـــذا الزعيم أو هذا القديس أو هذا البطل أو هذا الدين أو هذا المذهب بكل هـــذه المزايا والمواهب والاخلاق والذكاء والصدق والخلود والتفوق والقوة والمجد ؟ كيف أمكن أن يروه جميعـــا نفس الرؤية الواحدة ؟ كيـــف توحدت عيونهـــم في عـــين واحــــــدة ؟

كيف أمكن أن يحدث هذا ، أن يحدث هذا الذي يصعب تصوره ؟

من الممكن أن يقال انهم اتفقوا على ذلك بالتلقين . وحتما لقد تلقوا ذلك تلقينا . وفي كل التاريخ كان التلقين أقوى وأذكى وسائل الاقناع . انه اقوى وأذكى من كل منطق . ان البشر لم يجدوا أو يواجهـــوا منطقا له العالميـــة التي لمنطـــق التلقـــين .

لقد كان التلقين سلاحا لا مثيل له بين الاسلحة . انه سلاح يطلق على كل انسان ، ويصيب كل انسان ، ويستسلم له كل انسان . لقد كان التلقين هو السلاح السري الذي صنع أمجاد وانتصارات جميع الانبياء والزعمـــاء والدعـــاة الماكـــرين .

ولكن كيف امتلك التلقين كل هذه القوة الخارقة ؟ هل كان يمكن أن يكون له كل هذا الجبروت الاملائي لولا قوة السلوك الجماعي وما له من طغيـــان وسلطان له كل جبروت الاملاء والانتصـــار ؟

لماذا احتاجت المجتمعـــات الى التلقـــين وابتكرته ومارسته ؟ ولماذا جاء مقبولا وقويا في جميع المجتمعـــات ؟

هل يمكن أن يقنع التلقين العقول ، أو أن يفهم الملقنون ما يلقنون لولا قوة الاملاء في سلوك الجماعة والمجتمع ؟ وهل الملقنون في مستوى عقلي أو علمي أو ثقافي واحد لكي يتساووا في الفهم والاقتنـــاع ؟

اذن كيف تقبلوا التلقين وتساووا في تقبله ؟ ولماذا جاء التلقين ، وجاء بهذه الصيغة دون غيرهـــا ؟

ان التلقين وصيغته ليسا الا بحثا عن سلوك ما بصيغة ما ، وليسا الا تعبيرا عن هذا السلوك وعن صيغتـــه .

انهم لم يتقبلوا التلقين الا بقانون الخضوع لسلوك الجماعة ، وبقانون الحاجة الى التلاؤم والتوافق مع الجمـــاعة .

ان قوة التلقين ليست الا تعبيرا عن قوة الحاجة الى التلاؤم والتوحد مع الجماعـــة في تفاهاتهـــــا .

انه لمحتوم ان نختلف ونتفاوت بل ونتناقض في فهم وتفسير وتقبل مـــا نلقن لو كنا نتلقى آلهتنا ومذاهبنا وعقائدنا عن التلقين وبالتلقين وحـــده ، لا باملاء سلوك المجتمع علينا ولا عن هذا الاملاء .

ان الانسان جماعي السلوك والمواقف والحماقات والفضائح . لهذا كان محتوما ان يكـــون جماعي الآلهـــة والانبياء والزعماء والمذاهـــب والاديان والغباوات . ان قيمة جماعية الغباء لا تساوي أكثر من قيمة جماعية السلوك والمواقف . ان الغباء الذي تؤمن به الجماعة يتحول الى قيمة لانه يتحول الى تفسير وتسويغ وتمجيد للسلوك الجماعي الغبي او العدواني أو الفاضـــح أو التافـــــه .

اننا محتاجون الى ان نكون صيغة واحدة في معاداتنا للاخرين وفي حقدنا عليهم وفي توحيد مواقفنا منهم وفي قوة اصواتنا في سبهم واتهامهم ، لهذا كنـــا محتاجين الى ان نكون منطقا واحدا في تفسيرنا للاله أو للمذهب أو للنظـــام الذي ســـوف نفعل باسمـــه .

ان جماعية الانسان هي التي اقنعته وتظل تقنعه دائما بآلهته وأنبيائه وزعمائه وبأديانه ومذاهبه وتاريخه وتقاليده وتعاليمه ، وليس الذي أقنعـــه ويقنعه هو ما رأى او علم أو جرب في وجوه أو في عقول أو في أخلاق وضمائر ومواهب أربابه وأنبيائه وزعمائه وتاريخه وأديانه ومذاهبه وتقاليده وتعاليمه من جمال وصدق وذكاء ونظافة وعبقرية وصداقة وحب ووضوح وأشراق . ان هذه الجماعية هي التي أقنعتـــه بذلك ، وهي أيضا التي وحدته في فهمـــه وفي تفســـيره لذلـــك .

ان هذه الجماعية الانسانية هي أقدر على الاقناع وعلى صياغة المنطق من جميع الآلهة والانبياء والزعماء والاديان والمذاهب والتعاليم ، ومن جميع ما في الكتب المنزلة من جبروت وارهاب وفصاحة ووعد ووعيد ، ومن تهاويل وأهوال ، ومن نيران وجنات وسموات ، ومن آلهة لا مثيل لها في الشراسة والقوة والجوع والطغيان والانانية والكبرياء ووحشية الضمير والاخلاق . ان جماعية السلوك هي التي سوغت وتسوغ دائما للبشر حماقاتهم الكبرى الرهيبة . وليس منطقهم الضال أو المخدوع أو الكاذب المنافق هو الذي سوغ لهم ذلك . انه لولا جماعية السلوك وما لها من املاء لما استطاع أي منطق ولا أي شيء أن يجعلهم يجرؤون على خوض حروبهم .

ان الانسان ليس كائنا يفكر ويقتنع ثم يقتنع بأنه قد اقتنع ، ولكنه كائن يتلاءم . ان تلاؤم الانسان واحتياجه الى التلاؤم هما الهزيمة الشاملة الدائمة العالمية لذكائه ولكبريائه ولتفكيره ولحريته ولشجاعته وقوته وموهبته .

ان ضرورة التلاؤم في أخلاق البشر وفي سلوكهم وفي نياتهم وخوفهم وجوعهم وفي أفكارهم ومشاعرهم ، وفي جميع مواقفهم ومواجهاتهم هي أطغى قوة في التاريخ قد اذلت وهزمت عقولهم وروضتها وصاغتها في نماذجها البليدة الموحدة المستسلمة العدوانية الحمقاء . انه لا شيء يستطيع أن يعتدي على حرية الانسان وعلى ذكائه بل وعلى أخلاقه وشهامته وعلى احترامه لنفسه ، بكل هذا الشمول و لديمومة مثل احتياجه الى التلاؤم .

**

أجل ، انه ليرهق الانسان ويحرجه ويؤنبه ، بل ويتهمه أحيانا أو دائما أن ينشق على ذاته بقدر ما يرهقه ويعجزه ويرهبه ويقتله أحيانا أن ينشق على مجتمعه . ان هذا لا بد أن يدفعه ، أو هو خليق بأن يدفعه ، دائما أو أحيانا الى أن يخضع ويهزم ذاته وكل ما فيها من أشواق وتطلعات واحتجاجات واحتمالات أخرى ، ليكون متوافقا مع ما يستطيع أو خاضعا له ، أي ليكون آمنا ومستترا ومستقرا ومحترما أو متقبلا ، أو واجدا نفسه في الاخرين ومعهم، أو محاولا لذلك . ان كل انسان محتاج الى ان يجد نفسه على نحو ما وباسلوب ما مع الاخرين وفي الاخرين .

ان الذي لا يستطيع أن يقف الموقف الذي يتمناه ويمجده سيحاول الا يكون تفكيره تفكير ذلك الموقف الذي يتمناه ويحترمه ولا يستطيعه . انه

حينئذ سيحاول ان يجعل تفكيره متلائما مع الموقف الذي يستطيعه .

ان الناس يضلون ويفسدون ويهونون ويتبلدون ويعجزون بتفكيرهم حينما يقعون تحت ظروف تضطرهم الى أن يكونوا كذلك بسلوكهم ومواقفهم. انه لشبه المستحيل أن تكون ضال الموقف ، بليده ، غويه ، ثم تكون مستقيم المنطق ، ذكيــه ، تقيــه .

اليس المحكوم عليهم بأن يكونوا رجعيين في حياتهم ، اي بأن يحيوا كما يحيا الرجعيون ، أو بالاساليب والمستويات والاخلاق التي يحيا بها الرجعيون محكوما عليهم بأن تكون أفكارهم من الداخل رجعية ، أو بأن يحاولوا ويتمنوا أن تكون أفكارهم كذلك ، ولو غالبا أو أحيانا ؟

انه ليس فينا من يريد أو يتقبل بلا اضطرار أو الزام أن يرى نفسه أو يراه الاخرون خارجا في أهوائه ، أو في مواقفه ونياته ، على عقائده ، أو على نظرياته ، أو على مذهبه ودعاواه . لهذا فاننا اذا لم نستطع أن نعمل ونكون كما نفكر فاننا سنحاول أن نفكر — من داخلنا — كما لا بد أن نعمل ونكون ، او كما نستطيع أن نعمل ونكون . اما أن نعمل ونفكر دون أن يتدخل الاخرون، أو دون أن نحسب لهم حسابا فهذا هو أحد المستحيلات المقنعة باستحالتها . ان عيوننا ومشاعرنا وافكارنا لا بد أن تحـــدق في الاخرين برهبة او بأمل أو بانهزام أو بنفاق كلما حاولنا أن نتحرك أو نفكر . . .

ان قدرتنا على أن نكون تتدخل دائما في قدرتنا على أن نفكر . ولكن هل تتدخل قدرتنا على أن نفكر في قدرتنا على أن نكون ؟

اننا محكوم علينا بأن نحاول موافقة الاخرين فيما يرون اذا لم نستطـــع مخالفتهم فيما يعملون. ان الذي لا يستطيع أن يحول خلافاته الفكرية أو المذهبية او الدينية الى مواقف باسلة متحـــدية معلنة لا بد أن يجد ضرورات وضغوطا واسبابا كثيرة وقوية تدعوه أو تحتـــم عليه التخلص من تلك الخلافـــات ، أو تفتح أمامه الباب لكي يفعـــل ذلك .

انه لشيء مؤلم ومحرج ومذل مخيف لنا ان نتصور أنفسنا أو ان يتصورنا الاخرون غير أحرار ، أو غير صادقين ، أو غير مختارين لسلوكنا أو لآرائنـــا التي نرى بها اربابنا وزعماءنا وانبياءنا ومذاهبنا وادياننا . نحن نريد دائما أن

نبدو لانفسنا وللاخرين في أجمل وأصدق وأقوى وأشجع الصيغ الانسانية .

اننا لهذا لا بد أن نحاول الهرب من هذا التصور لانفسنا أو من هذا الموقف . انه تصور أو موقف لا بد أن يجعلنا نتعذب ونعاني من الشعور بالعار والمذلة والهزيمة مهما كانت ضآلة آحترامنا لانفسنا . وسيكون أسلوبنا أو أحد أساليبنا في الهرب من ذلك هو أن نحاول اكراه تفكيرنا على التوافق مع السلوك والتفكير اللذين لا نستطيع مخالفتهما .

ان سلوك الانسان مقيد أكثر وأشمل من تقييد تفكيره . لان السلوك مكشوف ومتصادم ومناقض أكثر . ولكن تفكيره محتاج أيضا الى التقييد بسلوكه . لهذا فان التفكير خاضع للقيود لان السلوك خاضع لها أكثر . وهل يمكن أن يخضع التفكير لاي شيء لولا خضوعه للسلوك ؟ انه سيجد الكون أكبر منه . ولكن هل يخضع له لولا خضوعه للسلوك ؟

انه اذا كان محتوما علينا أن نعمل ونفكر مكرهين فان من الافضل والاجمل بنا ولنا أن نحتال على الاقتناع بما أكرهنا عليه ، لنكون مختارين أو لنبدو كذلك . اننا نقتنع بما أكرهنا على الالتزام به بلا تدبير . ان الفروق بين اقتناعات الناس المذهبية والدينية والتعليمية هي فروق كينونات لا فروق تفكير .

ان الانسان قادر على اخضاع سلوكه . وانه أيضا لقادر على اخضاع تفكيره . انه ليخضع تفكيره وليس تعبيره فقط عن تفكيره .

ومهما تحدث الانسان عن أفكاره الحرة وعن شجاعته فليست شجاعته وحرياته الا تعبيرا عن خضوعه . ان الخضوع أسلوب من أساليب الحرية ، كما أن الحرية أسلوب من أساليب الخضوع . ان خضوع النهر في جريانه صيغة من صيغ الحرية ، وان حريته في جريانه صيغة من صيغ الخضوع .

ان الخضوع والحرية كلاهما حرية ، أو كلاهما خضوع ، أو كلاهما حرية وخضوع . ان الفكر المتوقد المتلفت المتطلع المحدق بشراسة ليس حرا في الا يكون كذلك ، وان الفكر الخامد الغافر المغضي حر في أن يكون خامدا غافرا مغضيا .... ان كلا الفكرين حر أو كليهما غير حر ، أو كليهما حر وغير حر .

كيف يمكن أن يجمع كل هؤلاء البشر بمثل هذا الاسلوب والتتابع والاقتناع على الايمان بأساطيرهم وتعاليمهم المختلفة ، حتى لكأنهم قطع من الطين أو التراب ، توضع كل أحجامها وأشكالها على مقاس واحد ؟ من وهب عقولهم كل هذه القدرة على الاقتناع الموحد ؟ كيف استطاعت عقولهم أن ترى وتعلم وتؤمن وتقتنع دون أن تستعمل نفسها ؟

نعم ، لقد وجدوا أنفسهم مقتنعين أو وجدوا عقولهم مقتنعة . ولم يناضلوا ليكونوا كذلك .

هل كان ممكنا أن يوحد الناس ايمانهم وعقائدهم ورؤيتهم لاربابهم لو لم يكونوا محتاجين الى أن يوحدوا صلواتهم ومعابدهم وهتافاتهم وخطواتهم الحمقاء ؟ كيف كان يمكن أن نرى هذا الاله جميعا ، وأن نراه بهذه الصيغة وبهذه الصفات والاخلاق والشهوات والارهاب ، وبهذا الاحتياج الى صلواتنا وعباداتنا ، والى هزائمنا وضعفنا وتملقنا له ، لولا حاجتنا الى أن نقف في طابور واحد ، والى أن نبكي بلغة واحدة ، والى أن نكذب ونفتضح ونمارس العار والتفاهة والهوان والغباوات بأسلوب واحد وصيغة واحدة ؟ لقد رأيناه هكذا لاننا مضطرون الى أن نمارسه ونمارس أنفسنا هكذا . لقد أصابت الحماقة كل عقولنا لانها لا بد أن تصيب كل سلوكنا . لقد توحدنا في المنطق لتوحدنا في السلوك . انها لقضية مفهومة أو يجب أن تكون مفهومة . انها لقضية لا بد أن تظل غير مفهومة ولا ينبغي أن تكون مفهومة مهما كانت مفهومة ووجب أن تكون مفهومة .

ان الذين يفرضون علينا سلوكا معينا هم حتما يفرضون علينا تفكيرا معينا أي مذهبا معينا أو دينا معينا او تعاليم ونظريات معينة ، أي يفرضون علينا الاقتناع بذلك . أي انهم يصنعون لنا هذا الاقتناع ، وليسوا فقط يطالبوننا به ، أو يريدونه لنا ، أو يفرضون علينا اعلانه فقط .

اذن فالبشر ليسوا كائنات معتقدة أو مقتنعة أو مؤمنة ، بل هم كائنات ملتزمة أو متتابعة ، تدعو التزامها وتتابعها اعتقادا وايمانا واقتناعا ومذاهب وأديانا ونظريات .

ان المراد هنا الالتزام بالاخرين وبالوقوف في الطابور الطويل لا بالاخلاق أو بالمثل . فالمذهب والاعتقاد هما تناسخ من المجتمع وذوبان فيه ، وهزيمة

نتلقاها منه ، وليسا أي المذهب والاعتقاد فهما أو اقتناعا أو بحثا عن الافضل أو الاصدق أو الاذكى . ان المذهب والاعتقاد أسلوب من أساليب الوقوف في الطابور الطويل ، وليسا موقفا ذهنيا أو اختراقا ذهنيا .

ومع أن قانون الذوبان في المجتمع هازم ومذل لشجاعة الانسان ولحريته وذكائه وكبريائه الا أن هذا القانون مفيد لحياته ولحاجته الى النظام والاستقرار ، والى الشعور بالامن الروحي والفكري والاخلاقي . أن الاستعباد الروحي والعقلي حاجة انسانية تجيء بأسلوب عدوان وطغيان وخداع وأكاذيب .

ان الانسان محكوم عليه بألا يجد نظامه واستقراره الا في خروجه على نماذجه التي يفكرها ويمجدها ويتحدث عنها وبتمناها ويزعم انه يحياها .

انه لمحكوم على الانسان بأن يكون فوق جميع النماذج المعروفة والمستطاعة في طموحه وأفكاره ، وفي نماذجه المذهبية والدينية والتعليمية ، وتحت جميع النماذج المعروفة والممكنة في هوانه وخضوعه ، وفي ايمانه وتصديقه وافتضاحه .

ان ضرورة التوافق والتوحد مع الآخرين تحول الانسان الى نموذج بلا شبيه في فقده للشجاعة والذكاء والحرية والاحترام للنفس . انها تحوله الى كائن لا مثيل له في العدوان عليه . ولعله لا يوجد كائن غير الانسان أو مثل الانسان يسعد ويستريح ويستقر ويتهذب ويتدين بالعدوان عليه .

انك لن تجد أو ترى أو تتصور صيغة للتعبير عن الفقد لجميع مستويات وأساليب الشجاعة والحرية والكرامة والذكاء والرفض مثل أن تجد ملايين البشر يصلون لاله واحد ، في معبد واحد ، وبنشيد وأسلوب واحد ، وبجبهة واحدة ، وبقامة واحدة ، وباقتناع واحد ، وبرؤية واحدة ، وبمستوى واحد من الخوف والاستسلام والامل والانتظار . وانك لواجد دائما هذه الملايين من البشر يصلون هذه الصلاة بكل صفاتها وأساليبها وظروفها لمثل هذا الاله .

او مثل أن تجد كل هذه الملايين من الصيغ البشرية تؤمن بمزايا أو ببطولة أو بعبقرية زعيم واحد ، هاتفة مطيعة مصلية له ، فاقدة كل ذكائها ومنطقها وحرياتها ورؤاها ووقارها ، متوحدة في اقتناعها به ، وفي اصابتها كلها بنوع الجنون والغباء ، وبكل الجنون والغباء اللذين يصاب هو بهما ، متدافعة

ومتداعية ومتناصحة ، ومقنعا بعضها بعضا بمزايا وشرف وبطولة احــدى حماقات الموت والخراب الكبرى التي يسوقها اليها زعيمها الواحد أو الههــا الواحد . وانك لواجد دائما ذلك بكل بشاعاته وذنوبه ومهاناته . انه لا يوجد كائن غير الانسان أو مثل الانسان تتحول جميع جبهاته وقاماته الى جبهــة واحدة وقامــة واحــدة .

ان الانسان حتى في أعلى وأعظم مستــوياته ليس الا حشرة موهوبة ومعدة للموت في أحد المعابد ، مؤمنة مصلية لاحد الآلهة ، أو للموت في احدى الحماقات أو الحروب الكبرى ، مصدقة مطيعة هاتفة لاحد الزعماء ، أو لاحد المذاهب أو لاحد الشعارات ، مقتنعة ببطولة موتها وبذكائه وبشرفه وبخلوده وبعالميته وبنموذجيته المذهبية أو الدينية أو الاخلاقية أو الوطنية أو الانسانية. ان الموت في احدى الحماقات الكبرى بطولة وشرف وخلود وذكاء . لقد عد ذلك كذلك واقتنع به كذلك لانه وقوف في الطابور الطويل الذليل .

ولكن كلا . ان الانسان ليس حشرة فقط . انه ليس حشرة لها كبــرياء الحشرات ، ولها رفضها ووقارها وعصيانها الفكري والروحي والنفسي . ان الحشرات لا تطيع الإكاذيب والغباوات طاعة فكرية أو روحية أو نفسية . انها اذن لانبل عصيــانا .

ان الانسان حشرة أكثر افتضاحا وهوانا واستسلاما وطاعة وتصديقا. انه حشرة تؤمن وتصلي وتهتف وتحول هوانها واستسلامها وافتضاحها الى مذاهب وأديان وتعاليم . انه ليس حشرة تخاف وتجوع وتهون وتفتضح وتتلوث بصمت أو بوقار أو بغضب أو بلا دعاوى وتفاسير وتسويغات عقلية ودينية وأخلاقية . انه حشرة تعلن عن معانيها ومستوياتها وضعفها بالايمان والهتاف وبالصلوات في المعابد ، وفي مواكب ومغامرات الطغاة والقتلة والمجانين .

انه حشرة مؤمنة مصلية هاتفة . انه اذن أكثر من حشرة . ان الحشرة لا تحول أخلاقها الى ايمان وصلوات وهتافات موحدة ومقاتل عليها وباسمها.

انه ليست للحشرات جباه تسجد عليها وبها ، ولا حناجر تحولها الــى هتاف وتسابيح وأناشيد للطغاة وللالهة وللمهرجين وللاكاذيب من كل جنس . وليست لها أي للحشرات تفاسير تفسر وتسوغ بها الجنون والغباء وجميــع الحماقات والسخــافات ، ولا منطق لتحــوله آلى ايمان واقتناع وتعصــب

وبغضاء . ان الحشرة حشرة فقط ، انها حشرة لحساب ذاتها فقط . أما الانسان فأكثر من ذلك جـدا .

ان الحشرة ليست لها آلهة ولا معلمون ولا طغاة ولا وعاظ ولا خطباء يحولون عاهاتهم وآثامهم وهمومهم وجميع صغائرهم الى عقائد وتعاليم لها .

ما أضخم وأفدح الحسابات المدفوعة أثمانا للالهة وللمعلمين وللزعماء وللطغاة وللعقائد والتعاليم وللايمان . ما أكبر وأكثر الاشياء والتفاسير المدفوعة ثمنا وحسابات وطعاما لهـؤلاء .

ان الحشرات آذن ليست لها كل دمامات الانسان وهزائمه وفضائحه . ان الحشرات تهون وتهزم وتتلوث بأعضائها ولكنها لا تفعل ذلك بتفكيرها او بروحها أو بمشاعرها أو بتعاليمها وشعاراتها ، كما يفعل الانسان . ان الحشرة لا تفرض أخلاقها تحت اسم أية فكرة على مجتمعها كما يصنع النبي والزعيم والانسان .

★ ★

من الذكاء والقوة أن تكون متواضعا اذا تكلمت ، عظيما كبيرا اذا فعلت وفكرت . أن تكون متواضعا في حديثك لانك كبير في أفكارك وأفعالك .

انك اذا تكبرت حين تتكلم وأنت قوي وذكي هجوت قوتك وذكاءك ، واذا تكبرت حين تتكلم وأنت ضعيف وغبي حرضت على الاستهزاء بضعفك وبغبائك ، وعلى التحديق فيهما وعلى رؤيتهما بقسوة .

لماذا تتكبر متحدثا ؟ هل لانك تريد أن تنتصر أو تخدع أو تزداد طولا أو جمالا أو رهبة أو محبة في القلوب والعيون ، أم لانك تريد أن ترتد طفلا ؟ هل تكبرك في حديثك اعلان عن عظمتك ومجدك ، أم تثبيت لهما ، أم بحث عنهما ، أم مغازلة لهما ، أم تحريض على السخرية بك ؟ هل تكبرك متحدثا يهب وجهك جمالا أو عقلك ذكاء أو قامتك طولا أو جيشك انتصارا ؟ هل تكبرك بالحديث يتحول الى مجد لاربابك أو لابائك أو لتاريخك أو لمذهبك أو لدينك ؟

هل ذلك تدبير منطقي أم هو عرض للذات بأسلوب او باغة همجية ؟ هل المتكبر بحديثه يقصد أن يثني على نفسه أم أن يحقرها ؟ هل هو منتهى الغباء أم منتهى المعاداة لنفسه ؟.

ان المتكبر متحدثا ليس الا انسانا يحقر نفسه بقصد تعظيمها وتمجيدها واسترضائها . انه انسان يلعن الاخرين ويصنع اشمئزازهم واحتقارهم بقصد اقناعهم بمزاياه وبقصد اجتلاب رضاهم واعجابهم به وعنه . انه كائن تحت جميع مقاييس الذكاء ومقاييس الباحثين عن المجد وعن الحب لانفسهم ...

ان المتكبر بلغته انسان يعلن عن نفسه على مستوى الذباب ، وبلغة الذباب ، وبذكاء الذباب . ان الذباب يعلن عن مزاياه وعن مجده وقوته وعن اغانيه باثارة مشاعر الاشمئزاز والتحقير والغضب . انه لا ينافس الذباب في ذلك الا الآلهة والزعماء المتحدثون عن أمجادهم ومزاياهم بأساليب تهزم جميع الاساليب الذبابية .

ان الزعيم المحول لامجاده وانتصاراته الصادقة أو الكاذبة الى أناشيد والى دعايات ضاجة ليس اقل وقاحة أو بذاءة أو اثارة للغثيان والاشمئزاز والغضب من الذباب المحول لامجاده وانتصاراته ولمعاركه ضد الانسان وضد الحياة والنظافة الى طنين والى سقوط على وجوه الناس وعلى طعامهم وافكارهم وأخلاقهم وكبريائهم .

ان مثل هذا الزعيم ليس افضل اخلاقا ، ولا أكثر ذكاء أو تمجيدا لنفسه من مثل هذا الذباب الساقط بأغانيه وبذاءاته على وجوه الناس ، وعلى طعامهم ، وعلى أخلاقهم وكبريائهم ، وفوق عقولهم ومذاهبهم وأديانهم ، وتحديا لايمانهم بنظافة الحياة أو بذكائها أو بشرفها أو بشموخها أو بمنطقها ، أو بأن فوقها كائنا صديقا أو نبيلا أو نظيفا أو ذكيا أو أبيا أو غيورا . وهل يوجد مثل الزعماء سقوطا ببذاءاتهم ووقاحاتهم على وجوه الناس وعلى أخلاقهم وذكائهم وشرفهم بل وعلى طعامهم ؟

ان التحدث عن النفس باعجاب وانشاد فن لا يجرؤ عليه أو يرضاه أو يستمع اليه أو يطالب به الا الاله أو الزعيم أو الذباب أو من كان في مستوى الاله أو الزعيم أو الذباب . وهل يوجد من هو في مستوى الآلهة أو الزعماء او الذباب ؟

لهذا لقد ظل الذباب والآلهة والزعماء في كل التاريخ أكثر الاشياء تحريضا على الغثيان والاشمئزاز والغضب ، واكثرها هجاء لمجد الانسان والحياة . لقد ظل الذباب والآلهة والزعماء اقسى واشمل هجاء وسباب لكل ما يحتمل ان يكون في الحياة أو في الانسان من جمال أو ذكاء أو نظافة أو كبرياء أو عبقرية أو موهبة .

رأسك أكثر أعضائك انخفاضاً

« .. هل يوجد من يتفوق او يفرض عليه ان يتفوق على الحشرة في هوانها وتلوثها وانهزامها وسقوطها مثل الذكي حينما يعمل في مجتمع يحكمه طاغية او يحكمه حاكم فاسد او متخلف او حاكم جاء ليعلم الارض أخلاق السماء وليعلن فوقها امجاد الالهة ؟.. ان الاوغاد الاذكياء هم افضل المتعاملين والمتنافسين على الركوع تحت الاقدام الهمجية القوية او تحت الاقدام الغنية الغبية او تحت كل الاقدام الباحثة عن كل الراكعين . ان الاوغاد الاذكياء هم اعظم الناس حظوظا في كل التاريخ ، ولدى كل الاهواء حتى لدى اهواء الانبياء والقديسين .

« .. انه لم يوجد ولن يوجد في كل التاريخ وفي كل المستقبل الا نبي واحد يعلم الناس ويفسر ويسوغ ويشرع لهم الاكاذيب والغباوات وطاعة الطغيان وعبادة الاوثان . ان هذا النبي الواحد هو رأس الانسان . انجميع المعلمين والمفسرين والمشرعين يتعلمون نبواتهم من هذا النبي الواحد .. ان رأس الانسان لا بد ان يتحول الى نبي محال لجميع التلوثات والانحدارات التي تهوي اليها وتعيشها أعضاؤه وأخلاقه .

« .. ان الذكاء لا يملك دموعا غزيرة او نظيفة بل لا يملك آية دموع ليذرفها على مجده المهان المهزوم الراكع . ان الذكاء لا يملك آية احزان اخلاقية او دينية او انسانية ليقاسيمنها حينما يفقد كل آساليبومستويات الشجاعة والكبرياء والغضب .. ان الذكاء لا يرفض ان يكون وغدا ،وغدا.. آنه لن يتعذب من الشوق او من الخجل لانه لم يصبح حرا او شجاعا او شريفا او صادقا » ...

* *

ان الطاغية هو الصوت الجميل البليغ الذي ينادي بحنان وتهذيب وتقوى اوقح واقبح الحشرات لتتجمع حوله . واحيانا الحاكم كيفما كانت صفاته حتى ولو غير طاغية ، اي حتى ولو كان عاجزا عن امتلاك قوة الطغيان

ووحشيته يتحول الى هذا الصوت الجميل البليغ في احساس ومسامع واخلاق اوقح واقبح واضعف الحشرات .

انه لا يوجد مثل صوت الطاغية في حنانه ورقته وجاذبيته حينما يهتف بأنذل الحشرات لتتجمع حوله .

ان الطاغية ــ واحيانا كل حاكم حتى ولو غير طاغية ــ هو اللغة التي تعرفها وتعرف منطقها وتفاسيرها كل الحشرات ، والتي لا يسعد بها ولا يطرب لها الا أردأ الحشرات . انه اللغة الكونية او النشيد الكوني لكل الحشرات من كل الاجناس والانواع .

انه اللغة العجيبة والحروف العجيبة التي تعرفها وتقرؤها جميع الحشرات حتى الحشرات التي لا تعرف أو تتكلم أية لغة ، وحتى الحشرات الامية التي لا تعرف او تقرأ اية حروف ولا أية كتابة . انه لا توجد موهبة مثل موهبة انذل وافسق الحشرات في معرفتها للغات الطغاة ولغات المتخلفين في المجتمعات المتخلفة ، وفي قدرتها على الاستجابة لهم .

ان الطغاة هم النداء الابدي الهاتف بكل مواهب واخلاق الحشرات: أن تعالي الى الطعام والمكان والمجد والشهرة . وقد يقال ولو احيانا : ان جميع الحكام هم هذا النداء الابدي .

ان الطاغية ، وايضا كل حاكم متخلف في كل مجتمع متخلف هو النموذج الفكري والاخلاقي والنفسي الذي تتفق عليه اخلاق واحاسيس واهواء وطبيعة كل الحشرات في كل نماذجها .

انه اسخى هبات الطبيعة لمواهب الحشرات الخالدة في كل البشر في كل العصور والمجتمعات .

انه النشيد الكوني الهاتف بلغات جميع الحشرات . انه النشيد الذي ينادي كل الحشرات بكل لغاتها :

يناديها : ان تخلقي وتكاثري وتجمعي ثم تعالي ــ تعالي الى صديقك العالمي الخالد خلودك . . آن تعالى يا اقبح واوقح الحشرات ، يا اضعف

الحشرات ، يا اصغرها رؤوسا ..

.. ينادي : الا يأتي الا آكثر الحشرات دمامة وسما وتلوثا، والا اصغرها رؤوسا او اكثرها جبن رؤوس وهوان رؤوس . ان ضآلة حجم الرؤوس شرط مفضل فيك ايتها الحشرات ، او فالشرط الافضل هو أن الرؤوس وجبنها . ان ضآلة حجم الرأس فيك ليست حتما شرطا أفضل من جبنه وهوانه .

آذن تعالي يا اقبح واوقح واضعف واصغر الحشرات رؤوسا – تعالي الى طعامك الجيد ، الى طعامك الذي لم تخلق الالهة آو تعرف طعاما افضل منه للحشرات .

ان الآلهة لا تحابي الانذال النشيطين المقتحمين مثلما تحابيهم حينما تصر على أن تستمر تخلق الطغاة وتهبهم الانتصارآت والامجاد .

انه حيث يوجد الطاغية او الحاكم في المجتمع المتخلف ، او الحاكم دائما فلا بد ان يوجد حوله موكب طويل دميم كئيب متبدل ومتعاقب من الحشرات آلسامة البذيئة .. من آلاعوان الذين لا بد ان يكونوا ضعفاء وفاسدين ومهزومين وبلا رؤوس آو برؤوس صغيرة او مقطوعة أو مهينة جبانة . انه لا طاغية بلا مواكب من الحشرات الملوثة السامة .

وقد يقول اخرون : بل آنه لا حاكم بدون هذه المواكب ، مواكب الحشرات آلسامة الملوثة .

ان هؤلاء الاعوان لا بد ان يكونوا ضعفاء آو مهزومين لئلا يعصوا او يقاوموا آو يحاولوا – ولا بد ان يكونوا فاسدين لئلا يغضبوا او ينكروا أو يشمئزوا او يتعذبوا باخلاقهم آو بضمائرهم – ولا بد كذلك ان يكونوا بلا رؤوس ، آو ان تكون رؤوسهم صغيرة ، او مقطوعة ، آو جبانة ذليلة لئلا يفهموآ او ينقدوا او ترفض رؤوسهم اجسامهم او تحتج عليها آو لا تتلاءم معها .

لهذا فان الذكي في مجتمع الطاغية آو في مجتمع الحاكم آلمتخلف او الفاسد لا بد ان يكون محتاجا الى آن يقهر ويعاقب ذكاءه بالتملق وآلتخضع

والتغابي لكي يغفر له ذكاؤه او لكيلا يفطن الى ذكائه، ولكي يتحول اي الذكي من وحش مخيف ومعاد الى وحش صديق واهب للامان او الى ارنب ذليل يصنع الرثاء والشفقة ، بدل الخوف منه والاحترام له .

انه لا شيء يحتاج الى ان يشوه نفسه ويعاقبها ويتوب منها مثل الذكاء حول الطاغية وحول الحاكم المتخلف والفاسد .

انه لا احد يحتاج الى ان يقطع رأسه ، او الى ان يعلمه كل اساليب ومستويات الغباء والهوان والجبن والنفاق والحقارة — الى ان يذله بكل معاني الجبن وصيغه وتفاسيره وتعبيراته ودلالاته — الى ان يجعله اي يجعل رأسه صغيرا ، صغيراً ، لا يستطيع احد ان يراه ، او يشعر بوجوده ، او بأنه قد خلق .

— نعم ، ان اخفاء الرأس فن قديم وحديث وخالد من فنون الانسان — الانسان البدوي والحضاري .

— نعم ، انه لا احد يحتاج الى كل ذلك مثل الذكي حينما يصبح احد اعوان الطغاة او احد اعوان الحكام المتخلفين او الفاسدين ، او احد اعوان الحكام كيفما كانوا وكانت صفاتهم ومستوياتهم .

انه لا احد يحتاج الى ان يعاقب رأسه ، والى ان يجعله بالمحاولات الذليلة اصغر الرؤوس واكثرها ازدحاما وايمانا بالغباء مثل الذكي حينما يصبح احد هؤلاء الاعوان .

انه حينئذ لا بد ان يتعلم الغباء بأساليب اكثر هوانا وحقارة من اساليب جميع الحشرات في تعلمها التلوث والسقوط والترفع عن الكبرياء . ان الذكاء لا بد ان يصبح احيانا او دائما جريمة لا بد من اجتنابها او اخفائها او انكارها كالجريمة في المجتمع الذي يعاقب الجريمة بقسوة وشمول وتقوى. ان الذكاء قد يصبح عدوانا او عارا يتاب منه بهوان . انه حينئذ قد يتحول الذكاء في اعوان الطغاة وفي اعوان الحكام الجاهلين والفاسدين ، او في اعوان الحكام جميعا — قد يتحول الى مزية والى مطلب كبير من مطالب هؤلاء الطغاة والحكام الجاهلين والفاسدين — اي حينما يصبح عاراً او عدوانا او ذنبا يتاب منه بهوان ويصبح اخفاؤه او انكاره او اذلاله صلاة وتقوى يمارسها

بضراعة جميع المصابين به .

ان الذكاء ــ أي اذا كان متملقا متخضعا منافقا مهينا مهزوما ــ يصبح أقدر على ارضاء وخدمة الطغاة وعلى ارضاء وخدمة جميع الحكام والاقوياء وعلى تلميعهم،واقدر علىمعايشتهم وعلى معرفة ما تريد شهواتهم وحماقاتهم واهواؤهم ، وعلى مساعدة هذهالشهوات والحماقاتوالاهواء على ان تتحقق وتنتصر . ان الذكاء حينئذ اي اذا كان مالكا لهذه الصفات يصبح موهبة لهؤلاء الطغاة والحكام ، لا موهبة لنفسه ، ولا للاذكياء ، ولا في الاذكياء . ان مثل هذا الذكاء يصبح نقيضا جيدا جدا لنفسه .

ولكن كيف ؟ أليس محتوما ان يصبح الذكاء في كل موقف وفي كل مكان نقيضا لنفسه ؟ هل يستطيع الذكاء أن يبتى أو أن يتحرك أو أن يقبل نفسه أو أن يتعامل مع نفسه أو مع أي شيء لو لم يصبح نقيض نفسه ؟

ان الطغاة وايضا جميع الحكام الفاسدين والجاهلين والمتخلفين قد يحتاجون الى مثل هذا الذكاء ، اي الى الذكاء الذليل المهزوم كما يحتاجون الى الحرس القوي المخلص والى الجيش القوي المخلص ، والى الضمائر التي فقدت كل اسلحة المقاومة وشهواتها والقدرة عليها .

انهم ليحتاجون الى ذلك كما يحتاج الوحش المفترس الآكل للحوم الى الاظفار والانياب والى العضلات والضربات القوية .

ان افضل الاعوان للطغاة ولاكثر الحكام واحيانا للحكام جميعا هم الاعوان الاذكياء الصغار ، هم الكلاب المخلصة الذكية ، هم الحشراتالجيدة السم والتلوث .

ان الحشرة الذكية ــ الحشرة جدا في اخلاقها وضميرها هيالنموذج الاعلى لاعوان الطاغيةولاعوان اكثر الحكام او لاعوان كل الحكام. كما أن الكلب القوي المخلص الذكي هو انبل واتقى الكلاب في حساب صاحب كلاب الصيد .

ان الاوغاد الاذكياء هم افضل المتنافسين على الركوع تحت الاقدام الهمجية القوية او تحت الاقدام الغنية الغبية ، او تحت كل الاقدام الباحثة

عن الراكعين .

أن الاوغاد الاذكياء هم اعظم الناس حظوظا في كل التاريخ ولدى كل الاهواء حتى لدى اهواء الانبياء والقديسين .

ولكن الا يخشى أو يرفض أحيانا الطغاة والحكام الفاسدون والمتخلفون الذكاء مهما نافق وذل وهزم ؟ الا يجدون في نفاقه واستسلامه وهزيمته هجاء وسبابا واتهاما لهم ؟

ألا يزعجنا أحيانا من يرون عاهاتنا وضعفنا وذنوبنا وخطايانا مهما مدحوها ؟

أليس الذي يمدحنا كاذبا هو اكثر المتعاملين معنا فضحا وتحقيرا واذلالا لنا وأعلانا عن قبحنا ؟

أليس الاعمى افضل من المبصر في جميع حسابات وتقديرات الكائن المشوه ؟

أليس الذي لا يرى دمامتنا اكثر محاباة وسلاما لنا من الذي يراها ثم يذهب يبالغ في امتداح جمالنا ؟

أليس الذي يرانا في جميع حالاتنا وكينوناتنا ويفهمنا في جميع تفاسيرنا ومنطقنا يخيفنا ويرهقنا مهما كانت صداقته لنا او علاقاته بنا ، ومهما كان ضعف أخلاقه ومقاومته ؟

أليس الاله الاعمى ارحم بنا وأقل تخويفا وفضحا لنا من الاله المبصر المحدق فينا الرائي لنا من داخلنا وخارجنا مهما حابانا وكذب لنا وعلينا؟

أليست العيون الرائية المغمضة تتفجر في أعصابنا ومشاعرنا كالاسلحة المتفجرة فوق اهدافها ؟

أليس السلاح يخيف احيانا حتى ولو كان مغمداً ، حتى ولو كان في ايدي جنودنا أو عبيدنا الاذلاء المهزومين ؟ أليس السلاح الفتاك المهزوم قد

يتحول الى اخطر الاسلحة ؟

اليس الذكاء المهان قد يصبح أكثر انواع الذكاء تهديدا وخطرا وانتقاما

اذن اليس الاذكياء اكثر ارهابا واحراجا وتهديدا لنا وعدوانا علينا مهما كانوا أوغادا ومنافقين ؟

أليس الاعمى مهما كان معاديا أرحم بعاهاتنا وتشوهاتنا ودماماتنا من المبصر مهما كان صديقا ؟

* *

انه لما كان الحاكم الطاغية أو الحاكم الفاسد او الحاكم دائما طاقة مغناطيسية هائلة ، يجذب اليه كل ضعف وفساد ونفاق وكذب وخسة وهوان فكري ونفسي واخلاقي وذاتي — ويهتف بكل ذلك ، بكل اللغات ، يناديه ليتجمع حوله ، كان محتوما ان ينيخ حول هيكله جميع سدنة وكهنة وعبدة الاوهام والعقائد الضعيفة او المستضعفة ، بل وكهنة وسدنة جميع التعاليم والمذاهب القوية والضعيفة ، لينصروه ، لكي ينتصروا به . انه لمحكوم على جميع معلمي المذاهب والنظم وعلى جميع معلمي الالهة والانبياء ان يعبدوا الاقوياء والمتسلطين .

ان هؤلاء المعلمين ان لم يعبدوا هؤلاء الاقوياء والمتسلطين فلا بد ان يعبدوا الاقوياء والمتسلطين الاخرين .

ان اللاهوتية لا بد ان تكون هي احدى الشرط او الفرق الدائمة المؤمنة الموثوق بها للحاكم الطاغية أو للحاكم الفاسد او لكل حاكم . لانها اي اللاهوتية بظروفها وخصائصها وتفاسيرها المختلفة لا بد أن تكون محتاجة الى الصلاة بكل ايمان واخلاص وهوان في المعبد الذي يبنيه السلطان ، والى ان تحرق كل شموعها امام كل هيكل ترفع فوق محاريبه صور السلطان وتنقش على جدرانه قصائد الامتداح له . انه في كل التاريخ لم توجد لاهوتية واحدة تعبد الاله وحده دون ان تعبد السلطان .

ان كل لاهوتية في التاريخ لم تكن تعبد الا السلطان وحده مهما عبدت سواه او مهما تظاهرت بعبادة شيء سواه .

آنها اي اللاهوتية لا قوة لها من ذاتها ، ان قوتها دائما وهمية أو تاريخية . انها لا تملك اية قوة او اية حقيقة سوى زعمها أنها تتحدث عن قوة وعن حقيقة ، وسوى تسليم الناس لها بصدق حديثها عن تلك القوة وتلك الحقيقة . انها اذن مضطرة لكي تتحرك تتحدث وتكذب وتسرق وتخدع وتخيف وتستقوي ، ولكي تترك تصدق في زعمها انها تتحدث عن قوة وعن حقيقة ، بل عن كل القوة وكل الحقيقة .

ـ نعم ، انها مضطرة لكي تترك كذلك الى أن تتعبد في جميع معابد القوة ، وفي جميع مغارات الاستبداد القوي ، وفي جميع هياكل الفساد المنتصر القادر ، والى ان تجند كل كذبها وقبحها وغبائها وهوانها لاهواء الطغاة ولاهواء جميع الحكام والاقوياء الذين يقودون ويحكمون المجتمع الذي تكذب هي عليه وتتحدث اليه عن القوة وعن الحقيقة التي تزعم انها تتحدث عنها وانها قد جاءت من عندها لتبلغ عنها ولتعلم بها ولتهب باسمها ، لتهب باسمها كل ما ليس موجودا وكل ما لا يمكن ان يكون موجودا .

انها مضطرة الى ان تتعبد كل اساليب العبادة بكل اساليب الهوان والانهزام ، تحت كل الاقدام القوية الهمجية او الاقدام الغنية الغبية ، او تحت كل الاقدام الباحثة عن كل الراكعين تحت كل الاقدام ،لكي تترك تكذب وتسرق وتتسلط وتضلل ، بل ولكي توهب المجد والاقتدار ، لكي يهبها المجد والاقتدار والدعاية الاقوياء الذين تهبهم صلواتها وتعاليمها ونفاقها وكل ذكائها وغبائها . ولانها ان لم تفعل ذلك أزيلت ، او تركت فزالت . لان الاوهام والاكاذيب وحدها بدون طغيان حقيقي قوي ينصرها ويبشر بها ويتقبلها ويتقبل منها لا تستطيع ان تنتصر ، بل ولا أن تبقى أو تعيش . انه لا بد من القوة الضالة للاوهام والاكاذيب . ان الوهم لا يمكن أن يعيش او ان يواجه نفسه ، أو ان يواجه من يراد منهم الاقتناع به دون ان تكون معه اية حقيقة . إن الوهم لا يعيش وحده . ولكن هل تعيش الحقيقة وحدها ؟وان الوهم لا يستطيع أن يحمي نفسه . ولكن هل تستطيع الحقيقة ان تحمي نفسها ؟

ان اللاهوتية لتعلم انه لا قوة ولا مجد ولا سلطان ولا بقاء لها ، بل ولا قدرة لها على الخداع المصدق او المقبول الا في حماية الطغيان والقوة الضالة ، اي الا في حماية حقيقة ما . ان في بقاء القوة أو في بقاء الحقيقة الضالة ، وفي انتصارها بقاءها هي وانتصارها هي والا فلا شيء امامها الا الموت

المحتوم او الهزيمة المحتومة او الهوان الذي هو اقسى من الموت ومن الهزيمة . انه لا شيء يحتاج الى أن يوهب كل مجده وكل قوته من خارجه لا من قوته ولا من منطقه ولا من اخلاقه بل ولا من انصاره مثل اللاهوتية .

حتى الالهة والانبياء ، انهم لا بد ان يتحولوا الى صلاة وخضوع للطغاة ولكل الحكام والمتسلطين والمستبدين القادرين بأي اسلوب من أساليب القدرة ومعانيها .

ان كل شيء لا بد أن يعبد طغيانا ما حتى الالهة والانبياء لا بد ان يعبدوا الطغيان . ان كل العقول والتعاليم لا بد أن تهون وتتعبد .

انه لا يخضع للطغاة ولكل الحاكمين والقادرين ، ولا ينافق ويصلي ويكذب لهم ، مثل الالهة والانبياء . انه لا يوجد ، ولم يوجد في اي عصر أو مجتمع اكثر او اصدق خضوعا للطغاة ولكل الحاكمين والقادرين من الالهة والانبياء . ان الالهة والانبياء لا يشترطون لخضوعهم وهوانهم تحت الاقدام القادرة أو الباطشة اية شروط . انهم اي الالهة والانبياء يخضعون وينافقون ويكذبون لمن يستطيعون ان يضربوا او يهبوا ، ان يحموا أو يتركوا او يدمروا حين يخضع وينافق ويكذب من يتحدثون عنهم وباسمهم ، اي بخضوع ونفاق وكذب من يعلمون عنهم ، ومن يتحدثون من فوق منابرهم ، ومن يفسرون تعاليمهم واخلاقهم وتاريخهم ونياتهم وسيرهم وكتبهم وكلماتهم ، ومن يهبطون من سمواتهم على صهوات جيادهم ، رافعين راياتهم .

ان كل الناس يكذبون وينافقون ويخضعون باسم الالهة والانبياء . اذن هل يوجد مثل الالهة والانبياء في كذبهم ونفاقهم وخضوعهم ؟

ان الالهة والانبياء لا يوجدون ولا يفهمون ولا يفسرون ولا يمارسون انفسهم الا في ذوات وحياة ومنطق واخلاق من يعلمون عنهم ومن يفسرونهم ومن يحفظون كتبهم ويروونها ويعلمونها ويكونونها . وهؤلاء هم النماذج الكاملة والشاملة والدائمة للنفاق والهوان والركوع تحت كل الاقدام الضاربة او الواهبة او الجاهلة القادرة .

اذن فالالهة والانبياء هم هذه النماذج الشاملة الكاملة الدائمة للنفاق والهوان والركوع تحت جميع الاقدام القوية الهمجية .

اذن تجلد ايها المؤمن ، تجلد .. تجلد امـام اكبـر المفاجـآت الاليمة البعيدة عن كل الظنون .

.. تجلد ايها المؤمن بكل احتمالات التجلد فيك .

تجلد لان الهتك وانبياءك لم يكونوا في كل التاريخ ولن يكونوا في كـل المستقبل الا عبدة ودعاة لكل الاوثان ولكل الطغاة ، لان من لا يوجدون ومـن لا يعيشون ومن لا يفهمون الا في ذواتهم وفي تفاسيرهم وفي تعاليمهم لـم يكونوا ولن يكونوا الا كذلك .

اجل ، اذن تجلد ايها المؤمن ، تجلد . اذن حاول أن ترثي لهم اي لالهتك وانبيائك ، لا ان تجن اعجابا وانبهاراً بهم .

بل اياك أيها المؤمن والتجلد . انه لحق عليك أن تتمزق غضبا وغيظـا وخجلا ، لا أن تتجلد . حاول أيها المؤمن أن ترثي بصدق وعمق لآلهتك وانبيائك لانهم ليسوا سوى عبدة أوثان وطغيان ، لان جميع من يجيئون باسمهـم ، ليعملوا باسمهم ليسوا الا عبدة أوثان وطغيان .

اذن حاذر ايها المؤمن ان تتجلد . حاذر ، فالتجلد هنا عار وبلادة .

انك ايها المؤمن تقول : ان آلهتك وانبياءك لم يجيئوا ولم يكونوا الا لكي يزيلوا كل الطغيان وكل الاوثان . ولكنك ترى انهم ليسوا سوى عبدةاوثان وطغيان .

اذن احزن من اجلهم ومن اجل نفسك ايضا . احزن كثيرا وبعمق ايها المؤمن المفجوع بآلهته وبأنبيائه وبنفسه ايضا وبذكائه .

لقد كنت ايها المؤمن دائما فظا في معاملتك لالهتك ولانبيائـك وفـي مشاعرك ازاءهم ولهم ، لانك قد ظللـت دائما تعبدهـم وتخافهم . وكانت الرحمة والتهذيب والمنطق أن تحزن وترثي لهم بكل أحزانك وأشفاقك .

ان الالهة والانبياء معبودون ومخضوع ومنافق ومكـذوب لهـم ، وان الانسان هو العابد الخاضع المنافق الكاذب لهم . أن الالهـة والانبيـاء اذن لموهوبون كل الحظوظ والتمجيد والتكريم ، أما الانسان فهو الواهب كل ذلك

والمسلوب كل ذلك والفاقد لكل ذلك .

لقد كان هذا هو الاعتقاد الذي لم يكن ممكنا أفتراض او تصور غيره او نقيضه . اذن لقد كان كل المجد للالهة وللانبياء ، وكان كـل العار والهوان للانسان .

ولكن ، كم يمكن آن يكون انزعاج المؤمن آلبريء حينما يتبين ان الالهة والانبياء هم العابدون والخاضعون والمنافقون والكاذبون ، وان الانسان هـو المعبود المخضوع المنافق المكذوب له ؟

نعم ، كم يمكن ان تكون فجيعة المؤمن حينما يتبين ان آلالهـة والانبياء لم يكن لهم من دور في كل التاريخ ، ولن يكون لهم من دور في كل المستقبل غير أن يصلوا ويخضعوا وينافقوا ويكذبوا للاقوياء ، وغـير ان يتحولوا الـى اساليب صـلاة وخضوع ونفاق وكذب ، يمارسهـا الضعفاء تحـت اقـدام الاقوياء ؟

كم يمكن ان تكون فجيعة المؤمن حينما يكتشف ان آلهته وانبياءه لـم يكونوا في كل تاريخ العلم بهم الا تفسيرا وتسويغا وصلاة لطغيان يمارسـه الاقوياء ، وتفسيرا وتسويغا وامتداحا وتعليما لهوان يمارسه ويعلمه ويتعلمه الضعفاء ؟

نعم ، هل كان آلالهة والانبياء في كل التاريخ الا تفسـيرا وتسويغـا لطغيان الاقوياء ، والا تفسيرا وتسويغا لهوان الضعفاء ؟

اذن كل رثائي لراس الانسان . ان رأس الانسان ، ان اجهزته الراسية التي هي الهته وانبياؤه ومذاهبه وأديانه وافكاره هي آكثـر اعضائه جبنـا وهوانا .

اذن كل احزآني لراس آلانسان ولاجهزته الراسية .

لتحزن ايها المؤمن ، ايها الانسان . ان شيئا ما فـي هـذا آلكون لـم يمارس من آلهوان والاكاذيب والنفاق والغدر ، استجابة لشهوات واهـواء الطغاة والجهلاء القادرين ، مثلما مارسته تعاليم الانبياء ومذاهب المعلمين .

اذن ليكن حزنك غاضبا وضاجا ايها المؤمن ، ايها الانسان، لان اجهزتك الرأسية هي أكثر اجهزتك هوانا وجبنا وعارا .

آذن ايها المؤمن ، أيها الانسان . كن حزينا ورآثيا وباكيا وخجولا لالهتك ولانبيائك بدل ان تكون لهم عابدا او معظما أو حاسدا . انه لا أحد يستحق الرثاء والبكاء مثلهم .

* *

ان اللاهوتية ليست هي فقط لاهوتية الدين او السماء . آنها ايضا لاهوتية المذاهب والقوميات والنظم والنظريات . ولا توجد فروق بين هذه اللاهوتيات في احتياجها الى ممارسة الاكاذيب والنفاق والهوان والخداع والغوايات والتفاهات .

ان اللاهوتية المذهبية او القومية قد تكون اكثر نفاقا وهوانا واحراقا للشموع من اية لاهوتية دينية او سماوية . ان المنكر لجميع الهة السماء ليس دائما اكثر رفضا اللاهوتية من المؤمن بهذه الالهة . بل آنه لا ينتظر منه من ذلك . ان اللاهوتية لا تصنع خارج الانسان ، اذ انه هو الذي يصنعها داخل ذاته وحياته . آذن لن تكون هناك فروق بين صفاتها لوجود الفروق بين اربابها وجنسياتها .

واللاهوتية قد تعيش في مجتمعات غير استبدادية او غير فردية .آنها حينئذ لا بد أن تلقي بكل نفاقها وأكاذيبها وبكل مواهبها الذليلة تحت اوامر وشهوات افسد وأظلم ما في هذه المجتمعات من مذاهب وعقائد وجهالات واهواء ومصالح ومن بقايا تاريخ كئيب بليد . آنها لا تعيش تحت مذهب واحد او نظام واحد او مستوى واحد فقط . انها تعيش كل المذاهب والنظم والمستويات ، وتحت كل المذاهب والنظم والمستويات . انها عالمية النسب والانتساب والاخلاق .

ان المفروض ان يتجه الطغيان بل واسلوب الحكم كله الى مقاومة الضعف والفساد والتلوث والجبن والنفاق والهوان العقلي ، والى مقاومة اسباب واعراض كل ذلك ــ ان المفروض ان يتجه الطغيان بل كل حكم هذا الاتجاه حتى ولو خداعا في اجهزته الدعائية ، حتى ولو تضخيما وتجميلا

لنفسه ولعهده . ان كل نظام وحكم محتاج الى ان يخدع بعهده ونظامه وبنفسه ، ومحتاج الى اساليب عرض قوية مثيرة مخيفة في قوتها وروعتها. انه محتاج دائما الى السحر والى السحرة والى كل حيلهم وفنونهم . انه لا نبي ولا دجال بلا اجهزة عرض . ايهم احوج الى اجهزة العرض : الانبياء ام الدجالون ، الصادقون ام الكاذبون ؟

اليست القوة والاستقامة حاجتين من حاجات الطغاة بل من حاجات كل حاكم وكل نظام لان القوة تتحول الى قوة وحماية له ، ولان الاستقامة تتحول الى جمال فيه والى ثناء عليه والى تمجيد له ؟ ولان الاستقامة ايضا حتى الاستقامة المذهبية او العقلية قد تتحول الى قيد لحركات وتطلعات ولاحتمالات المستقيم ، والى هزيمة واذلال لطموحه ولذكائه ، والى كسر لشهواته التي قد تتحول الى مغامرات او مخاطرات او منافسات .

ان الملتزم بالاستقامة الدينية او المذهبية هو افضل من يريد التعامل عليه وبه اللصوص والمعلمون والطغاة والقتلة .

نعم ، ان كل هذه حسابات محسوبة ومنظورة الطغاة بل لكل الحكام وكل المتسلطين . لكن لعل امام كل حسابات صحيحة او خادعة حسابات اخرى مضادة او منافسة او محيرة ، صحيحة ايضا او خادعة . هل يوجد في هذا العالم اي موقف دون نقيضه ؟

هل توجد اية فكرة دون فكرة مناقضة ؟ هل يمكن ان توجد الافتراضات الملائمة دون الافتراضات الاخرى ؟

اذن فان حسابات الطغاة او حسابات جميع الحكام والمتسلطين قد ترى ان في فساد وضعف وهوان وغباء افراد المجتمع الذي يحكمون او الذي يعيشون فيه خيرا وحماية وامانا لهم ، وان في زوال ذلك او في نقيضه خطرا وتهديدا وتحديا لهم . وحينئذ ليكن كل المجد والانتصار لفساد المجتمعات ولهوانها وضعفها، او لفساد وهوان وضعف الافراد في المجتمعات. ليكن كل المجد والانتصارات للغباء وللهوان العقلي .

ليكن الغباء والهوان هما كل المجد وكل الطعام لكل العقول ولكل الاخلاق .

لتتحول حينئذ جميع الاجهزة الدعائية والتعليمية الى محاباة ذكية وقوية وشاملة لشيوع الضعف والفساد والغباء والهوان الفكري .

ليتحول كل الذكاء وكل المواهب الى مباراة رهيبة للتفوق في فنون الضعف والفساد والانحلال والنفاق العقلي والنفسي والاخلاقي، بل المذهبي والديني .

واذن ليمت او لينف من المجتمعات جميع الافراد الاذكياء الاصحاء الاتقياء الاقوياء في فرديتهم او في محتوياتهم الذاتية او الانسانية .

ليمت أو لينف بعيدا ، بعيدا هؤلاء الافراد ، فانهم تهديد مخيف للطغاة ولكل الحكام الجاهلين والفاسدين ولكل المتسلطين . ان الافراد الاقوياء في فرديتهم لتهديد دائم لمجد الآلهة ولمجد الانبياء ولمجد الطغاة ولمجد الايمان والصلوات والمحاريب والمنابر .

أن الحاكم الطاغية او الفاسد او الجاهل او المتأخر او كل حاكم ليرفض او يخشى او يقاوم ان يكون في دولته افراد أقوياء يرفضون ويأبون وينكرون ويتكبرون على الهوان والاستسلام والطاعة والتقبل مهما ناضل واحب وتمنى ان تكون دولته أقوى من جميع الدول وفوق كل الدول . انه لا يخاف حينما تكون دولته كذلك ، بل انه ليجد كل المجد والسعادة لنفسه حينما تكون كذلك . ان قوة دولته ليست في جميع حساباته الا قوة له هو، لذاته ، لشخصه ، لعرشه ، لتاريخه ، لخوفه وامانه وتألهه وكبريائه ولتحدياته ومنافساته .

ان الطاغية لا يجد فيدولته القوية الا أظفاره وانيابه وعضلاته القوية. وهل الدول الا اظفار وانياب للطغاة ؟

أما الذي يخيفه جدا وحقا ودائما فهو ان يكون في دولته افراد اقوياء .

ان اوقح واطغى طاغية ليتقبل ان يكون له أكبر جيش يخيف به كل العالم ويذل به كل امجاد التاريخ ، ويتقبل اي الجيش من شجاعته أن يموت كل فرد منه في اية مغامرة يساق اليها دون أن يرفض او يهاب . ان

الطغاة ليتزينون بالجيوش القوية ويشعرون نحوها كما تتزين الغواني بأغلى وأضخم أنواع الحلي وكما تشعر نحوه اي نحو الحلي .

ولكنه اي ذلك الطاغية يرفض بل ويجن في رفضه ان يكون حوله او في مجتمعه فرد واحد قوي شجاع في ابائه وفي شموخه وفي طهارته وفي عقله وفي تحديقه وفي رؤيته وفي تعبيره . ان ذلك الفرد القوي ليخيف الطاغية ويصنع له الهموم والهواجس أكثر مما يفعل له ذلك جيشه القوي. بل انه يرى في جيشه القوي الحماية والزينة له ، لشخصه ، بينما يرى في ذلك الفرد الخوف عليه والهجاء لمجده . أن مثل هذا الفرد لا بد ان يصنع للطاغية الغضب والغيظ آن لم يصنع له الخوف والخطر . أما الجيوش القوية فانها لا بد ان تصنع للطغاة الحماية والزينة او المجد والكبرياء او القوة والطغيان .

في اغلب المجتمعات ، وباسلوب ما في كل المجتمعات ، او في كل المجتمعات على مستوى ما وبنية ما ، يعامل رأس الانسان على انه عضو زائد لا وظيفة ولا تفسير ولا منطق أو معنى لوجوده ، او لبقائه ، او للتحدث عنه، او للاقتناع بوجوده ، او للتفكير فيه او في وجوده – او على انه وجود مرضي كالخراج الفظيع الذي يوزع الالام والمخاطر والاذى على ما حوله . انه اي رأس الانسان لا يعامل أو يرى في أغلب المجتمعات او في كل المجتمعات ولو باسلوب ما على انه عضو او كائن طبيعي او شرعي له كل الحق في الوجود والنمو والكينونة والبقاء .

ان اغلب المجتمعات ، او كل المجتمعات باسلوب من الاساليب، او على مستوى من المستويات ، أو بنية من النيات ، لا ترى في رأس الانسان الا انه احدى غلطات الارباب آلتي ارادت ان تعاقب بها هذه الحياة ، أو ان تعاقب بها موهبتها هي ، او ان تمتحن بها اعجاب الانسان بأربابه وايمانه بهم ، او ان تعاقب به نظافة الانسان واستقامته وتقواه .

ان هذه المجتمعات لا تجد في رأس الانسان الا آنه آفة بذيئة ، تثوي فيها كل احتمالات الاخطار والالام ، ويجب التداوي والتحصن منها بكل الاساليب والوسائل والعقاقير ، وان المطلوب والمفروض دائما هو التفكير في هزيمته وإذلاله اي رأس الانسان ، وفي تحويله آلى عضو ميت ، الى جثة محتقرة ومعزولة ، وانه لا يمكن ولا يجوز لا مذهبيا ولا دينيا ولا اخلاقيا

ولا وطنيا ولا حضاريا السماح له بالبقاء ألا اذآ ظل حدودا مكانيــة دون ان يعني اية معان أو تفاسير زمانية أو حركية . فاذآ حاول أن يكون عضــوا حيا ، وعضوآ زمنيا ، او عضوا له وظيفة ورأى وغضب ورفــض ورؤيـــة وتحديق في الاشياء او في المذاهب او في آلاديان أو في الزعامات او فــي الآلهة او في الانبياء أو حتى في نفسه وجب أن يعاقب ، ووجب ان يكــون عقابه هو اشد عقاب .

انه حينئذ يجب آلرد عليه ويجب ان يكون الرد بالمشرط ، ولكن ليس بمشرط الطبيب بل بسلاح آلجزار ، بل باسلوب الجلاد . هل يوجد او هل وجد مجتمع واحد رأى في رأس الانسان عضوا مثل سائر اعضائه له كما لها أن يتخلق ويكون ويعبر عن نفسه ويتعامل بها كما تفعل كــــل أعضائه او اكثرهـــا ؟

لقد عجز الطب في كل تاريخه حتى اليوم ان يمنــــع آلانفجـارات والتوترات والالتهابات والحرائق التي تصيب اعضاء الانسان . ولكن كثيرا من المجتمعات التي يحكمها الطغاة او التي يحكمها آلحكـــام المتخلفـــون والفاسدون والجهلاء قد استطـــاعت أن تحمي الراس آلانســـاني من كـــل انفجار وآلتهاب وتوتر وتوقد واحتراق وغضب . لقد حمت الراس مـــن ان يكون حيا يصاب بما تصاب به الكائنات الحية ، ويمرض كالاحياء بالاحتجاج والغضب وبالممارسات المتفجرة المختلفة آلاليمة الغاضبـــة . ان هــــذه المجتمعات قد استطاعت ان تحمي نفسهاوان تحصنها بكل اساليب التحصين ضد الالم والخطر اللذين يصنعهما ويمرض بهما راس آلانسان . ان لهـــذه آلمجتمعات اذن ولطغاتها مجد التفوق على الاطباء آلعالميين الذين لم يعرفوا او يستطيعوا ان يحموا اعضاء الانسان من اسباب أو آحتمالات الانفجار او التوتر او آلالتهاب .

ومع الاعتراف بانتصار كثير من الطغاة والمجتمعات على رأس الانسان فلا بد ان يقال آيضا .

لقد ظل وجود الراس الانساني مشكلة هائلة واليمة في اكثر العصور والمجتمعات أو في كل العصور والمجتمعات . ان اي مجتمع من آلمجتمعات لم يستطع ان ينجو من معاناة هذه المشكلة . لقد كان وجـــود آلراس فـــي آلانسان ورطة عاشتها وتعذبت بها كل المجتمعات في كل العصور وناضلـــت

بجنون ضدهـا .

ما اعظم واكثر ما انفق البشر في كل التاريخ من العمـل والذكـاء ، ووضعوا من الخطط والاساليب ، واستحدثوا ومارسوا من الالام والاحزان والمظالم ، وسفكوا من الدماء ، واستقبلوا من الانبياء والوعـاظ والمعلمين ، وانزلوا على انفسهم من الاديان والمذاهب والكتب المقدسة .

ـ نعم ، ما اكثر ما فعلوا كل ذلك لمقاومة راس الانسان ، وخوفا منه، ورفضا له ، ولما فيه من احتمالات قد تتفجر . لقد كانوا يشعرون انهـم يعيشون تحت خطر يعيش فوقهم وفيهم. لقد كان تهديد الرأس للبشر أعجب تهديد عاش فوقهم ودآخلهم وحاربوه مثل عدو يعيش خارجهم .

ان البشر لم يحاربوا اعداءهم وآلامهم مثلما حاربوا رؤوسهـم حتـى ولا في كثير من المجتمعات المتقدمة جداً . انه لا يوجد أي قوم في ايمجتمع لا يحاربون رؤوسهم ولا يخافون منها بأحد اساليب الحرب والخوف ، او باحد مستوياتهما ، أو بكل اساليبهما ومستوياتهما . أن كل البشر مهمـا عاشوا السلام وارادوا السلام فانهم لا بد ان يعيشوا كل الحرب أو بعـض الحرب ، وأن يريدوها كلها او بعضها ضد رؤوسهم .

ان رؤوس البشر هي العدو او الخصم الذي لا يمكن ان يعامل في أي مجتمع بسلام دائم شامل او بهدنة دائمة شاملة .

ما اكثر الطغاة بل والناس الصغار البسطاء الذين يتصرفون وكانهـم يريدون آن يلعنوا الاله او الطبيعة لانه او لانها قد خلقت للانسان رأسـا او لانه قد خلق برأس .

ما أكثر الذين يتمنون أن الآلهة أو أن الطبيعة قد كانت حفية ورحيمـة بالبشر لكي تخلقهم بلا رؤوس ، أو برؤوس ليست مسكونة او مشحونة بهذه المادة او الطاقة الفاسقة الشيطانية الفاهمة لكل اللغات ، والمبصرة لكـل المسافات ومن وراء كل المسافات ، والسامعة لكل الهمسات بل ولكـل النيات ، والمكتشفة قبل الرؤية وبلا رؤية ، والتي تستطيع أن ترى فـي الظلام بقدرما تستطيع الرؤية في النور ، والتي تستطيع ان ترى الصغيـر جدا كما ترى الكبير جدا ، وترى الصغير جدا بالحجم الذي ترى به الكبيـر

جداً او بالقدرة التي ترى بها الكبير جدا ، وبالاحساس والاقتناع اللذين ترى بهما الكبير جـــدا .

ان الرأس جهاز لا يشبهه جهاز آخر في كشفه وهجومه وبذاءته وعدوانه . انه لا يستطاع الاستتار او الهرب منه او من نظراته الوقحة .

انه لا يوجد اعداء واصدقاء ، او محاربون ومسالمون لرأس الانسان . ان كل الناس لا بد ان يعادوا ويحاربوا الرأس الانساني على نحو ما او باسلوب ما .

ان الرأس الانساني هو الكائن المحارب عالميا وابديا مع الاختلاف المحتوم والتفاوت المحتوم في اساليب محاربته .

ولكن هل يوجد من يحاربونه او يعادونه كالطغاة والمعلمين ، لانه اي الرأس الانساني لا يعادي ولا يحارب اي قوم مثلما يحارب ويعادي الطغاة والمعلمين ؟ .

ان الحرب والعداوات بين راس الانسان وبين الطغاة والمعلمين هي اشهر واخلد واعنف الحروب والعداوات .

وهل ذلك صحيح ؟ ألا يمكن الزعم بان الطغاة والمعلمين لا يسالمون ولا يستخدمون ولا يصادقون شيئا كالرأس الانساني ؟ هل احتمى الطغاة والمعلمون ، أو قاتلوا بشيء مثلما احتموا وقاتلوا برأس الانسان ؟ هل وجد طغاة او معلمون لا يحمون ويفسرون طغيانهم وجهلهم برأس الانسان ؟

ألم يجرب الطغاة وكل المتسلطين القادرين طويلا ، طويلا رأس الانسان فيجدوا فيه كل المزايا والعون لهم ؟ الم يجدوه في تجاربهم الطويلة الباهظة صديقا وخادما مخلصا لهم ولكل ما يريدون منه اكثر مما وجدوه عدوا أو مناقضا أو رافضا أو مقاوما ، بل دون أن يجدوه كذلك ، اي عدوا أو مناقضا او رافضا او مقاوما ؟

هل وجد طاغية واحد في التاريخ لم يجد مواكب من الرؤوس لتباركه وتفسره ، وتقدسه وتطيعه بل وتؤلهه ؟

لهذا فلعله لا يوجد ، ولعله كذلك لم يوجد من يريدون أن يكـــون رأس الانسان موجودا وقويا ومنتصرا وهازما كل الاعداء والخصوم ، مثل الطغاة لانه لم يوجد ولن يوجد من يستفيد منه مثلهم . لعل الطغاة وكل المتسلطين القادرين بل وكل المعلمين الدجالين لو كانوا هم الذين دبروا هذا الكيـــون وارادوه وخلقوه لكان الراس الانساني هو أول ما يدبرون ويريدون ويخلقون. إنه اعظم واقدم وادوم صديق ذليل مطيع بل خادم مهين مهان لهم . لعـل الآلهة لم ترد أن يوجد رأس الانسان ولم تدبر ايجاده ولم توجده آلا لانها قد فهمت ذلك من اخلاقه ومن استعداده قبل ان يكون وقبل ان تجرب التعامل معه وبــه .

لقد جرب الطغاة رأس الانسان فوجدوه لهم اكثر مما وجدوه ضدهم او عليهم .. لقد وجدوا رأس الانسان ، مهما كان شامخا وعظيما ، جنديـــا محاربا لتوكيد طغيانهم أكثر مما وجدوه ثائرآ او محاربا لهم، بل أو محايداً. ان الراس ليس هو الذي يرفض او يقاوم أي حينما توجد المقاومة والرفض، ولكن الذي يفعل ذلك هو أخلاق لذات ، كالحيوان الذي يقاوم ، انه لا يقاوم برأسه بل باخلاق ذاته . ان الانسان قائد لرأسه لا مقود بـــه أو له . إن الشجاعة والرفض ليسا منطقا او تفكيرا ولكنهما مستوى ذات او حالة ذات بقدر ما قوة العضل مستوى ذات لا مستوى رأس .

ولو اريد الدفاع بمحاباة عن رأس الانسان لما قيل اكثر او أفضل من :

انه هو الشيء ونقيضه : هو الخطر والواقي من الخطر ، هو الســلاح والمحطم للسلاح ، هو المنطق والنافي للمنطق ، هو المنطق والمنطق المضاد . أنه هو الخطيئة والتوبة منها ، والمرض والطبيب ، والاله والديـن والنفي لهما . انه الخرافة والبلادة ، وانه الذكاء والحقيقة .. ان رأس الانســان – اي حين الدفاع عنه وباسلوب المحاباة له – هو العدو للطغاة وللمعلمين الجهلاء ، المقاوم والفاضح لطغيانهم وجهالاتهم ، ولكنه ايضا وبنفس القــوة هو الصديق الحامي الفادي الساتر لذنوبهم وفضائحهم وغباواتهم ، والساتر المتستر عليها وعليهم . انه المفسر لهم اجمل واكذب التفاسير .

ان هذا اقوى واصدق ما يمكن ان يحكم به على الرأس الانساني ، أي حينما يراد الدفاع عنه والمجاملة له . اما الحكم عليه بلا مجاملة وبلا نيـة الدفاع عنه فقد يكون شيئا آخر ، قد يكون اقسى جدا ، ولكنه قد يكـون

أصـدق جـداً .

اذن لقد كان راس الانسان نفيا لرأسه . لقد كان رأس الانسان هـو الخوف والامان ، الذكاء والغباء ، الشجاعة والجبن ، الكبرياء والهوان .

لقد كان هو الطاعة والعصيان، الصلاة والزندقة ، المقاومة والاستسلام. انه العدو والصديق ، او لا العدو ولا الصديق . لقد اذن الطغاة والمعلمون للرؤوس بأن تبقى ، بان تبقى جماجم ميتة، واماكن غير مسكونة أو مشحونة، ان تبقى مثل أسلحة بلا ذخيرة ، وبلا اجهزة أطلاق او تسديد او تفجـير . انهم لم يأذنوا لها بالوجود أو بالبقاء الا مشترطا عليها بان تظل كذلك . بل كلا ، انهم لم يتركوها ، لقد فرغوها ، انهم لم يتركوها مفرغة ، بل لقد شحنوها بمادة اخرى . انهم لم يقتلوها او يسكتوها او ينهوها فقط ، بل لقد أمروها وجندوها وحولوها الى اقذر قوة محاربة . لقد زيفوها وحولوها الى اهون هوان والى اشهر هزيمة ، والى اردأ قصة عالمية في الجبن والهـوان . ان راس الانسان لا يقتل او يبتر كما تقتل حياته او تبتر اعضاؤه ، بل انـه يحول الى عدو محارب . انه يسخر ليكون انذل واردأ الجنود ليحمي وينصر اردأ وانذل الطغيان .

ان شيئا ما في هذه الحياة ، بل في هذا الكون لم يزيف مثلما زيـف راس الانسان . انه لا يزال يزيف باسلوب عالمي ، باسلوب لا يزيف بمثـله شيء في هذا العالم .

أن الطغاة والمعلمين لم يقطعوا كل الرؤوس ، ولم يأمروا بقطعها كلها ، بل لم يريدوا قطعها او موتها او نفيها او صمتها او حيادها ، بـل لقـد ارادوها لهم فوجدوها كما ارادوها .

ان الطغاة والمعلمين لم يريدوا من الرؤوس ان تكون كمـا يريـدون فيجدوها كما ارادوها فقط . بل لقد ارادتهم هي وبحثت عنهم وسعـت اليهم ووقفت على ابوابهم طالبة الاذن والسماح لها بأن تؤمن وتطيع وتصلي وتهون بلا حساب . لقد وجدوها دائما أكثر وافضل مما أرادوها وامروها .

انهم لم يجدوها جبانة وذليلة ومهزومة فقط ، او مطيعة ومخلصـة لهم فقط ، او منفذة لاوامرهم وتعاليمهم وشهواتهم فقط ، او قارئة حافظة

لخطبهم ولبياناتهم الرسمية فقط ، او فاهمة ما يستطيعون أو ما يريدون فهمه فقط ، أو مدافعة مقاتلة عنهم ودونهم فقط ، أو مصلية في الهياكل والمعابد التي يشيدونها فقط ، او مؤمنة بالارباب والانبياء الذين يأمرون بالايمان بهم او يريدون ان يكون الايمان بهم فقط . انهم لم يجدوها كل ذلك فقط . بل وجدوها أكثر وافضل وأعظم لهم .

لقد وجدوها اكثر من جبانة ومهزومة ومطيعة ومخلصة ومنفذة وحافظة وقارئة ومصلية ومؤمنة ومبشرة وفاهمة ومدافعة ومقاتلة .

لقد وجدوها مكتشفة ومبتكرة وواضعة ومشيدة للمعابد والهياكل وللارباب والانبياء وللتعاليم وللتفاسير وللتسويغات وللافكار والنظريات والمذاهب والنصوص والبيانات ولاساليب البلاغة وللغات والتعبيرات والصفات الجديدة ، بحثا عن المزيد من التمجيد والتمكين والعبادة والاعطاء لهم .

ـ نعم لقد وجدوها مكتشفة ومبتكرة ومشيدة وواضعة ابتداء واختراعا لكل ذلك لتكون ذليلة ومهزومة وكاذبة وخادعة وعابدة ومتلوثة أكثر وابعد واعمق مما يريدون او يأمرون أو يعلمون او يعرفون او ينتظرون .

ان راس الانسان ليس مطيعا فقط بل معلم للطاعة ، وليس كاذبا فقط في تمجيد الطغيان بل ومعلم مشروع للكذب .

انه ليس في أعضاء الانسان ما يشبه او يساوي راسه في الجبن والنفاق والكذب والهوان والغواية ، وفي تعليم ذلك وتفسيره وتسويغه وفي الدعاية له . ان جميع اعضائه لتعاني عاره وافتضاحه وهزائمه . ان كل اعضاء الانسان لتقاسي من هوان راسه .

انه لا يوجد ولم يوجد الا نبي واحد يعلم ويفسر ويسوغ ويشرع الاكاذيب والغباوات وتمجيد الطغيان وعبادة الاوثان . ان هذا النبي الواحد هو راس الانسان .

ان جميع الانبياء يتعلمون فنون نبواتهم واخلاق نبواتهم من هذا النبي

الواحد . ان هذا النبي الواحد هو المسوغ والمفسر لكل الاخطاء والبلادات. والعاهات والمذلات والاهانات والاكاذيب مهما كان مقهورا مأمورا .

اجل ، ان الذكاء لا يملك دموعا غزيرة او نظيفة ليذرفها على مجده المهان المهزوم الراكع .

ان الذكاء لا يملك اية احزان اخلاقية او دينية ليقاسي منها حينما يفقد كل مستويات واساليب المقاومة والرفض .

انه اي الذكاء ليس اكثر مناقضة او مقاومة او رفضا للطغيان او للفساد او للجهل الحاكم او الضارب او الواهب او الفارض لارادة السماء على شهوات الارض .

انه ليس اكثر نفيا او كرها لاخلاق الحشرة او لضميرها او لتقواها او لنظافتها ، او لنوع شهواتها او لنوع جوعها وطعامها ، او لاسلوبها في ممارساتها .

ان الحشرة الذكية ليست اكثر الحشرات نظافة او رفضا ، وان الانسان الذكي ليس اسمى الناس او اقواهم او اشجعهم اخلاقا او عقلا او نفسا او نية او ضميرا . ان الذكاء قد يكون اجرأ واقدر على السقوط والتلوث وعلى ممارسة العار والهزائم والذنوب . ان الذكاء لا يرفض ان يكون نذلا ووغدا وذليلا . انه اي الذكاء لا يرفض ان يكون اكثر نذالة وعارا وذلة من الغباء . بل انه لا يرفض ان يكون غبيا وان يعيش الغباء اكثر من الغباء .

هل يوجد شيء يحتاج الى ان يذل ويهون ويكذب ويسقط ويمارس كل الهزائم ومستويات العار مثل الذكاء الخارق او الموهبة الكبيرة في مجتمعات الطغاة او في مجتمعات الحكام المتخلفين او الحكام الذين يحكمون الارض بتوقيع السماء ؟

هل يجرؤ او يقدر شيء على ممارسة كل هذه الرذائل ، او يمارسها مثل الذكاء الخارق او الموهبة الكبيرة في مثل هذه المجتمعات ، هل ينتظر من احد ان يتألق ويتعاظم في صنع المهانة والسقوط مثلما ينتظر ان يتألق

ويتعاظم في صنعهما الذكي والموهوب الموجودان في مثل هذه المجتمعات؟

هل يوجد أحد يحتاج الى أن يتفوق ، أو يفرض عليه أن يتفوق على الحشرة في هوانها وتلوثها وانهزامها مثل الذكي او الموهوب في مجتمع يحكمه طاغية او يحكمه حاكم فاسد أو متخلف ، او يحكمه حاكم جاء ليعلن فوق الارض مجد السماء ؟

هل يوجد كائن مشوه أو بذيء او مهزوم أو ذليل أو وقح مثل الذكي او الموهوب حينما يصبح موظفا وعاملا في جهازالطاغية او في جهاز الحاكم الفاسد او المتخلف ، او في جهاز الحاكم الذي يجيء ليفرض على الارض اخلاق السماء ؟

انه لن يوجدمن يستطيعون أن يشوهوا الارض ويلعنوها مثل الاذكياء والموهوبين العاملين في اجهزة الطغاة او في اجهزة الحكام والمعلمين المتحدثين عن اخلاق السماء أو في اية أجهزة قوية ضابطة . ان الاذكياء والموهوبين هم دائما الخطر أو الخوف الاكبر مهما كانوا دائما هم الامان او المجد أو الامل الاكبر .

السّيف وَاهباً للإله صفاته

« .. ان الناس لم يتحولوا الى موكب بليد ذليل وراء اي نبي ليؤمنوا بمعجزاته وليشهدوا لنبوته وليصنعوا له الانتصارات والمعجزات مثلما فعلوا وراء السيف . ان السيف هو اوقح الانبياء والمعلمين والزعماء وصناع المذاهب والتعاليم والمعتقدات ولكنه اصدقهم واقواهم منطقا وأكثرهم اتباعا . انه الكذاب الذي لا يوجد اصدق منه والفاجر الذي لا مثيل له في تقواه الدينية والمذهبية والاخلاقية والنفسية . أن البشر لم يجدوا في أكذب كاذب اصدق الصادقين وفي افجر فاجر اتقى الاتقياء مثلما وجدوا في السيف . لقد كان السيف هو العقول والاذان والعيون التي راى بها الناس والتي بها سمعوا وصدقوا كل فنون ومستويات الجمال والصدق والذكاء والتهذيب والاعجاز التي وجدوها في اربابهم وانبيائهم وزعمائهم وفي سائر من علموهم المذاهب والاديان والتعاليم .

« .. من هذا النبي او الزعيم او الكاتب او المعلم الذي يجيء ليعلم قوما أو ليعلم قومه كيف ينتصرون أو يتفوقون على قوم اخرين ؟ ما اخلاقه وما دينه وما شهامته وما ذكاؤه ؟ هل يوجد في بذاءات البشر أو في ذنوبهم مثل ان يوجد فيهم من يذهبون يعلمونهم كيف ينتصر او يتفوق بعضهم على بعض ؟ كيف استطاع البشر أن يتقبلوا زعماءهم ومعلميهم وكتابهم وقادتهم؟ ان هؤلاء هم الذين يعلمونهم كيف ينتصر ويتفوق بعضهم على بعض وهم الذين يمتدحون لهم هذه الوقاحة وهذا العدوان البذيء ؟ ان السيف هو الواضع لصفات الاله المفسر لها . انه المدرس للاله صفاته واخلاقه .. » .

* *

ان شر ما في الحكم المكسوب بالسيف انه يبدو وكأنه لا خيار فيه ، فاما ان يبقى بالسيف أو يزول بالسيف . وكم ذا يعني أو ماذا يعني بقاؤه بالسيف وزواله بالسيف واكتسابه بالسيف ؟ ما الثمن ، وما الوسائل ، وما الاسلوب وما التفسير ؟ ماذا يعرف الانسان عما دفعه وفعله لكسب الحكم بالسيف او لبقائه اي لبقاء الحكم بالسيف ، أو لازالته بالسيف ؟ ولو عرف ما دفعه وفعله ثمنا لذلك فماذا يمكن أن يصنع ؟ هل يقاوم ؟

أن السيف لا يستطيع ان يتخلى عن منطقه بالمنطق ، بأي منطق غير منطقه . انه لا يستطيع ان يفهم او يحترم او يطيع او يخاف سوى نفسه . انه لا يستطيع ان يكون مهذبا او ذكيا . وأنه لا شيء غير نفسه يستطيع ان يقنعه او يعلمه او يهزمه او يحطمه . أنه لا يستطيع أن يفهم او يتواضع أو يتأدب الا بالعجز . وانه لا يستطيع ان يحيا او يتعامل الا بالخوف والتخويف ، أي بان يكون خائفا وبأن يكون مخيفا . ان السيف حاكما لا لا يستطيع ان يكون غير ذلك او افضل من ذلك سواء أوصل الى الحكم بالاكتساب والسرقة أم بالتوريث . وانه كما يكون موصلا الى الحكم بالسرقة يكون موصلا اليه بالتوريث .

ان الواصل الى الحكم بالسيف لن يستطيع أن يظل أنسانا يتعامل مع الاشياء ومع الاحداث والمواقف ومع الاخرين باسلوب الانسان او بمنطقه او بمشاعره او باخلاقه أو بذكائه . أن الخوف والتخويف هما كل اسلوبه ومنطقه وحساباته في تعامله مع أي شيء وفي فهمه لاي شيء . ان كل اساليبه وحساباته ومنطقه وتعامله ووسائله لن تكون الا خاضعة للخوف والتخويف ، ومفسرة مقومة بهما .

هل يستطيع من يصنع الخوف ان يكون بلا خوف او أقل خوفا ممن يوقع بهم الخوف ؟ هل يمكن ان يصنع الخوف من لا يخاف ؟

انه اي الصاعد الى الحكم بالسيف ليس الا كائنا يحيا فوق السيف، ويمشي وينام ويجلس ويتعامل فوقه، ويرى ويفسرويفكر ويخاصم ويخاطب ويخطب ويواجه التاريخ والمستقبل والاحداث والناس به .

وهل يمكن ان يظل مثل هذا الكائن انسانا ؟ او هل يمكن ان يوجد تشوه في الحياة أو في الاشياء او في الناس ، او تشويه للحياة أو للاشياء او للناس مثل هذا ؟ هل يوجد خصم لنفسه وخصم للاشياء مثل هذا الكائن ؟

اذن هل يمكن ان يوجد من يشوه نفسه ويخاصمها ومن يشوه الاشياء والناس ويخاصمها ويخاصمهم مثل القافز الى الحكم ومثل الجالس على الحكم بالسيف ؟

* *

- ان اسلوب الوصــول الى الحكــم بحد السيــف أو بضربة السيف أو برفعه او بامتشاقه اسلوب لا بد ان يتحول الى منطق لا مثيل له في النذالة والجنون والوقاحة والتدمير . ان وراثة الحكم بالسيف ليست بريئة مــن نذالة ووقاحة وذنوب الوصول الى الحكم بالسيف . ان توريث السيــف ووراثته مثل سرقته . انه لا بد ان يتحول الى سباق مفتوح بين جميع من يستطيعون حمل السيف او أن يتعلموا حمله ، بل بين كل من يظنون انهــم يستطيعون حمله أو تعلم حمله .

ان معنى ذلك أن يتحول التدبير للجنون المدمر وممارسته سباقــا مفتوحا يدخله كل من يريده أو يستطيعه ، أو يظن انه يستطيعه ، بل ومن لا يستطيعه ولا يظن انه يستطيعه لكي يموت فيه . ان الموت في ممارسـة مثل هذا الجنون قد يكون موتا مثيراً في اغرائه وفي مواجهته . قد يكــون الموت في ممارسة الجنون هو افضل واذكى واقوى اساليب الموت ، بــل قد يكون أكثرها وأقدرها على نفي رهبة الموت .

ان جميع المتوترين والحاقــدين والغاضبين والاغبيــاء والحمقى والمحتلمين والباكين والطامحين والبــاحثين عن الاثارة والمتلذذين بصناعـة الالام وبرؤية المتالمين والباكين والمهزومين ، وكذا جميــع الهاربين مــن الخمول ومن الاتضاع ومن التاريخ ومن المولد ومن النفس ومن المشاعر ومن الاستقرار ومن التجارب المهينة المذلة .

- نعم ، ان جميع هؤلاء حينئذ لا بد أن يتحولوا الــى باحثين عــن السيف وعن كل قطعة حديد ليجعلوا منها سيفا . ان ذلك هو الذي لا بـد ان يحدث وان يكون المنطق والامل في المجتمعات التي تحكم بسرقة السيف أو بتوريثه ووراثته .

- انه حينئذ لن يكون هناك مجتمعات او قوانين أو مذاهب او اديــان او اخلاق على اي مستوى ، بل لصوص وغزاة وقتلة ومجانين ووحوش .

- انه ليس هناك حينئذ الا حاملون للسلاح أو باحثون عــن السلاح ، ومسوقون محكومون بالسلاح . منتصرون ومنهزمون ، ضاربون ومضروبون خائفون ومخيفون ، ومخيفون خائفون ، أقوياء وضعفــاء ، واصلــون ومتربصون ، قاتلون ومقتولون ، قاتلون ومنتظرون للقتــل ، قاتلون قــبل

يصبحون قتلى ، وقتلى كان ممكنا ومستطاعا ان يكونـوا قاتلين . اواه .. اليس هذا الجنون هو الذي تعيشه اكثر المجتمعات وهو الذي عاشه كـل التاريخ أو اكثر التاريخ ؟

انه حينئذ لا يوجد بشر لهم منطق او تقاليد أو حضارة أو كرامـة او تاريخ او تعاليم او تعاقد من أي نوع ، وانما يوجد شيء واحد ، انما يوجد سلاح يتقاتل ويتآمر ويدبر بعضه ضدبعض ، ويتربص بعضه ببعض ، فـي أيدي سفاحين ومجانين ومتآمرين وقاطعي طرق .

وهل يمكن أن يكون سارقو السيف أو وارثوه أفضـل في تفاسيرهـم او في نياتهم أو في سلوكهم من السفاحين واللصوص وقطاع الطريق ؟

انه لو جاز لك ان تقفز الى الحكم بالغزو فاما ان يجوز لك ذلك وحدك دون كل العالمين ، او انه يجوز لكل مـن استطاعه كمـا استطعتـه تحـت الدعوى التي ادعيتها ، أو الشعار الذي رفعته ، أو المذهب أو الاعتقاد الذي زعمت الايمان بـه .

وهل يمكن أن يوجد من يقول باحد الافتراضين ؟

أن الافتراض الثاني يساوي الزعم بان كل من قال انـا نبي او انـا اعظم عبقري فهو كذلك ، أو الزعم بان كل من حمل أي سلاح قاتل ومدمر فان له أن يقتل ويدمر بكل استطاعته تحت السبب الذي يدعيه . انـه يساوي الزعم بانه يجوز لك ، بل يجب عليك باسلوب فردي ان تقتل وتجرح وتضرب وتشتم وتعاقب وتطارد وتهين وتصادر وتسرق وتخـرب كلمـا استطعت ذلك وكل ما تستطيع من ذلك ، تحت اية دعوى تدعيها ، او منطق تراه ، او تفسير تفسر به عملك ، او بلا آية دعوى أو منطق أو تفسير غـير قدرتك على ذلك وارادتك له . كيف يجوز لك ان تسرق الحكم او أن ترثـه بالسيف لانك استطعت ذلك ولا يجوز لك ان تسرق وتقتل من استطعـت قتله وسرقته كلما استطعت ذلك ؟ ان الافتراس ليس له آية دعوى أو منطق او تفسير سوى القدرة عليه والارادة له . ان الانسان يشتهي لانه يشتهي لا لان له دعوى او تفسيرا أو منطقا ، ولا لان له مذهبا او دينا . وان لـه مذهبا ودينا لانه يشتهي لا لانه يجب ان يكون له مذهب أو دين .

هل يمكن آن يكون قتلك لاي آنسان ، او سبك او ضربك او سرقتك له ، آو قطعك لاحدى يديه او لاحدى رجليه تحت اي سبب تزعمه أو تعتقده ـ نعم ، هل يمكن ان يكون عملك هنا لو عملته اضعف منطقا او تفسيرا آو تسويغا اخلاقيا او قانونيا من قفزك الى الحكم فوق السيف تحت احدى الدعاوى او الاسباب التي تزعمها او تعتقدها أو تعلنها ؟ او هل يمكن آن يعد كونك قاتلا او سارقا بالوراثة اقل اخلاقية آو شرعية او منطقية من كونك حاكما بالسيف الموروث او وارثا للحكم المصنوع بالسيف؟

وقد تزعم او تظن ان كل من كان في مثل اخلاصك وصدقك وغيرتك وذكائك فان له ان يقفز الى الحكم بالسيف . ولكن هذا يساوي الزعم بان كل من نظر في المرآة فاعجب بما رأى فان له أن يقتل السلطان او ان يغرق النهر او ان يتزوج الشمس . وهل القفز الى الحكم بالغزو أسلوب من اساليب العشق للذات ؟ اي هل من يفعل ذلك يرى أنه قد اختير واعد ليكون سيفا نبيا ، اي ليكون مداويا للحياة وللناس بالسيف ؟

انه لا يمكن الزعم بان الوصول الى الحكم بالغزو جائز بلا آية شروط . ان ذلك اذن مشروط بشروط حتى في منطق وتصور القافزين الى الحكم بالغزو .

ولكن ما هذه الشروط فيما يزعم القافزون على العروش بالسيف ؟ انها شروط لا تساوي اكثر من التحدث عنها ومن القفز باسمها . أنها شروط لا يمكن ان تكونمعروفة آو معترفا بها او معلوما وجودها واجتماعها فيمن تشترط فيهم . انها شروط ذاتية يمكن ان يدعي أكثر الناس وجودها وتجمعها فيهم ، كما قد يعجز كل انسان عن ادعائها او عن ان يكون مصدقا في ادعائها .

أن القضية اذن هي آن تفعل بالغزو كل ما تريد وتستطيع دون اية شروط سوى ان تتحدث عن آية دعوى او عن آي سبب او عن اي شيء . ان ما تتحدث عنه ليس هو السبب بل هو التسويغ .

انك لا تغزو فقط بل تغزو ثم تقول وتدعي ما تشاء . انك لست قاتلا او سارقا آو معتديا فقط ، بل ومدافع عن ذلك ، مشرع له ، مفاخر به . انك اكثر من قاتل وسارق ومعتد حينما تصبح مداويا بالسيف آو حينما

تصبح سيفا نبيا . ان السيف النبي اكثر عدوانا ووقاحة واكبر ذنبا من السيف اللص او السيف القاتل او السيف القاطع للطريق .

انك تقتل وتسرق وتعتدي وتخرب ثم تذهب تزعم كيف يجب أن تفعل ذلك ، وكيف كنت فاديا وبطلا حينما فعلته ، وكيف يجب ان يكون مقتولا ومسروقا ومخربا ومعتدى عليه كل من فعلت به ذلك .

انه لو جاز لاي نبي او لاي قديس ان يصعد الى الحكم بالغزو لجاز ذلك بنفس المنطق والمستوى لاي لص ولاي قاتل ولاي قاطع طريق ، تحت نفس الادعاء أو المنطق او النية .

انه اذا استطاع النبي او القديس ان يفسر ويسوغ قفزه الى الحكم بالسيف واستطاع دفاعه عن ذلك بأي منطق او بأية دعوى فان جميع القتلة واللصوص وقطاع الطرق يستطيعون ان يفعلوا ذلك ، اي ان يقفزوا على الحكم بالسيف بنفس الحجة وبنفس القدرة على الاقناع . ولا يوجد منطق او نموذج او قياس أو قانون يستطاع بالحتم والحسم ان يفهم به الفرق بين هذا وهذا .

انه لا توجد علامات سماوية تعلن عن الفرق بين النبي واللص ، اي بين النبي القافز على الحكم بالسيف وبين اللص القافز نفس القفز تحت نفس الدعوى . ولهذا فان اي قافز على الحكم بالغزو لا بد ان يكون في منطق الاشياء أو في منطق المثل خارجا على القانون ، وقاتلا ولصا ومخربا ومعتديا وعدوا للمجتمع حتى ولو كان اعظم الانبياء او أعظم القديسين ، بل حتى ولو وهب الانبياء والقديسين جميعا نبواتهم وقداساتهم ، أو وهب السماء شمولها واقمارها ، ووهب الارض حقولها وانهارها ، أو وهب الانسان كل آثامه واوهامه وشهواته واكاذيبه وغباواته السعيدة .

ان القافز على الحكم بالغزو مجرم يجب عقابه ورفضه مهما كان عطاؤه او كان شخصه او شخصيته او نيته او منطقه او مواجهاته واحتجاجاته ، لانه بكل التفاسير والمعاني والقيم التعليمية والمنطقية خروج على المجتمع ، وافساد او اسقاط لكل نظام او اخلاق او التزام او امان او ضمان او ثقة في المجتمع .

انه اي القافز بالسيف على الحكم يتحول الى تشريع وتحريض على

وجود اللصوص والقتلة وقطاع الطرق والغزاة ، وعلى تكاثرهم وتعاقبهم . انه يتحول الى تشريع لعملهم وتدريب عليه وتمجيد له .

انه دعوة ملحة للصوص والقتلة والغزاة وقطاع الطرق ليجيئوا ويتعلموا ويتكاثروا ويزدادوا جراة ووقاحة ومجدا وسلطانا .

انه لهذا لا بد أن يكون خارجا على جميع المذاهب والاديان والنماذج الاخلاقية والفكرية حتى ولو كان اي القافز على الحكم بالغزو هو أعظم الانبياء أو أعظم القديسين . أما وارث الحكم المقفوز عليه بالسيف والمحمي بالسيف ، او الوارث للسيف المقفوز به على الحكم والمحمي به الحكم ، او الوارث للحكم من القافز على الحكم بالسيف والمحمى بالسيف ، فهذا قد يكون اقل ضجيجا وتهديدا ولكنه لن يكون افضل ، واتقى ، كما انه لن يكون اقل اهانة لكرامة الانسان وكبريائه .

* *

ان من اوقح واقبح اخلاق السيف انه لا يستطيع ولا يريد أن يقول لنا ان حامله لص او قاتل أو مخرب او تافه او بليد أو كاذب حينما يكون كل ذلك . بل انه حينئذ لا يستطيع ولا ينوي أن يتوقر أو يتأدب او يخجل فيصاب بالصمت او يختار الصمت .

انه حينئذ لا بد أن يتحول الى ضجيج ، معلنا بكل اللغات والاصوات والاساليب بأن حامله ليس الا بطلا او نبيا ، بل بطلا نبيا ، بل ليس الا اعظم مفكر وفيلسوف وعبقري .

ان السيف هو افجر واوقح واقوى المفكرين والفلاسفة والانبياء والمعلمين والقديسين والخطباء ، وأقدرهم على الاقناع في كل التاريخ . انه النبي الذي لا مثيل لمعجزاته في القدرة على الاقناع .

ان السيف هو اقوى واكثر الانبياء معجزات . ان نبوته لا مثيل لها في كثرة وقوة وصدق معجزاتها وفي قدرتها على ان تكون مرئية ومعلومة ومرهوبة ومصدقة .

انها النبوة التي يؤمن بها ويرى معجزاتها كل من لا يؤمنون بالنبوات

وكل من لا تستطيع عيونهم أن ترى المعجزات .

ان سكان الارض لم يتحولوا الى موكب بليد ذليل كئيب وراء أي نبي ليهتفوا له ، وليصدقوه ، وليشهدوا لنبوته ، وليصنعوا له الانتصارات والمعجزات ، مثلما فعلوا وراء السيف .

ان السيف هو أقوى واشهر معجزات الانبياء ، كما ان معجزاته هي اقوى واذكى واعظم مجدا وقدرة على الاقناع من معجزات جميع الانبياء . انه اوقح الانبياء والمعلمين وصناع المذاهب والتعاليم ، ولكنه اصدقهم واقواهم منطقا واكثرهم اتباعا . انه الكذاب الذي لا يوجد اصدق منه ، والفاجر الذي لا مثيل له في تقواه الدينية او المذهبية او الاخلاقية او النفسية .

ان البشر لم يؤمنوا بصدق وبتقوى فاجر كذاب مثلما آمنوا بصدق السيف وبتقواه .

ان السيف هو اقبح نبي صنعه البشر ليفضحوا به انفسهم ، ليفضحوا به جميع مستوياتهم الانسانية ، وليدللوا به على انهم يملكون جميع مستويات الهبوط في الذكاء ، وفي الرجولة ، وفي الشجاعة ، وفي الوقار والكبرياء والعظمة ، وفي النبل النفسي والاخلاقي . انه اقسى واقوى شاعر عالمي لهجاء الانسان .

ان البشر لم يخترعوا السيف ويصنعوه ليظل سيفا فقط بل ليصبح سيفا ونبيا . وهل يستطيع السيف ان يظل سيفا فقط ؟

لقد كان اختراع السيف النبي او السيف فقط اسلوبا فظيعا من اساليب الهجاء والتحقير للانسان . لعل الانسان لم يستطع ان يهجو ويحقر عقله واخلاقه مثلما فعل ذلك حينما اخترع السيف وتعلم وضعه في يده ، وحينما حوله الى معلم ومقنع بالاديان والمذاهب ، وبالالهة والانبياء ، وبالمعلمين ، وبالزعماء والقادة ، وبالتحدث عن بطولاتهم ومزاياهم .

لقد كان السيف هو العقول والاذان والعيون التي راى بها الناس وسمعوا واقتنعوا بمعجزات وجمال وصدق وذكاء الالهة والانبياء والزعماء

وسائر المعلمين للمذاهب والاديان .

ان السيف هو افجر واكبر واقوى كذاب جاهل صاغ للانسان آلهته وانبياءه وزعماءه وقادته ومعلميه ، وصاغ لـه اديانه ومذاهبه وتعاليمـه ، ووهبه القدرة على رؤية مزاياهم ومزاياها وعلى الاقتناع بهم وبها .

ان الالهة لم تصدق نفسها ولم تر جمال وجودها بكـل هـذه الروعة والاقتناع والاعجاب لولا السيف .

انه لم يكذب احد في التاريخ مثلما كذب السيف ، وانه ايضا لـم يصدق اي كذاب في التاريخ مثلما صدق السيف !

ان السيف هو اكذب كذاب واصدق صادق . لقد عومل كذبه بكـل مستويات الحفاوة والتصديق .

ان السيف لم يكن في اي وقت ولا يمكن ان يكون ضرورة او حاجة او وظيفة او قيمة في حياة الانسان ، ولكنه اي السيف هو الذي يجعل نفسه كذلك او يبدو كذلك . ان السيف لن يكون له معنى في يدك الا لانه موجود في يد اخرى . انه في يدك وفي اليد الاخرى لن تكون لـه ايـة وظيفة او قيمة من اي نوع في الحياة ، ولن يكون منطقا او احتياجا في اي شيء او لاي شيء . انه لم يوضع في يدك وفي اليد الاخرى بمنطـق او تدبـير او احتياج من الحياة .

انه داء دائما ، انه لا يكون دواء لاي شيء .

ان السيف هو النبي الذي لن تكون له اية رسالة مهما كانت معجزاته. ان جميع الانبياء في كل التاريخ لا يملكون المعجزات التي يملكها اصغر سيف يحكم به اصغر دجال يفقد كل مستويات الشجاعة .

* *

ان كثيرا من انتصاراتنا اللامعة والمدوية والباهظة الثمن لا يعني ايـة قيمة موجودة او مرجوة . ان الانتصارات علـى الآخرين او علـى الاعـداء

والخصوم ليست الا عملا من أعمال الهزيمة . آنها ليست الا اسلوبا باهظا وشريراً وبليداً من آساليب البحث عن الهزيمة أو الخلق لاسبابها . أنها ليست علاجا لاي شيء ولا مجدا لاي كائن .

أن هذه الانتصارات ليست الا بكاء وعذابا وضياعا وهزائم قد جاءت باسلوب آخر ، او قرئت بلغة اخرى . ان الاحساس باليأس وبالورطة وبالعجز هو الذييدفعنا اليها او يدفعها الينا . آنها لتبتكر لنا الاعداءوتجد في تحويلهم الى أعداء اقوياء . وانها لتحول أنفسنا الىحرائق رهيبةتتلظى بالمخاوف والتوقعات وبكل الانفعالات الشريرة الباهظة .

أن انتصاراتنا على الاخرين ليست الا عقابا لتفكيرنا ولاخلاقناولعيوننا ولجمالنا ولسرورنا ولقدرتنا على الحب ولحاجتنا الى الامن والاطمئنان.

وهل يمكن ان يعاقب البشر انفسهم بأقسى أو اردأ من معاقبتهم لانفسهم بانتصارهم على الاخرين ؟

ان انتصاراتنا على الناس عقاب لابنائنا واحلامنا ، آنها تشويه لهم ولها . حتى انتصاراتنا على الاعداء والخصوم والمنافسين ، انها لكذلك .

آن كل انتصار على البشر ، حتى على الاعداء والخصوم لا بد انيحمل في احشاء كبريائه جنين هزيمة ، هزيمة محتومة او متوقعة . ان جميع المنتصرين على الناس لا بد ان تعيش فيهم احتمالات الهزيمة . أنهم لا بد ان يواجهوا الهزيمة او لا بد ان يظلوا يستحقونها . ان استحقاق الهزيمة هو ممارسة للهزيمة بالمنطق والخيال والتوقع والتفكير والقانون . وهذا قد يكون اقسى اساليب المواجهة للهزيمة .

ان آي انتصار ليس الا هزيمة واستحقاق هزيمة . انه هزيمة للانسان الذي انهزم ، واستحقاق هزيمة للانسان الذي انتصر . اذن فان كلانتصار لا بد آن يتحول الى هزيمة واقعة ، والى هزيمة مستحقة . وكلتا الهزيمتين واقعتان بالانسان . ان الانسان لا ينتصر الا آذا انهزم،او آلا لانه قد انهزم.

آذن فكلما انتصر الانسان اي انتصار فالمعنى المحتوم لذلك آنه قد اصيب بهزيمة واستحق هزيمة .

ان الذين ينتصرون انتصارا لا يتحول الى هزيمة واقعة والى هزيمة اخرى متوقعة او مستحقة هم الذين لا يقفون موقف الخصام المحتاج الى الانتصار او الباحث عن الانتصار . واذا وقفوا موقف الخصومة او وضعوا في موقف الخصومة عالجوا هذه الخصومة او تصرفوا في مواجهتها مثل قضاة واطباء نفسانيين وفكريين وانسانيين ، ومثل اصدقاء ومتعاونين ومنقذين ، لا كأعداء وخصوم وباحثين عن الاذلال والقهر والتفوق العدواني، لا كوحوش ولا كأبطال يريدون الانتصار على الناس وعلى الاعداء والخصوم، ويريدون ان يصنعوا هذا الانتصار باعلان ومباهاة وضجيج وباذلال لا كرامة ولا رحمة ولا بطولة ولا تهذيب فيه . لانه لا يسعدهم ولا يرضي نزقهم أن يخرجوا من اية خصومة خروجا لا جراح فيه، اي خروجا لا نصر ولا هزيمة فيه .

ان الباحثين عن الانتصار لا يبحثون عنه لانهم يريدون فقط ان يكونوا منتصرين ، بل ولانهم يريدون أيضا أن يكون الآخرون منهزمين . انه ليس المطلوب الانتصار فقط بل والهزيمة لانسان ما او لقوم ما .

ان انتصارك لا يساوي في نفسك انتصارك بل وهزيمة انسان آخر. فهل يوجد اذن اقبح من انتصارك ؟

ان شهوتك ليست فقط ان تكون قويا وسعيدا بل وان يكون أولئك الآخرون او اي آخرين ضعفاء واشقياء . قد يكون عذاب الاخرين شهوة من شهوات مجدك . قد يكون جوع الاخرين معنى من معاني استمتاعك بطعامك وبشبعك .

انه دائما يوجد قوم لا يستطيعون ان يكفوا عن الاحتلام بالانتصارات الاعلانية المذلة المقرعة ، وعن السعي وراءها . ان هؤلاء هم قدر شرير على الانسانية . انهم اخبث وافدح اعدائها واعداء انفسهم .

ان انتصارات هؤلاء القوم تتحول الى جراح لا تعالج الا بجراح أشد منها . انها تتحول الى داء لا يستطب منه الا بالقتل .

ان انتصارات السيف هي العلة التي لا تداوى الا بالموت والهزائم وبالاحزان والآلام . ان انتصارات السيف هي التعبير البذيء المهين عن

هزائم الانسان .

هل في جميع وقاحات البشر وقاحة تساوي وقاحة من يذهبون يتحدثون عن انتصاراتهم على الاخرين ويحتفلون بها ، ويحولون الاحتفال بها الى اعياد موسمية ووطنية وقومية ، والى مهرجانات خطابية ودعائية ، تدق فيها ولها كل الطبول ، إعلانا عن هزيمة وقهر قوم او انسان او شعب او مذهب او قائد او دين بل او اله ؟

ان هؤلاء لا يحتفلون او يفرحون بانتصارهم بل وبهزيمة اقوام آخرين وبهزيمة اديانهم او مذاهبهم او اوطانهم .

اذن هل يعرف المحتفلون بانتصاراتهم ماذا تعني احتفالاتهم ؟ هل كل البشر اطفال وحمقى ووحوش ؟ ولكن كلا .

هل الوحش يريد الانتصار او يتغذى به او يبحث عنه ؟

هل الوحش يسعد بالانتصار سعادة دينية او مذهبية او اخلاقية او وطنية او قومية او عرقية او نفسية او فكرية كما يسعد الانسان هذه السعادة ؟

اذن هل الانسان وحش ، او هل الوحش انسان ؟

هل توجد وحشية بل او نذالة او بلادة او وقاحة تساوي فرح الانسان بانتصار الهه او نبيه ؟

انه يعتقد ان الهه او نبيه يفرح بانتصاره على الانبياء او على الالهة الاخرين . اذن هل توجد وحشية او بلادة او نذالة او وقاحة مثل وحشية الانسان او مثل بلادته او نذالته او وقاحته ؟

ان الوحش يفترس بلا رحمة او تقوى . ولكن الافتراس ليس بحثا عن الانتصار ولا ارادة للانتصار . ان الافتراس اذن افضل جدا او اقل نذالة جدا او اقل وحشية جدا من ارادة الانتصار ومن البحث عنه .

ان الوحش لا يفترس ليصنع الهزيمة والهوان للاخرين مثلما يصنع الانسان ومثلما يريد وينوي ويشتهي .

ان ارادة الانتصار والبحث عنه والتغذي به ، بل والمباهاة به مستوى انساني فقط ، بل ومستوى آلهة أيضا . ان الالهة والبشر هم وحدهم الذين يريدون الانتصار على الآخرين ، ويبحثون عنه ، ويتغذون ويسعدون به . انهم اي الالهة والبشر لا يريدون الانتصار فقط لانفسهم بل والهزيمة للخصوم والمنافسين والاخرين . انهم يتغذون بالانتصارات وبالهزائم . ان الانتصار ليس انتصاراً فقط في حسابهم بل وهزيمة .

ان هزائم الاخرين هي التي تهب انتصاراتهم قيمها وتفاسيرها المذهبية والدينية والنفسية والفكرية .

ان ارادة الانتصار في حسابات الالهة والبشر لا تساوي فقط النتيجة التي يعطيها الانتصار . ان الالهة والبشر يريدون الانتصارات دون ان يحسبوها بنتائجها أو دون أن تكون مساوية لنتائجها أو مرتبطة بها ، بل ودون أن تكون لها نتائج من أي نوع سوى ارادتها ، بل وحين يكون توقع النتائج مضاداً .

ان الانتصار مطلوب ومراد بلا ثمن او تفسير او منطق خارجي . انه هو ثمن نفسه ، وهو منطقها وتفسيرها . انه في حساب الالهة والبشر لا يساوي ما يهب بل يساوي الشعور به ، ويساوي ما يعني من هزيمة واذلال للاخرين او للخصوم والمنافسين والاعداء . أن أذلال الخصوم والمنافسين دون انتصار لافضل في حساب الالهة والبشر من الانتصار لو جاء بدون اذلال لهؤلاء الخصوم والمنافسين .

ان الالهة والبشر لا يطلبون الانتصارات أو يسعدون بها لانها تفوق ذاتي ، ولا لانها تمجيد للتقوى او للحق او للعدل او للجمال او للعبقرية والذكاء ، بل لانها تحقير وقهر لكائنات اخرى . ان التحقير والقهر هما أعظم ما تتغذى به شهوات الالهة وشهوات البشر . انهم لن يجدوا مذاقا لكلمة « انتصرنا » لولا المذاق الذي يجدونه في كلمة « قهرنا وحقرنا » .

اذن هل الالهة والبشر وحوش ؟ هل الوحوش تسعد باذلال الاخرين وتحقيرهم مهما سعدت بافتراسهم او جاعت الى لحومهم؟ هل هي تريد ذلك

او تبحث عنه او تفعله ؟ هل هي تجد فيه اي مجد مذهبي او ديني او اخلاقي او وطني او قومي ؟

ان الوحوش تفترس فقط دون ان تشعر بالسعادة او المجد أو بالكبرياء لانها قد إستطاعت ان تذل وتحقر وتقهر شيئا او احدا ، ودون ان تقيم المهرجانات الموسمية احتفالا باذلالها وتحقيرها وقهرها لكائنات اخرى، ودون ان تصنع الاشعار وتنشدها ثناء على نفسها وعلى اربابها وانبيائها وزعمائها ومذاهبها ، ودون ان تجد في ذلك اي مجد من أي نوع كما تجد الالهة والبشر في افتراسهم .

ان الالهة والبشر لو انتصروا على الاعداء والخصوم والمنافسين ثم لم يقتنعوا بأن الهوان والتحقير قد اصابا اولئك الخصوم والمنافسين والاعداء لما وجدوا لانتصارهم النشوة ولا القيمة ولا الجزاء المطلوب والمتوقع .

أليس الانسان اذن يبالغ في الثناء على نفسه وفي الدفاع عنها وفي محاباتها حينما يصفها بالوحشية ؟ او لعله بذلك يضعف نفسه ويسلبها صفاتها وخصائصها التي لا يملكها سواه حتى ولا الوحش . لعل الانسان يتواضع كثيرا ويصغر كثيرا حينما يصف نفسه بالوحشية او بأنه وحش لانه هو اكثر من ذلك جدا . انه اكثر من وحش وأن وحشيته أقوى وأشمل واقسى من جميع الوحشيات . ان الانسان ليس وحشا بجوعه فقط كالوحوش التي في الغابة بل هو وحش ايضا بأخلاقه واديانه ومذاهبه وافكاره وطموحه وغرائزه .

هل يمكن أن يشفى الانسان من هذه الوقاحة البذيئة ، اي من ارادة الانتصار على الاخرين ، او على الاعداء والخصوم والمنافسين ، ومن مشاعر الابتهاج والسعادة بهذه الوقاحة،ومن ارادة الاذلال والقهر والتحقير لهؤلاء؟

هل يمكن أن يشفى من العمل لهذه الوقاحة ومن المباهاة النفسية او الدينية او المذهبية او الاخلاقية او الوطنية او العرقية بها ؟

هل من الافضل للانسان ان يشفى من هذه الوقاحة ؟

هل تسعد الحياة او الانسان لو شفيت أو شفي من الوقاحات ؟

وهل يمكن ان يتقبل الالهة او الانبياء او الزعماء ان يكون البشر لهم رعايا واتباعا لو كانوا اي البشر غير مرضى بالوقاحات ؟ هل يعجبون حينئذ بهم او يرضون عنهم او يباهون بكونهم رعايا واتباعا لهم ؟

وهل يكون البشر رعايا او اتباعا او عبيدا جيدين لو كانوامهذبين ؟

هل التهذيب معنى جيد في الاشياء او في الحياة او في البشر ؟

هل الحياة محتاجة الى التهذيب اكثر من احتياجها الى الوقاحات ؟ وكيف تعرف احتياجها ؟

**

ان اهواء الناس ومشاعرهم حتى الاقوياء منهم منحازة دائما او في الافتراض الدائم الى الضعفاء والمقهورين ، اكثر واصدق من انحيازها الى الاقوياء القاهرين المزهوين بقوتهم وانتصاراتهم .

ان الضعيف المغلوب يشعر الناس بتفوقهم وقوتهم وبأنه محتاج الى رحمتهم ورعايتهم وحمايتهم دون ان يخيفهم او يحرك غيرتهم او منافساتهم . اما القوي فانه ينازعهم القوة والتفوق ، وقد ينتزعهما . انه منافس للاقوياء ومذل للضعفاء . انه اذن ليتحدى الاقوياء والضعفاء . انه يشعرهم ويقنعهم بأنهم محتاجون الى محاباته والى غفرانه ، والى رحمته او عدله او كرمه او تواضعه . انهم محتاجون دائما الى الخوف منه والى التفكير فيه ، والى الصلاة والنفاق له باسلوب ما او بعديد من الاساليب . انهم لا يستطيعون الا ان يحاسبوا مشاعرهم وتفكيرهم ومواقفهم ولفاتهم ازاءه . انه موجود دائما بقوة وبارهاب داخل وجودهم . ان القوي استعباد لوجود الناس . انه عدوان عليهم . ان وجود انسان اقوى من انسان لهو اعلى مستويات العدوان والظلم .

ان في هذا كل معاني الاذلال وتفاسيره لكل معاني الانسان ولكل تفاسيره .

اذن كيف يمكن الا يهب الناس اصدق واقوى بغضائهم واحقادهم للاقوياء

وللمنتصرين على الناس ؟

انه مهما كانت مظاهر او آساليب التقدير او الاحترام او الحب للاقوياء وللمنتصرين على الناس ، على الخصوم والاعداء والمنافسين فان مشاعر الناس واهواءهم ونياتهم تقاومهم وتعاقبهم وتتخطاهم ، وتنحاز كما تغضب وتغار ولو سرا وهمسا ، للضعفاء والمقهورين .

ان تفسير هذا أو اسبابه هي مشاعر الانتقال بالذات الى مكان الاخرين ، ورؤيتها اي الذات بالتصور في مثل ظروفهم اي ظروف الاخرين ، وتخيلها معانية ومواجهة ما يعانون ويواجهون .

اننا أحيانا او دائما نضع أنفسنا أو نجدها أو نحسها بالشعور والتصور في مواقف الاخرين وداخل مشاعرهم وذواتهم .

اننا لا نستطيع ان نحيا خارج الاخرين كما يستطيع ذلك النمل والبراغيث .

ان الذين يستطيعون ان يحيوا خارج ذوات الاخرين ومشاعرهم ليسوا الا نملا وبراغيث جاءوا بأحجام البشر وصيغهم .

ان الانسان كائن منتقل او شامل بالفكرة والمماثلة والاحتمال وبالرؤية المتحركة. انه لا توجد أية حدود عازلة من اي نوع بين ذاتك وذوات الاخرين ، أو بين ذاتك وجميع الذوات الاخرى المثيلة او الشبيهة .

ان موت ومرض مثيلك هما حتما موت ومرض لك ما لم تكن نملة او برغوثا .

لهذا فاننا قد نتعذب ، بل يجب ان نتعذب حينما نرى او نعلم من يتعذبون أو يبكون أو يحقرون ويهزمون ، أو يظلمون ، أو يمرضون ويموتون . كما قد نلعن ونكره ، او كما اننا لا بد ان نلعن ونكره ، او كما يجب أن نلعن ونكره الظالمين والقهارين المذلين . ان هؤلاء بالتصور والاحتمال والمماثلة وبمنطق الانتقال كأنهم يظلموننا ويقهروننا ويذلوننا نحن. ان وقوع الاذلال أو الظلم في عيني او في علمي معنى من معاني وقوعه في ذاتي .

كيف وقع الظلم والقهر والاذلال على اولئك ولم يقع علينا ؟

ما الفرق ؟ الا يمكن ان يقع علينا بالمنطق أو بالقانون أو بالعدل الذي وقع به عليهم ؟ الا يمكن ان يقع علينا دون ان يقع عليهم بالاسلوب الذي وقع به عليهم دون ان يقع علينا ؟ لقد اصيب هذا الانسان بهذا المرض. اذن يمكن ان اصاب أنا به ، بل يمكن أن أصاب به دون من اصيب به .

اننا حينما نشاهد قويا متجبرا يضرب او يذل ضعيفا نجد أننا بأسلوب ما او على مستوى ما نقاوم ما نشاهد . اننا لا بد ان نقاوم ذلك بأحد اساليب المقاومة مهما بدا او مهما حسبنا او حسب الآخرون اننا لا نقاومه، بل مهما بدا أو حسب أو حسبنا اننا نساعد القوي المتجبر على الضعيف المقهور .

اننا لا بد أن نقاوم ذلك ولو بمنطقنا او باشمئزازنا او بخوفنا أو بوعظنا او بغيرتنا وحسدنا ، بل او بتوريطنا المدمر لذلك القوي المتجبر وبمساعدته على السير اكثر في طريق الهلاك والسقوط . أن مساعدة الجبار على السقوط أسلوب غير مقصود او مدبر لمقاومته . انه قد يكون اقوى أساليب مقاومته .

اننا لا بد ان نقاوم هذه المقاومة حتى لو بدا اننا لا نقاومها ، بل حتى ولو لم نقاومها . ان حرس الطاغية الجبار وشعراءه ومستشاريه ليقاومونه كما يفعل اعداؤه ولكن باسلوب اخر ، باسلوب قد يكون اكثر فتكا به وأسرع الى التعجيل بنهايته مهما كانت نذالة هؤلاء .

لماذا نفعل ذلك ؟ هل لاننا طيبون ؟ قد نظن ان الامر كذلك ، او نتمنى ان يكون كذلك .

ولكن التفسير لهذا الموقف أو لهذا الانحياز او لهذه المقاومة هي ان القوي المتجبر يتحدانا ويخيفنا ويذلنا وينتصر علينا . انه يجعلنا بالاحتمال والقياس والمشابهة ، نحن المهانين المقهورين المظلومين المعتدى عليهم . أذن لا بد أن نقاومه باسلوب ما من أساليب المقاومة، وان ننتصر لضحاياه المغلوبين الذين يعيشون فينا ونعيش فيهم على نحو ما وبتفسير ما . أن كل انسان وأي

انسان يعيش في كل انسان باسلوب ما وبتفسير ما .

انما نضرب ونشتم ونحقر حينما يفعل ذلك بغيرنا او بمثيلنا . ان ضارب وشاتم ومحقر وهازم غيرنا او مثيلنا هو فاعل بنا ذلك في التشبيه والمقارنة والتصور والاحتمال .

انه اذا كان موت مثيلك يعني حتما موتك فانظلم او اهانة مثيلك تعني ظلمك واهانتك ولو بالاحتمال .

ان غيرنا او مثيلنا هو نحن باسلوب اخر او في ذوات او ظروف اخرى. اننا لسنا انفسنا فقط ، بل نحن ايضا الآخرون .

اننا اذن نقاوم دفاعا عن انفسنا حينما نقاوم الاقوياء والطغاة دفاعا عن الضعفاء المقهورين . حتى ولو كنا نحن طغاة أقوياء في مواقف أخرى مشابهة .

ان التداخل المحتوم بين ذات المظلوم المهان الباكي وبين ذات الرائي إي بين ذات المتألم وذات المشاهد له هو الذي وهب وصاغ كثيرا من الظواهر الاخلاقية والانسانية، مع جميع ما يبدو فيها من عواطف بشرية نبيلة وبريئة، ومن رحمة ورثاء للمحزونين والمظلومين والمتعذبين والباكين .

ما كان اغزر الدموع التي ذرفها البشر ويذرفونها دائما ، وكأنها دموع تذرفها عيون واحزان الملائكة فوق خدود وآلام الالهة .

كأنها اصدق الدموع والاحزان الانسانية رحمة بالمعذبين وحنانا على الآخرين ، بينما هي دموع واحزان ذاتية ، تذرف وتقاسي خوفا على النفس أن يصيبها ما اصاب اولئك الاخرين المعذبين .

ما كان اغزر وأصدق الدموع والاحزان الانانية التي جاءت وقرئت وفسرت وكأنها اتقى الدموع والاحزان الانسانية .

ما اكثر الانبياء والمعلمين الذين جاءوا ليبكوا آلامهم وهمومهم بعيون

وقلوب الاخرين . ما اكثر الذين يركبون عيونهم في وجوه الاخرين .

ما اكثر الذين يعلنون عن احزانهم وجراحهم بالاعلان عن احزان وجراح من قد يدخلون الجحيم . ما اكثر الذين بكوا وتروعوا وتعذبوا استفظاعا لجحيم الآخرين لانهم يخشون ان يكون ايضا جحيمهم ، او لانهم تصوروا جحيمهم وتحدثوا عنه باسلوب التحدث عن جحيم الاخرين والتصور له .

ما اكثر الذين رأوا الاله حزينا وغاضبا لانهم كانوا محزونين وغاضبين وخائفين . ما اكثر الذين رأوا الشيطان لابسا كل ادوات الحرب لمقاتلة الانسان لانهم هم كانوا يقاسون الخوف من شيء ما . ما اكثر الذين خافوا على الانسان من الشيطان لان شيطانا ما كان يعيش في داخلهم .

ما اكثر الذين تخلقت في عقائدهم واقتناعاتهم كل صور الجحيم لان حياتهم كانت تعيش كل معاني الجحيم . ما اكثر الذين تحولت آلامهم ومخاوفهم وهمومهم الى الهة وانبياء ومذاهب ، والى اخلاق الهة وانبياء ، والى منطق وتعاليم الهة وانبياء ، والى مخاوف وهموم وآلام الهة وانبياء .

ما اكثر الذين سفكوا الدموع والاحزان رثاء لدموع واحزان الالهة وخوفا عليها من شرور واثام الزنادقة والفاسقين لان عيونهم وقلوبهم هم كانت مملوءة بالدموع والاحزان ، او بالخوف من هؤلاء الزنادقة والفاسقين ، او بالغيرة منهم ، او بحسدهم ، او بالمنافسة لهم ، او بالعجز عن مباراتهم ، او بالرهبة منها . ما اكثر الذين تعذبوا لانهم وجدوا من يتعذبون ، ولانهم لم يجدوا فروقا او حدودا طبيعية او انسانية او حدودا من اي نوع بينهم وبين من يتعذبون .

ان الذين تعذبوا خوفا من الموت لم يعلموا انهم لا بد أن يموتوا الا لانهم وجدوا من يموتون .

ولكن الظروف والاحداث والمشاعر المتناقضة والمتحاربة بلا تقوى او شرف قد تضلل هذا التداخل في المشاعر والذوات بين الباكين والمشاهدين، بين الذوات والمشاعر المتلقية وبين الذوات والمشاعر المتوقعة او المماثلة او التي اخطأتها الضربات التي اصابت مثيلها .

لهذا فقد نفقد احيانا العطف والانتصار للضعيف المغلوب المظلوم لنهب كل عطفنا وهوانا وانتصارنا النفسي والفكري والسلوكي للاقوياء المنتصرين الباغين المتحدين لكل احتمالات الكرامة والشرف والشجاعة والكبرياء فينا بقوتهم وطغيانهم وبانتصاراتهم المهينة لنا ولكل الناس .

اننا قد نريد أن نصبح عضلات في اليد الضاربة المهددة لنا . اننا حتما نفعل ذلك أحيانا كثيرة بتدبير .

اننا قد نشعر او نقدر او نتوقع أحيانا ان احتمالات القوة والانتصار محسوبة او مرصودة أو مدخرة للضعفاء الذين يسامون الهوان والتعذيب ، وان هؤلاء الضعفاء المقهورين قد أصبحوا بالاحتمال والتوقع وبالمنطق ايضا هم اقوياء الغد وطغاته ، واصبحوا لذلك مهددين لنا بالخطر المتوقع واننا نحن الذين اصبحنا نعيش احتمالات الضعف والهزيمة ، او اننا قد اصبحنا بالاحتمال والتوقع نحن الضعفاء المهزومين .

أن الخوف بالتوقع او الخطر المتوقع قد يكون في حسابنا أكبر من الخوف الواقع او من الخطر المتوقع .

انه حينئذ قد يختل او لا بد ان يختل هذا التداخل في المشاعر والنيات الذي يصنع كثيرا من تعبيراتنا الاخلاقية والانسانية ، والذي يجعلنا

ننتصر بمشاعرنا ونياتنا للباكي ضد الضارب . انه حينئذ يحدث العكس .
اننا حينئذ نذهب ننتصر وننحاز للقوي الضارب ضد المضروب المغلوب . وشواهد هذا الانحياز او الانتصار للاقوياء الضاربين ضد الضعفاء المضروبين شواهد كثيرة في الحاضر وفي كل التاريخ . حتى لقد اصبح ذلك يشبه القانون في اخلاق الانسان . ولكن هذا قد يكون في المعنى انحيازا ضد الاقوياء المنتصرين والضاربين بالاحتمال والتوقع . أن هذا قد يكون احد التفاسير او كل التفاسير في هذه القضية .

نعم ، لقد ظل البشر أو اغلبهم في كل التاريخ أو في اغلب اخلاق التاريخ ينحازون ضد الانسان الضعيف المعتدى عليه ، انتصارا وتعصبا للالهة القوية الضاربة المعتدية . لقد ظلوا ينحازون ضد أنفسهم وهم المقهورون المظلومون الباكون المعتدى عليهم ، دفاعا عن قاهرهم وعن صانع

دموعهم وهزائمهم وهوانهم ، وتمجيدا وتنزيها له . اي دفاعا عن الاله وتمجيدا وتنزيها لاخلاقه ولذكائه ولعبقريته من كل اتهام . وهل يوجد انحياز للاقوياء المنتصرين القهارين المذلين مثل انحياز البشر او المؤمنين منهم الى الالهة ؟ وهل يوجد خروج على المنطق وعلى الاخلاق مثل هذا الانحياز؟

كيف حدث هذا الذي حدث ؟

لقد كان المتوقع أن يتحالف كل البشر ، حتى المتعادون المتقاتلون جدا ضد الاله . انه قاهرهم ومذلهم وخصمهم جميعا . أنهم جميعا مظلومون ومغلوبون وباكون ومضروبون ، حتى الظالمون الغالبون الضاربون المبكي منهم . لقد ظلمهم وغلبهم وضربهم وابكاهم جميعا الاله . آذن لقد كان المفروض أن يتجمعوا ضده .

ولكن لقد انحاز جميع المضروبين المغلوبين المظلومين الباكين الى ضاربهم وظالمهم وغالبهم وصانع دموعهم . لقد انحازوا ضد انفسهم تعصبا وانتصارا للقهار الاكبر ، للقهار الذي يتحول جميع القهارين محاسبين بقهره الى اتقى واقدس قديسين . آنه المبتكر لكل معاني القهر والمعلم له والمحوج اليه والخالق لاسبابه ولتفاسيره .

لقد جاءت هنا اخلاق البشر ومشاعرهم وعقائدهم وافكارهم خارجة على نفسها وعلى كل التوقعات والافتراضات .

وهل يستطيع اي شيء ان يخرج على نفسه مهما جاء خارجا على نفسه ؟

ان ها هنا ضاربا كبيرا ، كبيراً . ان ها هنا ضاربا لكل الناس ، بل لكل الكائنات ولكل الاشياء . اذن يجب ان يقاومه وآن يتهمه وان يرفضه كل شيء بقدر ما هو عدوان على كل شيء .

ولكن لقد حدث ان تعصب له وآن انحاز اليه وان براه ومجده وصلى له وقاتل دونه ودفاعا عن اسمه وعن شرفه كل شيء .

انه الضارب الكوني العالمي الذي لا مثيل له في جودة حظوظه وفي

آعجاب المضروبين به .

ولكن كيف ؟ وهل قاوم البشر او عصوا او رفضوا شيئا مثلما قاوموا وعصوا ورفضوا الاله ؟

وهل وجد معصي مرفوض مقاوم مثل الاله ؟ هل وجد مهزوم مثله ، مهزومة أوامره وارادته وتعاليمـــه ؟

انه قد يفترض ان الاقويـاء الاذكيـاء القادرين الصادقـين يريـدون ويستطيعون بل ويحاولون ان يحسوا المخاطر بكل قوتهـا وتجهمهـا ، وان يحدقوا فيها بكل رؤيتهم ، وأن يقدروها بكل حساباتهـا واحتمالاتها ، وان يعترفوا بها من فوق جميع منابرهم بكل اصواتهم . كما انه قد يفترض ان الضعفاء والهاربين والاغبياء ومن لا يستطيعون ان يكونوا صادقين ، قـد يجدون او يظنون او يعتقدون ان الاحساس بالمخاطـر ، وكـذا رؤيتهـا او التحديق فيها او التحدث عنها او الاعتراف بها ، خيانة للوطن او للدين او للمذهب او للاخلاق او للاله او للزعامة ، وهزيمة او دعوة للهزيمة . انذلك لافتراض ، انهما افتراضان . ان قوما قد يعتقدون ان رؤية الخطر الموجود ايجاد له ، وان الاعتراف بوجوده ايجاد ثان له . اما الكف عن رؤيته وعـن الاعتراف به فقتل له .

اذن انه لعدو كل من يرى المخاوف او المصاعب او المشاكل او المتاعب او الاخطار ، وكل من يتحدث عنها ، او يعترف بها او يحولها الى حسـابات او توقعات ، او الى قضايا تحاور او تفسر او تقرأ بجهر .

وكذلك كل من يرون الدمامات أو الوقاحات أو الاهانات أو المظالم ، وكل من يتحدثون عنها او يعترفون بها .

ان هؤلاء ــ ولعل كل الناس كذلك ولو احيانا ــ يريدون أن يؤخذوا ويذلوا ويضربوا ويموتوا ويعانوا ويواجهوا كل ما لا بد منـــه في الظلام ومباغتة دون ان يروا او يعرفوا او يعترفوا او حتى يتوقعوا .

انهم لا يريدون ان يسمعوا أو يروا او حتى يتوقعوا ما يقاسـون ويواجهون ويفعلون .

انهم يريدون ان يهزموا ويستسلموا ويتعذبوا دون أن يقال لهم ذلك.

انهم يريدون ان يهونوا دون ان يحدقوا في هوانهم او يعترفوا به او يحدثوا عنه .

اليس ذلك اقل تعذيبا وترويعا والزاما لهم ، وأكثر تلطفا ورفقا بهم ؟

اليس القتل أو الموت دون تلاوة الحكم به ودون اسماع الحكم به أقل وحشية واكثر تهذيبا ورحمة وذكاء ؟

اليست المواجهة الفكرية والشعورية معاناة مثل المواجهة الواقعية ؟

ان اكثر الناس او كل الناس يريدون ان يرضوا عن انفسهم وعن ظروفهم واحتمالاتهم وتوقعاتهم . انهم محتاجون الى الاقتناع بصداقة الاشياء لهم لكي يستريحوا اليها . انهم لا يستطيعون ان يشعروا انهم يسكنون فوق زلزال ، او انهم يحيون ويتقبلون اي مستوى من الهزيمة او الجبن أو الضعف أو الهوان أو الاستسلام أو التفاهة .

ان كل شيء يجب ان يرى ويسمع ويفسر ويتوقع بغير صورته وبغير صوته وبغير منطقه واحتمالاته واخلاقه . ان كل شيء يجب أن يزور وان يفسر تفسيرا رحيما ومريحا وملائما . انهم يجب أن يجاملوا انفسهم بالتفاسير حيث لم يجاملوا بالواقع .

حتى السيف يجب ألا يفسر الا مزورا . يجب الا يفسر الا بانه نبوات ومذاهب وافكار واخلاق ومنطق وحب آلهة وانبياء وزعماء . ان جميع المواجهات غير الملائمة وغير الجميلة وغير الذكية وغير المجيدة او الشجاعة يجب ان تحول الى ملائمة وجميلة وذكية ومجيدة وشجاعة ، وأن تفسر بانها كذلك . أن التفاسير قد ابتكرت ردا على الواقع الكريه البليد . انها هي الحلل الجميلة التي تستر وتزين قبح الاشياء وتشوهاتها وبذاءآتها . انها اشهر واقوى محاباة للالهة والانبياء والزعماء .

اليس الاعتراف بالمواجهات والممارسات بكل ما فيها من قبح ورهبة وبشاعة وتفاهة وترويع ، وكذا التحديق فيها والاحساس بها والتحدث

بصدق وذكاء عنها ـ نعم ، أليس ذلك مستوى من مستويات القوة والتكامل والتحضر النفسي والفكري والاخلاقي ؟

هل يمكن ان يرتفع الانسان الى جميع مستوياته الانسانية والابداعية والاقتحامية الباسلة لولا احساسه الحاد الشامل المحصي المحدق الشديد التوقع بالمخاوف والاخطار ، وبالبشاعات والدمامات والتفاهات ، وبجميع المواجهات والممارسات الصعبة والتي لا تحرض على المباهاة أو الاعجاب أو الكبريـــاء ؟

أجل ، قد يكون هذا الاحساس تعبيرا عن القوة والتكامل ودليلا على وجودهما دون ان يكون خالقا لهما .

انه لمن المفروض او من المحسوب احدى الحقائق المتفق عليها أن الذين يعيشون ويواجهون المخاطر والهزائم والدمامات والاكاذيب والمظالم الواقعة او المتوقعة بأفكارهم وتصوراتهم وباهتماماتهم واحاسيسهم وبتحديقاتهم وحساباتهم الحادة ، لا بد أن يكونوا اقدر واجرأ على فهمها وعلى معالجتهـا والانتصار عليها .

ان رؤية المخاطر والبشاعات والهزائم وجميع المواجهات والممارسات المذلة او الصعبة أو التافهة ، وكذا الاعتراف بها، لن يجعلاها اكبر او اقوى او اخطر من ذاتها او من قوتها وحقيقتها . وان العجز عن هذه الرؤية وعن هذا الاعتراف ، وكذا الخوف، منهما ، لن يجعلاهااصغر او أضعف أو اسهل او أكثر تهذيبا أو رفقا .

ان الانسان الذي يرى الاخطار ويحسها ويعترف بها لن يكون اعجـز عـن مقاومتها من الكائنات التي لا ترى الاخطار ولا تحسهـــا ولا تعترف بهـــا . .

ان العدو او المرض الذي لا نراه ولا نعترف به لن يصبح أضعـف او ارحم أو انبل لاننا لا نراه ولا نعترف به ، كما ان رؤيتنا له واعترافنا بـــه لن يصنعاه شيئا اقوى أو أذكى او اكثر وحشية وبطشا .

ان العمى لن يكون واقيا من الوقوع في الحفر او من وجود الحفـــر

تحت اي مذهب من المذاهب او دين من آلاديان .

ولكن من المحتمل ان القدرة والجسارة على رؤية الاشياء المزعجة وعلى الاعتراف والاحساس بها منفصلة عن القدرة والجسارة على المقاومة وعلى الرفض والانتصار . انهما قد تكونان موهبتين منفصلة احداهما عن الاخرى .

اننا قد نكون قادرين جداً وبمبالغة كأنها الداء على رؤية الاخطار والبشاعات والالام وجميع الاشياء الرديئة والذميمة ، وعلى الاحساس والاعتراف والتحدث بها بكل جنون التهويل والتضخيم ، دون أن نكون قادرين قدرة مساوية او مقاربة على مقاومتها او معالجتها ، او حتى مريدين لهذه المقاومة والمعالجة . كما اننا قد نكون قادرين على مقاومتها ومعالجتها ، وراغبين جدا في ذلك ، ثم لا نكون قادرين على رؤيتها أو على الاعتراف والاحساس بها او على التحدث عنها بنفس المستوى .

قد تكون قدراتنا ومواقفنا ليست محكومة او محسوبة بعيوننا او بتوقعاتنا أو بمشاعرنا أو بأفكارنا . قد تكون الحقيقة اننا لا نستطيع او نفعل او نريد بقدر ما نرى او نحب أو نرفض ، ولا نرى أو نرفض او نحب بقدر ما نفعل او نستطيع او نريد .

قد تكون المواهب غير متكافئة او متلازمة او متحالفة او مؤثرا بعضها في بعض . اليست حاسة البصر منفصلة عن حاسة السمع ؟ أليست الحواس منفصلا بعضها عن بعض ؟

انهم لموجودون دائما اولئك الذين تكون ابصارهم حادة جدا دون ان يملكوا اية قدرة او اية شجاعة او آية موهبة على آي شيء او في اي شيء. انهم لكثيرون جداً اولئك الذين يرون او يسمعون بقوة دون ان يقدروا على فهم شيء أو التفكير في شيء أو الغضب من شيء او الرفض لشيء او الاشمئزاز من شيء .

ان البصر الحاد او المنطق الحاد او الانفعال الحاد لا يعني الفعل الحاد او القدرة المقتحمة او المنتصرة أو الحادة . كما ان البصر الكليل أو الانفعال الكليل او المنطق آو التفكير الكليل لا يعني حتما القدرة الكليلة .

ان كل هذه قد تكون افتراضات صحيحة أو مجربة معروفة .

ولعل من المكرر التأكيد بان الانسان كائن يعيش وكأنه وحدات مستقلة او ممزقة أو منفصل بعضها عن بعض دون تخاطب أو تفاهم او توافق او تلاق بل أو تعارف . انه ليبدو أي الانسان وكأنه كائنات كثيرة متناقضة ومتفاوتة ومختلفة دون أن تكون لها أية قيادة .

هل توجد في ذات اي انسان قيادة واحدة او قيادات متوحدة تقود كل معانيه وقواه واهوائه واحتياجاته وهمومه ، ليبدو آنسانا واحدا او شيئا واحدا؟ لا اشياء كثيرة او آناسا كثيرين متباعدين متعادين متناقضين جدا ؟

ان الانسان قد يناقض ويخالف بعضه بعضا اكثر واقوى مما يناقض او يخالف انسانا اخر . أنها قد تكون المسافة الفاصلة بين ذات الانسان وذاته أوسع وأعمق من المسافة الفاصلة بين ذات الانسان وذات الانسان الاخر .

آن الانسان ليبدو غريبا بعضه مع بعض وغريبا في نفسه أكثر مما يبدو كذلك مع انسان اخر آو في قوم اخرين . انه مهما استطاع او لو آستطاع التلاؤم مع كل احد ومع كل شيء فانه لن يستطيع التلاؤم مع نفسه ومع ذآته ومع اعضائه . .

ان الانسان هو اكثر الكائنات رؤية وتوقعا للمخاطر وللالام والهزائم والمظالم والقباحات ، واعترافا بها ، وتحدثا عنها ، واستقباحا لها .

انه هو وحده الذي يملك ويعيش هذا المستوى او هذه الموهبة فوق هذآ الكوكب الذي نعيش فوقه .

ولكن لماذا تكون رؤية الاشياء الرديئة والاليمة والمهنية ، ويكون توقعها والتحديق فيها والاعتراف بها والتحديث عنها شيئا طيبا مهما كان مستوى حضاريا او آنسانيا آو نضاليا او مساعدا على الاتقاء ؟ اليس ذلك آقسى من كل ما يحدث ؟ بل أليس ذلك يكون مع كل ما لا بد ان يحدث ؟

اليس توقع الموت والتحديق فيه والتحدثعنه والاحساس به والانتظار

لمجيئه والقراءة لاسبابه أقسى من جميع صيغه وطلماته ؟ أليست كل قسوة الموت هي في توقعه وفي الانتظار له وفي الخوف منه وفي التحدث عنه ؟ هل الموت شيء خطير او ألم اكثر من ذلك ؟ هل الهوان او الحقارة شيء فظيع لولا الاستفظاع له او لها ولولا التحديق فيه او فيها ؟

آذن أليست الاصابة بالعمى وبالصمم وبالصمت هي اعظم هدايا الحياة واذكى وافضل الاساليب في مواجهة وقاحات ودمامات وذنوب الاشياء والناس والحياة ؟

* *

اذا اعترفت بقوة ومزايا خصمك وانت قوي وذو مزايا فلن يقتلك او يذلك اعترافك . ان اعترافك حينئذ تزكية وقوة لرجولتك . واذا اعترفت بقوته ومزاياه وانت بلا قوة او مزايا حثك اعترافك على البحث عن القوة والمزايا ووهب شجاعتك وصدقك الاحترام ، أو اصبح نوعا من التفكير عن ضعفك وعن فقدك للمزايا ، او اصبح سترا لقبح ضعفك وضعف مزاياك، او اصبح شيئا من التهذيب او التقوى في ضعفك وضعف مزاياك .

وآذا خشيت الاعتراف بقوته وبمزاياه وانت قوي وذو مزايا كانت خشيتك غباء دون ان تهبك حماية او تكريما ، ودون أن تهب خصمك ضعفا او تحقيرا . واذا لم تعترف وانت ضعيف وفاقد للمزايا كان ذلك معنى من معاني الانتحار او الفرار من المقاومة او الالتزام بها . وكان ذلك أيضا سخفا ووقاحة وبلادة وتحريضا على الاستهزاء بك . ما اقبح وأوقح وجهك حينما تكون بلا أية قوة أو مزايا ثم تضج في جحد قوة ومزايا ذوي القوة وذوي المزايا ، وفي تحقيرهم ولعنهم دون غيرة منهم .

انك إذا اخطأت في تقدير عدوك قويا وهو ضعيف كان افضل واكثر شهامة وذكاء ، واقل سوءا وبذاءة من ان تخطىء في تقديره ضعيفا وهو قوي . آن تصغير الخصم او العدو عزاء لا مثيل له في التفاهة ، يحاول الانسان ان يجامل به نفسه . انه مجاملة للنفس تتحول الى استهزاء بها وتحريض على التحديق في تفاهتها .

ان عينيك مفتوحتان ومسددتان الى الخارج . آن ذلك يعني انه قد

اريد منهما ولهما ان تريا الاعداء والخصوم وكل الاخرين وكل الاشياء الاخرى اكثر مما اريد منهما ولهما ان ترياك أنت .

أن عينيك مصوبتان الى الخارج ، الى الاهداف الخارجية ، لا اليك . ولكنك أنت تعصي تركيبهما ، ولا تريد منهما ولهما أن تريا شيئا سواك .

لقد أفسدت عينيك . ان كل الناس قد أفسدوا عيونهم .

لقد غيرت اتجاه عينيك كما غير كل الناس اتجاه عيونهم . لقد حولت عينيك لتكونا مصوبتين بمحاباة وتزوير اليك ، لا الى الخارج بصدق او شهامة . لقد جعلت من عينيك جهازاً مشوها . وهكذا فعل كل الناس . لقد جعلت من عينيك أنذل واوقح كذابين يعيشان في وجهك . ان وجهك هو اشهر مكان يعيش فيه الزور وشاهدو الزور .

ولكن ما أفظع هذا — ما افظع ان نفترض لك عدوا او خصما من البشر ، تحتاج الى أن تتعلم كيف تتحدث عنه ، وتنظر اليه ، وتفكر فيه ، وتنتصر عليه ، وكيف تتقي انتصاره عليك .

آن هذا الافتراض افتراض همجي . ان المفروض ان يتخطاه الانسان. ولعله محتوم ان يتخطاه .

هل يوجد قبح او بلادة او نذالة او جنون او عجز او سخف مثل ان يكون انسان لانسان اخر عدوا او خصما أو محاربا ؟

هل يوجد في كل الذنوب وفي كل الوقاحات والخسران مثل هذا ؟

ان مخاصمة الانسان للانسان وعداوته له لتتحولان الى أقسى واصدق هجاء لجميع مواهب ومزايا وقدرات البشر . كيف ابتكر الانسان العداوة والمخاصمة والبغضاء للانسان ؟ أي شيطان وهبه عبقرية هذا الابتكار ؟ كيف لم تتدخل وتحمه الارباب ؟

ثم لماذا تنصح انت وتعلم كيف تكون ضد خصمك او عدوك لتتفوق او تنتصر عليه ، ولا ينصح ويعلم خصمك او عدوك هذه النصيحة او هذا

التعليم لكي يتفوق وينتصر عليك ؟ لماذا يكون طيبا ان تنتصر عليه ولا يكون طيبا ان ينتصر عليك ؟

لماذا انت تريد هذا دون هذا – او لماذا تتحدث وتكتب وكأنك تريد هذا دون هذا ؟ ما هذا النبي او الزعيم او الكاتب او المعلم الذي يجيء ليعلم قوما او قومه كيف ينتصرون او يتفوقون على قوم آخرين ؟ ما اخلاقه او دينه او شهامته او ذكاؤه .

هل يوجد في دمامات البشر او في ذنوبهم مثل ان يوجد فيهم من يعلمونهم كيف ينتصر او يتفوق بعضهم على بعض ؟ اذن هل يوجد مثل الانبياء والزعماء والقادة قبحا ورداءة لانه لا يوجد مثلهم من يعلمون الناس ويريدون لهم ان ينتصر ويتفوق بعضهم على بعض .

كيف وجد هذا ؟ كيف وجد من يعلمون البشر ضد البشر ؟

كيف هبط البشر الى هذا ؟ وكيف استطاعوا تقبله ؟ كيف تقبلوا انبياءهم وقادتهم ؟

كيف استطاع البشر تقبل معلميهم او زعمائهم او كتابهم ؟ ان هؤلاء هم الذين يعلمون البشر هذا الجنون والعار .

الانسان يعصي، لهذا يصنع الحضارات

« .. ان عبقرية اي انسان ومزاياه لا تساوي اكثر من قدرته على العصيان ومن ارادته وممارسته له ومن اساليبه المختلفة في ممارسته له. ان ابداع اي مجتمع في ألف عام لا يساوي اكثر من عصيان هذا المجتمع في نفس هذه المدة . ان اي ابداع او تجاوز ليس الا عصيانا ما . ان عصيان الانسان هو تخطي ما كان ، هو تخطي قدرة الطبيعة . اما عصيان الحشرة فانه التلوث بما كان . انه الخضوع للطبيعة بكل صيغها واساليبها وبذاءاتها . ان الانسان اقوى واشمل عصيانا من الحشرة اذن ، بل انه هو الذي يعصي دون الحشرة . ان الحشرة لا تعصي . ان عصيان الاعضاء ليس عصيانا ، انه تلوث واستجابة للجوع الى العفونات . انه طاعة لاملاء الطبيعة واستسلام لشروطها. انه ركوع الى الارض . ان الانسان هو وحده الذي يعصي في هذا الكون لانه هو وحده الذي يتجاوز قدرة الطبيعة واشواطها ، ويخرج عليها ويرفضها ، وهو وحده الذي يتجاوز نفسه ويخرج عليها ويرفضها .

« .. ان العصيان هو رفض الطبيعة والذات وتخطيهما . وليس العصيان هو الاستجابة لهما او التوافق معهما او الوقوف عندهما او الخضوع لضعفهما او لجوعهما .. ان الاستقامة والتقوى ليستا الا عصيانا ما .. ان عصيان الانسان هو عصيان كينونة وعصيان منطق وعصيان قدرة وطموح .. ان جميع أساليب الابداع والتغيير ليست سوى أساليب عصيان .. » .

**

احذر . انه محتوم عليك بل ومطلوب منك ان تعادي جميع الناس ، وان تبغضهم وان تراهم اشرارا أغبياء هالكين معادين للشمس . وانه ايضا محتوم عليك بل ومطلوب منك ان تكذب وتنافق وتعاني لكي تخفي ذلك عن الناس الذين تشعر نحوهم هذه المشاعر والذين تراهم هذه الرؤية . انه محتوم عليك ومطلوب منك ان تمارس هذا الكذب والنفاق وهذا الاخفاء لنفسك لكي تستطيع ان تحيا وان تتعامل وتتلاءم مع الناس ومع الحياة. احذر ، انه مطلوب منك ومحكوم عليك بان تحيا هذه النذالات والعداوات والذنوب وهذا القبح والكذب .

احذر الايمان بالاله الشامل الكامل او بالمعتقدات الشاملة الكاملة .

وكذا أيضا بالمذاهب الشاملة الكاملة . احذر الايمان الشامل الكامل بأي شيء ..

ان ايمانك هذا يجعلك محكوما عليك بل ومطلوبا منك أن تعادي وتبغض جميع الناس الذين لا يؤمنون مثل ايمانك ، وان تراهم اغبياء وأشرارا وضالين وهالكين ومعادين للنجوم . ولكنك محتاج الى أن تحيا والى ان تتعامل وتتلاءم مع هؤلاء الناس الذين لا يؤمنون أيمانك . أذن أنت محكوم عليك بان تكذب وتنافق وتقاسي لكي تستطيع ان تخفي نفسك عنهم وعليهم . أن ايمانك بمثل هذا الاله او بمثل هذه المعتقدات والمذاهب يفرض عليك أن تعيش دائما الحرج والعار والخجل من نفسك أمام الاخرين وفي تعاملك معهم ، انه مطلوب منك ومحكوم عليك ان تعتقد وان تقتنع وان تشعر ، وانه كذلك مطلوب منك ومحكوم عليك ان تخفي او تنكر اعتقادك واقتناعك وشعورك هذا ، وان تقاسي لكي تستطيع الخروج على اعتقادك واقتناعك وشعورك هذا .

ان هذا هو معنى آيمانك بالاله الشامل الكامل الاعظم او بالمذهب او الدين الشامل الكامل الخالد الحق . فهل تعلم ان الامر كذلك ؟ هل تقبلت ان تكون كذلك ؟ هل فسرت ايمانك هذا تفسيره الصحيح ؟ هل استطعت قبوله بتفسيره الصحيح ؟ هل غفرت لنفسك مؤمنة هذا الايمان ؟

أن ايمانك هذا يتحول الى عدوان على نفسك وعلى اخلاقك ، والى تعذيب وتشويه لنفسك ولاخلاقك . وانه ايضا اي ايمانك هذا ليحول الناس الى اعداء والى تشوهات وعاهات وبلادات وغوايات ، والى آثام في منطقك وفي رؤيتك .

ان نفسك أذن لمسكونة باقبح واوقح واردأ السكان . أنها مسكونة بمن الجحيم والكره العالمي بعض عطاياهم .

أنك آذا كنت متدينا او مؤمنا فان معنى هذا في زعمك انك تملك كل الحق ، او اكبر الحق ، او اصدق واخلد الحق ـ وان مخالفيك ، جميع مخالفيك يملكون كل الباطل ، أو اكبر واخلد واقبح واغبى الباطل . انك

حينئذ – في اقتناعك – تملك وتعيش كل منطق آلكون وكل ذكائه وجماله، وان جميع مخالفيك حينئذ لمزمون بان يتعلموا منك ويتبعوك ، وان يروك او يروا فيك كل تفسير الاشياء ومنطقها ، والا وجب هلاكهم واحتقارهم ، آو قتالهم أحيانا . ان قتالهم هو أقوى معاني آلهك وايمانك فيك ، أي ما لم تكن عاجزا أو خائفا أو منافقا . وحينئذ تكتفي باحتقارهم وبفضائهم . آن البغض والاحتقار للمخالفين هما اقل درجات الايمان .

انك حينئذ ملزم بان تدعو كل الناس الى جنتك وبان تدخلهم فيها او تحاول ذلك ، باكيا وحزينا ومحسورا اذا لم تستطع ادخالهم فيها . انك حينئذ ملزم بان تحول كل آلناس آلى رعايا في مملكة آلهتك . آن الهك ليفرض عليك ان تحول كل المخالفين الى رعايا له . انه يلزمك ان تتحول الى حاشد قطعان لتتجمع في محرابه او في مجزره . ان عليك آن تجعل كل القطعان له .

انك حينئذ ملزم ان تؤمن بان جميع الآلهة الطيبة آلصديقة آلشرعية القانونية الانسانية ساكنة فيك وحدك ، في معبدك وفي قلبك وفي اهوائك وكلماتك ، بل وفي سلاحك وشتائمك حينما تتعامل بالسلاح والشتائم . وانك انت وحدك ومن معك اصدقاء هذا الكون ومجده ، واصدقاء ومجد ارباب هذآ آلكون ، وحلفاؤه وخلفاؤه . ان شتائمك واحقادك حينئذ هي التفسير الشامل الصحيح لاخلاق الاله وآلكون ولضميريهما دون شتائم واحقاد مخالفيك او خصومك او اعدائك . ان شتائمك واحقادك حينئذ هي وحدها التي تتحول الى ثناء على الاله وعلى آلكون ، والى اتقى آلصلوات لهما .

أما المخالفون لك فانهم الاعداء لهذه الارباب ، المشوهون لمجدها واخلاقها ولذكائها ، المثيرون لغضبها ولاحزانها ، المفسدون لحكمتها وجمالها ، المرهقون لاعصابها ، المحاربون لها ، آلمستحقون لكل عقابها ولعناتها ، المخرجون لها عن تهذيبها ووقارها ، آلمشككون لها في عبقريتها وبراعة تدبيرها ، الذين فرضوا عليها ان تعاني كل معاناتها لكي تصنع لهم النار وكل العذاب والاهوال . ما اظلم الذين يضطرون الاله آلى ان يعاني ويتعذب لكي يخلق ويعد آماكن ووسائل آلتعذيب لهم . ما اظلم هؤلاء للاله . ما اشد عدوان المعذبين على آلاله .

ما اشد ما تعذب وعانى الاله في تشييده وتخطيطه للنار ولكل وسائل العذاب . ما اشد ما اعتدى عليه الغواة الخارجون عليه حينما اضطروه الى آن يدبر ويفكر لكي يصنع لهم بقوة وعبقرية جميع أساليب العذاب واماكنه وظروفــــه .

نعم ، ان سكان الجحيم وجميع المستحقين للعقاب لمعتدون على الاله وظالمون له لانهم يشقونه في صناعة الجحيم والعقاب لهم .

ما أوجب ان تتحول جميع الاشياء الى دموع واحزان ، لترفع الى الاله عزاء ورثاء لمعاناته وعذابه ، لترفع الى الاله الذي خلق كل هــذا العذاب وكل هذه الاهوال .

كم كان شقاؤه لكي يعد هذا العذاب بكل اساليبه وظروفه واماكنــه وحراسه ومنفذيه . كم كان شقاء الاله .

انه لمحتوم عليك ومطلوب منك ـ حين تؤمن بالاله الشامل الكامــل الاعظم او بالمذهب أو الدين الشامل الكامل الخالد الحق ـ ان تقتنع بانــك افضل الناس واعقلهم واذكاهم واحظاهم واقربهم الى قلب هــذا الكــون واجملهم في عينيه ، وبان مخالفيك هم شر الناس واغباهم وأبعدهــم عــن قلب هذا العالم وابشعهم دمامة في عينيه . ما اعظم وقاحتــك حينئذ . ما اعظم وقاحة من يعتقد بانه وحده يملك الاله الصحيح أو الدين الصحيح او المذهب الصحيح الشامل الخالد .

انك حينئذ أنت وحدك ، أي ومن معك ، جمــال الاله وعدله وتفسيره وذكاؤه وشرفه ومجده ومسرته وعزاؤه ومحبته وصداقته ، وأنك حينئــذ انت المعرض الشامل الاعظم لكل ما في قلب الاله وعقله ويديه وعضلاته من قدرة وعبقرية وطهارة ونظافة وسمو وحب ومنطق ومعرفة وفنون وصدق واخلاص .

انك حينئذ أنت ، اي ومن يؤمن ايمانك ، انت الواهب والموهوب لكل الهدى والذكاء والمعرفة والاستقامة ، وانك مخصوص ومقصود بكل المحاباة وبكل الصداقة الخاصة التي هي اكبر وابعد واعمق من جميــع التفاسـير ومن جميع الاشكال المنطقية المعروفة والمجهولة ، وان الخاص القاصد لــك

بكل ذلك هو كل ما في هذا الكون من اسرار وقوى وعبقريات وارواح سماوية .

انك حينئذ انت كل التفسير والمفسر والتسويغ والمنطق والصواب والحق والجمال في كل شيء ولكل شيء .

انك لا تريد ولا تستطيع ولا تهم ولا تفعل الا بسلطان وقدرة وارادة عليا . وان هذه القدرة والسلطان والارادة العليا تريد وتفكر وتختار لك ، وانها تحكمك وتضبطك وتهديك وتصنع لك الانتصارات ، وتهبك كل ذاتها وعبقرياتها واشواقها واهتماماتها وتحديقاتها ، دون ان تهب مخالفيك او ان تصنع لهم من ذلك شيئا . انك لو اردت لنفسك الضلالة والغواية والسقوط والهزائم لما استطعت .

انك المعشوق المتفرد في هذا الكون وان عشاقك هم كل ما في هذا الكون من قوى وارادات عليا .

ان المؤمن بالاله الشامل الكامل الاعظم او بالدين الشامل الكامل الخالد الذي هو الحق وحده والحق كله ، محكوم عليه بل ومطلوب منه ، بل ومأمور ابدا – ليس بان يعتقد بانه مفروض عليه ان يفنى في عبادة آلهة هذا الكون الوحش البليد الدميم السفيه ، بل محكوم عليه ومطلوب منه ومأمور ابدا بان يعتقد انه لا وظيفة لهذه الآلهة ، اي لالهة هذا الكون سوى فنائها واستغراقها وافتضاحها في عبادته هو اي في عبادة من يؤمن مثل هذا الايمان بمثل هذا الاله او بمثل هذا الدين – وسوى خوضها وتدبيرها وارادتها للحروب الدائمة والعداوات الدائمة ضد مخالفيه وخصومه واعدائه ، اي ضد مخالفي وخصوم واعداء من يؤمن مثل هذا الايمان بمثل هذا الاله او بمثل هذا الدين . انه لا عمل للالهة غير الشوق اليك والمحاباة لك . ان هذا ما يجب عليك اعتقاده حين تكون مؤمنا . ان الايمان فضح للالهة وليس احتراما لها . ان المؤمن انسان يهجو وليس انسانا يصلي او يمجد . ان هذه هي بعض المركبات او بعض الشروط او بعض الحتميات التي يتركب منها او يلتزم بها كل ايمان وتدين من هذا الوزن وبهذا النموذج وبهذا المستوى ومن هذا النوع .

ان كل ايمان او تدين بهذا الاسلوب لا بد ان يكون هذا تفسيره ومعناه

مهما كان الاله او المذهب المنصب فوقه .

أن المؤمن المتدين لن يراد منه ولا له ، ولن يستطيع ان يتنظف او يتوب من هذه الرذائل والاثام والوقاحات العالمية التاريخية . ولو أنه تنظف أو تاب من ذلك ، أو حاول او اراد ان يفعل ، لما ظل مؤمنا ولا متدينا . أن التهذيب او الحب أو التواضع أو الاحترام في نفس المؤمن المتدين او في سلوكه او في لغته لن يكون الا ضعفا في الولاء للاله أو للمذهب . أن تسامح او ذكاء او انصاف أو تنزه او تورع المؤمن المتدين لن يكون الا اخذا من ايمانه وتدينه وعدوانا عليهما .

أن شرف الانسان وانسانيته هما دائما هزيمة واضعاف لايمانه ولتدينه ..

أن الانسان لن يستطيع ان يظل انسانا بكل حدود وتفاسير الانسان الجيدة والرديئة وهو يؤمن باله أو بدين أو بأي معتقد او بأي مذهب من ذلك الطراز الشامل الكامل الابدي الذي هو كل الحق ، والذي كله حق. انه اذا آمن مثل هذا الايمان فلا بد أن يتخلى عن حدود الانسان وتفاسيره، أو ان يحاول ذلك ويريده ويتمناه ، لكي يصبح بحدود وتفاسير ذلك الاله أو الدين أو ذلك المعتقد أو ذلك المذهب الذي آمن به وتدين له .

انه حينئذ لن يظل انسانا يحاسب الانسان ويفهمه ويفسره ويغفر له ويرى اسبابه وظروفه وهمومه كمايفعل مع نفسه ولنفسه وفي تعامله معها. ان ايمان الانسان بمثل هذا الاله او الدين او المذهب لا بد أن يصنع منه عدوانا فكريا او نفسيا او اخلاقيا او دعائيا او لغويا او كل ذلك .

أنه حينئذ لا بد ان يتحول ، أو لا بد ان يطالب او يؤمر بان يتحول الى دين أو الى مذهب أو الى اله حاقد معاد محارب اناني كالح غاضب ، او الى دين أو مذهب أو الى اله من هذا الطراز . ان الانسان يظل مفتوح الحدود والابواب بمحبة واستقبال حتى يؤمن ، فاذا آمن سدت واغلقت كل حدوده وأبوابه بالالهة وبالاديان وبالتعاليم والوصايا المتوحشة المعادية.

وهل يوجد ، او هل يمكن ان يوجد مذهب او دين او اله ليس حاقدا ومعاديا ومحاربا وغاضبا وأنانيا وكالحا ؟ هل يمكن ان يكون الدين أو

المذهب او الاله انسانيا ؟ هل وجد في التاريخ مثل هذا الدين او المذهب او الاله اي في سلوكه ونياته وضميره وتاريخه حتى ولو كان كذلك في لغاته وشعاراته ؟ ان الآلهة والاديان والمذاهب المصادقة المحبة جدا في لغاتها وشعاراتها لا بد ان تكون نقيض ذلك في نياتها أو في ضمائرها أو في اخلاقها او في نتائجها .

ان الدين والاله والمذهب يقتلك ويعاديك ويشتمك ويبغضك بحجة الحب والاحترام والحماية لك والغيرة عليك والدفاع عن حياتك ورخائك وعن اخلاقك . انه يخرج على جميع معاني الانسانية ومستوياتها بدعوى التمسك بها والبحث عن أعظم مستوياتها ومعانيها . انه يعلمك الحقد والبغضاء والعدوان والفحش والبذآءة بأسلوب من يعلمك الحب والصداقة والتهذيب والوقار والسلام والبرآءة والعدل .

آن المتدينين المؤمنين بالاله الشامل الكامل او بالمعتقدات الشاملة الكاملة لن يستطيعوا ان يكونوا عالميين او انسانيين في اخلاقهم او في افكارهم او في معاملاتهم أو في مشاعرهم او في نياتهم او في امانيهم او في تفاسيرهم للاشياء أو لانفسهم او للاخرين . أنهم لن يستطيعوا ان يروا الاشياء والناس ، وأن يقرؤوها ويقرءوهم ، وان يفهموها ويفهموهم ، وان يحسوها ويحسوهم بعيونهم وعقولهم وأحاسيسهم ، بأحجامها وأحجامهم ، وبتفاسيرها وتفاسيرهم ، وباحتياجاتها واحتياجاتهم ، وبنصوصها ونصوصهم . انهم لن يعاملوا الاشياء والناس كذلك .

أنهم لن يروا الناس أو يفهموهم بعيون كونية او طبيعية ، وبمنطق كوني او طبيعي . انهم لا بد ان يروهم ويفهموهم ويفسروهم خارج الكون، اي خارج الطبيعة وخارج الانسان . انهم لا يستطيعون ان يكونوا كونيين او عالميين او انسانيين في رؤاهم أو في افكارهم او في همومهم أو في احاسيسهم او في رضاهم وغضبهم او في حبهم وبغضائهم .

انهم لا بد ان يتحولوا الى حدود ومقاسات شرسة معادية لكل من ليسوا على مقاسات اربابهم وأنبيائهم واديانهم ونصوصهم التاريخية المحفوظة . أنهم لا بد أن يتشوهوا وأن يرفضوا ويعادوا ويتهموا كل ما ليس في انفسهم واخلاقهم وعقولهم من ضيق وضعف واوهام ونصوص تقرؤها وتحفظها وتفسرها ابلد واضعف المحاريب والمنابر ، تتلقاها عن

اضعف واصغر الشفاه والعقول والاخلاق والشخصيات .

.. انهم لن يكونوا آلا كذلك في افكارهم ونياتهم وتقواهم . اما في سلوكهم فقد يخرجون على ذلك ليكونوا في حساب انفسهم وفي حساب معتقداتهم عصاة . آن السلوك لا يستطيع التقيد او الالتزام بالعقيدة او بالفكرة أو بالاله او بالمذهب .

لهذا فانه لمحتوم آن يصبح جميع المؤمنين والمعتقدين والملتزمين فكريا او مذهبيا عصاة . انه لمحكوم عليهم أن يعصوا ــ ان يكونوا اشد آلناس عصيانا .

ان كل صاحب عقيدة او دين آو فكرة لا بد ان يكون عاصيا . ان اشد الناس عصيانا هم اقواهم ايمانا واعتقادا ، هم اقواهم عقائد واكثرهم عقائد . ان كل عقيدة وفكرة لا بد ان تهان ويعتدى عليها بعصيانها وبالعجز عن التوافق معها وبالكذب عليها وبها .

ولعل البشر لا يعتدون على شيء او يحقرون شيئا آو يكذبون على شيء مثلما يفعلون ذلك بمعتقداتهم وافكارهم .

ان الالتزام السلوكي خاضع لظروفه وضروراته ، وليس خاضعا للالتزام الاعتقادي . لهذا فانه محكوم عليك أن يكون عصيانك لعقائدك أشد كلما كانت عقائدك اقوى ، لان عجزك عن الالتزام سلوكيا بالعقائد القوية والكثيرة سيكون اكثر من عجزك عن الالتزام اي سلوكيا بالعقائد الضعيفة والقليلة . انه لا شيء يعصى ويخرج عليه ويعجز عن التوافق معه مثل العقائد القوية الكثيرة ، او مثل المعلمين المبالغين في تقواهم التعليمية .

ان هذا يعني أن آلنبي بل وان اي معلم واي قديس لا بد ان يكون اكثر واشد عصيانا من جميع اتباعه ومن جميع من يدعوهم الى الايمان ويخاطبهم بتعاليمه . ان آلنبي او المعلم او القديس لا بد ان يكون اكثر واشد من جميع الناس عصيانا اي في حساب تعاليمهآو نبوته آو قداسته، ولتعاليمه او لنبوته او لقداسته . كما ان الزعماء والقادة والرؤساء لا بد ان يكونوا اعصى من كل آلناس لنماذجهم ومقاييسهم ولاشتراطاتهم وللاشتراط عليهم وآلاشتراط فيهم. ان آلانبياء والقديسين وجميع المعلمين لا بد آن يخضعوا في سلوكهم للظروف والمواقف والاحتياجات والضرورات

التي يخضع لها اقوى الناس واضعفهم ، اتقاهم وافجرهم . وحينئذ لا بد ان يكون انشقاقهم اي الانبياء والقديسين وجميع المعلمين على تعاليمهم ونبواتهم وعلى قداساتهم ، وعصيانهم لها اشد انشقاق وعصيان . وهذا يعني حتما ان يكون الانبياء والقديسون وسائر المعلمين هم اشد الناس واكثرهم عصيانا وخروجا على العقائد والاديان والنصوص ، اي في سلوكهم . لقد جاءوا بأشياء لا يستطيعون التزامها بسلوكهم بقدر ما يعجز عن التزامها اشد الخارجين عليهم خروجا . اذن سيبدون اكثر الناس عصيانا اي خروجا على انفسهم .

هل تستطيع ان تصدق او تتقبل ان الانبياء والقديسين وسائر المعلمين هم اكثر الناس واشدهم عصيانا وخروجا على العقائد والاديان والنصوص والمذاهب التي جاءوا بها او علموها او دعوا اليها وتوعدوا الخارجين عليها بكل الاهوال والوان العذاب ؟

هل تصدق او تتقبل انهم لا بد ان يكونوا اكثر الناس خروجا على انفسهم وعصيانا لها ؟

هل تستطيع ان تصدق او تتقبل ان الزعيم او القائد العظيم جدا والنظيف جدا والطيب جدا سيكون حتما اشد الناس واكثرهم عصيانا وخروجا على الدساتير والقوانين والتعاليم والاخلاق التي يضعها او يعلمها او يدعو اليها او يلزم بها هو ، اي في سلوكه وممارساته بل وفي نياته وشهواته ؟ هل تصدق او تتقبل ان القائد او الزعيم العظيم النظيف الطيب جدا لا بد ان يكون اكثر الناس خروجا على نفسه وعصيانا لها ، اي لما يدعو اليه ويعلنه ويعلمه ؟

انه لمطلوب منك بل ومرجو لك الا تصدق او تتقبل هذا او هذا مهما كان علمك بهما او مشاهداتك لهما .

انه ليس شيئا مفروضا او طيبا او مقبولا ان نصدق او نتقبل دائما كل ما هو صدق او ما هو واقع ، او كل ما نشاهده ونعلمه . ان الحقيقة ليست هي دائما ما ينبغي تصديقه او احترامه او رؤيته او البحث عنه . ان الحقيقة ليست هي دائما افضل الاشياء او اكبر الاشياء او اظهر الاشياء .

ان تصديق كثير من الصدق ليس الا وقاحة او بذاءة او نذالة او

قسوة أو عدوانا رهيبا ، أو ليس الا كل ذلك . ان تكذيب الصدق قد يكون هو التقوى والحب والتهذيب ولو أحيانا .

ان رؤية الاشياء دائما رؤية صحيحة وصادقة ليست دائما مستوى دينيا أو اخلاقيا أو حضاريا او حتى علميا .

**

وانهم ايضا اي المؤمنين بالاله الشامل الكامل أو بالدين الشامل الكامل الخالد الحق ، لن يكونوا أحرارا أو عدولا ، أو ممارسين، او واجدين لانفسهم او لاحتمالاتهم ، في أفكارهم، او في تحديقاتهم ورؤاهم، او في أحاسيسهم، او في تفاسيرهم . انهم لن يدركوا أو يقتنعوا بأن لهم القدرة او الحق في ان يكونوا كذلك . انهم لا بد أن ينكروا ويرهبوا ويلعنوا هذا المستوى من الكينونة وكذلك أيضا المؤمنون بالمذهب او بالنظام الشامل الكامل . انهم لن يكونوا اكثر تسامحا او حرية أو عدلا من اولئك .

انهم لكل هذا لا يستطيعون ان يتصوروا الحكم او القوانين أو الشرائع او الاقتناع او الايمان الا طغيانا او خلافة او نبوة او نصوصا او أوامر او تلقينا او تسليما او مبايعة أو طاعة او وحدانية في الرأي او في العقيدة او في المذهب أو في الخطة أو في الكلمة او في القيادة أو في المحراب أو المنبر . وهل يستطيع من وجد الاله الشامل الكامل أن يجد شيئا سواه أو أن ينتظر شيئا سواه أو أن يحيا ويفكر ويتعامل مع الاشياء والناس باسلوب انسان؟

انه اذا لم يكن تصورهم كذلك فخارجون على اربابهم وانبيائهم واديانهم وعلى تفاسيرهم لاربابهم وأنبيائهم وأديانهم . انهم لو جاءوا افضل من ذلك لكانوا عصاة لايمانهم .

ان اروع ما في الانسان أو أردأ ما فيه قدرته المطلقة على ان يخرج على اربابه وانبيائه وعلى اديانه وعقائده وتعاليمه دون اية معاناة . انه لا توجد اية علاقات من اي نوع وعلى اي مستوى بين حياة الانسان ومواقفه وشهواته ونياته وامانيه وقدراته وجساراته ووقاحاته ، وبين أربابه وانبيائه واديانه وتعاليمه ، أي وبين ايمانه .

ولكن هل ارباب الانسان وانبياؤه واديانه وتعاليمه الا لغة مهجورة من

لغات شهواته وامانيه وجساراته ووقاحاته ؟

ان الانسان ليس اقل خروجا على أفكاره في نياته وسلوكه وشهواته من خروج أفكاره ونياته وشهواته على افكـار ونيات وشهوات خصمـه أو مخالفه في الاله او في الدين او في المذهب ، او على اله او دين أو مذهب خصمه أو مخالفه . ان اي انسان ليس أكثر طاعة لدينه او لالهه او لتعاليمه من طاعته لدين او لاله او لتعاليم خصمه أو عدوه .

ان خصمك ونقيضك في الاله او في الدين او في النبوة ليس أكثـر عصيانا منك لالهك أو نبيك او دينك ، او خروجا عليه ، أو عجزا عن الاتباع له ، اي في سلوكه ونياته وشهواته وقدراته وجساراته ، ولست انت أكثر طاعة منه لالهك او لنبيك أو لدينك .

ان احدكما ليس اقرب أو أبعد من الآخر الى الآلهة أو الانبياء أو الاديان ، اي في السلوك والشهوات والنيات .

ان احدكما ليس أقرب او ابعد في معناه أو تفسيره مهما بدا انه أقرب او ابعد جداً في أسلوبه أو صيغته .

* *

وانهم ايضا اي المؤمنين هذا الايمان لن يكونوا متغيرين أو متطورين أو متخطين أو مريدين لذلك بتفكيرهم ، أو مجيزين لـه . واذا فعلوا فبالكره منهم ، وبأسلوب المعصية ونياتها ، وبتفكير منطقهم لهم .

ان افكارهم اذا تغيرت أو تطورت او تجاوزت او أرادوا لها ذلك فليسوا الا عصاة . انهم يمارسون التغير والتطور والتخطي الفكري أو يمارسهم أو يحدث فيهم كما يمارسون الآثام والمعاصي ، لا كما يصلون ويحجون ويصومون ويخافون من الاله .

وحتما سيمارسون هذه المعاصي بالتفكير كما يمارسونها بالاعضاء ، لان الفكر ، كالاعضاء والشهوات والنيات ، لن يخضع للتعاليم ، لن يطيع دائما. انه لا بد ان يعصي .

ان قليلا من الناس ليعصون بافكارهم اعنف ممـا يعصـي الاتقياء أو

الاكثرون باعضائهم وشهواتهم .

ان الانسان كائن لا بد ان يعصي بكل اتجاهاته وتفاسيره ومعانيه . انه اكثر الكائنات واوسعها عصيانا ،مهما كان اكثرها تعاليم ضد العصيان،ومهما كان عدد اربابه وانبيائه وكتبه المنزلة .

ان اعظم واقوى وافضل بل واتقى ما في الانسان انه كائن عاص،عاص بكل اتجاهاته وتفاسيره ومعانيه . انه كائن لا يستطيع ان يكون الا عاصيا ، حتى اتقى اتقيائه واقدس قديسيه لا يستطيعون ان يكونوا الا عصاة . ان كل الناس عصاة ولكن تختلف الاعضاء التي يعصون بها او التي تعصي فيهم . ان اتقى انواع العصيان هو عصيان الرأس والموهبة وعصيان التاريخ وعصيان ما كان . ما كان أقبح وأصغر الحاضر والمستقبل لو لم يكن الانسان موهوبا ارادة العصيان والقدرة عليه . ان كل حضارات الانسان وقدراته ومستوياته العظيمة ليست الا هبات العصيان واشواطه . ان كل حضارات الانسان لا تساوي اكثر من خطواته واشواطه العاصية ، العاصية على كل الاتجاهات وبكل المعاني والتفاسير ، لكل اربابه وانبيائه ومعلميه ولوجوده ، لكل ما كان من وجوده . ولكن كم هي الفروق بين المعاصي في الاساليب والمستويات والموضوعات والممارسات ؟ وكم هي الفروق بين هذه الفروق في النتائج وفي الانجازات الحضارية والانسانية ؟

لعل الفرق بين المعصية والمعصية ليس اقل من الفرق بين الانسان والانسان الاخر ، او بين العبقرية والتفاهة ، او بين الحضارة والبداوة .

ان الفروق بين المعصية والمعصية ليست اقل من الفروق بين اعظم شيء واصغر شيء .

ان المعصيتين لا تتساويان الا بقدر ما يتساوى العقل والعقل او التفكير والتفكير او المنطق والمنطق او الموهبة والموهبة او الضربة والضربة او المحاولة والمحاولة الاخرى او الكتاب والكتاب الاخر .

وكم هي المسافات بين الشيء من هذا وبين الشيء الاخر منه ؟

ان انسانا ما يعصي ليكون قوة ومجدا للحياة وللانسان ، وان آخر

يعصي ليكون ضعفا وعارا وتشوهات في الحياة وفي الانسان . كما ان انسانا ما يفكر ليكون حرية وذكاء وقوة واخر يفكر ليكون غبـاء وضعفـا وتخلفـا ومزيدا من العبودية والهوان ومـن التسويغات والتفسيرات لكـل اساليب ومعاني الاستعباد والطغيان والهزائم .

ان انسانا يفكر ليكون تفكيرا ، وان اخر يفكر ليكون رفضا للتفكير

وان انسانا يعصي ليكون اعظم واقوى واتقى مما كان ، وان انسانـا يعصي ليكون اضعف وافجر واتفه واغبى مما كان .

ان اقوى واعظم ما في الانسان هو عصيان فكره وموهبته .

ان هذه المعصية ، اي معصية الفكر والموهبة ، هي الامنية التي كـان جميع الانبياء وجميع المعلمين يريدون ان تكون كل تقواهم ومجدهم وتعاليمهم فلم يستطيعوا فذهبوا يعاقبونها احتراما وشهوة وتقديرا لها وعجزا عنهـا بالشتائم والتعاليم والتحريم . نعم ، ان ما نشتهيه ونعجز عـن بلوغه قـد يكون من العدل،او ما نفعله خروجا على العدل ان نعاقبه بالشتائم وبالتعاليم المتعصبة المحرمة .. اننا قد نعلم ضد ما نريد ونعجز عنه كما قد نشتمه .

ان عبقرية اي انسان ومزاياه لا تساوي اكثر من قدرته على العصيان ومن ارادته ومن ممارسته ومن اساليبه المختلفة في ممارسته . اي فـي ممارسته العصيان .

ان ابداع اي مجتمع من المجتمعات للحضارة في الف عام لن يساوي اكثر من عصيانه في نفس المدة المذكورة . ان اي ابداع او تجاوز ما ليس الا عصيانا ما .

ان عصيان الانسان هو تخطي ما كان ، هو تخطي اشواط الطبيعة . اما عصيان الحشرة فانه التلوث بما كـان . انه هو الخضوع للطبيعة بكـل صيغها ومستوياتها واساليبها .

ان الانسان اذن اقوى واشمل عصيانا من الحشرة ، بل انه هو الذي يعصي دون الحشرة . ان الحشرة لا تعصـي . ان عصيـان الاعضاء ليـس

عصيانا ، انه تلوث وطاعة للجوع الى العفونات . انـه طاعة لاملاء الطبيعـة واستسلام لشروطها . انه ركوع الى الارض .

ان الانسان هو وحده الذي يعصي في هذا الكون لانه هو وحده الذي يتخطى الطبيعة ويخرج عليها ويرفضها ، وهو وحده الـذي يتخطى نفسـه ويخرج عليها ويرفضها . ان العصيان هو رفض الطبيعة والذات وتخطيهما، وليس العصيان هو الاستجابة لهما او التوافق معهما او الوقوف عندهمـا او الخضوع لضعفهما او لجوعهما .

ولكن هل العصيان الا طاعة ؟ وهـل الطاعـة الا عصـيان ؟ أليس مـن يعصي جدا مطيعا جدا ؟ أليس من يطيع جدا عاصيا جدا ؟

أليست الطاعة والعصيان ينتهيان الى تفسير واحد ؟ أليس احدهمـا يعني الاخر حتما ؟ هل يوجد من يستطيع ان يكون عاصيا فقط او مطيعـا فقط او لا مطيعا ولا عاصيا ؟

اذن أليس الانسان هو اكثر الاشياء طاعة لانه اكثرها عصيانا، او بقدر ما هو اكثرها عصيانا ؟

أليس هذا صحيحا بقدر ما هو صحيح ان يقال : ان الانسان هو اكثر الاشياء عصيانا لانه اكثرها طاعة او بقدر ما هو اكثرها طاعة ؟

هل نعصي هذا الا لاننا نطيع هذا ، وهل نطيع هذا الا لاننا نعصي هذا؟

اذن هل يمكن ان يقال : هذا الانسان مطيع وذاك عاص ، او هذا اكثر من ذاك طاعة او عصيانا ؟

* *

وانهم أيضا الى المؤمنين بالاله الشامل الكامل الخالد أو بالدين الشامل الخالد لن يستطيعوا ولن يريدوا أيضـا ان يكونوا وطنيين أو قوميين بالتفسير الحضـاري للوطنيـة والقوميـة .

ان الوطنية والقومية في التفسير الحضاري لهما زندقة وجاهلية ووثنية وعصيان للاله والانبياء والاديان في عقيدة المؤمنين المتدينين .

انهم يرفضون ان يكونوا قوميين او وطنيين بقدر ما يرفضون بل ويخافون ان يكونوا عالميين أو انسانيين . ان كل ذلك وثنية وعباده للاصنام والطواغيت .

ان الذين يرفضون القومية والوطنية لانهم يؤمنون بالانسانية والعالمية ويريدونها ويناضلون لتحقيقها او يطمحون اليها هم غير الذين يرفضون الوطنية والقومية لانهم يريدون ان يكونوا او يظلوا أتباع دين او نبي او اعتقاد ما كان في التاريخ ، او لانهم يريدون ان يكونوا او ان يظلوا مستوى تاريخيا قد كان هنا – قد كان هنا أحد الانبياء أو احد المعلمين او احد الحكام او الزعماء او احد الطغاة او احد المتسلطين يعلمه او يفرضه اويستبد ويطغى ويسرف ويحكم باسمه ، او يعيشه لانه يلائم مستواه ويرضي شهواته وطموحه وآستغلاله واستعلاءه .

ان الذين يرفضون الوطنية والقومية لانهم عالميون او انسانيون ولو في امانيهم او طموحهم او في ايمانهم قد يكونون هم الوثبة البشرية التي قد يثبها البشر في مستقبلهم المحتوم الافضل . أما الذين يرفضون الوطنية والقومية ويرفضون ايضا العالمية والانسانية فهؤلاء هم اردأ المستويات التاريخية التي عاشها البشر او تمنوها او تحدثوا عنها ، او التي حدثهم عنها ومناهم بها وارادها لهم المعلمون والزعماء الماكرون أو الطامحون او الكاذبون أو الجهلاء . ان الوطنية والقومية قد تكونان عدوانا وتعصبا وجاهلية، ولكن رفضهما باسم الاله أو الدين قد يكون أكثر عدوانا وتعصبا وجاهلية لان ذلك أبعد عن المنطق الحضاري .

ان الايمان على هذا المستوى نفي ورفض للقومية والوطنية بقدر ما هو نفي ورفض للعالمية والانسانية ، وبقدر ما هو نفي ورفض للحرية العقلية والنفسية والاخلاقية والارادية والسياسية والادبية والقانونية بل والعاطفية.

ان هذا الايمان رفض ونفي شاملان للانسان ولكل احتمالاته . انه تفريغ له من معانيه .

آنه نفي ورفض لكل معـاني ومستويات الطموح الحضاري والانساني والكوني . انه نفي ورفض للرؤية وعدوان عليها . انـه نفي ورفض لعينـي الانسان وعدوان عليهما بقدر ما هو رفض ونفي لعقله وعدوان عليه .

ان الايمان بالاديان او بالالهة الشاملة الكاملـة ليس الا محاولة مـن محاولات الاعتقال او التحديد لطموح الانسان ولاحتمالات وطاقات التحديق والتحليق والتخطي فيه .

**

وانهم ايضا أي المؤمنين هذا الايمان لن يستطيعوا ان يكونوا بل ولـن يريدوا أن يكونوا متسامحين أو غافرين أو محبين أو مبتسمين أو قارئين لعيون الاخرين او لآلامهم واحزانهم ، او محدقين فيها بحنان او باشفاق او باعتذار او بعدل او بقدرة على الرؤية .

ان قلوبهم وعيونهم ووجوههم وأحزانهم لن تظل قلوبا وعيونا ووجوها وأحزانا او لن تتحول الى ذلك .

ان آلهتهم وانبياءهم ومذاهبهم واديانهم ومنابرهم ومحاريبهم ومواعظهم وبغضاءهم وشتائمهم وغيرتهم الدينية لتقتل فـي قلوبهم وعقولهم وعيونهـم واخلاقهم وفي وجوههم كـل لغـات ونيـات وتفاسير الابتسام والاعتـذار والغفران والحب والتسامح والتحديق والاشفاق والحنان والقراءة لوجوه الاخريـن او لقلوبهـم أو لعقولهم او لآلامهـم واحزانهم أو لنصوصهـم او لهتافاتهم وصرخاتهم أو لهمساتهم ونياتهـم .

حتى وجوههم ، انها لن تظل وجوها ولن تتحول الى وجوه ولن تـرى في صيغ أو تعبيـرات وجوه .

انهم لا بد ان يكونوا بغضا وسبابا واتهاما ورفضا ونفيا وتحقيرا لكل من لم يجيئوا على نموذجهم الفكري والديني والتاريخي والتعليمي . بل أنهم لا بد أن يكونوا كل هذه الشرور في معاملتهم لكل أحد وفي شعورهم نحـو كـل احد . أن هذا النموذج من الايمان لا بد ان يكون اعلان حرب وبغضاء شاملة على كل العالم بل وعلى الكون كله .

ان كآبة الجحيم واهوال الحساب والعقاب التي يتحدثون عنها ويحدثون بها ويعلمونها ويتعلمونها ، والتي يتصورونها ويخافونها ويخوفون بها ، وان اوصاف واخلاق الآلهة التي يقرؤون عنها ويتناقلونها ويدرسونها ويمجدونها بها ، اي التي يمجدون الالهة بوصفها بها ، وان وحشية الغضب الذي تمنحه الالهة وتعلمه من يؤمنون بها .

ـ نعم ، ان كل ذلك لن يبقى فيهم معنى او تعبيراً جميلا او نبيلا او ذكيا او عادلا او عاذرا او غافرا او متسامحا أو محبا او راثيا . ان كل ذلك لن يترك في وجوههم أو في عيونهم او في قلوبهم معنى او تعبيرا تعشقه أو تتخاطب معه النجوم او تعيش فيه الرحمة او المحبة أو الصداقة او التسامح .

كيف تستطيع أن تضحك او تحب أو تصادق او تتسامح أو تعذر او تعتذر أو ترحم او تشفق او ترى جراح من حولك او جراح البعيدين عنك او جراحا تغطي كل وجه الشمس او وجوه كل الاشياء ـ كيف تستطيع شيئا من ذلك او كل ذلك وانت تختزن وتعيش وتمارس في قراءاتك وتعاليمك وصلواتك ومحفوظاتك كل هذه الالهة والانبياء والمعلمين والمحاريب والمنابر والمواعظ والكتب المقدسة ، وكل هذه الاوصاف للجحيم والعقاب والحساب وللغضب والقسوة وللرؤية المطلة من فوق هذا الكون بكل اخلاقها وشمولها ووحشيتها ومطالباتها وانانياتها وشهواتها ؟ أواه . ما أقسى هذه العيون المتطلعة الينا بتحديق وديمومة وبذاءة . أواه . اننا لا نستطيع الاستتار او الهرب منها أو تعليمها معنى الحياء او التهذيب .

ان كل هذا يتقاتل ويعيش ويتجمع داخل نفسك . حتى هذه العيون . انها تعيش داخلك . اذن كم انت مكان للجحيم ، وكم انت واهب للجحيم . ما أشد اذن عذابك ، وما أشد ما تتمنى أن تكون شاملا في تعذيبك . كيف تستطيع الا تتحول الى اضخم مكان يستقبل الجحيم ويصنعه ويهبه ـ يتعذب به ويعذب به ؟ أواه . ما أقسى واوقح هذا . ما اقسى واوقح ان يكون كل شيء نافذة تطل منها عين آله بهذا الحجم والفضول والهمجية .

هل وجد او يوجد جحيم يستقبل من الوقود مثلما تستقبل ؟

كيف يعيش في نفسك اي نوع من الحياة وفيها كل هذا الجحيم بكل وقوده هذا ، بكل اهواله هذه ؟ ان نفسك يجب أن تتحول الى اقسى صحراء

لا يعيش فيها اي اسلوب من أساليب الحياة .

كيف تنبت الحياة في عقول او قلوب أو اخلاق او في نظرات من يؤمنون بالاله الذي يصنع الجحيم ويتحدث عنه ويعاقب به ويتحول الى مالك له وينظر اليه باعجاب وابتسام وعبقرية ؟ كيف يمكن ان ترى عيون هؤلاء المؤمنين أو أخلاقهم او ضمائرهم الدموع أو الجراح او الاحزان او الآلام في وجوه النجوم او في أخلاقها او في ضمائرها أو في تاريخها او في تفاسيرها؟

ان المؤمنين بمثل هذا الاله لا بد ان يبصق ويصوغ الجحيم كل إخلاقهم وعواطفهم وأفكارهم ولغاتهم وتفاسيرهم للناس وللاشياء . أن الجحيم لا بد أن يبصق كل اخلاقه واخلاق اهواله في أخلاق المؤمنين به المتحدثين عنه المتوعدين لحياتهم ولمماتهم بأهواله .

ان المؤمنين لا بد أن يتحولوا الى بصاق للجحيم والى بصاق من الجحيم . أن الجحيم لا بد ان يبصقهم وان يبصقوه .

احذر أن تكون مؤمنا لئلا تكون باصق جحيم ومبصوق جحيم . اذن كيف لو كنت قديسا او نبيا ؟

انت مؤمن . اذن هل انت الا صيغة من صيغ الجحيم ، وتفسير من تفاسيره ، وحديث من آحاديثه ، ومخزن من مخازنه ، ودرس من دروسه ، ومعرض من معارضه ؟

انت نبي ، او انت قديس فقط ، او مؤمن فقط . .

اذن هل انت الا معلم للجحيم متعلم له ؟ هل انت الا قارىء لاوصافه، حافظ لاوصافه ، مفسر لاوصافه ، معلم متعلم لها ؟

هل يمكن أن تكون نبيا أو قديسا او حتى مؤمنا فقط دون أن تكون تذكيرا او تخويفا بالجحيم أو تصويرا له او حديثا عنه او منبرا من منابره او محرابا من محاريبه ؟

* *

وانهم أيضا اي المؤمنين بمثل هذا الاله او بمثل هذا الدين لا بد ان يقاسوا من مشاعر التحرج والعصيان والمخالفات الاخلاقية والنفسية والدينية . ولا بد ان يتعذبوا ويكابدوا من رهبة الخروج والتطاول على الارباب والتعاليم والمقدسات وعلى الاباء والاسلاف . انهم لا بد ان يعانوا كل ذلك حينما يجدون انه قد اصبح محكوما عليهم بقدر الطبيعة وبقدر الحياة والكينونة ان يأخذوا عن قوم آخرين شيئا من مزاياهم او من تفوقهم او قوتهم او من رذائلهم المنتصرة . انهم قوم خارجون على الالهة ، ولكنهم يعلمون المؤمنين بها القوة والذكاء والاخلاق والمزايا الاخرى . ان الذين ليس لهم اله يعلمون من لهم كل الاله .

وقدر الطبيعة والحياة والكينونة هذا لا بد ان يحكم عليهم دائما بهذا الخروج والتطاول على اربابهم وانبيائهم واديانهم وتعاليمهم وعلى آبائهم واسلافهم وعلى كل ما يملكون ويمجدون في تاريخهم من أمجاد ومزايا وعبقريات وتفوق على العالمين .

انهم بقدر ايمانهم باربابهم وانبيائهم محتاجون الى أن يأخذوا ويتعلموا من اعداء اربابهم وانبيائهم وايمانهم .

اذن ما اشد عذابهم واقسى قدرهم .

انت تملك كل الالهة والملائكة والانبياء . وهم لا عمل ولا اهتمامات لهم سوى ان ينتظروك ليعلموك ويهبوك ويستمعوا بتواضع وضراعة اليك .

اذن كيف تتعلم من البشر ؟ كيف تقبل او تجرؤ أن تفعل ذلك ؟ وكيف تستطيع ان تغفر لنفسك لو فعلته ؟

ان الله واقف على بابك بأدب لا مثيل له في تهذيبه وحبه وتملقه ، يريد ان يهبك ويعلمك . ولكنك تذهب تعاني لتتعلم من نفسك او ممن يتعلم من الشيطان .

اذن هل يوجد أوقح او اغبى او اكبر زندقة منك ؟

هل يوجد من يحتاج الى ان يأخذ ويتعلم عن اعدائه واعداء ايمانه مثل

المؤمن بأقوى الالهة وأقوى الاديان ؟

انك اذا فعلت ذلك ــ وانت حتما تفعله ــ فلن يوجد لك الا تفسير واحد، هو انك زنديق، زنديق. زنديق يضع الاله والانبياء والملائكة والاديان على لسانه دون أن يتذوقهم او يفكر في ان من الممكن تذوقهم . وهل يوجد من يستطيع ان يتذوق الالهة أو الانبياء او الملائكة ؟ وهل هم شيء يمكن تذوقه؟ هل لهم اي مذاق في اخلاق الحياة او في منطقها او في أحاسيسها؟

* *

وأنهم ايضا أي هؤلاء المؤمنين لن يكونوا رافضين او مغيرين لصيغة الكون او لصيغة الاله التي سوف يواجهون ويجدون . أنهم لن يحاولوا ولن يريدوا ان يضعوا للاله او للكون افكاراً وأخلاقا أو عقولا او نيات او أحاسيس او مذاهب أو اعضاء او عيونا او شخصية او ذاتا جديدة . انهم لن يقبلوا أو يتصوروا او يمارسوا صوغ الكون او الاله صياغة جديدة مخالفة ، اقوى وافضل . وهل عبقرية الانسان الا أن يهب الكون والحياة والاله صيغا جديدة ، رافضا جميع الصيغ القديمة ؟

انهم حتما لا بد ان يؤمنوا بما يجدون من صيغ الاله وصيغ الكون وان يتعبدوا لهذه الصيغ مهما كانت خروجا على جميع المقاسات العقلية والنفسية والاخلاقية والفنية . وانهم لهذا لن يستطيعوا ان يكونوا شامخين او اقوياء او مبدعين او مغيرين للحياة او للاشياء او لانفسهم . انهم لا بد ان يكونوا عاجزين كل أساليب ومستويات ومعاني العجز ، بل أنهم لا بد ان يجدوا في عجزهم هذا أعلى مستويات التقوى والايمان والتهذيب والتقديس للالهة . ان عجز المؤمن امام الطبيعة عبادة للاله لان عجزه هذا ليس الا عجزا امام الاله وامام فنونه وارادته وتدبيره وذكائه وحكمته .

ان الايمان يعني الاقتناع بكمال الاله وبكمال وابدية الاشياء التي ارادها ودبرها وصاغها الاله . وهذا الاقتناع يعني حتما الرفض لمحاولة ولارادة تغيير صيغة الاله وصيغة الكون الذي خلقه الاله . ان الاله كامل الذات كامل العبقرية والتدبير والتخطيط والاخراج . وهل يشرع أو يجوز تغيير الكامل ؟

اذن فالمؤمن لا بد ان يهاب سلوكا وتفكيرا واعتقادا رفض الصيغة او

الذات او الشخصية التي ولد بها الاله نفسه ، وكذلك رفض الصيغة أو الذات أو الشخصية التي ولد بها الاله أكوانه . نعم ، ان المؤمن لا بد أن يكون كذلك بتفكيره او باعتقاده ، مهما كان غير ذلك أو نقيض ذلك بسلوكه أو بمحاولاته او بأمانيه وضروراته .

ان الحضارة والابداع لا يعنيان في جميع تفاسيرهما وصيغهما سوى رفض الصيغة التي ولد بها الاله نفسه او ولد بها الطبيعة والاشياء الاخرى ـ رفضها بالتغيير والتجاوز وبالتفكير والارادة والمحاولات الدائمة والشجاعة والجريئة .

ان أعتى واعلى حاجز يعوق المؤمن عن الاقتحام والتجاوز هو ايمانه بالصيغة التي وجد بها الاله وبالصيغة التي أوجد بها الاله الاشياء . انه اعتى واعلى حاجز أمامه حتى وان لم يره أو يشعر به أو يحترمه أو يقف امامه ، يرفض أو يخاف اقتحامه وتجاوزه .

وقد يكون من اعظم مزايا الالهة أنها احيانا او دائما قد تظل ايمانا فقط دون نتائجه أو التزاماته ، دون أن تكون شيئا في حياة من يؤمنون بها . آنك قد تؤمن بالاله دون ان يتعامل الاله الذي آمنت به مع حياتك . وقد تكون هذه هي أعظم وانبل مزية للاله .

ان عجز المؤمنين هذا قد يكون هو أحد التفاسير أو الاسباب لتزاحم وتواضع جميع المؤمنين المتدينين في جميع العصور والمجتمعات حول كل المهرجين والدعاة والصارخين الضالين ، وتساقطهم بتهافت وهوان ومسكنة تحت كل الاقدام والمنابر ، وامام جميع الهياكل والمعابد ، يصلون ويؤمنون ويتضرعون ويبكون بكل اللغات والدموع والاحزان والانهيار ، وبكل الغباوات والتفاهات والاكاذيب الصغيرة .

انهم يتحولون الى منابر مباحة مهانة ، ليست عليها ولا لها اية حراسة او مناعة ، ليصعد فوقها كل كذاب واي كذاب ، وكل ملوث واي ملوث ، ليتحدثا عن مزايا الصدق والنظافة ، وليصعد فوقها كل مهزوم صغير قصير القامة صغير الهامة ، لكي يبدو اكبر واطول من هامته وقامته وحقيقته ، ولكي يبدو وكأنه اكبر وانظف من ذاته وتشوهاته وتفاهاته ومن كل مستوياته . اواه . ويلتاه . ما أقبح واكذب المنابر ، كل المنابر . ان كل

المنابر تتحول الى ضخامة للهامات الضئيلة والى طول في القامات القصيرة. اذن كم انت آثمة ايتها المنابر .

ان المؤمنين يتحولون الى منابر من هذا المستوى ليتحدث من فوقها اليها عن السماء كل من لا يعرفونها ، اي كل من لا يعرفون السماء ، وكل من لا يحترمونها او يطيعونها او يخافونها او يضعون لها آيـــة حسابات فـي سلوكهم او في تفكيرهم او في نياتهم او في رجائهـــم وتأميلاتهـــم . ان المؤمنين في جميع العصور لم يكونوا سوى منابر ذليلة يخطب مــن فوقهــا جميع الكاذبين والملوثين والتافهين والاغبياء — يخطبون فوقها بمنطق جميع الالهة وبمنطق الازل والابد وكل الكون .

انه لا يوجد ولم يوجد من يصغرون ويهونون ويذلون وينافقون لاعداء آلهتهم وانبيائهم وعقائدهم اكثر من المؤمنين بأقوى الالهة وبأقوى الاديــان والمعتقدات . انه لم يوجد من عبدوا الطغاة والاقوياء الفاسقين والظالمين ، او نافقوهم واطاعوهم وخضعوا لهم وخرجوا على اربابهم ومعتقداتهم مــــن اجلهم اكثر مما فعل كل ذلك او مثلما فعل كل ذلك المؤمنون بالاله الشامل الكامل او بالدين الشامل الكامل الخالد الحق.

لانهم كانوا ضعفاء وعاجزين . والضعفاء العاجزون لا بد ان يعبــــدوا القادرين وان يذلوا لهم وينافقوهم مهما لعنوهم وابغضوهم واحتقروهم من داخلهم . انهم لا بد ان يعبدوا الاوثان مهما لعنوها وكفروا بها . انه لن يعبد الاوثان قوم مثلهم . ان البشر يعبدون بالعجز لا بالايمان . ان الضعفـــاء العاجزين لا بد ان يفعلوا ذلك مهما كانت شراسة وغيرة وانانية وقوة الالهة او العقائد التي يؤمنون بها ويتحدثون عنها ويخطبون لها . ان اي طاغيـــة منظور لقادر ان يطرد من نفس المؤمن ومن حياته جميع اربابــه وانبيائـــه وقديسيه غير المنظورين .

ان هذا يعني ان الالهة والاديان والعقائد القوية الشاملة تعطي نقيض ما تريد ونقيض ما تعلم وتطالب به . انها تريد ان توهب وحدها كل شيء ، وانها تطالب بكل شيء وتعلم انه لا شيء لاحد او لشيء سواها .

ولكنها تصنع الضعف والعجز لمن يؤمنون بها ويتعلمون منها ويتبعونها. والضعيف العاجز لا بد ان يكون ملكا للاوثان القوية مهما كان رايــه فيهــا

ومشاعره نحوهـــا .

اذن فالالهة والاديان القوية الشاملة لا بـد ان تكـون نفيـا ورفضـا لنفسها . انها لا بد آن تتحول الى هزيمة وآلى عقاب لمجدها . انها نقيض لارادتها ولتعاليمها .

ان آلاله القوي الكامل الشامل لن يكون الا هزيمة لنفسه ونفيا لهـا ، وأن الدين القوي الخالد الحق المطلق لن يكون الا كذلك ، اي لـن يكون الا هزيمة ونفيا لنفسه من حياة المؤمنين به ومن اهتماماتهم . آن الاله وكـذا الدين لا بد آن يكون محتاجا آلى ان يهزم او يقتل او ينتحـر او يتخفـى آو يهرب آو يخاف من المقاومة بقدر ما يكون قويا وشاملا ..

انه لو كان ممكنا ان يتسلل الاله الكامل الشامل او الدين الشامل الكامل متخفيا حذرا الى آخلاق وحياة مجتمع ما او انسان ما لما كانت هذه الاخلاق والحياة اخلاق او حياة من يؤمنون به ـ اي آذا كان ذلك الالـه او الديـن يريد ان يعيش ذاته وشراسته وقيوده وتعاليمه القوية الباهظة ، وليس لغته ومنابره وكتبه المنزلة فقط .

لقد استطاع الاله والدين آن يعيشا بين المؤمنين بهما لانهمـا كانـا يعيشان فوق منابرهما وفي كتبهما المقدسة فقط ، لا في حيـاة ولا فـي اخلاق ولا في نيات اولئك الذين يعيشان في آفواههم وتعاليمهم وصلواتهم .

* *

انها لمحاولات ليس فيها من المنطق او من العزاء او من الجمال اكثـر مما في آداء الصلوات او مما في الدعوات والتضرعات الموجهة آلى مسامع وضمائر وقلوب الالهة، آن نحاول مطالبة المؤمنين بالاله القوي الكامل الشامل او بالدين الشامل الكامل الخالد بأن يكونوا عالميين او انسانيين او متسامحين او احرار العقول او القلوب او الضمائر آو الاخلاق ، او آن يكونـوا مؤمنين بالتطور آو بالحب او بالصداقة الانسانية او العالمية ، آو ان يكونوا مفكرين او مبدعين او مغيرين وخلاقين ، او آن تكون لهم عيون طبيعية أو كونية ترى ذوات الاخرين ووجوههم وآشياءهم واسبابهم بالقانون آو بالمنطق الـذي

ترى به ذواتها ووجوهها واشياءها واسبابها هي ـ ترى بهـــا الاشيـــاء بأحجامها وابعادها والوانها وبجمالها ودماماتها وبذنوبها وتقواها ـ تراهـــا بمنطق واحد او بقانون واحد او بضمير واحد . انه لمستحيل ان تكون لهم عيون صادقة او عادلة آو سوية أو انسانية ، او ان تكون لهم وجوه او آذان او لغات أو تفاسير كذلك. وهل يوجد حتى من غير هؤلاء المؤمنين من يمكن ان يروا الاشياء بأحجامها آو الوانها او آبعادها او بصفاتها أو مـن يمكن آن تكون لهم عيون صادقة او عادلة او مهذبة ؟ .

انه لمحال آن يكونوا كذلك ثم يظلوا مؤمنين غير مفارقين لايمانهم بكـل آلهتهم وآديانهم . ان مطالبتهم بأن يكونوا هذا وبان يظلـوا مؤمنين لا تعني الا مطالبتهم بان يكونوا مؤمنين وغير مؤمنين في موقف واحد ووقت واحد.

انهم حينئذ يطالبون بأن يكونوا مؤمنين جدا ومفكـرين جـــدا او بأن يفكروا بلا ايمان ويؤمنوا بلا تفكير ، او بأن يكونوا جحيمـا وبان يكونـــوا حدائق مثمرة ، او بأن تعيش في داخلهم الحياة بكل قوتهـــا واساليبهـا والجحيم بكل قسوته واساليبه ، او بأن يعيش الاله في انفسهم بكل وحشيته وانانيته مع الانسان بكل قوته وعبقريته ومنطقه .

أنهم حينئذ يطالبون بأقسى واردأ آساليب المحال .

ولكن أليس كل انسان مطالبا بان يكـــون وبان يفعـــل اقسى واردأ آساليب ومعاني المحال ؟

لقد ظل المؤمنون بالاله الشامل الكامل او بالدين الشامل الكامل فـي كل التاريخ بكل نماذجهم ومستوياتهم ومكانهم لا يتغيرون ولا يتحركـون الا على حساب ايمانهم وبهزيمة أو اضعاف ايمانهم . انهم اذا تغيروا آو تحركوا فلا يوجد الا تفسير واحد لذلك ، هو ان ايمانهم قد أصيـب ووقع عليـــه عدوان حتما . ان الايمان شيء يغري بالاعتداء عليه . انه يحرض دائما ضد نفسه . انه يصنع الاعداء ويبحث عن الهزائم لانه يتحدى كل الطبيعة وكل القوى المتحركة المحاربة .

لقد ظل هؤلاء المؤمنون يتحدون كـل الحوآفز والظروف والمواعـــظ والتهديدات والتحريضات والمتقريعات بقــدر مـا ظلوا مؤمنـين ممسكـين

بايمانهم او ممسكا بهم ايمانهم .

لقد ظلوا تدليلا قويا ودائما على ان المؤمن لا يمكن ان يكون آلا مؤمنا اي ما دام مؤمنا . آنه اما مؤمن فقط ، واما شيء اخر غير مؤمن .

وهل يوجد من يستطيع ان يكون مؤمنا فقط ؟ آذن هل يوجد من يستطيع ان يكون مؤمنا مهما ملأ خياله بالارباب والاديان ؟

انه اذا وجد انسان مؤمن فلا يوجد لذلك الا معنى واحد ، هو انه قد وجد انسان فقط ، آنسان غير مؤمن . انه قد اصبح غير مؤمن لانه قد اصبح انسانا . لقد طرد آلانسان فيه المؤمن الذي كان فيه ، او آلذي ظن فيه .

ان الانسان في الانسان ليطرد دائما المؤمن في الانسان، اي انه ليحاول ذلك وآنه لا بد ان يفعله .

انه انسان فقط ، يتحدث عن المؤمن الذي كان يعيش يوما ما في داخله ، والذيكان يوما ما يذل ويهين ويهزم الانسان آلذي كان يمكن ان يكون في داخله ، او آلذي كان في داخله ثم ارتحل عنه ببطء او بسرعة ، بهدوء وصمت او باعلان وضجيج — آو يتحدث عن المؤمن الذي لم يكن قط في داخله كما لا يمكن ان يكون فيه ابدا . ان الانسان لا يستطيع آن يعايش المؤمن في ذات واحدة ، وآن آلمؤمن لا يستطيع آن يعيش في ذات تعيش . انه اي المؤمن لا بد آن يتحطم ويموت في الذآت آلتي تعيش حينما تتصادم بكل الاشياء لانها تعيش . ان الذات التي تعيش لا تستطيع آن تبقي على حياة آلمؤمن فيها مهما ارادت وحاولت .

✶✶

وهذه العيون والوجوه والقلوب وآلالفاظ والاخلاق آلفظة آلكالحة الحاقدة المتشائمة هل يملكها ويتعامل بها ويحياها المؤمنون بالالهة والاديان الشاملة الكاملة الخالدة وحدهم ام يساويهم في ذلك واحيانا يتفوق عليهم جميع آصحاب المذاهب والنظم وآلقوميات والوطنيات وآلتعاليم والنظريات الزاعمة لنفسها انها تملك كل التفوق ، وكل المستقبل والذكاء ، وكل اسباب

واحتمالات الانتصار والخلود والانتشار العالمي ؟ هل الجحيم في ضمائر وعيون الاهة والانبياء وحدهم ام في عيون وضمائر جميع المعلمين ؟

هل الذي يصنع ويصوغ تعصب الناس نوع ما يؤمنون به ام نوع ايمانهم — اخلاق آلهتهم ام اخلاق آيمانهم — أخلاق آيمانهم ام اخلاق حياتهم ؟

هل الوحشية في آخلاق التعاليم آم في جنسيات المعلمين ؟..

هل التعصب مستوى وخلق عقيدة وايمان ام هو مستوى وخلق انسان او مجتمع ؟ هل العقائد والتعاليم والمذاهب هي التي تجعل الناس متعصبين ام الناس هم الذين يجعلونها متعصبة — ام الناس هم الذين يتعصبون ، هم الذين يجيئون متعصبين ؟

هل يموت كل ما في العالم من تعصب لو مات كل ما في العالم من آلهة واديان ومذاهب؟ هل آله اي آنسان او آي مجتمع بكل بداوته وقسوته أو بكل ابتسامه ورقته هو الصورة الناتجة عن ذلك الانسان او المجتمع ام ذلك الانسان آو المجتمع هو الصورة الناتجة عن ذلك الاله ؟ هل جاء الناس على مقاسات الآلهة والاديان والمذاهب ام جاءت هذه على مقاسات الناس ؟ هل هي التي خططتهم ام هم الذين خططوها ؟ هل تخيلوها ام تخيلتهم ؟ ان كانوا قد جاءوا على مقاساتها فهي على اية مقاسات قد جاءت ؟

اليست هي التي قد جاءت على مقاساتهم دون ان يجيئوا هم على اية مقاسات سوى مقاسات آنفسهم ؟

ما الذي يجعل الالهة والمذاهب والاديان هذا او هذا ؟ هل يوجد كائن غير الانسان ، غير المبتدع الواضع لها المؤمن بها يستطيع او يريد أو يحاول ان يجعلها هذا أو هذا ؟

ان الانسان هو الذي يهب أربابه ومذاهبه واديانه وافكاره اخلاقها بقدر ما يهب بيوته وازياءه اشكالها ونماذجها والوانها وحدودها . ان الانسان هو البدء لجميع كينوناته الاعتقادية والمذهبية والفكرية والدينية . انه هو البدء لاربابه ولكل اخلاق ومستويات واحتياجات ذاته .

انه لو انزل آله واحد دينا واحدا في عصر واحد الى مجتمع واحد على نبيين احدهما مريض بالتوتر والحساسية الباهظة وبخشونة الاخلاق والنفس ، بينما النبي الاخر مصاب بخمود الطبع وبخمود التطلع والاحتجاج والرؤية والاحاسيس ، حتى انه من شدة خموده لا يستطيع ان يشعر باختلاف فصول السنة أو بمجيئها او بوجودها ، ولا بتعاقب الليل والنهار، ولا بأن الشمس تجيء وتذهب كل يوم ، ولا بدمامة الذباب واقعا على وجه النبي ، او على آياته واناجيله المتحدثة عن نظافة الاله ، او واقعا على وجه الطبيب ، على عيني طبيب عيون .

ـ كما لا يدرك اي ذلك النبي من خمود طبعه وقاحة المنطق الذي يعاني ويدبر ويخطط ليخلق الطفولة الجميلة المرحة ثم ليصيبها بالامراض التي لا علاج لها وبالتشوهات ، أو ليصيبها اي الطفولة بالموت الناجز .

ـ بينما النبي الاخر لا يستطيع ان يحس أو يدرك او ينكر شيئا من ذلك لشدة كسله الفكري والنفسي والاخلاقي والذاتي .

ـ نعم ، انه لو انزل واوحى مثل هذا الاله مثل هذا الدين ، في مثل هذه الظروف ، على مثل هذين النبيين لكان محتوما أن يجيء عن ذلك دينان والهان مختلفان اختلافا يساوي اختلاف النبيين في صفاتهما النفسية والفكرية والاخلاقية والذاتية والشعورية .

ان فلسفة وتعاليم اي معلم أو مصلح أو مفكر لن تكون دائما وبمنطق شامل تعبيرا عن ظروف مجتمعه وعصره وعن احتياجاتهما فقط ، دون أن تكون ايضا تعبيرا عن ذاته ، عن مستوياته النفسية والفكرية والاخلاقية والانفعالية ، معبرة عن مستوياته الذاتية . وان دين اي نبي لن يساوي الا نفس ذلك النبي ، ان دينه لن يساوي الهه ، بل ان اله اي نبي لن يكون الا مثل نفس ذلك النبي ، باسلوب ما .

ان كل انسان لا بد ان يكون تعبيرا عن ذاته مهما كان تأثير المجتمع والعصر والظروف عليه . انه يتأثر بالمجتمع وبالظروف وبالعصر الذي يعيش فيه ، ويستجيب لذلك ويستقبله بذاته ، اي بمواهب وخصائص وقدرات ذاته . انه لا يستجيب أو يستقبل منفصلا عن ذاته او بعيدا عنها او غير متعامل بها .

انه لو كانت الاستجابة أو التلقي أو الاستقبال يساوي الظروف والمجتمع والعصر فقط دون الذات لكان محتوما ان يجيء جميع من يعيشون في ظروف واحدة وفي مجتمع واحد وفي عصر واحد متساوين في جميع كينوناتهم وافكارهم واخلاقهم واتجاهاتهم ، وفي مذاهبهم ، وفي قوتهم وضعفهم ، وفي عبقريتهم وتفاهتهم ، وفي مقاومتهم واستسلامهم ، بل وفي قدرتهم على الحب والسرور وعلى النوم وعلى مقاومة الامراض ، وعلى قراءة الحروف الصغيرة تحت الضوء الضئيل . بل لكان محتوما حينئذ ان يجيئوا متساوين في طول قاماتهم وضخامة هاماتهم وفي لون عيونهم وشعورهم .

انه لو كان محتوما ان يكون كل انسان تعبيرا عن مجتمعه أو عن ظروفه او عن عصره او عن شيء اخر أو عن انسان آخر فقط دون أن يكون تعبيرا عن ذاته كذلك أو عن ذاته أكثر ، لكان محتوما ان يقف امامنا هذا السؤال:

وإذن فمجتمعه وظروفه وعصره وذلك الشيء الاخر أو الانسان الاخر تعبير عمن ؟ أن الذات ، اية ذات ، ان ذات اي شيء وكل شيء لا بد أن تكون منطلقة ومنطقة . انها لا بد أن تكون هي البدء له والبدء لنفسها . لا بد أن يكون تعبيراً عنها وان تكون هي تعبيراً عنه مهما كانت ايضا تعبيراً عن غيره وكان هو تعبيرا عن غيرها .

ان الذات هي منطق كل منطق وتعبير كل تعبير تعيشهما وتمارسهما وتتعامل بهما مع نفسها ومع الاشياء الاخرى .

ان لكل ذات انسانية عضلات نفسية واخلاقية وعقلية وشعورية ، متفاوتة المقاسات والقدرات ، تتعامل بها مع الاشياء التي حولها والتي تواجهها . وهذه العضلات لا بد ان تعبر عن ذاتها في تعاملها مع الاشياء. لا بد ان تعبر عن ذاتها بمستوى ذاتها لا بمستوى تلك الاشياء. اننا نتعامل مع الاشياء ونعمل فيها بما تساوي عضلاتنا البدينة،كذلك ايضا نفكر في الاشياء ونفهمها ونشعر بها ونريدها بما تساوي عضلاتنا العقلية والاخلاقية والشعورية .

ان اية عضلات لا تملك من القوة مثلما تواجه او مثل ما حولها ، بل مثل ما تملك هي . وان اي عقل او اي انسان لا يملك من الذكاء او من الحماس ما يحتاج اليه الموقف الذي يعيشه او الذي تفرض عليه مواجهته،

بل لا يملك من ذلك الا ما تملكه مستوياته الذآتية .

ان اي مفكر او معلم او مصلح قد ينفصل عن مجتمعه وعن عصره ليكتب ذاته وعنها ، وليحولها الى تعاليم وافكار ، والى الهة وآديان .

ان مرض المعلم او النبي المريض ليصبح معنى من معاني تعاليمه ونبواته ، وكذلك صحته ، وكذلك قوته وضعفه ، وكذلك ذكاؤه وغباؤه . ان الآلام ذاته تتحول الى آلام في تعاليمه. أن آلام النبي الذاتية تتحول الى آلام وتشوهات في اخلاق الهه .

اجل ، ان ذكاء اي نبي لا يساوي ذكاء الاله الذي ارسله ، بل يساوي ذكاء نفسه . نعم ، ان اي اله أو دين لا يساوي نفسه ، وانما يساوي النبي او المعلم الذي يتحدث عنه .

**

اذن فهل الايمان بالاله الكامل الشامل المتوحش ، أو بالدين الشامل الكامل المتوحش هو الذي يصوغ المؤمنين به صياغاتهم النفسية والفكرية والاخلاقية الرديئة ام الذي يصوغهم هذه الصياغات هي مستوياتهم الذاتية؟

هل ايماننا هو الذي يصوغنا ام نحن الذين نصوغ ايماننا ؟ أينا الاول نحن أم ايماننا ؟

هل من المستطاع او الصواب ان يكون هنا جواب محدد نهائي ؟

بل هل لاي شيء جواب محدد نهائي ؟ وهل من الافضل او الانفع ان تكون للاشياء وعنها اجوبة نهائية محددة ؟

**

روى التاريخ في احدى اقاصيصه أن قائداً نزل هو وجنوده في بلاد ينوي غزوها فأمر باحراق سفنه التي حملته الى تلك البلاد ، ثم قال مخاطبا جنوده :

« ايها الجنود الطيبون الاغبياء . ايها القتلة الانذال . يا اقسى وأوقح

نماذج الهوان والجبن والعدوان والطاعة والعار .

هكذا تكلم ذلك القائد وكأنه اول قائد او انسان يفهم بكل العمق وظيفة الجيوش تحت كل الظروف والتفاسير .

ثم قال وكأنه يصوب اسلحته الى جنوده بل الى كل الجنود لا الى الاعداء فقط - قال متصاعدا في صدقه القتال :

« يا اقوى تعبير عن هزيمة الانسان وبلادته وضعفه . يا اغلى كلابي المطيعة الذليلة المدربة .. أيتها الكلاب الجبانة المهانة . يا كلاب المذاهب والاديان والزعامات . يا آثامها . يا عار الانسان . يا مجد عار الانسان . يا عار وآثام المذاهب والاديان والنبوات والزعامات .

« ايتها الكلاب الطيبة المخلصة . ان البحر وراءكم وان العدو امامكم، وما حياتكم الا أن تتقدموا .. ايتها الكلاب المؤمنة المصلية المنتمية .

« يا كلابا نباحها الشعارات والمذاهب والاديان والوطنيات والقوميات » ..

وفي نص اخر :

« ان العدو وراءكم ، وان البحر امامكم ، وليس لكم الا ان تخوضوا البحر . يا كلابا لا يقودها الا الالهة والانبياء والزعماء ومعلمو المذاهب » .

بكل هذا الصدق والعمق في الفهم لمعنى الجنود والجيوش كان يتكلم ذلك القائد الى جنوده وعنهم .

وفي رواية اخرى لهذه القصة من آقاصيص التاريخ :

« ان العدو والبحر وكل شيء آمامكم ، وليس وراءكم شيء تريدونه او تجدونه أو تبلغونه .. يا كلابا لا يعلمها ذنوبها سوى الاديان والمذاهب والزعامات » .

أيمكن ان قائدا قد تكلم هكذا ؟ اذن لتلعنه كل الاكاذيب وكل الاديان

والمذاهب وكل الشعارات المزورة .

ان الذين ليس لهم وراء لا بد ان يكون لهم أمام فقط . وهؤلاء لن يستطيعوا او لن يريدوا الا ان يتقدموا . ان التقدم أو ارادة التقدم حينئذ حتم عليهم . اما الذين لهم وراء ، لهم وراء مملوء بالسحر والاساطير التي هي أكبر واعجب من كل الطبيعة ومن كل قواها وقوانينها وغوغائياتها .

ـ اما هؤلاء فلا بد ان يتراءى لهم الامام كريها مخيفا مجهولا شاقا فاسقا ضالا مشحونا ومسكونا بالآلام والاخطار وبالوحوش والابالسة ، او لن يكون الامام مالكا كل الاغراء والتأثير عليهم والدعوة لهم والهتاف بهم او التفرد بأهوائهم وتطلعاتهم . أليس في جمال الوراء او في رؤيته جميلا عدوان على الامام ؟

اليس في ذلك عدوان على العيون وعلى التحديق وعلى الاشواق ؟ أليس محتوما ان هؤلاء لا بد حينئذ أن يحاولوا التراجع الى الوراء ، او لا بد أن يستبد بهم الحنين الى الوراء الذي لن يخشوه لانهم قد ألفوه كثيرا في تصوراتهم وأحاديثهم أو في اساليب حياتهم ، ولانه لن يعود الى الوراء مهما دعوه وارادوه ؟؟

ان الوراء لن يخيف احدا مهما كان رديئا وشريرا ومتخلفا ومتعبا وتافها .

إنه لا يستطيع أن يخيف او ان يهدد احدا لانه لن يعود ، وأن جميع المنادين له الهاتفين باسمه يعلمون انه لن يعود . لهذا فكم هم اصدقاء له ومشتاقون اليه لانه لن يعود ولانهم يعلمون ذلك . وما اجمل واتقى الشيء الرديء الذي لن يعود والذي لن تخشى عودته .ما اكثر تهذيبه . وما اجمل او اسهل أو ارخص الهتاف له والدعوة اليه . وما أكثر الهاتفين المباركين له . ان اي شيء كان فيه لن يعود . ان احدا من أنبيائه او من اربابه اومن قديسيه أو من صانعيه او من المتسلطين باسمه ، لن يعود . اذن كم هو جميل ونبيل .

ان أكثر الناس فجورا وفسوقا وزندقة نفسية واخلاقية ليجرؤون على التحدث بأصدق واحر الاشواق واللهفات عن الوراء وعن كل ما كان ومن

كان فيه من الهة وانبياء وملائكة وشهداء ، ومن تقوى ونظافة وصدق وايمان لانهم يعلمون انه لن يعود ، وانهم لن يحكموا او يخضعوا أو يلزموا بما كان فيه من تقوى ، او بما يحكى عما كان فيه من تقوى . انه لو كان يعود بالدعوة له او بالحنين اليه لكان مستحيلا ان يحن اليه أو ان يدعوه هؤلاء الذين يدعونه ويحنون اليه .

ان الوراء هو انبل الاشياء وأكثرها تهذيبا واباء ورفضا ونظافة وشهامة لانه لا يقبل العودة . انه يملك شيئا من الكرامة ، لهذا يرفض العودة تحت اي ظرف او سبب من الظروف او الاسباب . هؤلاء الذين يبكون ويرتجفون شوقا الى الوراء ، لو أن احد انبياء هذا الوراء عاد ليحكمهم بتعاليمه واخلاقه ، ألا يكونون هم أشرس من يقاتلونه ويرفضونه ؟

اننا يوم نستطيع ان نقتل ونغلق جميع عيوننا ولهفاتنا واشواقنا المتطلعة الى الوراء — الى الوراء الموقر بجميع الوان الالهة والعقائد والتعاليم وبالاباء والاسترخاء ، وبكل اساطير واساليب الاغراء — اننا حينئذ قد نجد انه لا طريق ولا مكان لنا الا ان نتقدم . وكم هو خسران لنا وسرقة او اخذ منا ان نهب شيئا من عيوننا او من عقولنا او من قلوبنا أو من اصواتنا وفصاحتنا لاي وراء من الالهة أو الاباء او المعلمين .

اننا حينئذ لن نستطيع أن نوزع اشواقنا ولهفاتنا واهتماماتنا وتحديقاتنا وآمالنا وخطواتنا بين أمل يطاردنا ويجب أن نتخلى عنه وامل يختبيء عنا ويجب أن نبلغه ، ان نطارده ونصطاده .

نعم ، اننا حين نقتل ونغلق كل ذلك فلن نستطيع ان نتوزع او ان نوزع هذا التوزيع أو هذا التوزع .

* *

ان لكل انسان ومجتمع تاريخا او ماضيا يعيش فيه ، يعيش في افكاره وحماسه وفي مشاعره وفي أمانيه ، وفي مخاوفه وشهواته — بل ويعيش في موهبته وذكائه ، وفي يديه ورجليه وعينيه ، وفي ضرباته وخطواته ، وفي كل فنونه وأساليب حياته — بل ويعيش في لغته.وزيه وهمومه ، وفي حبه وبغضه ، وفي قبوله ورفضه ،وفي اشمئزازه واعجابه.

ان كل انسان ومجتمع مسكون ومحتل باعداد هائلة من أصناف الغزاة والطغاة ومن اصناف الاغبياء والادعياء والمرضى .

ان ذلك الماضي او التاريخ للانسان او للمجتمع يعيش فيه ويضغط عليه ، ويناقضه ويقاتله ويضلله ويعاديه ويحاول أن يفسد ذكاءه ورؤيته واحاسيسه وكل معانيه واستجاباته الانسانية . انه يحاول كل ذلك مهما انتصر او انهزم .

انه أبشع واشمل عدوان يواجهه كل مجتمع وكل انسان في كل التاريخ ، في كل العالم .

ان هذا الماضي او التاريخ الذي يتجمع ويعيش بوحشية وعدوانية في كل انسان وفي كل مجتمع ، ليقتات بكل حياته ومواهبه واحتمالاته واحتياجاته هو تجمعات هائلة متوحشة معادية همجية من الالهة والانبياء والمعلمين ، ومن القادة والزعماء والحكماء والشعراء والوعاظ ، وايضا من الاديان والمذاهب والمعابد والصلوات ، ومن الايات والروايات والاناجيل المكتوبة بكل ما في عقول الالهة واخلاقها ومشاعرها من تجهم وغضب واستبداد وكبرياء وانانية ورجعية وبدأوة — وأيضا من الاباء والذكريات والتجارب والاشواق المتراكمة الذاهبة بعيدا ، بعيدا الى الاعماق .

انه في كل ذات وفي كل مجتمع تعيش عوالم كثيرة غير مرئية من الاعداء والمناقضين والمغايرين والمتخلفين ، يتدخلون ويهاجمون ، ويأمرون وينهون ويهددون ويخوفون ويصرخون ويطالبون ويضللون ويكذبون ويفسدون ويقرؤون انفسهم ويفرضونها ويلقون بها دون شهامة أو كرامة او حياء او ذكاء او محبة . انهم اسلوب من الغزو المتوحش .

ان كل انسان وكل مجتمع معتدى عليه ومحتل ومهاجم ، تعتدي عليه وتحتله وتهاجمه عوالم كثيرة غريبة غير مرئية وغير مهذبة وغير كريمة .

ان كل انسان وكل مجتمع مربوط بهذه الحشود والمواكب والعوالم غير المنظورة من الالهة والانبياء والمعلمين ، ومن القادة والزعماء والحكماء والشعراء والوعاظ ، وايضا من الاديان والمذاهب والمعابد والصلوات ، ومن الايات والروايات ومن الاناجيل كذلك . وكذلك من الاباء ومن الذكريات

والاشواق والقراءات التاريخية . ما اقوى الاشواق والذكريات والقراءات . وان هذه الحشود والمواكب والعوالم مربوطة بكل انسان وبكل مجتمع .

انها محمولة عليه ، ملقاة فوقه ، فوق ذكائه وافكاره وحريته ورؤيته وفوق احاسيسه واهتماماته وتحليقاته وضروراته ، وفوق جميع خطواته واتجاهاته ومواهبه .

ان اي انسان او اي مجتمع لا يستطيع ان يخطو أية خطوة الا وهو يجر وراءه ويحمل فوقه اضخم حمولة من العوالم الضخمة غير المرئية ، من الاوثان الشرسة المعادية البليدة الوقحة البذيئة المناقضة المتخلفة الناهية الآمرة المهددة المستبدة . انظر . أن كل اربابك وانبيائك وآبائك واديانك وتقاليدك محمولون ومحمولة فوق قدميك ويديك وعقلك حينما تخطو او تضرب او تفكر بل وفوق عينيك حين ترى . انها اثقال كئيبة موضوعة فوق قوى حياة اي انسان ، كلما اراد ان يتحرك ، وكلما تحرك ، وكلما طلب منه او فرض عليه ان يتحرك ، واينما تحرك، بل وكلما عجز عن الحركة او رفض الحركة او منع من الحركة . انها الاثقال التي يحملها كل انسان وكل مجتمع في كل عصر .

انه لا يوجد كائن يحمل اثقاله او يحمل اثقالا بالوحشية والعذاب اللذين يحمل بهما الانسان او المجتمع اثقاله حينما يتحرك في طريقه او حينما يعجز او يكف عن الحركة ، حاملا فوقه كل ما في تاريخه أو ماضيه من الالهة والانبياء والمعلمين والاباء ، ومن الايات والروايات والاناجيل والمذاهب والتعاليم والتقاليد ، ومن الذكريات والتجارب والاشواق ، ومن العاهات والتشوهات والهزائم ، ومن الآلام والاحزان والمشاكل والمخاطر ، ومن الحب والبغض والخوف والتبعات . آه . ما أثقلها واوقحها من اثقال.

هل يعلم الحاملون لهذه الاثقال انهم يحملونها ؟ هل يشعرون بفداحة او وقاحة معاناتهم ؟

هل توجد اثقال او احمال مثل هذه الاثقال والاحمال ؟ هل يوجد او وجد حمال مثل هذا الحمال ؟ ما اصعب أن تكون أثقالك من جثث الالهة والانبياء والمعلمين ، ومن جثث الشهداء والقديسين، ومن المعابد والمحاريب، ومن الايات والاناجيل .

هل تعرف ايها القارىء ماذا تحمل ؟ هل ترى او تتصور كل ما فوق ذاتك وحياتك من اثقال واحمال ؟ هل تراها ؟ هل تحسها ؟ هل تتألم بها ؟ هل تدري كم انت مظلوم مقهور مثقل محمول عليك؟هل انت راض بأحمالك واثقالك او راض عنها ؟

ايها الانسان . هل تدري كم انت حامل ،وماذا يساوي ما انت حامل، وكيف التزمت بحمل ما آنت حامل ؟

ان جميع هذه وجميع هؤلاء قد اصبحت واصبحوا للانسان وللمجتمع وعليهما قيودا تريد ان تمنعهما الحركة ، وأحمالا تريد ان ترهق وتسحق قدرتهما على الحركة ، ودعاة وخطباء ينهونهما عن الحركة ، ويخوفونهما بها ومنها ، وهزالا يريد ان يعجزهما او يضعفهما عن الحركة أو عن رغبتهما في الحركة ، وذنوبا تريد ان تفسد وتذل ضميريهما ، وبلادات تريد ان تمتص ذكاءهما ، وغبارا وظلاما يريدان آن يضللا رؤيتهما ، وشراسة تريد انتشوه نياتهما وأخلاقهما وجمالهما .

اذن كيف يستطيع اي آلانسان او المجتمع ان يرى او يفهم او يخطو او يغير او يبدع ويخلق بل أو يحيا وهو يعاني كل هـذا ؟ كيف استطاع او يستطيع ؟

كيف آستطاع او يستطيع ان يرى شيئا وكل هذا يعيش داخلعينيه، او ان يحس بشيء وكل هذآ يعيش داخل احاسيسه ، او ان يشتاق الى شيء وكل هذا يستبد بأشواقه ؟

كل هذه آلحشود والمواكب والعوالم غير المرئية تعيش فوق الانسان وداخل ذاته وحياته ، تهدده وتخيفه وتنهاه وتأمره وتطالبه وتناقضه وتقيده وتشتمه وتشوهه وتضلله وتضعفه وترهقه وتكذبه وتسرقه وتستبد به وتحاكمه .

اذن كم هم الطغاة آلذين يحتلون ذات آلانسان ، ينهونه ويأمرونه ويرهبونه ويحكمونه ويحاكمونه بل ويشتمونه ويحقرونه ؟

اذن كيف استطاع ان يحيا او يكون او يفعل شيئا كبيرآ أو ذكيا ؟كيف

يستطيع ان يبتسم او يحاول او يريد او يشتهي او يحب او يقاوم وهو يحمل في داخله او فوقه واحدا من هؤلاء الطغاة ، من هؤلاء الآلهة والانبياء والمعلمين،او واحدا من هذه الاديان او التهديدات او المخاوف او التصورات؟ كيف وهو يحمل عوالم من هؤلاء الالهة والانبياء والمعلمين ، ومن هذه الاديان والتهديدات والتصورات والمخاوف وليس واحدا فقط ؟

هل في القضية غلطة ام اكذوبة هائلة ، هائلة ، ام فيها معجزة كبيرة، كبيرة ؟ ام في القضية كل ذلك واكبر من كل ذلك ؟ نعم ، كيف استطاع الانسان تحمل وحمل كل ذلك ؟ كيف لم يسقط الانسان تحت اثقاله هذه؟ كيف استطاع الوقوف او الحركة او الحياة ؟

لقد كان اقل ما يمكن توقعه ان من يحملون فوق ذواتهم وحياتهم وداخل ذواتهم وحياتهم كل هذه الحشود والمواكب والعوالم غير المرئية ان يسقطوا ويموتوا اعياء ورهبة واشمئزازا وحياء وغضبا وضلالا ورفضا للعار والهوان والتلوث والهزيمة . ولكنهم لم يموتوا ولم يسقطوا . لقد كان السقوط والموت حينئذ اسلوبا كريما وعظيما من اساليب الحياة والقوة . كيف ماتوا وسقطوا حتى عجزوا عن الموت والسقوط ؟

كيف حدث ذلك ؟ هل في القضية معجزة اكبر من كل معجزة ام فيها بلادة هي اكبر من كل البلادات المعروفة ؟ ولكن كيف يكون الشيء امامعجزة او بلادة ؟ كيف امكن هذا الافتراض؟ نعم ، وهل في معجزات البشر اعظم او اشهر او اكثر من معجزات بلادتهم ؟

هل الانسان عظيم جدا او تافه جدا حين استطاع ان يحمل كل هذه الحشود والمواكب والعوالم غير المرئية وغير الصديقة وغير المهذبة وغير الملائمة او المسالمة دون ان يسقط من الاعياء او الرهبة او الغضب او من مشاعر الهزيمة والعار والاشمئزاز والتناقض والرفض ؟

كيف استطاع الانسان ان يعيش او ان يتلاءم مع نفسه ومع الاشياء ، او ان يحب ويتعامل تحت هذا العدوان والمعاناة ـ تحت هذه الحشود والمواكب والعوالم غير المنظورة من الالهة والانبياء والاديان الكاملة الشاملة المتوحشة المقاتلة بكل الاسلحة والاساليب والمستويات ، لكل ما في حياة الانسان من اشواق واحتياجات وجوع ومواهب ومن تجاوز ورفض وتحليق

وقدرة ورؤية ؟

انه لشيء فوق كل التوقعات والتفاسير التي يمكن فهمها ان تحمل في ذاتك الها او نبيا او دينا من هؤلاء الالهة والانبياء والاديان ثم تستطيع ان تحدق في اسراب الحشرات وهي تتلاقح داخل عيون اطفالك ، او تحدق في وجوه النجوم الصغيرة الهاربة من الرؤية وانت تتثاءب او تغني او تصلي او تبتسم من داخلك لمجد آبائك وانبيائك في التاريخ . انه لشيء فوق كل التوقعات والتفاسير ان تغضب لشيء او من شيء ، او ان تحب او تبغض شيئا او ان ترى شيئا او ان تعجب بشيء وانت تحمل في ذاتك احد هؤلاء الالهة او الانبياء او الاديان .

**

انه كما يختلف الناس في قدرتهم على مقاومة الاعداء المحاربين ، وعلى مقاومة الطبيعة المناقضة او غير الملائمة ، وعلى مقاومة الحشرات المؤذية ، وفي ارادتهم لهذه المقاومة ، كذلك يختلفون في قدرتهم وفي ارادتهم لمقاومة التاريخ او الماضي او الوراء ، ولمقاومة ما فيه من آلهة وانبياء وزعماء ومعلمين وآباء ، ومن تعاليم واديان ومذاهب ، ومن اشواق وذكريات ، ومن علاقات وقراءات روحية . حتى قراءاتنا الروحية القادمة الينا من التاريخ تتحول الى نقيض والى مقاومة لنا . انها تتحول الى مناقضة وضارة ومعادية كالحشرة وكالطبيعة .

ان هؤلاء الالهة والانبياء والزعماء والخلفاء والاباء والمعلمين والشهداء، وهذه التعاليم والاديان والمذاهب والاشواق والذكريات والعلاقات والقراءات الروحية القادمة الينا من التاريخ او من الماضي او من الوراء .

ـ نعم ، ان هؤلاء وهذه قد اصبحوا واصبحت مناقضين ومقاتلين ومقاومين وضارين مؤذين لنا كالطبيعة المناقضة ، وكالحشرات المؤذية والضارة ، وكالاعداء المحاربين . ان مناقضة آلهتنا وانبيائنا وآبائنا لنا وعدوانهم علينا اسلوب من اساليب الطبيعة في مناقضتها لنا ومن عدوانها علينا .

ان الضرورة والمنطق اللذين يفرضان علينا مقاومة الطبيعة والحشرات

والاعداء يفرضان علينا ايضا مقاومة التاريخ او الماضي أو الوراء بما نقل الينا من آرباب وانبياء وخلفاء وشهداء وزعماء واباء،ومن أديان وتعاليم،ومن اشواق وذكريات وآلام وهموم ومحاريب وقرآءات ـ قد أصبحت واصبحوا غير ملائمين لنا او معادين لنا مثل الطبيعة والحشرات والاعداء المحاربين . هل الطبيعة والحشرات تتحول في تفاسيرها الى مناقضة ومعادية لنا اكثر مما تتحول الالهة والانبياء في تفاسيرهم الى معادين ومناقضين لنا ؟

ان البشر ليختلفون في انواع واخلاق الاعداء والطبيعة والحشرات التي يواجهون ويقاومون كما يختلفون في أنوآع واخلاق التاريخ ، وفي انواع واخلاق ما فيه من آلهة وانبياء وخلفاء وشهداء واباء ، ومن اديان وتعاليم ومذاهب ، ومن اشواق وذكريات وارتباطات روحية ونفسية وتصورية وفكرية ، وكذلك من هموم وآلام ومن عداوات ومخاوف وأحقاد، ومن هزآئم وانتصارات ، ومن عار ومجد وهوان وكبرياء . ولكن اليس التاريخ او للماضي الذي له كل هذه الذنوب ، اليس له ما يمكن ان يصبح دفاعا أو اعتذاراً عنه ؟ اليس يهبنا كل خطواته وانتصاراته وتجاربه ومعارفه بقدر ما يفرض علينا كل بلاداته وجهالاته واكاذيبه وذنوبه وهمومه وآلامه وعاهاته ، وكل آلهته وانبيائه وطغاته ومعلميه ومهرجيه ؟ اذن اليس له ما يمجده مهما كان له ما يعيبه ؟

اننا بشيء كثير من التدين ومن الغرور المذهبي والفكري نزعم اننا نرفض الايمان بالمذهب القائل بتناسخ الارواح .

ولكن السنا أكثر من كل البشر ايمانا بهذا التناسخ وتصديقا له ، بل ودعوة اليه ، بل وتجهيلاً واتهاما وتكفيراً لمن لا يؤمنون به ؟

وهل يعني ايماننا او تديننا شيئا غير الاقتناع بهذا التناسخ وغير الدعوة اليه والهجاء لمن ينكرونه ؟

ان ارواح القدماء ، جميع القدماء الذين علمنا الرضا عنهم والايمان والاعجاب بهم تسكن فينا وتنتقل الينا ، أو يراد لها ومنها ان تفعل ذلك في مواكب طويلة تاريخية ضاجة تهتف وتبتسم لها كل عيون وقلوب وحماس الآلهة وجميع وحدات الطبيعة .

ان التناسخ الذي نؤمن به وندعو اليه ونتمناه تناسخ اخر ، اكثر فظاظة وشمولا من كل تناسخ قال به أو آمن به اي قوم .

ان التناسخ الذي ندين به وندعو آليه هو افظع واردأ واغبى من كل تناسخ دآن به اي انسان .

اننا نريد ان تنتقل روح كل نبي او شهيد أو ولي أو خليفةبل او روح كل اله الى ذات كل انسان مهماكان صغيراً أو تافها او مشوها او رديئا لتعيش فيه بكل أخلاقها ونظافتها وشموخها ونياتها ومستوياتها ، وليعيشها هو بكل تلوثاته وتفاهاته وضعفه وهبوطه وبكل مستوياته العاجزة . اننا نريد ان تعيش الروح الواحدة ، روح النبي الواحد أو الخليفة الواحد او الشهيد الواحد او الامام الواحد بل او السلطان الواحد بكل فضائلها وقوآها ومعانيها في كل ذات ، بكل ضعفها ورذائلها ونقائصها . اننا لا نقول بأن الروح الواحدة تنتقل الى ذات واحدة كما يقول المؤمنون بالتناسخ ، بل نقول أن الروح الواحدة يجب ان تنتقل الى كل الذوات المتناقضة والمتفاوتة المستويات .

اننانقول آن كل حجم واكبر حجم يجب ان يوضع في كل مكان و في اصغر مكان . وان كل قمة ونظافة يجب أن توضع في كل حضيض وفي كل قذارة . وأن كل سيف وكل سلاح يجب أن يوضع في اي غمد وفي كل غمد ، في كل يد وفي اية يد ..

اننا لا نقول أن الروح العظيمة القوية النظيفة تحل او يجب ان تحل فقط في الذات العظيمة القوية النظيفة ، أو في ذات واحدة فقط من هذا الطراز . بل اننا نقول ان اعظم واقوى وانظف روح تحل او يجب أن تحل في اتفه واضعف وأردأ ذات ، بل في كل ذات من هذا المستوى .

اننا نقول ان اعظم وانبل عقل يجب ان يعيش او ان يركب في اصغر راس واردأ راس .

اننا نقول ان روح اعظم الانبياء يجب أن تعيشها بكل مستوياتها ذات اردأ او اصغر انسان . ان روح او ذات هذا الانسان الاردأ او الاصغر يجب أن تتعلم جميع مزآيا وقوى واخلاق وذكاء وسمو روح ذلك النبي الاعظم

لتحيا كل ذلك وتتخلق به وتفهمه وتتقبله وتعبر عنه على المستوى الذي تفعله روح ذلك النبي الذي هو أعظم واكبر الانبياء . اننا اذن نقول اردأ شيء واغبى شيء .

اليس تحقيرا وتشويها للروح العظيمة احلالها في ذات رديئة ؟أليست مطالبة الذات الضعيفة بأن تحيا وتفهم وتتقبل وتتعلم وتدعي جميع مستويات ونماذج الروح العظيمة اسلوبا قاسيا وبذيئا من اساليب الهجاء للروح العظيمة ؟

اليس عدوانا على الانبياء والشهداء والخلفاء والسلاطين الاتقياء العظماء ان نطالب الصغار والاغبياء والتافهين والعاجزين والملوثين ان يقتدوا بهم او ان يكونوا مثلهم في اخلاقهم او في تفكيرهم أو في نياتهم أو في نظافتهم او في شموخهم وقوتهم وصبرهم ونضالهم وفي جميع معانيهم والتزاماتهم النفسية والعقلية والسلوكية ــ أن يضعوهم معهم في بيوتهم؟

اليس هذا تصغيرا لاولئك لا تكبيرا لهؤلاء ؟ أليس تحقيرا لمن يعلمون لا احتراما لمن يتعلمون ؟

أليست جميع تعاليمنا قائمة على ان الكبار جدا من الانبياء والخلفاء والشهداء انما يجيئون لكي ينقلوا ارواحهم بكل تفاسيرها الى ذوات جميع الصغار ؟ ألسنا نفترض ونعلم أن هؤلاء الكبار جدا انما جاءوا ويجيئون لكي يعيشوا بكل ارواحهم في ذوات وارواح جميع الصغار ، جميع الناس الصغار والكبار ؟ هل يمكن نقل اكبر عقل الى أصغر رأس ، او هل يمكن نقل اكبر روح وأعظم روح الى اصغر واردأ ذات ، هل يوجد مثل هذا التناسخ؟

اذن ألسنا نؤمن بنموذج من التناسخ أو من تناسخ الارواح لا مثيل له في البشاعة والتشويه والتحقير والعدوان والشمول ؟ ألسنا نحقر ونشوه أنبياءنا وخلفاءنا وشهداءنا وعظماءنا وقديسينا حينما نحاول نقلهم الى كل ذات وعقل وضمير وخلق ومستوى والى كل بيت ؟ ألسنا نبالغ جدا في هجائهم حينما نظن أننا نبالغ جدا في تكريمهم وفي الايمان بهم ؟

ألسنا حينئذ نضعهم ونعرضهم في كل الصور وفي كل المواقف وفي كل المستويات والمقاسات والاماكن ؟

أن التوطين لارواح انبيائنا وشهدآئنا وخلفائنا وصالحينا في ارواحنا قد يعني اسلوبا من آساليب المنافسة أو المزاحمة او المقاومة او المطاردة للارواح الجديدة التي تحوم حولنا وفوقنا والتي تخيفنا وتهزمنا وتهددنا وتتفوق علينا .

قد ترفض الارواح البدوية والهمجية ان تتخلى عن مكانها للارواح الحضارية . قد يرفض الاله ان يتنازل للانسان . أن الارواح تتنافس وتتزاحم ، ويقاوم ويطارد ويرفض ويخاف بعضها بعضا كما يحدث في الاجسام وفي الوحدات المادية . ان الارواح يحسد بعضها بعضا ويبغض بعضها بعضا ، ويغار بعضها من بعض ، ويخجل بعضها من بعض .

وهل يقاسي من هذه الافات سوى الارواح ؟ هل يوجد مثل الارواح تدنسا وهبوطا وتقاتلا وخوفا ومعاناة ؟

ان ارواح انبيائنا ومعلمينا وقديسينا وارواح ابائنا التي تحتلنا قد تخاف وتبغض وتحسد آرواح آبنائنا وارواح عصرنا وارواحنا التي تريد آن تعيش كل حياتنا وان تطرد كل ما سواها ، كما أنها قد تغار منها . وان ارواح عصرنا وارواحنا وارواح ابنائنا التي تصوغها الحياة الحاضرة والحياة المقبلة ، والتي تواجه الظروف الجديدة والظروف التي سوف تصبح هي الظروف الجديدة قد تخجل وتشمئز من تلك الارواح البدوية التي تحتلنا، التي تحتل عقولنا ولغاتنا ومنابرنا وامانينا والتي تصوغ جميع تعبيرآتنا وتعاليمنا ونماذج حياتنا .

انها لهذآ قد تهرب متباعدة عنا ، وقد يضعفها او يمرضها الخجل والاشمئزآز .

ان هذا التناسخ الفكري والاخلاقي والنفسي واللغوي قد يكون له معنى ما او تفسير ما في جعلنا دائما مصابين بالعجز عن التغيير وعن التقبل وعن الانفتاح وعن الانطلاق في المسارات الحضارية والانسانية الجديدة ، وفي جعلنا دائما بدوآ لا نستطيع ان نتحضر في تعبيراتنا اللغوية والفكرية والنفسية والاخلاقية وفي جميع تعبيرآتنا ومواقفنا .

ان جميع افاقنا النفسية والانسانية مغلقة دآئما بتلك الارواح البدوية التاريخية المستبدة المتوحشة في آنانيتها وفي بداوتها وفي استبدآدها .

ان جميع معانينا واحتمالاتنا مشحونة ومسكونة بتلك الكائنات المتجهمة المتعصبة الرافضة لكل المنافسين والانداد .

أن جميع الانهار الجديدة لن تجد لها مجرى في حياتنا ليس مسدوداً بأكثف واصلب التجمعات الرديئة .

ان جميع طاقاتنا الذاتية مغلقة امام احتمالاتها وامام نفسها ، وعن احتمالاتها وعن نفسها ، او يراد لها ومنها ان تكون كذلك .

نعم ، انه يراد منها ولها ان تكون ذلك مهما عصت او عجزت ان تكونه .

وانه لمحتوم ان تكون عاصية . انها لا تستطيع ان تكون الا عاصية مهما تعلمت الطاعة وأرادتها .

* *

كل الرثاء لك ايها الانسان ، يا حاملا اقسى الاوزار .. يا حاملا كل الماضي والحاضر ، وحاملا ايضا في قدرك وفي نياتك وامانيك وطموحك ، وفي خطواتك ، كل المستقبل .

.. يا حاملا كل هؤلاء الآلهة والانبياء والمعلمين والشهداء والقديسين، وايضا كل هذه الاديان والتعاليم والمذاهب والمعتقدات ، وايضا كل هذه المحاريب والمنابر والصلوات وكل هذه الآيات والروايات والاناجيل ، وايضا كل هذه الاشواق والذكريات الروحية ، وايضا كل هذه الهموم والآلام والورطات والعاهات والهزائم التاريخية . يا حاملا كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سوف يكون ، وكل ما لا يمكن ان يكون .

لك كل الرثاء ايها الانسان . يا من لا يحمل كائن مثل اثقالك ولا شيئا من اوزارك . يا من لا يؤمن اي كائن مثل ايمانك بمثل اوثانك . يا من لا يهون كائن بعقله وايمانه مثلما تهون بعقلك وايمانك .

يا من لا يعيش اي كائن مثل دموعه ولا مثل ذنوبه ولا مثل ورطاته ولا مثل اكاذيبه وتناقضاته وهزائمه . يا من لا يقاسي اي كائن مثل اشواقه او شيئا من اشواقه . ما اقسى اشواقك ايها الانسان .. ما

اقسى وادوم واشمل اشواقك . من العدو الوحش الذي صنع فيك اشواقك ؟

... يا من يريد ويتمنى ويحاول ان يعيش كل الموت والموتى ، بينما يواجه ظروفا تفرض عليه ان يعيش ، بالارادة والتمني والمحاولة والالزام كل الحياة وكل معاني الاحياء . يا من يريد الشيء ونقيضه ويتمنى الشيء ونقيضه ويفعل الشيء ونقيضه ويؤمن بالشيء ونقيضه . يا من لا شبيه له في تصادم آراداته ومواجهاته وتحديقاته .

يا من يريد ان يعيش كل وحشية الآلهة وبداوتها ، وكل انسانية الانسان وحضارته . يا من يريد أن يكون كل العقل وكل الجنون ، كل الحق وكل الباطل ، كل الخطأ وكل الصواب . يا من يريد ان يكون كل الرؤية وكل العمى ، كل شيء ونقيضه .

.. يا من يريد أن يضع أرواح جميع اربابه وانبيائه وخلفائه وشهدائه واتقيائه في ذات اصفر واضعف آحاده . يا من يريد ان يضع كل سمواته في كل حضيضه .

نعم ، لك كل الرثاء يا ايها الانسان . يا من لا مثيل له في ذكائه ولا ايضا في غبائه ، في احزانه ولا ايضا في مسراته ، في انتصاراته ولا ايضا في هزائمه ، في نبله ولا ايضا في نذالته ، في ايمانه ولا ايضا في كفرانه ، في طاعته ولا ايضا في عصيانه ، في طهارته ولا ايضا في قذارته ..

..يا من لا مثيل له فيعظمتهولا ايضا فيتفاهته،في كبريائهولا أيضافي هوانه . يا من لا مثيل لجحيمه ولا مثيل لنيرانه . يا من لا مثيل لاوهامه وأكاذيبه ، ولا مثيل لحقائقه ورؤاه .

* *

اجل ، ان الانسان بلا نموذج في طاعته وفي تجمع الآلهة والانبياء والمعلمين والطغاة والمهرجين والادعياء والاغبياء والخبثاء ، وفي تجمع الاكاذيب والبلادات والروايات والاشباح والأرواح والمحاريب والمنابر والمقابر والاشياء والطبيعة والتاريخ والماضي ، وفي تجمع كلَ ما كان وما سوف يكون وما لن يكون ، في ذاته .

انه لا مكان في هذا الكون يتسع لما تتسع له نفس الانسان أو يتجمع

فيه ما يتجمع فيها دون ان تضيق او تزدحم او تمتلىء .

اجل ، ان الانسان بلا نموذج في تجمع كل شيء في ذاته .. في عقله وفي ضميره ، وفي احاسيسه وحواسه ، وفي اخلاقه ولغاته ، وفي حبه واشواقه ، وفي محاريبه ومنابره وصلواته ، وفي ايمانه ، وفي كتبه وتعاليمه .

ولكنه ايضا بلا نموذج في عصيانه ولا في كفرانه .

بل انه هو وحده العاصي في هذا العالم . انه وحده العاصي الكافر ..

لهذا فانه هو وحده الصانع للحضارات في هذا العالم ايضا ..

ان كل الفرق بين الانسان وبين اي كائن او شيء في هذا العالم او في هذا الكون ان الانسان هو وحده الذي يريد ان يعصي ، ويفكر في ان يعصي ، ويستطيع ان يعصي ، وانه هو وحده الذي يعصي ، اي الذي ينفذ العصيان .

انه يعصي كل شيء بكل شيء .. بفكره ومنطقه ، وبارادته وشهوته ، وبأخلاقه ، وبكينونته ، بل وبمذاهبه وأديانه وتقواه ، وبأيمانه ايضا .

انه يحول العصيان الى ايمان ، بل يحول الكفر الى ايمان . انه لا يكفر عصيانا فقط بل ويكفر ايمانا .

ولكن المعصي لن يكون الا شيئا واحدا . ان المعصي هو دائما الطبيعة . نعم ، ان المعصيين كثيرون جدا ومتنوعون جدا في صيغهم وجنسياتهم وذواتهم ... ولكنهم جميعا ليسوا سوى الطبيعة في عديد اشكالها وثيابها ووحداتها ولغاتها . انها اي الطبيعة تتنكر في صور وصيغ آلهة وانبياء وزعماء ومذاهب واديان واخلاق واشياء اخرى .

انها هي كل من يطاع ايضا كما انها هي كل من يعصى . ان اي اله او نبي او زعيم او دين او مذهب او تعليم نطيعه او نعصيه لن يكون الا احدى صيغ او صور الطبيعة المتنكرة والمتنكر عنها ومنها .

شعبي شجاع جداً

« ... ان شعبي لا يصنع الزنادقة ولا المتمردين ولا الغاضبين ولا الرافضين ولا المحتجين ولا الخوارج لانه اي شعبي لا يصنع العصاة .. انه قد يغضب غضبا ذاتيا تحت الاسباب الذاتية الصغيرة التي تغضب لها الكائنات الصغيرة جدا . ولكنه اي شعبي لا يغضب غضبا عقليا أو اخلاقيا او حضاريا اي لا يغضب غضبا انسانيا ...

« ... اواه يا شعبي متى تصعد الى ان تكون مصابا اصابات خطيرة بهذا النوع من الغضب ؟؟ .. ان شخصيات شعبي لا تصاب بالتصادم او بالانشقاق الذاتي او الداخلي . ان شيئا فيه لا يعارض او يناقض او يرفض او ينكر شيئا فيه . ان شيئا ما من افكاره او اقتناعاته او اخلاقه او مواقفه لا يخاصم او يقاوم أي شيء من ذلك فيه بل ولا يحتج عليه ..

انه بلا مقاومة او خصومة لا بين اية ذات ونفسها ولا بين أية ذات وذات اخرى . انه متوحد في مستوى كبرياء الانسان فيه مهما كان منشقا في احتياجات وفي معاني البراغيث فيه .. »

**

نعم ، اني هنا اريد ان اتحدث عن اسلوب واحد من اساليب شعبي في شجاعته ... ولكني لا بد ان أقاسي من الحرج ومن عتاب الضمير ومن تأثمه ومن شعوره بالذنب وبالعدوان على الاخرين ، على الشعوب الاخرى حينما اروي لها اسلوبا واحدا من اساليب شعبي في ممارساته لشجاعاته ولمواقفه الشجاعة التي لا بد ان تتحول الى تصغير واذلال وهزيمة لجميع شجاعات الشعوب الاخرى ..

... ان هذه الشعوب الاخرى حينما أحدثها عن شجاعة شعبي سيقتلها أو يذلها الخوف من شعبي ، وستمزقها الغيرة والحسد منه وله ، وسترهقها جدا محاولة المنافسة او الخوف من المنافسة .. وستعذبها حينئذ مشاعر الضآلة والمهانة محاسبة شجاعتها وكبرياءها بشجاعة شعبي وكبريائه ..

.. لقد ترددت وتعذبت هنا كثيرا ، كثيرا بين املاء رغبتي وتأثم ضميري ..

هل أكون قاسيا الى اقصى مستويات الوحشية بان اتحدث امام الشعوب الاخرى عن شجاعة شعبي فأصيب كبرياءها وشجاعتها وأعجابها بنفسها واعتزازها بكل ما في تاريخها من ابطال وبطولات وامجاد ، بكل معاني الاذلال والتعجيز والقهر ، ام اختار ان اكون غدارا وخائنا وجبانا امام ضعف ضميري وعواطفي فأذهب اتعمد اخفاء شجاعة شعبي رفقا ورحمة بالشعوب التي لن تستطيع أن تطاول أو تجاري شعبي في ذلك او ان تحاول مطاولته او مجارآته كما لن تستطيع آن تغفر لنفسها هوانها وجبنهاوعجزهاوخوفها، محاكمة ومحاسبة نفسها بما تسمعهعن شعبي؟اني اخافان تحاكم وتحاسب نفسها بما سوف أروي لها عن شجاعة شعبي ... ماذا أكون ، أو ماذا أختار ؟ هل أكون هذا أم هذا ؟ هل أكون غدارا وخائنا ومقصرا أم أكون وحشا عدوانيا ؟ هل أكون انسانا أي انسانيا أم أكون حقيقة أي واقعا بكل وحشية الواقع والحقيقة ؟.. هل أستجيب للواجب والضمير أم أستجيب للرحمة والرفق وللضعف آلانساني ؟ ما أقسى الخيار أحيانا بل ما أقساه دائما . ان أقسى ما في الخيار الشعور بقسوته ..

اجل ، ان شعبي شجاع جدا .. شجاع افرادا وشجاع مجتمعا ..

اني لن اجرؤ ان احدثك الا عن اسلوب واحد من اساليب شجاعته بل عن اصغر اساليبه الشجاعة .. اني اهاب واجبن ان أروي لك الا اقل واصغر اساليبه هذه . ومع هذا فكم أنا متفائل وساذج بل وغر جدا حينما اطمع في ان تصدقني بل في الا تتهمني بتهمة اكبر من التفاؤل والسذاجة والغرارة ..

لافترضك مواطنا من مواطني شعبي ، بل لافترضك آي مواطن في اي شعب . ولكن افتراضك مواطنا في شعبي يتحول الى تدليل اكبر جدا على شجاعة شعبي ..

نعم ، انت الان مواطن في شعبي او مفترض كذلك ...

.. اذن ، احذر جدا أن تكون صادقا او مفكرا او متسائلا آو ذكيا او نظيفا بل او تقيا او متدينا بضميرك او باقتناعك او من داخلك او بعقلك او ان تكون محدقا اي تحديق في اي شيء او الى آي افق ، او ان تكون مصليا في غير مسجد السلطان آو مستمعا الى غير خطبة السلطان او راويا او مفسرا غير خطبة السلطان ، بغير لغة السلطان وتفاسير السلطان

وحركات السلطان ، بل او آن تكون في يدك مسبحة غير مسبحة السلطان او نسخة من الكتاب المقدس مطبوعة طبعة غير الطبعة التي في يد السلطان او ان يكون مفسرها غير المفسر للنسخة التي في يد السلطان او أن تكون مطبوعة في غير مطبعة السلطان ، او ان يكون اي معنى من معانيك ليس احد معاني السلطان .. نعم ، اني احذرك ان تكون مؤمنا او متدنيا بصدق ووفاء والتزام . انه لا شيء يخشى ويعاقب في بلاد الايمان والتدين مثل الايمان والتدين حينما يكونان صادقين منفذين او لو كانا كذلك وهل يمكن أن يكونا كذلك ؟... نعم .. نعم.. واحذر ان تكون نسخة انسانية مخالفة او مغايرة لاية صيغة أو لاي تفسير من صيغ أو من تفاسير جثث أسلافك وآبائك وسلاطينك وخلفائك وانبيائك وكهانك الذين ترويهم لك رواياتك القديمة ، القديمة جداً ، راوية وارثة لها من قبورك القديمة ، القديمة ، وعن قبورك القديمة ، القديمة... آن كل حياتك يجب ان تكون ابدا رواية عن القبور.. ان كل مجدك ان تكون رواية قديمة عن اقدم القبور . ان كل امجادك امجاد تسكن القبور وتصنعها القبور .. نعم ، انه ليجب عليك دائما ان تظل قبرا قديما ، قديما مهما بدوت في صورة انسان ، أو مهما حسبت انسانا ... اجل ، وهل اكثر الناس الا قبور مهما جاءوا في صور وملابس البشر ؟

اجل ، ثم احذر جدا ان تكون رافضا أو محتجا او ناقدا او غاضبا غضبا عقليا او اخلاقيا او مذهبيا او فكريا او انسانيا ، او أن تكون شجاعا.. أجل ، ان هذه هي الزندقة الكبرى . ان اكبر الزندقات أن تكون شجاعا .. ان أكبر الزندقات في حسابات شعبي الشجاع جدا ، ان تكون شجاعا في أي معنى من معانيك ...

نعم ، حذار ان تكون شجاعا حتى ولا في عينيك او في نظراتك ، حتى ولا في أذنيك أو في اصغاءاتك أو انصاتاتك، حتى ولا في صوتك هاتفا أو مصليا او مادحا ، حتى ولا في أي تعبير من تعبيرات ارتجافك وايمانك ومبايعاتك.. حتى ولا في أية لغة من لغات اعصابك او عضلاتك او آهاتك او أناتك ... حتى أناتك وآهاتك وضراعاتك ، حذار أن يكون فيها اي تعبير من تعبيرات الشجاعة .. حذار ان تكون محاسبا او محاكما او مسائلا او طالبا الفهم او التفسير ..

نعم ، انت مواطن من مواطني شعبي الشجاع جدا .. انت الان مواطن في شعبي او انت مفترض كذلك . ولا بد أن يسرك جدا هذا الافتراض . أليس كذلك ؟ اذن آحذر .. احذر جدا ان تكون شيئا من ذلك .. ان يكون فيك

شيء من الخطايا والخيانات والزندقات التي سمعت الان الحديث عنها .. بل احذر جدا ان تكون متهما بها أو محتملا ان تكونمتهما بها او مروياعنك انك متهم بها أو انك قد تتهم بها ..

ان اتهامك بذلك، مجرد اتهامك، يصبح واقعا، يصبح الشك فيه خيانة، بل ان مجرد اتهامك بذلك يصبح نبوة، يصبح له قوة النبوة، يصبح الشك فيه يساوي بل يعني الشك في النبوة وفي صدق النبي! ...

اجل، انت مواطن من مواطني شعبي الشجاع جدا او مفترض انك كذلك ... اذن فالمطلوب منك ان تتحدث دائما في مجالسك الخاصة والعامة، في جميع مجالسك، ان تتحدث عن الجنس بكل معانيه ومهاويه، وان تغتاب وتسب وتذم وتحقر وتشتم وتقبح وتتشوه وتهون وتهوي وتصغر، تصغر حتى لا يبقى لك أي حجم .. وأن تغوص، تغوص في جميع التفاهات والحقارات والاوحال والنذالات مع احتقارك وآتهامك وسبك لكل شيء جيد ولكل انسان متفوق ولكل حضارة وكل تقدم وكل علم وكل نظافة وعبقرية وموهبة بل وتقوى وتدين .. لان التحدث في ذلك قد يحميك ويصرفك عن التحدث في الشؤون والقضايا الانسانية الكبرى .. في التفكير او في الحرية او في الحضارة أو في المذاهب او في السياسة او في العلوم أو في الفنون أو في الاخلاق .. وهذا قد يجعلك تتكلم او تفسر او تفهم بغير لغة السلطان او بغير تفاسيره او بغير عقله وفهمه أو بغير لغة او تفاسير أو عقول او افهام الجثث القديمة، القديمة .. الساكنة في المقابر القديمة القديمة .. جثث الانبياء والاباء القدماء القدماء كثيرا كثيرا .. الذين اتفق معهم السلطان القائم بيننا بل وكل سلطان قد كان او سوف يكون على ان يكونوا مستشاريه وآعوانه وجنوده وانبياءه الطيبين .. الطيبين جدا، ودائما، دائما بلا أي خلاف على اي نص أو على اي تفسير او على اي موقف او قضية .... ما اروع وانبل واتقى الاتفاق الدائم الموفى بين جميع السلاطين وبين جميع الانبياء وجميع تعاليمهم وكتبهم المقدسة المتلوة في جميع المحاريب، في جميع العصور والمجتمعات، من فوق جميع آلمنابر ..

هل وجد اتفاق ملتزم في جميع العصور مثل الاتفاق الموقع الملتزم دائما بين اهواء السلاطين وتعاليم الانبياء؟ ما اجمل واتقى الصداقة الدائمة بين كل سلطان قائم ونبي قد مات .. بين كل سلطان مهما كان عصره

وبين كل كتاب مقدس تتلوه وتحفظه المحاريب ، .. هل وهب او يهب السلاطين الخارجون على تعاليم الانبياء صداقتهم وولاءهم مثلما وهبوهما او يهبونهما للانبياء ؟ وهل قاتل وظلم وعادى باسم الانبياء مثل الخارجين عليهم بنياتهم وسلوكهم ؟.. هل خرج على تعاليم الانبياء مثل من يحكمون ويخطبون ويعادون ويبطشون باسم الانبياء ؟

نعم ، انت احد مواطني شعبي الشجاع جدا .. انت الان كذلك او مفترض كذلك .. اذن عليك الا تقارف اية خطيئة او زندقة من هذه الخطايا والزندقات التي سمعت الحديث عنها والا فهذا هو بعض عقابك بل اصغر واسهل اساليب عقابك الذي لا بد ان يوقعه بك شعبي الشجاع جدا ..

.. لا بد حينئذ ان يخافك كل الخوف وان يرفضك كل الرفض بكل ايمانه وتقواه ، وبكل ولائه لسلاطينه وكهانه وقبوره وتاريخه . بل بكل ولائه لهزائمه أمام كل اعدائه . انه لا بد ان يخافك وان يرفضك افرادآ ومجتمعا لانه لا نموذج لشجاعته.. آنه حينئذ لا بد ان يهاب لقاءك ورؤيتك او أتهامه بذلك باسلوب لا بد ان تخجل منه الحشرآت . انه حينئذ سيتمزق خوفامن ان تلقاه او يلقاك .. من ان تراه او يرآك ، من آن تزوره او يزورك ، من ان تنطق باسمه او ينطق باسمك ولو غلطا او تشابها بالاسماء .. من آن تمرا في طريق وآحد او ان تجتمعا في مكان واحد ولو لم ير احدكما الاخر او يكلمه أو يعلم به او يصافحه او يبتسم له بل أو يعبس له ... من ان يذكر اسمك آمامه ، من ان يسأل عنك..هل مات .. هل مات شنقا او تعذيبا او باطلاق الرصاص عليه، أو خنقا أو ضربا... بالمحاكمة أم بالاغتيال... هل دفن أم احرق ، هل دفن في الصحراء أم في المدينة ، في بلده أم في بلاد أخرى .. في مقابر اهل دينه ام في مقابر اصحاب الاديان الاخرى .. ان رؤيتك حينئذ أو لقاءك او معرفتك او ذكر اسمك او الحديث عنك باي آسلوب حتى ولو بالسب والاتهام لك والبراءة منك ستصبح مشكلة بل عقدة بل تعذيبا بل موتا واذلالا وارهابا لكل شعبك افرادا ومجتمعا .. بل ان اتهامهم بذلك ، افرادا او مجتمعا ، آو احتمال اتهامهم او الخوف من هذا الاتهام او التهديد بهذا الاتهام سيصبح احدى مشاكلهم ومخاوفهم واحزانهم وذنوبهم ومقاتلهم.. ان احتمال اتهامهم افرادا او مجتمعا بذلك سوف يتحول الى سلاح رهيب، رهيب يهددهم ويخيفهم ويذلهم به اي انسان ، بل آضعف واجبن انسان .. انهم حينئذ محتاجون جميعا حتى الكبار منهم جدا الى ان يركعوا لهذا المهدد المخيف المذل لهم بهذا السلاح ، ضارعين متوسلين اليه ان يكون بهم رفيقا رحيما،واعدين له بكل آلثمن وبأغلى الثمن وبكل الهوان والطاعة والاستسلام

لضغوطه واملاءاته وشروطه وتحت أقدامه لئلا يروي عنهم انهم يعرفونك أو يعرفون اسمك او يعرفون قراءة اسمك لو وجدوه مكتوبا باقلامهم .. ان محاولة البراءة حينئذ من هذا الاتهام أو من هذه الزندقة ستصبح حينئذ احد الفنون الصعبة او احدى القضايا الكبرى الاليمة اللئيمة .. ولعل محاولتهم البراءة من هذا الاتهام هو فنهم المثير او قضيتهم المتفردة التي تصنع فيهم ولهم الحماس والارتجاف اي حماس وارتجاف الخوف والتوبة والاعتذار والاستغفار .. انهم خامدون ، خامدون الا حينما يخافون او يتوبون أو يستغفرون او ينافقون ، او حينما يذكرون انهم يعرفونك اي ان كنت متهما بالصدق او بالذكاء او بالنظافة أو بالتفكير أو بالتحديق في الاشياء والاشتراط عليها .. حتى كتابة اسمك حينئذ حتى ولو في حساب الموتى ، أنها مغامرة كبرى ... هل يمكن ان تصدق ان احدا منهم قد يملك من جنون الشجاعة ما يجعله يجرؤ على ان يكتب اسمك بقلمهاو على اوراقه التي يكتب عليها كل انواع واسماء وجنسيات واوصاف واخلاق الحشرات واماكنها وقبائلها وعاداتها وتقاليدها وشهوآتها وكل ذنوبها وصغائرها واهتماماتها بل وهمومها وغرامياتها .. ما اشجع شعبي على التحليق والتحديق في حضيض الحشرات .

... ان شجاعة شعبي لتجد لك كل الغفران لو انك اغتصبت عفة الشمس بالاكراه أو بالخداع دون ان تجد لك اي غفران او احتمال غفران لو انك عرفت او صادقت انسانا قد بقي في جبهته بقية لم تأكلها الحشرات التي كل عملها ان تأكل كل الجباه من كل الوجوه .

نعم ، ان شعبي لشجاع جداً .. ان من اساليب شجاعته ان يبكي وان يركع ويموت ، خوفا من ان تلقاه او يلقاك أو ان تعرفه او يعرفك او ان يعرف قراءة اسمك او كتابته او النطق به او ان يعترف او يقتنع بانك موجود .. أي ان كنت متهما او لو كنت متهما بأي مستوى من الصدق او الفكر او الذكاء او الشجاعة او المساءلة او الرؤية او التحديق او الاشتراط الاخلاقي او العقلي او الانساني بل او من التدين الصادق والايمان الذكي... او ان كنت عاجزا عن ان تتحول الى مقبرة كئيبة يتجمع فيها كل ما في التاريخ الكئيب من اوثان وغباوات ومهانات واكاذيب ومن تحطيم وأذلال لكل ما في الانسان من احتمالات الطموح والشموخ والكبرياء الفكرية والاخلاقية والحضارية .. اواه .. كم يعادون الكبرياء الفكرية والاخلاقية والانسانية.. كم يقاومون ويرهبون ويدمرون كبرياء الضمير والرفض والاحتجاج فكيف العصيان؟..او ان كنت لا تملك جبهة جيدة واسعة تستطيع أن تكون ممرا او

مكانا جيدا، لتمر عليها أو تقيم فيها جميع احذية السلطان الموجود والسلاطين الذين كانوا موجودين والسلاطين الذين لا بد ان يجيئوا ليصبحوا موجودين وتصبح لهم أحذية تحتاج الى جباه جيدة واسعة لتقيم فيها وتمر فوقها .. ولكن هل يقبلون ان تكون لك او ان تبقى لك جبهة حتى ولو لتكون مكانا وممرا لكل الاحذية ؟ هل يقبلون اي وجه كان فيه يوما ما جبهة ؟ هل يتركـون الوجوه تنبت الجباه او تعيش فيها الجباه ؟

... ان وجوه شعبي مناخ لا تنبت فيه الجباه ولا العيون ولا الكبرياء ولا الغضب . ان وجوه شعبي صحراء أبدية لا ينبت فيها الانسان . ان وجوهه ليست وجوهـا . نعم ، ان شعبي لشجاع جدا وان من اعلى اساليب شجاعته جرأته التي حدود ولا مثيل لها على ان يحطم ويميت في نفسه وفي حياته وفي طموحه وامانيه وفي اشواقه ونياته كل احتمالات أن يكون صادقا او شجاعا او حرا او مفكرا او ناقدا او مبصرا او رافضا او غاضبا او ابيا او ذكيا او صاحب ضمير بل أو يكون متدينا او تقيا او مؤمنا باقتناع او برؤية او بمنطق او باخلاص أو باحترام لما يؤمن به أو لمن يؤمن به . ان شعبي المؤمن جدا لا يحارب او يخاف شيئا مثلما يحارب ويخاف الايمان الشجاع . انه لا يعادي الزندقة التي يزعم أنه لا يعادي سواها مثلما يعادي الايمان الشجاع ..

... اذن أين توجد شجاعة مثل شجاعة شعبي ؟ وهل يمكـن ان توجد ؟ .. ان شعبي الشجاع جدا ليحطم ويميت في نفسه وفي حياته وفي طموحه واشواقه وامانيه ونياته وتعبيراته كل هذه الاحتمالات بجرأة وبسالة لا حدود ولا نموذج لهما لانه يطيع ويخضع باسلوب وتقوى لا مثيل ولا نموذج لهما ، رهبة وضآلة وتقليدا لجبروت سلاطينه ولجبروت كهانه وتاريخه وقبوره ولجبروت تقاليده ونصوصه وآياته واشعاره ولقوة اخلاقه وخصائصه العقلية والنفسية والتاريخية والعرقية والنفسية والحضارية بل والدينية والانسانية .. آواه .. ما اشجع واقدر شعبي على ان يقتل كل معاني وتفاسير الانسان فيه .. اذن هل يوجد شعب شجاع جدا مثل شعبي؟، لتركع اذن كل شجاعات كل الشعوب تحت اقدام شجاعة شعبي .. وهل تتواضع شجاعة شعبي لتتقبل ان تركع تحت اقدامها كل شجاعات العالم وكل ما في العالم من هامات وقامات ؟ اذن هل يوجد انسان واحد لا يتمنى ان يكون مواطنا من مواطني شعبي ؟؟ هل جربت او الا تجرب ان تكون هذا المواطن المحظوظ السعيد مثلي لكي تجرب هذا الذي جربت من شعبي ؟.. لكي تجرب هذه الشجاعة التي جربتها في شعبي .. جربتها في شعبي

افرادا ومجتمعا . وانا الان اجربها في اقسى واعلى وأصدق مستوياتها . هل اتمنى لك ذلك ؟ . حتما انت تريد هذا التمني لك . وهل يحلق بك طموحك الى التأميل في أن يستجاب لك هذا التمني ؟

... ولكن هل انا بكل هذه القداسة والتقوى لكي اذهب آتمنى لك ان تكون مواطنا لي لتعيش الشجاعة التي يعيشها ويعيش فيها شعبي ، ولتعيش في مزاياها وحمايتها وفي كبريائها ؟ نعم وهل توجد كبرياء مثل كبرياء شجاعة شعبي ؟ وهل توجد كبرياء مثل كبرياء شعبي ، أو هل توجد شجاعة لها كل الكبرياء مثل شجاعة شعبي ؟ ...

* *

مسكينة هي اسرائيل لو انها علمت بشجاعة شعبي .. انها الان تعيش وتبقى وتطمئن الى انها سوف تظل تعيش وتبقى بل وتتحدى وتنتصر لانها لم تعلم بشجاعة شعبي ، بل لانها لم تعلم بوجود شعبي أو تسمع عن وجوده.

... اذن كم هي مسكينة حينما تعلم ان شعبي موجود،نعم.حينماتعلم ان شعبي كائن موجود ، وحينما تعلم ان ما رويت عن شجاعته هو اقل اساليب ومستويات شجاعته ، واني كنت عاجزا جدا في وصفي لشجاعة شعبي ... اجل ، وكأن شعبي الشجاع جدا لم يعلم ان اسرائيل موجودة وانها موجودة بالاساليب التي هي بها موجودة ، بكل انتصاراتها وبكل تفاسير ودلالات انتصاراتها التي لا بد أنها قد جعلت التاريخ يفكر في ان ينكر بأن مخلوقات كانت تسمى العرب هي احدى رعاياه أو احدى مخلوقاته.. ولكن هل يغضب او يشمئز التاريخ من شيء ؟ هل يغضب أو يشمئز من ان يكون له رعايا او اتباع او ابناء لهم شجاعة مثل شجاعة شعبي ؟ وهل يملك التاريخ شيئا من الغضب او الاشمئزاز ؟ ... وآلا لو ان شعبي الشجاع جدا علم بوجود اسرائيل فكيف يمكن أن نفسر او نفهم وجود اسرائيل وبقاءها ؟

كيف آذن حدثت هذه المعجزة ؟ كيف حدث ان اسرائيل لم تعلم بوجود شعبي وحدث ان شعبي لم يعلم بوجود اسرائيل ؟ كيف حدث هذا ؟

آذن كم هي مسكينة اسرائيل لان هذه المعجزة لن تدوم .. لن يدوم ان تظل اسرائيل تجهل وجود شعبي وان يظل شعبي يجهل وجود اسرائيل . أي قدر شرير أو طيب قد جعل شعبي وجعل اسرائيل لا يعلم احدهما بوجود الاخر حتى اليوم ؟ ولكن ايهما افضل او اعظم او اتقى : أن يعلم شعبي أولا بوجود اسرائيل ، ام ان تعلم اسرائيل اولا بوجود شعبي ؟

اذا علمت اسرائيل اولا بوجود شعبي الذي رويت اسلوبا واحداً من اساليب شجاعته فان اسرائيل لا بد ان تتخلص من وجودها باي اسلوب تراه اقل واخف تعذيبا واذلالا وتحقيرا لها . اما لو علم شعبي اولا اي بوجود اسرائيل فان اسلوب ازالتها سيكون اكثر قسوة وقهرا وتنكيلا بها ولها وعليها . ولكنه لا بد ان يكون اعظم واشهر تمجيدا لشعبي واعلانا عالميا وتاريخيا عنه ...

فاي الاسلوبين اذن افضل ، او ايهما يجب ان نختار ؟

هل نختار الانسانية والرحمة مع التواضع ام نختار المجد والدوي مع الكبرياء والقسوة ؟

لعل قسوة الخيار والاختيار بين هذا وهذا هي التي قد اعتقلت تصرفات شعبي وقبضت على يديه حتى اليوم بهذا الاسلوب الحزين الذليل ... الذي آذن لاسرائيل بأن توجد وتبقى وتتحول الى جبروت رهيب ..

وكم نرجو الا يكون هذا القبض والاعتقال لتصرفات وليدي شعبي ابديين .. كم نرجو الا تكون انسانية شعبي او رحمته ابدية ..

✶ ✶

ان شعبي معجزة في الشعوب ، معجزة في الطبيعة ، معجزة في جميع المقاييس والتفاسير واللغات .... ان من معجزات شعبي انه لا يتفاوت في تفاسيره او معانيه او في احجامه وابعاده ..

انه ابدا انسان واحد او شيء واحد او خليفة واحد او سلطان واحد .. انه طول واحد وحجم واحد وذكاء واحد ورأي واحد ورؤية واحدة وعقيدة واحدة وجبهة واحدة وصلاة واحدة ومعبد واحد.. انه لا يتفاوت في كبريائه الا بقدر ما يتفاوت في عبقرياته .. انه لا يتعدد في مواقفه ولا في مستوياته او انفعالاته او نظراته او في عبقرياته او في رؤاه .. انه لا يتعدد حتى ولا في آهاته او اناته بل ولا في عاهاته .. حتى عاهاته .. انها اسلوب واحد وحجم واحد وعدالة واحدة .

لهذا كان شعبي شجاعا جدا . لهذا لا يأذن بان يوجد فيه انسان واحد قد بقي في اخلاقه او في عقله او في عينيه ، او في ضميره او في لفته بقية من غضب او من تفكير او من رؤية او من شرف او من جهر او من احتجاج .

تصويبــــات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠١	٧	التحدث	اتحدث
١٠١	٧	انه حينما	انه حتما
١٠١	٩	عما في نفسه	عما في نفسك
١٠٦	١١	النقائض	النقائص
١٠٨	٥	معليمه	معلميه
١١٢	٣	انه مهما بدت	انه مهما عبدت
١٤٠		سطر أربعةوخمسة	زائدان
١٨٣	٢٨	يعطي	يعطى
١٨٤	١	يعطي	يعطى
١٨٤	٢	يعطي	يعطى
١٨٥	٢٣	التحير	التحقير
١٩٣	٢٠	لينقذوهم	لينقدوهم
١٩٣	٢١	لينقذوهم	لينقدوهم
١٩٣	٢٣	لانها	لانهم
١٩٩	١٢	يجب	يحب
٢١٥	٦	ليتشاركوا	ليتشاكوا
٢٢٣	١٩	ما يريد	أو يريد
٢٧٢	٢٣	سيؤدي فهمه	سيؤذي فهمه
٢٩١	٧	وزينة ألم	وزينه ألم
٢٩٤	٢٠	مشاهدة الفاجعة	مشاهده الفاجعة
٢٩٦	٧	وما يعذبه وما يشتتها	وما يعذبها ويشتمها
٢٩٧	٥	لقد تحولت	لو تحولت
٣٠٣	١١	على أخلاقها	عن أخلاقها
٣٤٣	١٨	مشروع للكذب	مشرع للكذب
٣٥٢	٢١	شمولها	شموسها
٣٥٩	٢٥	أولا	لولا
٣٧٢	٢٠	المهنية	آلمهينة
٣٧٣	١٠	من التفكير	من التكفير
٣٨٧	١٧	وبتفكير منطقهم	وبتكفير منطقهم
٣٩٠	٢٠	الى المؤمنين	أي المؤمنين
٤٠١	٢٢	المتشائمة	المتشاتمة
٤٠٤	٢٣	البديئة	البدنية
٤٠٧	١٤	الى الوراء	أي الوراء

فصـــول الكتـــاب